الجامع لأحكام القرآن

والمبيّن لما تضمّنه من السُّنَّة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي
(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد رضوان عرقسوسي ماهر حبوش

الجزء الرابع عشر

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم


الجامع لأحكام القرآن
والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت-لبنان
تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah PUBLISHERS
BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة طه

سورة طه مكيةٌ[1] في قول الجميع، نَزلت قبلَ إسلامِ عمر ﷺ. روى الدارقطنيُّ في «سننه»، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: خرَج عمر متقلِّداً السيفَ، فقيل له: إن خَتَنك وأختَك قد صَبُوَا[2]، فأتاهما عمر وعندهما رجُلٌ من المهاجرين يقال له: خَبّابٌ، وكانوا يقرؤون «طه»، فقال: أعطوني الكتابَ الذي عندكم فأقرأه ـ وكان عمرُ ﷺ يقرأ الكتبَ ـ فقالت له أختُه: إنك رِجْس، ولا يَمَسُّه إلا المطهَّرون، فَقُمْ فاغتسل، أو توضَّأ. فقام عمر ﷺ فتوضأ، ثم أخذ الكتابَ[3] فقرأ: «طه»[4].

وذكره ابن إسحاق مطوَّلاً: وأن عمر خرج متوشِّحاً سيفَه يريد رسولَ الله ﷺ وقَتْلَه، فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال: أين تريد يا عمرُ؟ قال: أُريدُ محمداً هذا الصابئ الذي فرَّق أمرَ قريش، وسفَّه أحلامَها، وعابَ دينَها، وسبَّ آلهتَها فأقتله. فقال له نُعيم: واللهِ، لقد غرَّتك نفسُك من نفسك يا عمر، أترى بَني عبد مَناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمداً؟! أفلا ترجعُ إلى أهلك[5] فتُقيمَ أمرَهم؟!. فقال: وأيّ أهل بيتي؟. قال: خَتَنُك وابنُ عمِّك سعيد بن زيد، وأختُك

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٦، وزاد المسير ٥/٢٦٨.

(٢) صبأ، كمنَعَ وكَرُمَ: خرج من دين إلى دين آخر. القاموس المحيط (صبأ).

(٣) في (د) و(م): وتوضأ وأخذ الكتاب، وفي (ظ): فتوضأ واغتسل ثم أخذ الكتاب، والمثبت من (خ) و(ز)، وهو الموافق لسنن الدارقطني.

(٤) سنن الدارقطني (٤٤١)، وقد تفرَّد براويته القاسم بن عثمان، وسيرد الكلام عليه في الرواية المطولة الآتية.

(٥) في السيرة النبوية: أهل بيتك.

فاطمة بنت الخطّاب، فقد واللهِ أسلَما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. قال: فرجَع عمر عامداً إلى أخته وخَتَنِه، وعندهما خبَّاب بنُ الأَرَتّ معه صحيفةٌ فيها «طه» يُقرِئهما إياها، فلما سمعوا حِسَّ عمر تغيَّب خَبَّابٌ في مَخدَعٍ لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنتُ الخطاب الصحيفةَ فجعلتها تحت فخِذِها، وقد سمعَ عمرُ حين دنا إلى البيت قراءةَ خبَّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمةُ[1] التي سمعتُ؟ قالا له: ما سمعتَ شيئاً. قال: بلى، واللهِ لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختَنه سعيد بنِ زيد، فقامت إليه أُخته فاطمةُ بنت الخطاب لِتَكُفَّه عن زوجها، فضربها فشجَّها. فلما فعل ذلك قالت له أخته وختَنُه: نعم، قد أسلمنا وآمنَّا بالله ورسوله، فاصنَعْ ما بدا لك. ولما رأى عمر ما بأخته من الدم نَدِمَ على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أَعطيني هذه الصحيفةَ التي سمعتُكم تقرؤونها آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمدٌ ـ وكان عمر كاتباً ـ فلما قال ذلك قالت له أخته: إنَّا نخشاك عليها. قال لها: لا تخافي. وحلَف لها بآلهته لَيردَّنَّها إذا قرأها، فلما قال ذلك طَمِعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نَجِسٌ على شِركك، وإنه لا يَمَسُّها إلا الطاهر. فقام عمر فاغتسَل، فأعطته الصحيفةَ وفيها «طه»، فقرأها، فلمَّا قرأ منها صدراً قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه! فلما سمع ذلك خَبَّابٌ خرَج إليه، فقال له: يا عمر، واللهِ إني لَأرجو أن يكون اللهُ قد خصَّك بدعوة نبيِّه، فإني سمعتُه أمسِ وهو يقول: «اللهم أيِّدِ الإسلامَ بأبي الحَكَم بنِ هشام، أو بعمرَ بنِ الخطاب». فاللهَ اللهَ يا عمر. فقال له عند ذلك: فدُلَّني يا خبَّاب على محمدٍ حتى آتيَه فأُسلم؛ وذكر الحديث[2].

---

(١) أي: الصوت الخفي. القاموس (هنم).

(٢) السيرة النبوية ١/٣٤٣ - ٣٤٥، وأخرج الخبر بطوله ابن سعد في الطبقات ٣/٢٦٧ - ٢٦٨، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٢١٩. وفي إسناده القاسم بن عثمان البصري، قال البخاري: له أحاديث لا يتابع عليها، وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٧٥: حدّث عنه إسحاق الأزرق بمتن محفوظ وبقصة إسلام عمر، وهي منكرة جداً. اهـ. وقوله: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب» أخرجه بنحوه أحمد (٥٦٩٦)، والترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرج أحمد (٤٣٦٢) ضمن حديث لابن مسعود يذكر فيه فضائل عمر رضي الله عنهما قوله ﷺ: «اللهم أيِّد الإسلام بعمر».

مسألة: أسند الدارميُّ أبو محمد في «مسنده» عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلُقَ السماواتِ والأرضَ بألفَي عام، فلمَّا سمعت الملائكةُ القرآنَ قالت: طُوبى لأمةٍ ينزِلُ هذا عليها، وطوبى لأجوافٍ تحملُ هذا، وطوبى لألسنةٍ تتكلَّمُ بهذا»(١).

قال ابن فُورَك(٢) معنى قوله: «إن الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و«يس»، أي: أظهَرَ وأسمَعَ وأفهمَ كلامَه مَن أراد مِن خلقه مِن الملائكة في ذلك الوقت، والعربُ تقول: قرأتُ الشيءَ: إذا تتبَّعته، وتقول: ما قرأتْ هذه الناقةُ في رَحِمها سَلًى(٣) قطُّ، أي: ما ظهرَ فيها ولدٌ. فعلى هذا يكون الكلام سائغاً، وقراءته: إسماعُه وإفهامه بعباراتٍ يَخلقها وكتابةٍ يُحدثها، وهي معنى قولِنا: قرأنا كلامَ الله، ومعنى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

ومن أصحابنا من قال: معنى قوله: «قرأ» أي: تكلَّم به، وذلك مجازٌ كقولهم: ذُقتُ هذا الأمرَ(٤) ذواقاً بمعنى اختبرته. ومنه قوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] أي: ابتلاهم اللهُ تعالى به، فسمَّى ذلك ذوقاً، والخوف لا يُذاق على الحقيقة؛ لأن الذَّوقَ في الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح.

قال ابن فُورَك: وما قلناه أولاً أصحُّ في تأويل هذا الخبر؛ لأن كلامَ الله تعالى أَزَليٌّ قديمٌ سابقٌ لجملةِ الحوادث، وإنما أسمعَ وأفهمَ مَن أراد من خلقه على ما أراد

---

(١) مسند الدارمي (٣٤١٤). وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء الكبير ١/٦٦ ، وابن عدي في الكامل ١/٢١٨ ، وابن حبان في المجروحين ١/١٠٨ . وفي إسناده إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن عدي: لم أجد له حديثاً أنكر من حديث: قرأ: «طه» و«يس». وقال ابن حبان: وهذا متن موضوع.

(٢) في مشكل الحديث ص٢٨٩ - ٢٩٠ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) السَّلَى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، وقيل: هو في الماشية السَّلَى، وفي الناس المشيمة. النهاية (سلي).

(٤) في (د) و(م): القول: والمثبت من (خ) و(ز)، وهو الموافق لمشكل الحديث لابن فورك.

في الأوقات والأزمنة، لا أن عينَ كلامِه يتعلَّق وجوده بمدةٍ وزمان.

قوله تعالى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿طه﴾ اختلف العلماء في معناه، فقال الصدِّيق رضي الله تعالى عنه: هو من الأسرار، ذكره الغزنويُّ. ابن عباس: معناه: يا رجل، ذكره البيهقيُّ[(١)]. وقيل: إنها لغةٌ معروفة في عُكْلٍ. وقيل: في عَكٍّ. قال الكلبيُّ: لو قلت في عَكّ لرجل: يا رجل، لم يُجب حتى تقول: طه[(٢)]. وأنشد الطبريُّ في ذلك فقال:

دعوتُ بطه في القتال فلم يُجِبْ ... فخفتُ عليه أن يكون مُوائِلا[(٣)]

ويروى: مُزايلا.

وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرو: يا حبيبي؛ بلغة عَكٍّ، ذكره الغزنوي. وقال قطرب: هو بلغة طيِّئ[(٤)]، وأنشد ليزيد بن المُهلهِل:

إنَّ السَّفاهةَ طَهَ من شمائلكم ... لا بارك اللهُ في القوم المَلاعِينِ[(٥)]

وكذلك قال الحسن: معنى «طه»: يا رجل. وقاله عكرمة[(٦)]، وقال: هو بالسُّريانية

---

(١) في دلائل النبوة ١/١٥٨ - ١٥٩ ، وفي إسناده محمد بن السائب الكلبي، وهو متهم بالكذب كما في تقريب التهذيب.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/١٥٩ بعد خبر ابن عباس رضي الله عنهما السالف.

(٣) نسبه الطبري ١٦/٨ لمتمم بن نُويرة، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٣٦ . والمُوائل: الطالب للنجاة. القاموس (وأل).

(٤) يعني: يا رجل. كما في النكت والعيون ٣/٣٩٣ .

(٥) النكت والعيون ٣/٣٩٢ ، وتفسير الطبري ١٦/٨ ، والمحرر الوجيز ٤/٣٦ .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١٦/٦ - ٧ .

كذلك[١]؛ ذكره المهدويُّ، وحكاه الماورديُّ عن ابن عباس أيضاً ومجاهد[٢]. وحكى الطبريُّ[٣]: أنه بالنَّبَطِيّة: يا رجل. وهذا قولُ السديِّ وسعيد بنِ جُبير وابن عباس أيضاً، قال:

إن السفاهة طه من خلائقكم لا قدَّس اللهُ أرواحَ الملاعينِ[٤]

وقال عكرمة أيضاً: هو كقولك: يا رجل؛ بلسان الحبشة[٥]؛ ذكره الثعلبيُّ.

والصحيح أنها وإن وُجدت في لغة أُخرى؛ فإنها من لغة العرب كما ذكرنا، وأنها لغةٌ يَمنيَّة في عَكٍّ وطَيِّئ وعُكْل أيضاً.

وقيل: هو اسمٌ من أسماء اللهِ تعالى، وقَسَمٌ أقسَم به. وهذا أيضاً مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما[٦]. وقيل: هو اسمٌ للنبيِّ ﷺ؛ سماه اللهُ تعالى به كما سمَّاه محمداً[٧]. ورويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «لي عندَ ربِّي عشرةُ أسماء»؛ فذكر أنَّ فيها طه ويس[٨]. وقيل: هو اسمٌ للسورة، ومِفتاحٌ لها. وقيل: إنه اختصارٌ من كلام الله خصَّ

---

(١) زاد المسير ٥/ ٢٦٩ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٩٢ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٦ .

(٣) في تفسيره ١٦/ ٥- ٦ .

(٤) نقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٢ ، وسلف قبله برواية أخرى.

(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٦٩ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣ . وأخرجه عنه الطبري ١٦/ ٧ ، ولم يرد أن (طه) اسم من أسماء الله تعالى في حديث صحيح يُستند إليه، ولا شك أن أسماء الله عز وجل توقيفية.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦ .

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٧٣ ، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٠) من طريق إسماعيل بن إبراهيم أبي يحيى التيمي عن سيف بن وهب عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي عند ربي عشرةَ أسماء». قال أبو الطفيل: قد حفظت منها ثمانية: محمد، وأحمد، وأبو القاسم، والفاتح، والخاتم، والماحي، والعاقب، والحاشر. قال أبو يحيى: وزعم سيف أن أبا جعفر الهاشمي قال له: إن الاسمين الباقيين: يس وطه. وسيف هالك فيما نقله ابن عدي عن يحيى بن سعيد القطان. ويُغني عنه حديث جبير بن مطعم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» أخرجه البخاري ومسلم وسلف ١٠/ ٤٥١ .

اللهُ تعالى رسولَه بعلمه.

وقيل: إنها حروف مُقطَّعة، يدل كلُّ حرفٍ منها على معنى[١]. واختلف في ذلك، فقيل: الطاء شجرة طُوبى، والهاء النار الهاوية، والعرب تُعبِّر عن الشيء كلِّه ببعضه؛ كأنه أقسمَ بالجنة والنار. وقال سعيد بن جُبير: الطاء افتتاح اسمِه طاهر وطيِّب، والهاء افتتاح اسمه هادي. وقيل: «طاء» يا طامع الشفاعة للأُمة، «هاء» يا هادي الخَلْق إلى الله. وقيل: الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية؛ كأنه يقول لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: يا طاهراً من الذنوب، يا هاديَ الخلقِ إلى علَّام الغيوب.

وقيل: الطاء طُبول الغُزاة، والهاءُ هَيبتُهم في قلوب الكافرين، بيانُه قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] وقوله: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[٢] [الأحزاب: ٢٦].

وقيل: الطاء طربُ أهل الجنة في الجنة، والهاء هَوانُ أهلِ النار في النار[٣].

وقول سادس: إن معنى «طه» طوبى لمن اهتدى، قاله مجاهد ومحمدُ بن الحنفية[٤]. وقولٌ سابع: إن معنى «طه» طَإِ الأرضَ؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَتحمَّلُ مشقةَ الصلاة حتى كادت قدماه تَتورَّم[٥]، ويحتاجُ إلى الترويح بين قدميه، فقيل له: طَإِ الأرضَ؛ أي: لا تَتعب حتى تحتاجَ إلى الترويح، حكاه ابنُ الأنباري[٦].

وذكر القاضي عياض في «الشفاء» أن الربيع بن أنس قال: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣.

(٢) ذكر هذه الأقوال الرازي في تفسيره ٢٢/ ٣، وليس فيها ولا في ما سيذكره المصنف بعدها في معناها ما يصحّ. وقال الرازي: إن أمثال هذه الأقوال لا يجب أن يعتمد عليها.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٦، وزاد المسير ٥/ ٢٧٠.

(٤) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٣ لمحمد الباقر زين العابدين ﷺ.

(٥) أخرج البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣.

قام على رِجْلٍ ورَفع الأُخرى، فأنزل الله تعالى: «طه»، يعني طَأِ الأرضَ يا محمد؛ ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[١].

الزمخشريُّ[٢]: وعن الحسن: «طَهْ»، وفُسِّر بأنه أمرٌ بالوطء، وأن النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجُّده على إحدى رجليه، فأُمِرَ أن يطأ الأرضَ بقدَميه معاً، وأن الأصل: طَأْ، فقلبت همزتُه هاءً أو قلبت[٣] [ألفاً] في «يطا» فيمن قال:

لا هَــنَــاكِ الــمــرتَــعُ[٤]

ثم بنى عليه هذا الأمر، والهاء للسكت.

وقال مجاهد: كان النبيُّ ﷺ وأصحابه يَربطون الحبالَ في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام، ثم نُسخ ذلك بالفرض، فنزلت هذه الآيةُ[٥].

وقال الكلبيُّ: لمَّا نزل على النبيِّ ﷺ الوحيُ بمكة اجتهد في العبادة، واشتدَّت عبادتُه، فجعل يصلِّي الليلَ كلَّه زماناً حتى نزلت هذه الآية، فأمره اللهُ تعالى أن يُخفِّف عن نفسه فيصلي وينام[٦]؛ فَنسَخَتْ هذه الآيةُ قيامَ الليل؛ فكان بعد هذه الآية يُصلِّي وينام.

وقال مقاتل والضحَّاك: فلما نزل القرآنُ على النبيِّ ﷺ قام هو وأصحابه فصلَّوا، فقال كفارُ قريش: ما أنزل اللهُ هذا القرآنَ على محمدٍ إلا ليشقى؛ فأنزل اللهُ تعالى:

---

(١) الشفا ١/١٠٧ وهو ضعيف لإرساله.

(٢) في الكشاف ٢/٥٢٨ .

(٣) في (خ) و(د): وقلبت، وفي (م): كما قلبت، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف)، وهو الموافق للكشاف، وما بين حاصرتين التالي منه. وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٨٧ .

(٤) هذا جزء من بيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/٤٠٨ ولفظه:

ومضَتْ لمسلمةَ الرِّكاب مُوَدَّعاً ... فارعَيْ فزارةَ لا هَناكِ المرتع

وسلف عجزه ١١/٢٧٣ .

(٥) تفسير مجاهد ١/٣٩٣ .

(٦) تفسير البغوي ٣/٢١١ .

«طه» يقول: يا رجل، ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[١] أي: لتتعب، على ما يأتي. وعلى هذا القول: إن معنى[٢] «طه»: [طَأْها، أي:][٣] طأِ الأرض، وتكون الهاء والألف ضميرَ الأرض، أي: طَأِ الأرضَ برجليك في صلاتك، وخُفِّفت الهمزة فصارت ألفاً ساكنة.

وقرأت طائفةٌ: «طَهْ»[٤]، وأصله: طَأْ، بمعنى: طَأِ الأرض، فحذفت الهمزة، وأدخلت هاء السكت[٥].

وقال زِرُّ بن حُبيش: قرأ رجلٌ على عبد الله بن مسعود: ﴿طه مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ فقال له عبدُ الله: «طِهِ» [بالكسر، قال:] فقال: يا أبا عبد الرحمن، أليس قد أُمِر أن يطأ الأرض برجِلِه[٦] ـ أو بقدميه؟ فقال: «طِهِ»، كذلك أقرأنيها رسولُ الله ﷺ[٧].

وأمال أبو عمرو وابن أبي إسحاق[٨] الهاءَ وفتَحا الطاء. وأمالهما جميعاً أبو بكر وحمزة والكسائيُّ والأعمش. وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين[٩]، واختاره أبو عُبيد. الباقون بالتفخيم. قال الثعلبي: وهي كلُّها لغاتٌ صحيحةٌ فصيحة.

النحاس[١٠]: لا وجهَ للإمالة عند أكثرِ أهل العربية لعلَّتين: إحداهما أنه ليس

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣١٣.
(٢) لفظة: معنى، من (ظ).
(٣) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ. وأثبتناها من الدر المصون ٨/ ٦.
(٤) قرأ بها الحسن، وسلفت قريباً.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦.
(٦) في (م): برجليه.
(٧) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٤، وما بين حاصرتين منه.
(٨) في (د) و(م): أبو إسحاق. بدل: ابن أبي إسحاق.
(٩) قرأ نافع في رواية ورش، وأبو عمرو: بفتح طا وإمالة ها، وعاصم في رواية شعبة، وحمزة والكسائي وخلف بإمالة طا وها معاً، والباقون من العشرة ـ ومنهم أبو جعفر ـ بفتحهما. السبعة ص٤١٦، والتيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٦٧.
(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٣١.

هاهنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة، والعِلَّة الأُخرى أن الطاء من الحروف الموانعِ للإمالة، فهاتان علتان بيِّنتان.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، وقُرئ: «مَا نُزِّلَ عَلَيكَ الْقُرْآنُ لِتَشْقَى»[(١)]. قال النحاس[(٢)]: بعضُ النحويين يقول: هذه لام النفي، وبعضهم يقول: لامُ الجحود. وقال أبو جعفر: وسمعتُ أبا الحسن بنَ كَيسان يقول [في مثلها]: إنها لام الخفض، والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء. والشقاء يُمَدّ ويُقْصَر، وهو من ذوات الواو.

وأصلُ الشقاء في اللغة العناء والتعب[(٣)]، أي: ما أنزلنا عليك القرآنَ لِتتعب. قال الشاعر:

ذُو العقلِ يَشقَى في النعيم بعقلِهِ وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ يَنْعَم[(٤)]

فمعنى لـ «تشقى»: لتتعب بفرط تأسُّفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسُّرِك على أن يؤمنوا، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف:٦] أي: ما عليك إلا أن تُبلِّغَ وتُذكِّر، ولم يُكتَب عليك أن يؤمنوا لا محالةَ بعد أن لم تُفرِّط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة.

ورُويَ أن أبا جهل ـ لَعَنه اللهُ تعالى ـ والنضرَ بنَ الحارث قالا للنبيِّ ﷺ: إنك شقيٌّ، لأنك تركتَ دينَ آبائِك[(٥)]؛ فأُريد ردُّ ذلك بأنَّ دينَ الإسلام وهذا القرآن هو السُّلَّم إلى نَيل كلِّ فوزٍ، والسببُ في دركِ كلِّ سعادة، وما فيه الكَفَرةُ هو الشقَّاوة بعينها.

---

(١) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٢٤ لطلحة.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢، وما سيرد بين حاصرتين منه. وأبو جعفر الآتي ذكره هو النحاس.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١١.

(٤) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ٢٥١.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣١٣ عن مقاتل، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٨ - ٥٢٩ والكلام الذي قبله وبعده منه.

وعلى الأقوال المتقدِّمة أنه عليه الصلاة والسلام صلَّى بالليل حتى اسمغدَّت[١] قدماه، فقال له جبريل: أَبقِ على نفسك، فإنَّ لها عليك حقًّا[٢]. أي: ما أنزلنا عليك القرآن لِتُنهِك نفسَك في العبادة، وتُذيقَها المشقَّة الفادحةَ، وما بُعثتَ إلا بالحنيفية السَّمحة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ قال أبو إسحاق الزجَّاجُ: هو بدلٌ من «تشقى»، أي: ما أنزلناه إلا تذكرةً. النحاس[٣]: وهذا وجهٌ بعيد. وأنكره أبو عليٍّ من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوبٌ على المصدر، أي: أنزلناه لِتُذكِّر به تذكرةً، أو على المفعول من أجله، أي: ما أنزلنا عليك القرآن لِتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة[٤]. وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخير، مجازه: ما أنزلنا عليك القرآنَ إلا تذكرةً لمن يخشى، ولئلَّا تشقى[٥].

﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر، أي: نزَّلناه تنزيلاً[٦]. وقيل: بدل من قوله: «تذكِرة»[٧]. وقرأ أبو حيوة الشاميُّ: «تنزِيلٌ» بالرفع على معنى: هذا تنزِيل[٨].

﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ أي: العاليةَ الرفيعةَ، وهي جمع العُليَا، كقوله:

---

(١) في (د) و(م): تورَّمت، وفي (ظ): ورمت، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف) وهو الموافق للكشاف، وكلاهما بمعنى، وهي بالعين المهملة، وبالغين المعجمة أيضاً. القاموس (سمعد).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٨: لم أره هكذا، وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة قالت: لما كانت ليلة النصف من شعبان ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه: فما زال يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح، وحتى اسمعدت قدماه.. الحديث. وليس فيه كلام جبريل. اهـ.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢، وعنه نقل المصنف قول الزجاج السالف.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٠، وينظر الدر المصون ٨/ ٨ - ٩.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٢٩.

(٨) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٩ دون نسبة، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٢٥ لابن أبي عبلة.

كُبْرى وصُغْرى، وكُبَر وصُغَر[١]. أخبر عن عَظَمته وجبروته وجلاله، ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ويجوز النصب على المدح[٢]. قال أبو إسحاق[٣]: ويجوز الخفض على البدل من «مَنْ»[٤]. وقال سعيدُ بن مَسْعدة[٥]: الرفع بمعنى: هو الرحمن. النحاس: يجوز الرفعُ بالابتداء[٦]، والخبر: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فلا يُوقَف على «استوى»[٧]. وعلى البدل من المُضمر في «خلق»[٨] فيجوز الوقفُ على «اسْتَوَى». وكذلك إذا كان خبر ابتداءٍ محذوف، ولا يُوقَف على «العُلَا».

وقد تقدَّم القولُ في معنى الاستواء في «الأعراف»[٩]. والذي ذهبَ إليه الشيخ أبو الحسن[١٠] وغيرُه أنه مستوٍ على عرشه بغير حَدٍّ ولا كَيْفٍ كما يكون استواءُ المخلوقين.

وقال ابن عباس: يريد: خلَق ما كان وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة وبعد القيامة.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ يريد ما تحت الصخرة التي لا يعلمُ ما تحتها إلا اللهُ تعالى. وقال محمدُ بن كعب: يعني الأرضَ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١١، وزاد المسير ٥/ ٢٧٠.

(٢) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) هو الزجَّاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٥٠.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧ لجناح بن حبيش.

(٥) هو الأخفش، وقوله في معاني القرآن ٢/ ٦٢٩.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢ - ٣٣ وقد نقل المصنف عنه قولي الزجاج والأخفش السالفين.

(٧) لم نقف على من ذكر أن قوله ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ هو الخبر. وقال السمين: والجملة من قوله: «على العرش استوى» خبر لقوله: «الرحمنُ».

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٧، قال أبو حيان في البحر ٦/ ٢٢٦: وأرى أن مثل هذا لا يجوز؛ لأن البدل يحلُّ محلَّ المبدل منه، و«الرحمن» لا يمكن أن يحلَّ محلَّ الضمير؛ لأن الضمير عائد على «مَن» الموصولة، و«خلق» صلة، والرابط هو الضمير، فلا يحلُّ محلَّه الظاهر لعدم الرابط.

(٩) ٩/ ٢٣٨ وما بعدها.

(١٠) هو الأشعري، وينظر رسالة أهل الثغر ص٢٣٣ - ٢٣٦.

السابعة[١]. ابن عباس: الأرضُ على نون، والنونُ على البحر، وإن طرفي النون رأسُه وذَنبُه يَلتقيان تحت العرش، والبحرُ على صخرة خضراءَ خُضرةُ السماء منها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ١٦]، والصخرةُ على قرن ثورٍ، والثورُ على الثَّرى، وما يعلم ما تحت الثَّرى إلا اللهُ تعالى[٢].

وقال وهب بن مُنَبِّه: على وجه الأرض سبعةُ أبحرٍ، والأَرَضون سبعٌ، بين كلِّ أَرَضين بحرٌ، فالبحر الأسفل مطبقٌ على شَفِير جهنم، ولولا عِظَمه وكثرةُ مائه وبرده لَأحرقَتْ جهنمُ كلَّ من عليها. قال: وجهنمُ على متن الريح، ومتنُ الريح على حجابٍ من الظُّلمة لا يعلم غلظه[٣] إلا اللهُ تعالى، وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى عِلمُ الخلائق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال ابن عباس: السّر ما حَدَّث به الإنسانُ غيرَه في خَفاء، وأخفى منه ما أضمر في نفسه مما لم يُحدِّث به غيرَه. وعنه أيضاً: السِّرُّ حديثُ نفسك، وأخفى من السِّرِّ ما سَتُحدِّث به نفسك مما لم يكن وهو كائن، أنت تعلم ما تُسِرُّ به نفسُك اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ به غداً، والله يعلم ما أسررتَ اليومَ وما تسرُّ غداً؛ والمعنى: اللهُ يعلم السِّرَّ وأخفى من السِّرّ.

وقال ابنُ عباس أيضاً: «السرُّ»: ما أسرَّ ابنُ آدم في نفسه، «وَأَخْفَى»: ما خَفِيَ على ابن آدم مما هو فاعلُه وهو لا يعلمه، فالله تعالى يعلم ذلك كلَّه، وعلمُه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علمٌ واحد، وجميعُ الخلائق في علمه كنفْسٍ واحدة. وقال قتادة وغيره: «السِّرُّ»: ما أضمره الإنسان في نفسه، و«أخفى» منه ما لم يكن ولا أضمره أحدٌ.

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٥/ ٢٧٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٢ ، وأخرجه ابن مردويه كما في روح المعاني ٢١/ ٨٨ . قال الآلوسي: الأقوى عندي وضع هذه الأخبار. وأورده بنحوه ابن القيم في المنار المنيف ١/ ٧٨ وقال: والعجب مِنْ مُسَوِّد كتبِه بهذه الهذيانات!

(٣) في (د) و(م): عظمه.

وقال ابن زيد: «السِّرُّ»: سرُّ الخلائق، «وأخفى» منه سِرُّه عزَّ وجلَّ، وأنكر ذلك الطبريُّ[١]، وقال: إن الذي هو[٢] «أخفى» ما ليس في سِرِّ الإنسان وسيكون في نفسه، كما قال ابنُ عباس.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ «الله» رفع بالابتداء، أو على إضمار مبتدأ، أو على البدل من الضمير في «يعلم»[٣].

وَحَّدَ نفْسَه سبحانه؛ وذلك أن رسولَ الله ﷺ دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحدَه لا شريكَ له، فكَبُر ذلك عليهم، فلمَّا سمعه أبو جهل يذكر الرحمنَ، قال للوليد ابن المغيرة: محمدٌ ينهانا أن ندعوَ مع الله إلهاً آخرَ وهو يدعو اللهَ والرحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، وأنزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٤] [الإسراء: ١١٠]، وهو واحدٌ وأسماؤه كثيرةٌ. ثم قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. وقد تقدَّم التنبيهُ عليها في سورة الأعراف[٥].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ قال أهل المعاني: هو استفهامُ إثباتٍ

---

(١) في تفسيره ١٦/ ١٣ - ١٧، وفيه الأخبار السابقة. وينظر النكت والعيون ٣/ ٣٩٤.

(٢) لفظ: هو، ليس في (د) و(م).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٤٢، وليس فيه ذكر قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

(٥) ٩/ ٣٩١ وما بعدها.

وإيجاب، معناه: أليس قد أتاك؟ وقيل: معناه: وقد أتاك، قاله ابن عباس[١]. وقال الكلبيّ: لم يكن أتاه حديثه بعدُ، ثم أخبره[٢].

﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ قال ابن عباس وغيره: هذا حين قضى الأجلَ وسار بأهله وهو مُقبلٌ من مدين يريد مصرَ، وكان قد أخطأ الطريقَ، وكان موسى عليه السلام رجلاً غيوراً، يصحبُ الناسَ بالليل ويُفارقهم بالنهار غَيْرةً منه، لئلّا يَرَوا امرأتَه، فأخطأ الرُّفقةَ ـ لِما سبَق في علم الله تعالى ـ وكانت ليلةً مظلمة[٣]. وقال مقاتل: وكانت ليلةَ الجمعة في الشتاء[٤].

وهب بن مُنَبِّه: استأذن موسى شعيباً في الرجوع إلى والدته، فأَذِنَ له، فخرج بأهله بغنمه، وولد له في الطريق غلامٌ في ليلة شاتيةٍ باردةٍ مثلجةٍ، وقد حاد عن الطريق وتفرَّقت ماشيته، فقدح موسى النار، فلم تورِ المِقْدَحة شيئاً، إذ بَصُرَ بنار من بعيد على يسار الطريق ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا بمكانكم[٥] ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت[٦]. قال ابن عباس: فلما توجَّه نحوَ النارِ؛ فإذا النار في شجرة عُنَّابٍ، فوقف متعجِّباً من حُسن ضوء تلك النار[٧]، وشدةِ خُضرة تلك الشجرة، فلا شدةُ حرِّ النار تُغيِّر حسنَ خُضرة الشجرة، ولا كثرةُ ماء الشجرة ولا نعمةُ الخُضرة تُغيِّران حسنَ ضوءِ النار[٨].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠١ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧١ .

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٩ بنحوه، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠١ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٩٥ .

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٧٢ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٩ بنحوه.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٧ .

(٧) في (خ) و(ز) و(ف): من حسن ضوء ذلك النار، وفي (د) و(م): من حسن ذلك الضوء، والمثبت من (ظ).

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٢ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٥ - ١٦ .

وذكر المهدويُّ: فرأى النار ـ فيما رُوي ـ وهي في شجرةٍ من العُلَّيق، فقصَدها فتأخَّرت عنه، فرجَع وأوجَس في نفسه خِيفةً، ثم دنَتْ منه، وكلَّمه الله عزَّ وجلَّ من الشجرة[١]. الماورديُّ[٢]: كانت عند موسى ناراً، وكانت عند الله تعالى نوراً.

وقرأ حمزة: «لِأَهْلِهُ امْكُثُوا» بضم الهاء[٣]، وكذا في «القصص»[٤]. قال النحاس[٥]: وهذا على لغة من قال: مررت بِهُ يا رجل، فجاء به على الأصل، وهو جائزٌ؛ إلا أن حمزةَ خالفَ أصلَه في هذين الموضعين خاصة.

وقال: «امكثوا» ولم يقل: أقيموا؛ لأنَّ الإقامة تقتضي الدوام، والمُكْثَ ليس كذلك[٦].

«وآنستُ»: أبصرتُ، قاله ابن الأعرابي. ومنه قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء:٦] أي: عَلِمتم[٧]. وآنستُ الصوتَ: سمعتُه[٨]، والقَبَس: شُعلةٌ من نار، وكذلك المِقباس. يقال: قَبَستُ منه ناراً أقبِس قَبْساً فأقبسني، أي: أعطاني منه قَبَساً، وكذلك اقتبست منه ناراً، واقتبستُ منه علماً أيضاً، أي: استفدته، قال اليزيدي: أَقبستُ الرجل علماً وقَبَستُه ناراً؛ فإن كنتَ طلبتَها له قلت: أقبستُه. وقال الكسائي: أقبستُه ناراً أو علماً سواء. وقال: وقبسته أيضاً فيهما[٩]. «هُدًى» أي: هادياً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني النار ﴿نُودِىَ﴾ أي: من الشجرة، كما في سورة

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٢ عن وهب بن منبه.
(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٩٥ .
(٣) السبعة ص٤١٧ ، والتيسير ص١٥٠ .
(٤) الآية (٢٩).
(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣ .
(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٥ .
(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٧ .
(٨) الصحاح (أنس).
(٩) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٨/ ٤١٩ .

القصص[١] أي: من جهتها وناحيتها على ما يأتي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ **فيه خمس مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ﴾ روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان على موسى يومَ كلَّمه ربُّه كساءُ صوفٍ، وجُبّةُ صوفٍ، وكُمَّة صوف، وسراويلُ صوف، وكانت نَعْلاه من جلد حمارٍ ميت» قال: هذا حديثٌ غريب لا نعرفه إلا من حديث حُميدٍ الأعرج [وحُميد هو ابنُ عليٍّ الكوفي] منكر الحديث، وحُميد بن قيس الأعرج المكي صاحبُ مجاهد ثقة، والكُمَّةُ: القَلَنْسُوة الصغيرة[٢].

وقرأ العامة: «إني» بالكسر؛ أي: نودي فقيل له: يا موسى إني، واختاره أبو عُبيد. وقرأ أبو عمرو وابن كثير[٣] وابن محيصن وحُميد: «أَنِّي» بفتح الألف؛ بإعمال النداء.

واختلف العلماءُ في السبب الذي من أجله أُمِر بخلع النعلين ـ والخلع: النَّزْعُ، والنَّعل: ما جعلتَه وقاية لقدميك من الأرض ـ:

فقيل: أُمِر بطرح النعلين لأنها نَجِسة؛ إذ هي من جلدٍ غير مُذَكّى؛ قاله كعب وعِكرمة وقتادة.

وقيل: أُمر بذلك لِينال بركةَ الوادي المقدَّس، وتمسَّ قدماه تربةَ الوادي؛ قاله عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وابن جُريج[٤].

وقيل: أُمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى. وكذلك فعلَ السلفُ حين طافوا بالبيت[٥].

---

(١) الآية (٣٠).

(٢) سنن الترمذي (١٧٣٤)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) السبعة ص٤١٧، والتيسير ص١٥٠، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٩٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٩٦.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٣١.

وقيل: إعظاماً لذلك الموضع؛ كما أن الحرَمَ لا يُدْخَلُ بنعلين إعظاماً له[١]. قال سعيد بن جُبير: قيل له: طَأِ الأرضَ حافياً كما تدخل الكعبة حافياً[٢].

والعُرف عند الملوك أن تُخلعَ النِّعال، ويبلغَ الإنسانُ إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أُمر بذلك على هذا الوجه، ولا يُبَالَى[٣] كانت نَعْلاه من ميتة أو غيرها. وقد كان مالكٌ لا يرى لنفسه ركوبَ دابَّةٍ بالمدينة بِرًّا بتربتها المحتوية على الأَعْظُم الشريفة، والجُثَّة الكريمة[٤].

ومن هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام لبشير ابن الخَصَاصِيَة وهو يمشي بين القبور بنعليه: «إذا كنتَ في مثل هذا المكان فاخْلَعْ نعليك». قال: فخلعتُهما[٥].

وقول خامس: إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد. وقد يعبَّر عن الأهل بالنعل. وكذلك هو في التعبير: من رأى أنه لابسٌ نعلين، فإنه يتزوَّج[٦].

وقيل: لأن الله تعالى بسطَ له بساطَ النور والهُدى، ولا ينبغي أن يطأ على بساط ربِّ العالمين بنعله[٧]. وقد يَحتمِلُ أن يكون موسى أُمِر بخلع نعليه، وكان ذلك أوّلَ فرض عليه، كما كان أوّل ما قيل لمحمد ﷺ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[٨] [المدثر: ٢-٥]، والله أعلم بالمراد من ذلك.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩ .

(٣) في (ز) و(م): ولا تبالي، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٩ (والكلام منه): ولا نبالي.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٤ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٧٨ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٠٧٨٧)، وأبو داود (٣٢٣٠)، والنسائي ٤/ ٩٦ .

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧ .

(٧) لطائف الإشارات ٢/ ٤٤٨ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٥ .

الثانية: في الخبر أنّ موسى عليه السلام خلَع نعليه وألقاهما من وراء الوادي[(١)]. وقال أبو الأحوص: زار عبدُ الله أبا موسى في داره، فأقيمت الصلاة[(٢)]، فقال أبو موسى لعبد الله: تقدَّم. فقال عبد الله: تقدَّم، أنت في دارك. فتقدَّم وخلع نعليه، فقال عبد الله: أبالوادي المقدَّس أنت؟![(٣)].

وفي «صحيح» مسلم: عن سعيد بن يزيد قال: قلت لأنسٍ: أكان رسولُ الله ﷺ يصلِّي في نعلين؟ قال: نعم[(٤)]. ورواه النَّسائيُّ[(٥)] عن عبد الله بن السَّائب: أن النبيَّ ﷺ صلَّى يومَ الفتح، فوضَع نعلَيه عن يساره.

وروى أبو داود[(٦)] من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ قال: بينما رسولُ الله ﷺ يُصلِّي بأصحابه، إذ خلَع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلمَّا رأى ذلك القومُ خلعوا[(٧)] نعالَهم، فلمَّا قضَى رسولُ الله ﷺ صلاتَه قال: «مَن حَمَلَكم على إلقائكم نعالَكم؟» قالوا: رأيناك ألقيتَ نعليك فألقينا نعالَنا. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قَذَراً». وقال: «إذا جاءكم أحدُكم المسجدَ فَلْينظر، فإن رأى في نعليه قذراً أو أذًى فليمسحه وَلْيُصلِّ فيهما». صحَّحه أبو محمد عبد الحق[(٨)]. وهو يجمع بين الحديثين قبلَه، ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء على جواز

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٣١ .

(٢) بعدها في (د) و(م): فأقام أبو موسى.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٠٧)، وابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ ، وأخرجه من طريق آخر عن ابن مسعود ﷺ أحمد (٤٣٩٧)، وفيه قول ابن مسعود بعد ذلك: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي في الخفين والنعلين.

(٤) صحيح مسلم (٥٥٥)، وأخرجه أحمد (١١٩٧٦)، والبخاري (٣٨٦).

(٥) في المجتبى ٢/ ٧٤ ، وفي الكبرى (٨٥٤)، وهو عند أحمد (١٥٣٩٢)، وأبي داود (٦٤٨).

(٦) في سننه (٦٥٠)، وأخرجه أحمد (١١١٥٣) بنحوه.

(٧) في (م) وسنن أبي داود: ألقوا.

(٨) في الأحكام الشرعية الصغرى ١/ ١٩٦ .

الصلاة في النعال[١] إذا كانت طاهرةً من ذَكيّ[٢]، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاةَ فيهما أفضلُ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ على ما تقدّم[٣]. وقال إبراهيم النَّخَعي في الذين يَخلعون نعالَهم: لَوَدِدْتُ أن مُحتاجاً جاء فأخذها[٤].

الثالثة: فإنْ خلعتَهما فاخْلَعهما بين رجليك، فإن أبا هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا صلَّى أحدُكم فَلْيجعل[٥] نعليه بين رجليه»[٦]. وقال أبو هريرة للمقبري: اخلعهما بين رجليك، ولا تُؤذِ بهما مسلماً[٧].

وما رواه عبدُ الله بن السائب ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره[٨]. فإنه كان إماماً، فإن كنتَ إماماً أو وحدَك؛ فافعل ذلك إنْ أحببت، وإن كنتَ مأموماً في الصف فلا تُؤذِ بهما مَن على يسارِك، ولا تضَعْهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قُدَّامَ قدميك.

وروي عن جُبير بن مُطْعِم أنه قال: وضعُ الرَّجلِ نعليه بين قدميه بدعةٌ[٩].

الرابعة: فإن تحقَّق فيهما نجاسةٌ مُجمَع على تنجيسها؛ كالدم والعَذِرة من بول بني آدم؛ لم يُطهِّرها إلا الغَسل بالماء عند مالك والشافعي وأكثرِ العلماء، وإن كانت النجاسة مُختَلَفاً فيها؛ كبول الدوابّ وأرواثها الرطبة؛ فهل يُطهِّرها المَسْحُ بالتراب من

---

(١) في (م): النعل.

(٢) المفهم ٢/ ١٦١ .

(٣) ٩/ ١٩٣ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤١٦ .

(٥) في (د) و(م): فَلْيخلع.

(٦) أخرجه ابن شيبة ٢/ ٤١٨ ، وأخرجه أبو داود (٦٥٥) بنحوه.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ .

(٨) سلف في المسألة السابقة.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ عن نافع بن جبير بن مطعم.

النعل والخُفّ أوْ لا؟ قولان عندنا. وأطلقَ الإجزاء بمسح ذلك بالتراب مِن غير تفصيل الأوزاعيُّ وأبو ثور. وقال أبو حنيفة: يُزيله إذا يبس الحكُّ والفركُ، ولا يُزيل رطبَه إلا الغسل؛ ما عدا البول، فلا يُجزئ عنده فيه إلا الغَسْل. وقال الشافعيُّ: لا يطهِّر شيئاً من ذلك كلِّه إلا الماء. والصحيح قول مَن قال: بأن المسحَ يُطَهِّره من الخفّ والنعل؛ لحديث أبي سعيد[١]. فأمَّا لو كانت النعل والخُفّ من جلد ميتة فإن كان غيرَ مدبوغ فهو نَجِسٌ باتفاق[٢]، ما عدا ما ذهب إليه الزُّهريُّ والليث، على ما تقدَّم بيانُه في سورة النحل[٣]. ومضى في سورة براءة القولُ في إزالة النجاسة، والحمد لله[٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المقدَّس: المطهَّر. والقُدْس: الطهارة، والأرض المقدَّسة، أي: المطهَّرة[٥]؛ سُمِّيت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعَمَرها بالمؤمنين[٦]. وقد جعل اللهُ تعالى لبعض الأماكن زيادةَ فضلٍ على بعض، كما قد جعل لبعض الأزمان زيادةَ فضلٍ على بعض، ولبعض الحيوان كذلك. ولله أن يُفَضِّل ما شاء. وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدَّساً بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين، فقد شاركه في ذلك غيرُه.

و«طُوًى»: اسم الوادي؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٧]. وقال الضحاك: هو وادٍ عميقٌ مستدير مثل الطَوِيِّ[٨].

---

(١) سلف في المسألة الثانية.

(٢) إكمال المعلم ٢/٤٨٨، والمفهم ٢/١٦١ - ١٦٢.

(٣) ١٢/٣٩٨، ومذهب الزهري والليث جواز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ. فيما ذكره المصنف ثمة.

(٤) ١٠/٣٨٢ وما بعدها.

(٥) الصحاح (قدس).

(٦) فضائل القدس لابن الجوزي ص٦٧.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/٢٨ عنهما.

(٨) تفسير البغوي ٣/٢١٣، والطَّوِيّ: البئر المطويَّة بالحجارة. اللسان (طوى).

وقرأ عِكْرمة: «طِوًى»[١]. الباقون: «طُوًى»[٢]. قال الجوهري: و«طُوى» اسم موضع بالشام، تُكسر طاؤه وتُضَمّ، ويصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسمَ وادٍ ومكان وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله [اسم] بلدة وبقعة وجعله معرفةً. وقال بعضهم: «طُوًى» مثل «طِوًى»، وهو الشيء المَثْنيُّ، وقالوا في قوله: «الْمُقَدَّسِ طُوًى»: طُويَ مرتين، أي: قُدِّس. وقال الحسن: ثُنِيَتْ فيه البركة والتقديس مرَّتين[٣].

وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قيل له: «طُوى» لأنَّ موسى طواه بالليل إذ مرَّ به، فارتفع إلى أعلى الوادي، فهو مصدرٌ عمل فيه ما ليس من لفظه، فكأنه قال: «إنك بِالوادِ المقدسِ» الذي طويتَه طُوًى، أي: تجاوزتَه فطويتَه بسيرك[٤]. الحسنُ: معناه: أنه قُدِّسَ مرتين[٥]، فهو مصدر من طويته طُوًى أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتُك للرسالة. وقرأ أهلُ المدينة وأبو عمرو وعاصمٌ والكسائيُّ: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ». وقرأ حمزة: «وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ»[٦]، والمعنى واحد، إلا أنَّ «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ» هاهنا أولى من جهتين: إحداهما: أنها أشبهُ بالخط، والثانية: أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، وعلى هذا النَّسق جَرَت المُخاطبةُ، قاله النحاس[٧].

---

(١) نسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٣١ للحسن والأعمش وأبي حيوة وابن أبي إسحاق وأبي السمّال وابن محيصن.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «طُوًى» بضم الطاء والتنوين، والباقون من السبعة بضمها من غير تنوين. السبعة ص٤١٧ ، والتيسير ص١٥٠ .

(٣) الصحاح (طوي)، وما بين حاصرتين منه.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧ ، وفيه قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤ .

(٦) قرأ الجميع: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ إلا حمزة، السبعة ص٤١٧ ، والتيسير ص١٥١ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤ .

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾

فيه مسألة واحدة: قال ابن عطية[١]: وحدثني أبي ـ رحمه الله ـ قال: سمعتُ أبا الفضل الجوهريَّ رحمه الله تعالى يقول: لمَّا قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه: «فاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» وقَف على حَجَر، واستند إلى حجر، ووضع يمينَه على شماله، وألقى ذَقَنَه على صدره، ووقف يستمع، وكان كلُّ لباسه صوفاً.

قلت: حُسنُ الاستماع كما يجب قد مَدَحَ الله عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:١٨]، وذمَّ على خلاف هذا الوصف، فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ [الإسراء:٤٧] الآية. فمدح المُنصِتَ لاستماع كلامِه مع حضور العقل، وأمرَ عبادَه بذلك أَدَباً لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقال هاهنا: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ لأن بذلك يُنال الفهم عن الله تعالى.

رُوي عن وَهْب بن مُنَبِّه أنه قال: مِن أدب الاستماع سكونُ الجوارح، وغَضُّ البصر، والإصغاءُ بالسمع، وحضورُ العقل، والعزمُ على العمل، وذلك هو الاستماع كما يُحبُّ الله تعالى، وهو أن يكفَّ العبدُ جوارحَه، ولا يَشغلها. فيشتغلَ قلبُه عما يسمع، ويغضَّ طرفَه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحضُر عقلَه فلا يُحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهمَ، فيعمل بما يفهم.

وقال سفيان بن عُيينَة: أوّل العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحِفظ، ثم العمل، ثم النَّشر[٢]؛ فإذا استمع العبدُ إلى كتاب اللهِ تعالى وسنةِ نبيِّه عليه الصلاة والسلام بنيةٍ صادقة على ما يحبُّ الله؛ أفهمَه كما يحبّ، وجعل له في قلبه نوراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾

فيه سبعُ مسائل:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩ .

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٧٦١).

الأولى: اختُلف في تأويل قوله: «لِذِكرِي»؛ فقيل: يَحتمِل أن يريدَ: لتذكُرني فيها، أو يريدُ: لأَذْكرك بالمدح في عِلِّيِّين بها، فالمصدر على هذا يَحتمل الإضافةَ إلى الفاعل وإلى المفعول[(١)].

وقيل: المعنى: أي: حافِظْ بعد التوحيد على الصلاة. وهذا تنبيهٌ على عظم قدر الصلاة؛ إذْ هي تضرُّعٌ إلى الله تعالى، وقيامٌ بين يديه، وعلى هذا فالصلاةُ هي الذِّكر. وقد سمَّى الله تعالى الصلاةَ ذِكراً في قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقيل: المرادُ: إذا نسيتَ فتذكَّرت فصلِّ، كما في الخبر «فَلْيصلِّها إذا ذَكَرها»[(٢)]. أي: لا تَسقط الصلاةُ بالنسيان.

الثانية: روى مالكٌ وغيره أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن نام عن صلاة أو نَسِيَها؛ فَلْيُصلِّها إذا ذَكَرها؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾»[(٣)].

وروى أبو محمد عبد الغني بن سعيد، من حديث حجَّاج بن حجَّاج ـ وهو حجَّاج الأحول[(٤)] الذي روى عنه يزيد بن زُرَيع ـ قال: حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك، قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن الرجل يَرْقُد عن الصلاة ويغفُل عنها؛ قال: «كفارتُها أن يُصلِّيَها إذا ذكَرها». تابعه إبراهيم بن طَهْمان عن حجَّاج، وكذا يروي همَّام بن يحيى عن قتادة[(٥)].

وروى الدارقطنيُّ[(٦)] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من نَسي صلاةً فَوَقتُها

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩.

(٢) سيأتي في المسالة التالية.

(٣) هو بنحوه عند مالك في الموطأ ١/ ١٣ - ١٤، عن سعيد بن المسيب مرسلاًضمن حديث، ووصله مسلم (٦٨٠) عن أبي هريرة ﷺ. وقد ساق المصنف لفظه من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٦.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): الأول، والمثبت من (خ). وهو حجاج بن حجاج الباهلي، البصري، الأحول، الحافظ. توفي سنة (١٣١هـ). السير ٦/ ١٥١.

(٥) أخرجه النسائي ٢/ ٥٩ وابن ماجه (٦٩٥) من طريق يزيد بن زريع عن حجاج، به. وأخرجه أحمد (١٣٨٤٨)، والبخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) من طريق همام بن يحيى عن قتادة، به.

(٦) في سُننه (١٥٦٥).

إذا ذكرها».

فقوله: «فليصلِّها إذا ذكرها» دليلٌ على وجوب القضاء على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قَلَّت، وهو مذهبُ عامَّة العلماء. وقد حُكي خلافٌ شاذٌّ ـ لا يُعتدُّ به؛ لأنه مخالفٌ لنصِّ الحديث ـ عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات: أنه لا يَلزمه قضاء[1].

قلت: أمَرَ اللهُ تعالى بإقامة الصلاة، وَنَصَّ على أوقاتٍ معيَّنة، فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية، وغيرها من الآي. ومن أقام بالليل ما أُمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس؛ لم يكن فِعْلُه مطابقاً لِما أُمِرَ به، ولا ثوابَ له على فِعْله، وهو عاصٍ؛ وعلى هذا الحدّ كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نامَ عن صلاة أو نَسِيَها فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرها» لم ينتفِعْ أحدٌ بصلاةٍ وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار كان قضاءً لا أداء؛ لأن القضاء بأمر مُتجدِّد وليس بالأمر الأول.

الثالثة: فأمَّا مَن ترك الصلاةَ متعمداً، فالجمهور أيضاً على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصياً، إلا داود. ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعي[2]، حكاه عنه ابن القصَّار. والفرق بين المُتعمِّد والناسي والنائم، حطُّ المَأْثَم، فالمُتعمِّد مأثومٌ، وجميعهم قاضون. والحُجَّة للجمهور قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، ولم يُفرِّق بين أن يكون في وقتها أو بعدها. وهو أمرٌ يقتضي الوجوب.

وأيضاً فقد ثبت الأمرُ بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير مُؤَثَّمَيْن[3]، فالعامدُ أولى. وأيضاً قوله: «من نام عن صلاة أو نسيها» والنِّسيان: الترك، قال الله تعالى:

---

(١) المفهم ٢/ ٣٠٩.

(٢) المفهم ٢/ ٣٠٩، وينظر إكمال المعلم ٢/ ٦٧٠.

(٣) في (خ) و(د) و(ف) و(م): مأثومين، والمثبت من (ظ) والمفهم ٢/ ٣٠٩ والكلام منه.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] و﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، سواء كان مع ذهول أو لم يكن؛ لأن اللهَ تعالى لا يَنْسى، وإنما معناه: تركهم وقال: ﴿مَا نَنْسَخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَاهَا﴾[1] [البقرة:١٠٦] أي: نتركها.

وكذلك الذِّكر يكون بعد نسيان وبعد غيره. قال الله تعالى: «مَن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي»[2]. وهو تعالى لا ينسى فيكون ذكره بعد نسيان، وإنما معناه: عَلِمتُ. فكذلك يكون معنى قوله: «إذا ذكرها» أي: عَلِمَها.

وأيضاً؛ فإن الديون التي للآدميين إذا كانت متعلِّقةً بوقت، ثم جاء الوقت لم يسقطْ قضاؤها بعد وجوبها، وهي مما يُسقِطُها الإبراءُ كان في ديون الله تعالى ألا يصحَّ فيها الإبراءُ أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذنٍ منه[3]. وأيضاً؛ فقد اتفقنا أنه لو ترك يوماً من رمضان متعمداً بغير عذر؛ لوجب قضاؤه، فكذلك الصلاة.

فإن قيل: فقد رُوي عن مالك: من ترك الصلاة متعمداً لا يقضي أبداً[4]. فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود، أو يكون كلاماً خرج على التغليظ، كما رُوي عن ابن مسعود وعليٍّ: أن مَن أفطر في رمضان عامداً لم يكفِّره صيام الدهر وإن صامه[5]. ومع هذا فلابدَّ من توفية التكليف حقَّه بإقامة القضاء مقامَ الأداء، وإتباعه بالتوبة، ويفعل اللهُ بعدَ ذلك ما يشاء.

وقد روى أبو المُطَوِّس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن

---

(١) هي قراءة شاذة، ذكرها أبو حيان في البحر ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٨٦٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٧٤٢٢)، والبخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عنه مطولاً بلفظ «يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...» اللفظ للبخاري.

(٣) المفهم ٢/ ٣١٠ بنحوه.

(٤) قال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٤٦ (والكلام منه): نسبوا ذلك إلى مالك، وحاشاه من ذلك.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ١٠٥ - ١٠٦ عنهما، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣٥) عن ابن مسعود ﷺ.

أفطر يوماً من رمضان مُتعمِّداً لم يجزِه صيامُ الدهر وإنْ صامه». وهذا يَحتمِلُ أن لو صحَّ كان معناه التغليظ، وهو حديثٌ ضعيفٌ خرجه أبو داود[١]. وقد جاءت الكفارة بأسانيد[٢] صحاح، وفي بعضها قضاءُ اليوم، والحمد للهِ تعالى.

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نامَ عن صلاة أو نَسِيَها» الحديث، يُخصص عمومَ قوله عليه الصلاة والسلام: «رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ»[٣] والمراد بالرفع هنا رفعُ المأثَمِ، لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: «وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ»[٤] وإن كان ذلك جاء في أثرٍ واحد، فَقِفْ على هذا الأصل[٥].

الخامسة: اختلف العلماءُ من[٦] هذا المعنى فيمن ذكَر صلاةً فائتةً وهو في آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاةً وهو في صلاة، فجملةُ مذهبِ مالك: أنَّ من ذكَر صلاةً وقد حضَر وقتُ صلاةٍ أُخرى، بدأ بالتي نَسِيَ إذا كان خمسَ صلواتٍ فأدنى، وإن فات وقتُ هذه. وإن كان أكثرَ من ذلك بدأ بالتي حضر وقتُها، وعلى نحو هذا مذهبُ أبي حنيفة والثوريِّ والليث، إلا أن أبا حنيفة وأصحابَه قالوا: الترتيبُ عندنا واجبٌ

---

(١) برقم (٢٣٩٦)، وأخرجه أحمد (٩٠١٤)، والترمذي (٧٢٣)، والنسائي في الكبرى (٣٢٦٥)، وعلّقه البخاري قبل الحديث (١٩٣٥) فقال: ويذكر عن أبي هريرة، رفعه: «من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صيام الدهر وإن صامه». قال الترمذي: حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وسمعت محمداً «يعني البخاري» يقول: أبو المطوِّس اسمه يزيد بن المطوس، ولا أعرف له غير هذا الحديث. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٤/ ١٦١ : ..فيه ثلاث علل: الاضطراب، والجهل بحال أبي المطوِّس، والشكّ في سماع أبيه من أبي هريرة.

(٢) في (ظ): بأحاديث. والكلام من التمهيد ٧/ ١٧٣ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٦٩٤)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي ٦/ ١٥٦ من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٩٤٠) من حديث علي ﷺ.

(٤) قطعة من الحديث السالف.

(٥) التمهيد ٦/ ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٦) في (د) و(م): في، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف)، وفي (ظ): قال العلماء في هذا المعنى..

في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سَعةٌ للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خَشِيَ فواتَ [صلاة] الوقت بدأ بها، فإنْ زاد على صلاة يومٍ وليلة لم يجب الترتيب عندهم. وقد رُوِيَ عن الثوريِّ وجوب الترتيب، ولم يفرِّق بين القليل والكثير. وهو تحصيلُ مذهب الشافعي. قال الشافعيُّ: الاختيارُ أن يبدأ بالفائتة ما لم يَخَفْ فواتَ هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه. وذكر الأثرم أن الترتيبَ عند أحمد واجبٌ في صلاة ستين سنة وأكثر. وقال: لا ينبغي لأحدٍ أن يُصلِّي صلاةً وهو ذاكرٌ لِما قبلها لأنها تفسد عليه[1].

وروى الدَّارَقُطْنيُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: «إذا ذَكَر أحدُكم صلاةً وهو في صلاة مكتوبة فليبدَأْ بالتي هو فيها، فإذا فَرَغَ منها، صلَّى التي نَسِيَ». وعمرُ بن أبي عمر مجهول[2].

قلت: وهذا لو صحَّ كانت حُجَّةً للشافعي في البُداءة بصلاة الوقت. والصحيح ما رواه أهلُ الصحيحِ[3] عن جابر بن عبد الله: أنَّ عمر بن الخطاب يومَ الخندق جعل يَسبُّ كفارَ قريش، وقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ ما كدتُ أن أصليَ العصرَ حتى كادت أن تغربَ الشمسُ[4]، فقال رسولُ الله ﷺ: «فواللهِ، إنْ صَلَّيتُها». فنزلنا بُطحانَ، فتوضأ رسولُ الله ﷺ، وتوضَّأنا، فصلَّى رسولُ الله ﷺ العصرَ بعد ما غَرَبَتِ الشمسُ، ثم صلَّى بعدها المغربَ.

وهذا نصٌّ في البُداءة بالفائتة قبل الحاضرة، ولا سيَّما والمغرب وقتُها واحدٌ

---

(١) التمهيد ٦/ ٤٠٤، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سنن الدارقطني (١٥٥٨)، ولفظه عنده: «إذا نسي أحدكم صلاة، فذكرها وهو في صلاة مكتوبة..» وعمر بن أبي عمر ـ وهو الكَلاعي ـ أحد رجال الإسناد.

(٣) صحيح البخاري (٥٩٦) و(٩٤٥)، ومسلم (٦٣١)، وسلف ٧/ ١٠٥.

(٤) في (د) و(ظ) و(م): حتى كادت الشمس تغرب، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف)، هو الموافق لصحيح مسلم، واللفظ له.

مضيَّق غير ممتدٍ في الأشهر عندنا وعند الشافعي كما تقدَّم. وقد روى الترمذيُّ عن أبي عُبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه: أنَّ المشركين شغَلوا رسولَ اللهِ ﷺ عن أربع صلواتٍ يومَ الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء اللهُ تعالى، فأمَر بالأذان بلالاً فقَام فأذَّن، ثم أقام فصلَّى الظهْرَ، ثم أقام فصلَّى العصرَ، ثم أقام فصلَّى المغربَ، ثم أقام فصلَّى العشاء[١].

وبهذا استدلَّ العلماء على أنَّ مَن فاتته صلوات[٢]؛ قضاها مرتَّبةً كما فاتته إذا ذكرها في وقتٍ واحد.

واختلفوا إذا ذكَر فائتةً في ضيق[٣] وقتِ حاضرة على ثلاثة أقوال: يبدأ بالفائتة وإنْ خرَج وقتُ الحاضرةِ، وبه قال مالكٌ والليث والزهريُّ وغيرهم كما قدَّمناه. الثاني: يبدأ بالحاضرة، وبه قال الحسن والشافعيُّ وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهبٍ من أصحابنا. الثالث: يَتخيَّر فيقدِّم أيتَهما شاء، وبه قال أشهب[٤].

وجه الأول: كثرة الصلوات، ولا خلافَ أنه يبدأ بالحاضرة مع الكَثْرة؛ قاله القاضي عياض[٥]. واختلفوا في مقدار اليسير؛ فعن مالك: الخمس فدون، وقد قيل: الأربع فدون لحديث جابر. ولم يختلف المذهب أن السِّتَّ كثيرٌ.

السادسة: وأما مَن ذكَر صلاةً وهو في صلاة، فإن كان وراء الإمام فكلٌّ مَن قال

---

(١) سنن الترمذي (١٧٩)، وهو عند أحمد (٣٥٥٥)، والنسائي ٢/ ١٧ - ١٨ قال الترمذي: حديث عبد الله ليس بإسناده بأس، إلا أن أبا عُبيدة لم يسمع من عبد الله. وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١١٩٨)، والنسائي ٢/ ١٧ .

(٢) في (د) و(م): صلاة.

(٣) في (د) و(م): مضيق.

(٤) المفهم ٢/ ٢٥٧ دون ذكر المحاسبي.

(٥) في إكمال المعلم ٢/ ٥٩٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٢/ ٢٥٧ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

بوجوب الترتيب ومن لم يقل به، يقول: يتمادَى مع الإمام حتى يُكمل صلاتَه[١].

والأصل في هذا ما رواه مالكٌ والدارقطني[٢]، عن ابن عمر قال: إذا نَسِيَ أحدُكم صلاةً فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام؛ فَلْيُصلِّ مع الإمام، فإذا فرغَ من صلاته، فليصلِّ الصلاةَ التي نَسِيَ، ثم ليعِدْ صلاتَه التي صلَّى مع الإمام. لفظ الدارقطني؛ وقال: قال موسى بن هارون: وحدثناه أبو إبراهيم التَّرْجُمانيُّ، قال: حدثنا سعيد [به] ورفعه إلى النبي ﷺ ووَهِمَ في رفعه، فإن كان قد رجَع عن رَفْعه فقد وفِّق للصواب.

ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: يُصلِّي التي ذكر، ثم يُصلِّي التي صلَّى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثرُ من خمس صلوات، على ما قدمنا ذِكْره عن الكوفيين. وهو مذهب جماعةٍ من أصحاب مالك المدنيين.

وذكر الخِرَقيُّ عن أحمد بن حنبل أنه قال: من ذكر صلاةً وهو في أخرى أنه يُتمُّها ويقضي المذكورةَ، وأعاد التي كان فيها إذا كان الوقت مُبقى[٣]، فإن خشيَ خروجَ الوقت وهو فيها أَعتقدُ ألَّا يُعيدُها، وقد أجزأته، ويقضي التي عليه.

وقال مالك: من ذكر صلاةً وهو في صلاة قد صلَّى منها ركعتين سَلَّم من ركعتيه، فإن كان إماماً انهدمت عليه وعلى من خلْفه وبطلت. هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله: فيمن ذكر صلاةً في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يُضيف إليهاأُخرى ويُسلِّم. ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاثَ ركعات أضاف إليها رابعة وسلَّم، وصارت نافلة غير فاسدة، ولو انهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يُؤمَر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يُضِفْ إليها أخرى[٤].

---

(١) التمهيد ٦/٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) الموطأ ١/١٦٨، وسنن الدارقطني (١٥٥٩) و(١٥٦٠)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): واسعاً، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق للتمهيد ٦/٤٠٦، والكلام منه.

(٤) الكافي ١/٢٢٣ - ٢٢٤.

السابعة: روى مسلمٌ عن أبي قَتادة قال: خطبَنا رسولُ الله ﷺ. فذكر حديثَ المِيْضأة بطوله، وقال فيه: ثم قال: «أمَا لكم فيَّ أسوة». ثم قال: «أمَا إنه ليس في النوم تفريطٌ، إنما التفريط على مَن لم يُصَلِّ الصلاةَ حتى يَجيء وقتُ الصلاة الأُخرى، فمن فعَل ذلك فَلْيصلِّها حين ينتبهُ لها، فإذا كان الغد فَلْيُصلِّها عند وقتها». وأخرجه الدارقطنيُّ هكذا بلفظ مسلم سواء[1].

فظاهره يقتضي إعادةَ المَقضية مرتين؛ عند ذكرها وحضورِ مثلها من الوقت الآتي؛ ويعضد هذا الظاهرَ ما خرجه أبو داود من حديث عِمران بن حُصَين، وذكر القصة وقال في آخرها: «فمن أدركَ منكم صلاةَ الغَداة من غدٍ صالحاً فَلْيقضِ معها مثلَها»[2].

قلت: وهذا ليس على ظاهره، ولا تُعاد غير مرة واحدة؛ لِما رواه الدارقطنيُّ عن عِمران بن حصين قال: سَرينا مع رسولِ اللهِ ﷺ في غَزاةٍ ـ أو قال في سريَّة ـ فلما كان وقتُ السَّحَر عَرَّسْنا، فما استيقظنا حتى أيقظَنا حَرُّ الشمسِ، فجعل الرَّجل منا يَثِب فَزِعاً دَهِشاً، فلما استيقظ رسولُ الله ﷺ أمرَنا فارتحلنا، ثم سِرنا حتى ارتفعت الشمسُ، فقضى القومُ حوائجَهم، ثم أمر بلالاً فأذَّن، فصلَّينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلَّينا الغَداة، فقلنا: يا نبيَّ اللهِ، ألا نَقضيها لوقتها من الغد؟ فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «أينهاكم اللهُ عن الرِّبا ويقبلُه منكم؟»[3].

وقال الخطّابي[4]: لا أعلمُ أحداً قال بهذا وجوباً، ويُشبه أن يكون الأمر به استحباباً لِيُحرِزَ فضيلةَ الوقتِ في القضاء.

---

(١) صحيح مسلم (٦٨١)، وسنن الدارقطني (١٤٤٢)، وهو في مسند أحمد (٢٢٥٤٦).

(٢) المفهم ٢/٣١٦ ، والحديث في سنن أبي داود (٤٣٨) من حديث أبي قتادة ﷺ، أما حديث عمران بن حصين ﷺ عند أبي داود (٤٤٣) فليس فيه هذا اللفظ.

(٣) سنن الدارقطني (١٤٤١)، وهو في مسند أحمد (١٩٩٦٤).

(٤) في معالم السنن ١/١٣٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٢/٣١٦-٣١٧ ، والكلام منه.

والصحيحُ تركُ العملِ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أينهاكم اللهُ عن الرِّبا ويقبلُه منكم» ولأن الطُّرق الصحاحَ من حديث عِمران بن حُصَين ليس فيها من تلك الزيادة شيءٌ، إلا ما ذكر من حديث أبي قتادة وهو مُحتمِل كما بيَّنَّاه.

قلت: ذكر الكيا الطبريُّ في «أحكام القرآن»[١] له أنَّ من السلف مَن خالف قولَه عليه الصلاة والسلام: «مَن نَسِيَ صلاةً فَلْيصلِّها إذا ذكَرها، لا كفارةَ لها إلا ذلك»[٢] فقال: يصبر إلى مثل وقتِه فَلْيُصَلِّ، فإذا فات الصبحُ فليصل من الغد. وهذا قولٌ بعيد شاذٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ آيةٌ مشكلة؛ فرُوي عن سعيد بن جُبير أنه قرأ: «أَكَادُ أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة، قال: أُظهرها. «لِتُجْزَى» أي: الإظهارُ للجزاء؛ رواه أبو عُبيد، عن الكسائي، عن محمد بن سهل، عن وِقَاء ابن إياس، عن سعيد بن جُبير. وقال النحاس[٣]: وليس لهذه الرواية طريقٌ غير هذا.

قلت: وكذا رواه أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردّ»: حدثني أبي، حدثنا محمد ابن الجهم، حدثنا الفراء[٤]، حدثنا الكسائيُّ (ح) وحدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يوسف، حدثنا يحيى الحِمانيُّ، حدثنا محمد بن سهل.

قال النحاس[٥]: وأجودُ من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطّان، عن الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبير أنه قرأ: «أَكَادُ أُخْفيها» بضم الهمزة.

---

(١) ٣/ ٢٧٤.

(٢) هو عند أحمد (١٣٨٤٨)، والبخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤) من طريق همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس ﷺ، وقد أشار إليه المصنف في المسألة الثانية.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥، وما قبله منه. وقراءة سعيد بن جبير ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧، وابن جني في المحتسب ٢/ ٤٧.

(٤) معاني القرآن له ٢/ ١٧٦.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥.

قلت: وأما قراءة ابنِ جُبير «أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنباري: قال الفراء[١]: معناه: أُظهرها، من خَفيتُ الشيءَ أخفيه: إذا أظهرتَه. وأنشد الفراء لامرئ القيس:

فإنْ تَدفِنُوا الدَّاءَ لا نَخْفِهِ وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُدِ[٢]

أراد: لا نُظهره، وقد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون «أُخْفِيهَا» بضم الهمزة معناه: أُظهرها؛ لأنه يقال: خَفيتُ الشيء وأَخفيته: إذا أظهرتَه؛ فأَخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار. وقال أبو عُبيدة[٣]: خَفيت وأَخفيت بمعنى واحد.

النحاس: وهذا حسن، وقد حكاه عن أبي الخَطَّاب، وهو رئيسٌ من رؤساء اللغةِ لا يُشكُّ في صدقه، وقد روى عنه سيبويه وأنشد:

وإنْ تَكتُموا الداءَ لا نُخْفِهِ وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُدِ

كذا رواه أبو عُبيدة، عن أبي الخطَّاب بضم النون.

وقال امرؤ القيس أيضاً:

خَفَاهنَّ من أنفاقِهنَّ كأنما خَفاهنَّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

أي: أَظهرَهُنَّ[٤].

وروي: «من سحاب مركَّب» بدل: «من عَشيٍّ مجلِّب»[٥].

قال أبو بكر الأنباريُّ: وتفسيرٌ للآية آخرُ: «إنَّ الساعةَ آتيةٌ أكاد» انقطع الكلام

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٧٦ ، وينظر الأضداد لابن الأنباري ص٩٦ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٨٦ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٦ بمعناه. وينظر الكلام الذي قبله فيه.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٦ - ١٧ ، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٥١. قال شارحه: الوَدْق: المطر، وخص مطر العشيّ لأنه أغزر. والمُجلِّب: الذي تسمع له جَلَبة؛ لشدة وقعه.

(٥) ذكر هذه الرواية الأزهري في تهذيب اللغة ٧/ ٥٩٦ .

على «أكاد» وبعده مضمر: أكاد، آتي بها، والابتداء: «أُخفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ». قال ضابئ البُرْجميُّ:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكِدتُ وليتَنِي تَركتُ على عثمانَ تَبْكي حَلَائِلُهْ

أراد: وكدت أفعل[1]، فأضمر مع «كدت» فعلاً كالفعل المضمر معه في القرآن.

قلت: هذا الذي اختاره النحاس[2]، وزيَّف القولَ الذي قبله، فقال: يقال: خَفَى الشيءَ يَخفيه: إذا أظهره، وقد حُكِيَ أنه يقال: أخفاه أيضاً: إذا أظهره، وليس بالمعروف، قال: وقد رأيتُ علي بنَ سليمان لمَّا أشكل عليه معنى «أُخْفِيها» عدَل إلى هذا القول، وقال: معناه كمعنى «أَخْفيها».

قال النحاس: ليس المعنى على أُظهرها، ولا سيما و«أَخْفيها» قراءةٌ شاذة، فكيف تردُّ القراءة الصحيحة الشائعةُ إلى الشاذة، ومعنى المُضمر أولى، ويكون التقدير: إن الساعةَ آتيةٌ أكاد آتي بها؛ ودلَّ «آتية» على آتي بها، ثم قال: «أُخْفيها» على الابتداء. وهذا معنى صحيحٌ؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قد أخفى الساعةَ التي هي القيامة، والساعةَ التي يموت فيها الإنسانُ؛ ليكون الإنسانُ يعمل والأمر عنه مبهمٌ، ولا يؤخِّر التوبةَ.

قلت: وعلى هذا القول تكون اللام في «لِتجزى» متعلقةٌ بـ «أُخفِيها».

وقال أبو علي[3]: هذا من باب السَّلب، وليس من باب الأضداد، ومعنى «أُخفِيها»: أُزيل عنها خفاءَها، وهو سترها، كخِفاء الأخفية ـ وهي: الأكسية ـ والواحد خِفاء، بكسر الخاء: ما تُلَفُّ به القِربة، وإذا زال عنها سترها ظهرت. ومن

---

(١) الكلام بنحوه في الأضداد لابن الأنباري ص٩٦ - ٩٧ ، ونقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٧ ، والبيت سلف ١١/ ٣١١ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥ .

(٣) ذكره عنه ابن جني في المحتسب ٢/ ٤٧ ، والطبرسي في مجمع البيان ١٦/ ٨٧ .

هذا قولهم: أشكيته، أي: أزلت شكواه، وأعديته، أي: قبلت استعداءه، ولم أُحوجه إلى إعادته.

وحكى أبو حاتم عن الأخفش: أن «كاد» زائدة مُؤَكِّدة. قال: ومثله ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور: ٤٠]، لأن الظُّلماتِ التي ذكرَها اللهُ تعالى بعضُها يحول بين الناظر والمنظور إليه. ورويَ معناه عن ابن جُبير[١]، والتقدير: إنَّ الساعةَ آتيةٌ أُخفيها لِتُجزى كلُّ نفس بما تسعى. وقال الشاعر:

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سِلاحُهُ ... فما إنْ يَكادُ قِرْنُهُ يَتنفَّسُ

أراد: فما يَتنفَّس[٢].

وقال آخر:

وألّا ألومُ النفسَ فيما أصابني ... وألّا أكادُ بالذي نِلتُ أنجحُ

معناه: وألا أنجحُ بالذي نِلتُ؛ فأكاد توكيدٌ للكلام[٣].

وقيل: المعنى «أَكَادُ أُخْفِيهَا» أي: أُقارب ذلك؛ لأنك إذا قلت: كاد زيدٌ يقوم، جاز أن يكون قام، وأن يكون لم يقم. ودلَّ على أنه قد أخفاها بدلالةٍ غير هذه على هذا الجواب[٤].

قال اللغويون: كِدْتُ أفعلُ، معناه عند العرب: قاربتُ الفعلَ ولم أفعل، وما كدت أفعل معناه: فعلت بعد إبطاءٍ. وشاهِدُه قولُ اللهِ عزّت عَظَمتُه: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، معناه: وفعلوا بعد إبطاءٍ؛ لِتعذُّر وُجدانِ البقرة عليهم.

---

(١) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٠.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، والأضداد لابن الأنباري ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٤٨، والبيت لزيد الخيل الطائي، وهو في ديوانه ص٧٤.

(٣) الأضداد لابن الأنباري ص٩٧ - ٩٨، والبيت لتميم بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤، وفيه: أفرح، بدل: أنجح، وفي الأضداد: أبجح. ومعناها: أفرح.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦.

وقد يكون: ما كدتُ أفعل بمعنى: ما فعلت ولا قاربت إذا أكَّد الكلام بأكاد.

وقيل: معنى «أَكَادُ أُخْفِيها»: أُريد أُخفيها. قال الأنباري: وشاهدُ هذا قولُ الفصيح من الشعر:

كـادتْ وكِـدتُ وتِـلـكَ خـيـرُ إرادةٍ ... لـو عـادَ مـن لَـهْـوِ الـصَّـبـابـةِ مـا مَـضَـى

معناه: أرادتْ وأردتُ[١].

وقال ابن عباس[٢] وأكثرُ المفسرين فيما ذكر الثعلبي: إن المعنى أكاد أُخفيها من نفسي، وكذلك هو في مصحف أُبيٍّ. وفي مصحف ابن مسعود: أكاد أُخفيها من نفسي، فكيف يَعلمها مخلوقٌ. وفي بعض القراءات: فكيف أُظهرها لكم؟. وهو محمولٌ على أنه جاء على ما جرتْ به عادةُ العرب في كلامها، من أن أحدَهم إذا بالغ في كِتمان الشيء قال: كِدتُ أُخفيه من نفسي. والله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ[٣]، قال معناه قطرب[٤] وغيره. وقال الشاعر:

أيـامَ تَـصـحـبـنـي هـنـدٌ وأُخـبـرُهَـا ... ما أَكتُم النفسَ من حَاجِي وأَسْرَارِي[٥]

فكيف يُخبرها بما تكتُم نفسُه؟ ومن هذا الباب قولُه ﷺ: «ورجل تصدَّق بصدقةٍ، فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنفِقُ يمينُه»[٦].

---

(١) الأضداد لابن الأنباري ص٩٨، وينظر الكلام الذي قبله فيه وفي تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، وزاد المسير ٥/ ٢٧٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٤، وقراءة أُبَيّ وابن مسعود رضي الله عنهما ذكرهما أيضاً الرازي في تفسيره ٢٢/ ٢٢.

(٤) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠٣.

(٥) أورده أبو حيان في البحر ٦/ ٢٣٣، وعجز البيت عنده: ما كدتُ أكتمه عني من الخبر.

(٦) أخرجه أحمد (٩٦٦٥)، والبخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو قطعة من حديث: «سبعة يُظلُّهم الله في ظِلِّه..».

الزمخشريُّ[١]: وقيل: معناه: أكاد أُخفيها من نفسي، ولا دليلَ في الكلام على هذا المحذوف؛ ومحذوفٌ لا دليلَ عليه مُطَّرح، والذي غرَّهم منه أن في مصحف أُبَيّ: أكاد أُخفيها من نفسي؛ وفي بعض المصاحف: أكاد أُخفيها من نفسي، فكيف أُظهركم عليها؟.

قلت: وقيل: إن معنى قولِ من قال: أكاد أُخفيها من نفسي، أي: إنَّ إخفاءها كان من قِبَلي، ومن عندي، لا من قِبَل غيري. وروي عن ابن عباس أيضاً: أكاد أُخفيها من نفسي[٢]، ورواه طلحةُ بن عمرو عن عطاء. وروى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: لا أُظهر عليها أحداً[٣]. وروي عن سعيد بن جبير قال: قد أخفاها. وهذا على أن كاد زائدة. أي: إن الساعةَ آتيةٌ أُخفيها، والفائدةُ في إخفائها التخويف والتهويل[٤].

وقيل: تعلّق «لِتُجزى» بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: أَقِمِ الصلاةَ لِتذكُرني ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: بِسعيها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. واللهُ أعلم. وقيل: هي مُتعلِّقة بقوله: «آتيةٌ»، أي: إنَّ الساعةَ آتيةٌ لِتُجزى[٥].

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: لا يصرفنَّك عن الإيمان بها والتصديق لها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فَتَهْلِكَ. وهو في موضع نصب بجواب النهي[٦].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٢ .

(٢) سلف قريباً.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٤ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٤ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦ بمعناه.

(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ١٤٠ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ قيل: كان هذا الخطابُ من الله تعالى لموسى وحياً؛ لأنه قال: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [الآية:١٣]. ولابدَّ للنبيِّ في نفسه من معجزة يَعلم بها صحَّةَ نبوَّةِ نفسِه، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك. ويجوز أن يكون ما أراه في الشجرة آيةً كافيةً له في نفسه، ثم تكون اليدُ والعصا زيادةَ توكيد، وبرهاناً يلقى به قومَه.

واختُلف في قوله: «وَمَا تِلْكَ»[1]، فقال الزجَّاج والفرَّاء[2]: هي[3] اسمٌ ناقص وُصلت بـ «يمينك»، أي: ما التي بيمينك؟ وقال أيضاً[4]: «تلك» بمعنى هذه. ولو قال: ما ذلك، لجاز، أي: ما ذلك الشيء. ومقصود السؤال تقريرُ الأمر حتى يقولَ موسى: هي عصاي؛ لِيُثبتَ الحُجَّةَ عليه بعد ما اعترف، وإلَّا فقد علم اللهُ ما هي في الأزل[5].

قال ابن الجوهري[6]: وفي بعض الآثار: إنَّ الله تعالى عَتَبَ على موسى إضافةَ العصا إلى نفسه في ذلك الموطن، فقيل له: أَلْقِها لِترى منها العَجَب، فتعلمَ أنه لا مِلكَ لك عليها، ولا تُضافُ إليك.

---

(١) في (د) و(م): واختلف في «ما» في قوله: «وما تلك»، وفي (خ) و(ز): واختلف في قوله في تلك في قوله: «وما تلك» والمثبت من (ظ) و(ف).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٧ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦ .

(٣) يعني: تلك.

(٤) هو الفراء.

(٥) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٤ .

(٦) هو أبو الفضل الجوهري، وكلامه في المحرر الوجيز ٤/ ٤١ .

وقرأ ابن أبي إسحاق: «عَصَيَّ» على لغة هُذيل[١]؛ ومثلُه: «يا بُشْرَيَّ» و«مَحْيَيَّ» وقد تقدَّم[٢]. وقرأ الحسن: «عَصَايِ» بكسر الياء؛ لالتقاء الساكنين. ومثلُ هذا قراءةُ حمزة: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وعن ابن أبي إسحاق سكونُ الياء[٣].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على جواب السؤال بأكثرَ مما سُئل؛ لأنه لمَّا قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ ذكر معانيَ أربعةً، وهي: إضافةُ العصا إليه ـ وكان حقُّه أن يقول: عصا ـ والتوكُّؤ، والهَشُّ، والمآربُ المُطلَقة[٤]. فذكر موسى من منافع عصاه عُظْمَها وجمهورَها، وأجملَ سائرَ ذلك[٥]. وفي الحديث: سُئل النبيُّ ﷺ عن ماء البحر فقال: «هو الطَّهورُ ماؤه، الحِلُّ مَيتتُه»[٦]. وسألته امرأةٌ عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حجٌّ؟ قال: «نعم، ولكِ أجرٌ»[٧]. ومثلُه في الحديث كثير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أتحامَلُ عليها في المشي والوقوف، ومنه الاتِّكاء.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ «وأَهِشُّ» أيضاً؛ ذكره النحاس[٨]. وهي قراءة النَّخَعي[٩]، أي: أَخبِط بها الورق، أي: أَضرِبُ أغصانَ الشجر ليسقطَ ورقُها، فيسهلَ على غنمي تناولُه، فتأكله. قال الراجز:

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٧، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١.

(٢) ١١/ ٢٩٢ - ٢٩٣ و ٩/ ١٣٩.

(٣) قراءة حمزة في السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤، وقراءة الحسن وقراءة ابن أبي إسحاق في المحتسب ٢/ ٤٨ - ٤٩.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١.

(٦) سلف ٨/ ٢١٢.

(٧) أخرجه أحمد (٢١٨٧)، ومسلم (١٣٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦.

(٩) المحتسب ٢/ ٥٠.

أَهُشُّ بالعصا على أغْنامي ... من ناعم الأراك والبَشَامِ[١]

يقال: هَشَّ على غنمه يَهُشُّ، بضمِّ الهاء في المستقبل. وهشَّ إلى الرجل يَهَشّ، بالفتح. وكذلك هشَّ للمعروف يَهَشُّ، وهَشِشتُ أنا. وفي حديث عمر: هَشِشْتُ يوماً، فقبَّلتُ وأنا صائم[٢]. قال شَمِر: أي: فرحتُ واشتهيتُ. قال: ويجوز: هَاشَ بمعنى: هَشَّ[٣]. قال الراعي:

فكبَّرَ للرؤيا وهاشَ فؤادُهُ ... وبشَّر نفساً كان قبلُ يلومُها[٤]

أي: طَرِب. والأصل في الكلمة: الرّخاوة. يقال: رجلٌ هَشٌّ، وجوز هَشٌّ[٥].

وقرأ عكرمة: «وأهُسُّ» بالسِّين غير معجمة[٦]، قيل: هما لغتان بمعنًى واحد. وقيل: معناهما مختلف؛ فالهشُّ بالإعجام: خَبْطُ الشجر، والهسُّ بغير إعجام: زَجْر الغنم؛ ذكره الماوردي[٧] وكذلك ذكر الزمخشري[٨].

وعن عكرمة: «وأهُشُّ» بالشين[٩]، أي: أنحني[١٠] عليها زاجراً لها. والهَسُّ[١١]: زَجْر الغنم.

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٧ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٩٩ . والبَشام: شجر عَطِر الرائحة، ورقه يُسوِّد الشَّعر، ويُستاك بقُضُبه. القاموس (بشم).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٨)، وأبو داود (٢٣٨٥)، والنسائي (٣٠٣٦).

(٣) نقله عنه في اللسان (هشش).

(٤) ديوان الراعي ص٢٥٩ .

(٥) في (م): وزوج هش.

(٦) القراءات الشاذة ص٨٧ ، والمحتسب ٢/ ٥٠ .

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٣٩٩ .

(٨) في الكشاف ٢/ ٥٣٣ .

(٩) في (خ) و(ز) و(ظ) و(م): وأهس بالسين، والمثبت من (د)، وكذا قيَّدها السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٥ : بضم الهاء وتخفيف الشين. ثم قال: ولا أعرف لها وجهاً إلا أن يكون قد استثقل التضعيف مع تفشي الشين فخفف، وهي بمعنى قراءة العامة.

(١٠) في (د): امحى عنها، وفي (م): أنحى عليها.

(١١) في (د) و(ظ): والهش.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: حوائجُ. واحدها: مَأْرُبة ومَأْرَبة ومَأْرِبة. وقال: «أُخرى» على صيغة الواحد؛ لأنَّ «مآرب» في معنى الجماعة، لكن المَهْيَع[1] في توابع جمعِ ما لا يَعقِل الإفرادُ، والكنايةُ عنه بذلك، فإنَّ ذلك يجري مَجرى الواحدةِ المؤنثة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وكقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقد تقدَّم هذا في «الأعراف»[2].

الخامسة: تعرَّض قومٌ لتعديد منافعِ العصا، منهم ابنُ عباس، قال: إذا انتهيتُ إلى رأس بئرٍ فقَصُر الرِّشاءُ؛ وصلتُه بالعصا، وإذا أصابني حرُّ الشمس؛ غرزتُها في الأرض وألقيتُ عليها ما يُظِلُّني، وإذا خِفتُ شيئاً من هوامِّ الأرض؛ قتلتُه بها، وإذا مشيتُ؛ أَلقيتُها على عاتقي، وعلَّقت عليها القوسَ والكِنانة والمِخْلاة، وأُقاتل بها السِّباعَ عن الغنم[3].

وروى عنه ميمون بنُ مِهْران قال: إمساك العصا سُنَّةٌ للأنبياء، وعلامةٌ للمؤمن. وقال الحسن البصري: فيها سِتُّ خِصال: سنةُ الأنبياء[4]، وزينةُ الصُّلَحاء، وسلاحٌ على الأعداء، وعونٌ للضعفاء، وغمٌّ للمنافقين، وزيادة في الطاعات. ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهربُ منه الشيطان، ويخشعُ منه المنافقُ والفاجر، وتكون قِبلتَه إذا صلَّى، وقوَّةً إذا أعيا.

ولقي الحَجَّاجُ أعرابيًّا فقال: مِن أين أقبلت يا أعرابي؟ قال: من البادية. قال: وما في يدك؟ قال: عصايَ، أَرْكُزها لِصَلاتي، وأُعِدُّها لعِداتي، وأسوق بها دابَّتي، وأَقوى بها على سفري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتَّسعَ خُطوتي، وأَثِبُ بها النهر،

---

(١) المهيع: الطريق البيّن. القاموس (هيع).

(٢) ٩/ ٣٩٣.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥، وتفسير الرازي ٢٢/ ٢٧ بنحوه.

(٤) في (م): للأنبياء.

وتُؤمنُني من العَثْر، وأُلقي عليها كِسائي فيقيني الحرّ، ويُدفئني من القُرّ، وتُدني إليَّ ما بَعُد مني، وهي مَحْمِل سُفرتي، وعِلَاقة إداوتي؛ أَعصِي بها[1] عند الضِّراب، وأَقرعُ بها الأبواب، وأتَّقي بها عَقورَ الكلاب، وتنوب عن الرُّمح في الطِّعان، وعن السَّيف عند منازلة الأقران، وَرِثْتُها عن أبي، وأُورثها بعدي ابني، وأَهشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآربُ أخرى كثيرةٌ لا تُحصى.

قلت: منافع العصا كثيرة، ولها مدخلٌ في مواضعَ من الشريعة: منها أنها تُتَّخذ قِبلةً في الصحراء. وقد كان للنبيِّ عليه الصلاة والسلام عَنَزَةٌ تُركز له فيصلِّي إليها، وكان إذا خرج يومَ العيد، أَمر بالحَرْبة فتوضَعُ بين يديه، فيصلِّي إليها، وذلك ثابتٌ في الصَّحيح[2]. والحَرْبةُ والعَنَزة والنَّيْزك والآلة اسمٌ لمسمًّى واحد. وكان له مِحْجَن ـ وهو عصاً معوجَّةُ الطَّرَف ـ يشير به إلى الحَجَر إذا لم يستطع أن يقبِّلَه؛ ثابتٌ في الصحيح أيضاً[3].

وفي «الموطأ»[4]: عن السائب بنِ يزيد أنه قال: أَمر عمر بنُ الخطاب ﷺ أُبيَّ بن كعب وتميماً الداريَّ أنْ يقوما للناس بإحدى عَشْرةَ ركعةً، وكان القارئ يقرأ بالمِئِين، حتى كنا نعتمد على العِصِيِّ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلَّا في فروع الفجر[5].

وفي «الصحيحين»: أنه عليه الصلاة والسلام كان له مِخْصَرة[6].

---

(١) أي: أضرب بها. القاموس (عصو).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٤) (٩٧٣)، وصحيح مسلم (٥٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٤٦١٤) (٥٧٣٤). والعنزة: مثل نصف الرمح، أو أكبر شيئاً، وفيها سنان مثل سنان الرمح. النهاية (عنز).

(٣) صحيح البخاري (١٦٠٧)، ومسلم (١٢٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (١٨٤١).

(٤) ١/ ١١٥ .

(٥) في (م): بزوغ. وفروع الفجر: أوائله وأول ما يبدو ويرتفع منه. مشارق الأنوار ٢/ ١٥٣ .

(٦) صحيح البخاري (١٣٦٢)، وصحيح مسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ، وهو في مسند أحمد =

والإجماع منعقدٌ على أنَّ الخطيب يخطُب متوكِّئاً على سيفٍ أو عصاً، فالعصا مأخوذةٌ من أصل كريم، ومَعدِنٍ شريف، ولا يُنكرها إلَّا جاهل. وقد جمع اللهُ لموسى في عصاه مِن البراهين العِظَام، والآياتِ الجِسَام، ما آمن به السَّحَرةُ المعاندون. واتَّخذها سليمانُ لخطبته وموعظته وطولِ صلاته. وكان ابن مسعودٍ صاحبَ عصا النبيِّ ﷺ وعَنَزتِه[1]؛ وكان يخطب بالقضيب[2]، وكفى بذلك فضلاً على شرف حالِ العصا. وعلى ذلك الخلفاءُ وكُبَراء الخطباء، وعادةُ العرب العَرْباء الفُصَحاءِ اللُّسْنِ البُلغاءِ أَخْذُ المِخْصرةِ والعصا، والاعتمادُ عليها عند الكلام، وفي المحافل والخُطَب.

وأنكرت الشُّعوبيةُ على خطباء العرب أخذَ المِخصرةِ والإشارةَ بها إلى المعاني. والشُّعوبيةُ تُبغض العرب وتفضِّل العَجم[3].

قال مالك: كان عطاء بنُ السائب يُمسك المِخْصَرةَ يستعين بها. قال مالك: والرَّجل إذا كَبِر لم يكن مثلَ الشاب[4]؛ يقوى بها عند قيامه.

قلت: وفي مَشْيه[5]، كما قال بعضهم:

قد كنتُ أمشي على رِجلَين معتمداً فصرتُ أمشي على أخرى من الخشَبِ[6]

= (١٠٦٧). والمخصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه، من عصاً، أو عكازة، أو قضيب، وقد يتكئ عليه. النهاية (خصر).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ١٥٣ عن القاسم بن عبد الرحمن بنحوه.

(٢) أخرج ابن سعد ١/ ٣٧٧، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٤٦ - ١٤٧ عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يخطب بمِخْصَرة في يده. وأورده الهيثمي في المجمع ٢/ ١٨٧ وقال: رواه الطبراني في الكبير والبزار، وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام. اهـ.

(٣) ذكر هذا الكلام العيني في عمدة القاري ٢٢/ ٢٢٢.

(٤) في (د) و(م): الشباب.

(٥) في (د) و(م): مشيته.

(٦) لم نقف عليه.

قال مالك رحمه الله ورضي عنه: وقد كان الناسُ إذا جاءهم المطرُ خرجوا بالعِصِيِّ يتوكَّؤون عليها، حتى لقد كان الشبابُ يحبِسون عِصِيَّهم، وربما أخذ ربيعةُ العصا مِن بعض مَن يجلس إليه حتى يقوم.

ومِن منافع العصا ضربُ الرجلِ نساءه بها فيما يُصلحهم، ويُصلح حالَه وحالَهم معه. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأما أبو جَهْمٍ فلا يَضَعُ عصاه عن عاتقه» في أحد التأويلات[1]. وقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لرجلٍ أوصاه: «لا ترفَعْ عصاك عن أهلك، أَخِفهم في الله». رواه عبادة بنُ الصامت؛ خرَّجه النَّسائي[2]. ومِن هذا المعنى قولُه ﷺ: «علِّق سَوْطَك حيث يراه أهلُك»[3] وقد تقدَّم هذا في «النساء»[4].

ومن فوائدها التنبيهُ على الانتقال من هذه الدار؛ كما قيل لبعض الزُّهَّاد: ما لَكَ تمشي على عصاً، ولست بكبير ولا مريض؟ قال: إني أعلمُ أني مسافر، وأنها دارُ قُلْعة، وأنَّ العصا من آلة السفر؛ فأخذه بعضُ الشعراء فقال:

حملتُ العصا لا الضَّعفُ أوجبَ حَملَها 	علَيَّ ولا أني تَحنَّيتُ مِن كِبَرْ
ولكنَّني ألزمتُ نفسيَ حَملَها 	لِأُعلِمَها أنَّ المقيمَ على سَفَر[5]

---

(١) في (م): في إحدى الروايات. والحديث أخرجه أحمد ومسلم، وقد سلف ٦/ ٢٨٨.

(٢) لم نقف عليه عند النسائي، ونسبه الهيثمي في المجمع ٤/ ٢١٦ للطبراني وقال: فيه سلمة بن شريح قال الذهبي: لا يعرف. وقد أخرجه أحمد (٢٢٠٧٥) من حديث معاذ ﷺ وإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط (١٨٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٢٤ ونسبه لأبي نعيم في الحلية، ورمز لضعفه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٩٦٣)، والطبراني في الكبير (١٠٦٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٢٤، ورمز لضعفه.

(٤) ٦/ ٢٨٨.

(٥) عيون الأخبار ٢/ ٣٢٣، دون نسبة، ونسبهما الصفدي في الوافي ٥/ ١٧٤ لمحمد بن وشاح بن عبد الله أبي علي. والقُلْعة: المال العارية. الصحاح (قلع).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾: لمَّا أراد اللهُ تعالى أن يُدرِّبَه في تلقِّي النُّبوَّةِ وتكاليفها، أمره بإلقاء العصا ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ موسى، فقلَب الله أوصافَها وأعراضها. وكانت عصاً ذاتَ شُعبتين، فصارت الشُّعبتان لها فماً، وصارت حيَّةً تسعى، أي: تنتقل، وتمشي وتلتقم الحجارة، فلمَّا رآها موسى عليه السلام رأى عِبْرةً، فـ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]، فقال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، وذلك أنه أَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً، أي: لَحِقه ما يَلحق البشر.

ورويَ أنَّ موسى تناولها بكُمَّي جُبَّته، فنُهي عن ذلك، فأخذها بيده، فصارت عصاً كما كانت أوَّلَ مرة، وهي سيرتُها الأولى[١]، وإنما أظهر له هذه الآيةَ؛ لئلَّا يَفزعَ منها إذا ألقاها عند فرعون. ويقال: إن العصا بعد ذلك كانت تُماشيه وتُحادثه، ويُعلِّق عليها أحمالَه، وتُضيء له الشُّعبتان بالليل كالشَّمع، وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشُّعبتان كالدَّلو، وإذا اشتهى ثمرةً ركَزها في الأرض، فأثمرت تلك الثمرة[٢].

وقيل: إنها كانت مِن آس الجَنة[٣]. وقيل: أتاه جبريلُ بها. وقيل: مَلَكٌ. وقيل: قال له شعيب: خُذْ عصاً من ذلك البيت، فوقعَتْ بيده تلك العصا، وكان عصا آدمَ عليه السلامُ هبط بها من الجنة[٤]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ النحَّاس[٥]: ويجوز «حَيَّةٌ»، يقال: خرجتُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١ - ٤٢.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥ بنحوه.

(٣) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٧٩ لابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) عرائس المجالس ١٧٧ - ١٧٩ بنحوه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦.

فإذا زيدٌ جالسٌ وجالساً. والوقف: «حَيَّه» بالهاء. والسعي: المشي بسرعة وخِفَّة.

وعن ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذَكَراً يبتلع الصَّخرَ والشَّجر، فلما رآه يبتلع كلَّ شيء خافه ونَفَر منه. وعن بعضهم: إنما خاف منه؛ لأنه عَرَفَ ما لقي آدمُ منها. وقيل: لمَّا قال له ربُّه: «لَا تَخَفْ» بلغ مِن ذهاب خوفِه وطمأنينةِ نفسه أنْ أدخل يده في فمها وأخذ بلَحْيَيها[١].

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ سمعتُ عليَّ بن سليمان[٢] يقول: التقدير: إلى سيرتها، مثل ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ قال: ويجوز أن يكونَ مصدراً؛ لأن معنى[٣] سنعيدها: سنسيِّرها.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ يجوز في غير القرآن: ضُمَّ، بفتْح الميم وكسرها؛ لالتقاء الساكنين، والفتحُ أجودُ؛ لخِفَّته، والكسرُ على الأصل. ويجوز الضمُّ على الإتباع. ويَدٌ أصلها: يَدْيٌ على فَعْل[٤]، يدلُّ على ذلك: أَيْدٍ. وتصغيرُها: يُدَيَّة.

والجَناح: العَضُد؛ قاله مجاهد، وقال: «إلى» بمعنى تحت[٥]. قُطْرُب: «إِلَى جَنَاحِكَ»: إلى جنبك[٦]، ومنه قولُ الراجز:

أَضُمُّهُ[٧] للصدرِ والجَنَاحِ

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٤ . واللَّحْي: مَنْبِتُ اللحية، وهما لحيان. الصحاح (لحي).

(٢) القائل هو النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٣/ ٣٧ .

(٣) في النسخ الخطية: المعنى، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس.

(٤) في النسخ الخطية: ويد أصلها فعل يدي، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧ ، والكلام منه.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٥ ، وأخرجه عنه الطبري ١٦/ ٤٩ .

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(م): جيبك، والمثبت من (ظ).

(٧) في النسخ الخطية: أضمك، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في مجاز القرآن ٢/ ١٨ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٠ .

وقيل: إلى جيبك، فعبَّر عن الجَيب[1] بالجناح؛ لأنه مائلٌ في مَحلِّ الجناح. وقيل: إلى عندك. وقال مقاتل: «إلى» بمعنى مع، أي: مع جناحك.

و﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير بَرَصٍ؛ نوراً ساطعاً يُضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمرِ وأشدَّ ضوءاً؛ عن ابن عباس وغيره[2]. فخرجتْ نوراً، مخالِفةً[3] للونه. و«بَيْضَاءَ» نصب على الحال، ولا تنصرف؛ لأن فيها أَلِفَي التأنيث لا يُزايلانها، فكأنَّ لزومَها[4] عِلَّةٌ ثابتة[5]، فلم تنصرف في النكرة، وخالَفتا[6] الهاء؛ لأن الهاءَ تُفارق الاسم. و«مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» «مِن» صِلةُ «بيضاء» كما تقول: ابيضَّت من غير سوء.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ سِوى العصا. فأخرج يدَه مِن مِدْرَعةٍ له مِصريَّةٍ[7]، لها شعاعٌ مثلُ شعاع الشمسِ يُغشي[8] البصر. و«آيةً» منصوبةٌ على البدل من «بيضاء»؛ قاله الأخفش[9]. النحاس[10]: وهو قولٌ حسن. وقال الزجَّاج[11]: المعنى: آتيناكَ آيةً أُخرى، أو نؤتيك؛ لأنه لمَّا قال: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ دلَّ على أنه قد آتاه آيةً أخرى.

---

(١) في (خ) و(ز) و(ظ) و(م): إلى جنبك، فعبّر عن الجنب...، والمثبت من (د).

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٥ .

(٣) في (ظ): مخالفاً.

(٤) في (م): لزومهما، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧ ، والكلام منه.

(٥) في (ظ) و(م)، وإعراب القرآن: ثانية.

(٦) في إعراب القرآن للنحاس: وخالفتها.

(٧) في (د) و(ز): مضربة، ولم تجود في (ظ).

(٨) في (م): يعشي.

(٩) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٩ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧ .

(١١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ يريد العظمى. وكان حقُّه أنْ يقول: الكبيرة، وإنما قال: «الكبرى»؛ لوِفاق رؤوسِ الآي. وقيل: فيه إضمار؛ معناه: لِنُريك من آياتنا الآيةَ الكبرى؛ دليلُه قولُ ابنِ عباس: يدُ موسى أكبرُ آياته(١).

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ لمَّا آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدلُّ على أنه رسول، أمره بالذَّهاب إلى فِرعون، وأن يدعوَه. و«طغى» معناه: عصى وتكبَّر، وكفر وتجبَّر، وجاوز الحدّ.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى . وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى . وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى . وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى . هَٰرُونَ أَخِى﴾ طلب الإعانةَ لتبليغ الرسالة.

ويقال: إنَّ الله أعلمه بأنه رَبَطَ على قلب فرعونَ وأنه لا يؤمن، فقال موسى: يا ربّ، فكيف تأمرني أنْ آتيَه وقد ربطتَ على قلبه؟ فأتاه مَلَكٌ من خُزَّان الريح فقال: يا موسى، انطلق إلى ما أمرك اللهُ به. فقال موسى عند ذلك: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، أي: وسِّعْه، ونوِّره بالإيمان والنبوَّة ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي: سهِّل عليَّ ما أمرتَني به من تبليغ الرسالةِ إلى فرعون(٢). «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي» يعني العُجْمةَ التي كانت فيه مِن جمرة النارِ التي ألقاها(٣) في فِيهِ وهو طفل.

قال ابن عباس: كانت في لسانه رُتَّة(٤). وذلك أنه كان في حِجر فرعونَ ذات يومٍ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥.

(٢) الوجيز للواحدي ٢/ ١٧ على هامش مراح لبيد.

(٣) في (د) و(م): أطفأها.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٣٥، والرُّتَّة: العُجمة في الكلام. الصحاح (رتت).

وهو طفل، فلطَمه لَطْمةً، وأخذ بلحيته فنتفها، فقال فرعونُ لآسية: هذا عدوِّي، فهاتِ الذَّبَّاحين، فقالت آسية: على رِسْلك، فإنه صبيٌّ لا يُفرِّق بين الأشياء. ثم أتَتْ بطَسْتين، فجعلت في أحدهما جمراً، وفي الآخر جوهراً، فأخذ جبريلُ بيد موسى فوضعها على النار، حتى رفع جمرةً ووضعها في فيه على لسانه، فكانت تلك الرُّتَّة[١].

وروي أنَّ يده احترقت، وأنَّ فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ. ولما دعاه قال: إلى أيِّ ربٍّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجَزتَ عنها. وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يدُه؛ لئلَّا يُدخِلَها مع فرعون في قَصْعة واحدة، فتنعقدَ بينهما حُرمةُ المُؤاكلة.

ثم اختُلف هل زالت تلك الرُّتَّة، فقيل: زالت؛ بدليل قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. وقيل: لم تَزُلْ كلُّها، بدليل قولِه حكايةً عن فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾. ولأنه لم يقل: ٱحلُل كلَّ لساني، فدلَّ على أنه بقي في لسانه شيءٌ من الاستمساك. وقيل: زالت بالكُلِّية، بدليل قوله: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾، وإنما قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لأنه عرفَ منه تلك العُقدةَ في التربية، وما ثبتَ عنده أنَّ الآفةَ زالتْ[٢].

قلت: وهذا فيه نظر؛ لأنه لو كان ذلك، لَمَا قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حين كلَّمه موسى بلسانٍ ذَلقٍ فصيح. والله أعلم[٣].

وقيل: إن تلك العُقدةَ حدثتْ بلسانه عند مناجاة ربِّه، حتى لا يُكلِّمَ غيرَه إلَّا بإذنه[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٥٣ - ٥٤ عن سعيد بن جبير وابن أبي نجيح ومجاهد والسدي.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٣٥ .

(٣) ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره ٤/ ١٣٠ أن اتهام فرعون لموسى عليه السلام بأنه لا يكاد يُبين إنما هو افتراءٌ من فرعون، حمله على ذلك الكفر والعنادُ، وليس عدم الإفصاح من موسى بسبب لثغته بالجمرة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ .

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ أي: يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه. والفِقه في كلام العرب: الفَهم. قال أعرابيٌّ لعيسى بنِ عمر: شَهِدتُ بالفقه. تقول منه: فَقِهَ الرجل، بالكسر، وفلانٌ لا يَفْقَه ولا يَنْقَه[١]، وأفقهتُكَ الشيء، ثم خُصَّ به عِلمُ الشريعة، والعالم به فقيهٌ. وقد فَقُه ـ بالضم ـ فَقَاهة، وفَقَّهه اللهُ. وتَفقَّه: إذا تعاطى ذلك، وفاقهتُه: إذا باحثتَه في العلم؛ قاله الجوهريُّ[٢].

والوزير: المُؤازِر، كالأكيل: المُؤاكِل؛ لأنه يحمل عن السلطان وِزْرَه، أي: ثِقْله[٣].

وفي كتاب النَّسائي[٤] عن القاسم بنِ محمد: سمعتُ عمَّتي[٥] تقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن وَلِيَ منكم عملاً فأراد اللهُ به خيراً، جعل له وزيراً صالحاً، إنْ نسي ذَكَّره، وإن ذَكَر أعانه». ومِن هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام: «ما بَعَثَ اللهُ مِن نبيٍّ ولا استخلف من خليفة إلَّا وله بِطانتان[٦]: بطانةٌ تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانةٌ تأمره بالشرِّ وتَحضُّه عليه، فالمعصومُ مَن عَصَمه الله» رواه البخاري[٧].

فسأل موسى اللهَ تعالى أن يجعل له وزيراً، إلا أنه لم يُرِد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى يكون[٨] شريكاً له في النبوَّة، ولولا ذلك لَجاز أنْ يستوزرَه من غير مسألة.

---

(١) أي: لا يفهم. الصحاح (نقه).

(٢) في الصحاح (فقه).

(٣) الصحاح (وزر).

(٤) المجتبى ٧/ ١٥٩ ، والكبرى (٧٧٧٩)، وهو عند أحمد (٢٤٤١٤)، وأبي داود (٢٩٣٢).

(٥) هي السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٦) في (م): إلا كانت له بطانتان.

(٧) برقم (٦٦١١) و(٧١٩٨)، وسلف ٥/ ٢٧٤ .

(٨) في النسخ: لا يكون، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٤٠١ ، والكلام منه.

وعَيَّن فقال: «هَارُونَ». وانتصب على البدل مِن قوله: «وَزِيراً». أو يكونُ منصوباً بـ«اجعل» على التقديم والتأخير، والتقدير: واجعل لي هارونَ أخي وزيراً[١].

وكان هارونُ أكبرَ من موسى بسَنَة، وقيل: بثلاث[٢].

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي: ظهري. والأَزْر: الظهر من موضع الحَقْوين، ومعناه: تقوى به نفسي[٣]. والأزر: القوَّة، وآزره: قوَّاه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال أبو طالب:

ألـيـس أبـونـا هـاشـمٌ شَـدَّ أَزْرَهُ وأوصى بنيه بالطِّعان وبالضَّرْبِ[٤]

وقيل: الأزر: العَوْن. أي: يكون عوناً يَستقيم به أمري. قال الشاعر:

شَـددتُ بـه أَزْرِي وأَيْـقـنْـتُ أنَّـهُ أخو الفقر مَن ضاقت عليه مذاهبُهْ[٥]

وكان هارونُ أكثرَ لحماً من موسى، وأتمَّ طولاً، وأبيضَ جِسماً، وأفصحَ لساناً[٦]. ومات قبل موسى بثلاثِ سنين[٧]. وكان في جبهة هارونَ شامَة، وعلى أرنبة أنفِ موسى شامة، وعلى طرف لسانِه شامة[٨]، ولم تكن على أحدٍ قبلَه، ولا تكونُ على أحد بعده، وقيل: إنها كانت سببَ العقدةِ التي في لسانه. والله أعلم.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: في النُّبوَّة وتبليغِ الرسالة[٩]. قال المفسِّرون: كان هارون

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٦٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ ، وتفسير البغوي ٢/ ١١٣ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ ، والحقو: الخَصْر. الصحاح (حقو).

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٥٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٠١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ دون نسبة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢١٦ ، وعرائس المجالس ص١٧٤ بنحوه.

(٧) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٧٨ عن وهب بن منبّه.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢١٦ .

يومئذ بمصر، فأمر اللهُ موسى أن يأتيَ هو هارون[١]، وأوحى إلى هارون وهو بمصرَ أن يتلقَّى موسى، فتلقَّاه إلى مرحلة، وأخبره بما أُوحي إليه، فقال له موسى: إنَّ الله أمرني أن آتيَ فرعون، فسألتُ ربي أن يجعلَك معي رسولاً.

وقرأ العامة: ﴿أَخِى ٱشْدُدْ﴾ بوصل الألف، «وَأَشْرِكْهُ» بفتح الهمزة على الدعاء، أي: اشدد يا ربِّ أزري، وأشركه معي في أمري. وقرأ ابن عامر ويحيى بنُ الحارث وأبو حَيْوة والحسنُ وعبد الله بنُ أبي إسحاق: ﴿أَشْدُدْ﴾ بقطع الألف، ﴿وأُشْرِكه﴾ بضم الألف[٢]، أي: أنا أفعل ذلك، أشدد أنا به أَزْري «وَأُشرِكه» أنا يا ربِّ ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾.

قال النحاس[٣]: جعلوا الفعلين في موضع جزمٍ جواباً لقوله: ﴿اجْعَلْ لِّى وَزِيرًا﴾، وهذه القراءةُ شاذَّةٌ بعيدة؛ لأن جواب مِثْلِ هذا إنما يتخرَّج بمعنى الشرطِ والمجازاة؛ فيكون المعنى: إن تجعل لي وزيراً من أهلي أَشْدُدْ به أزري، وأُشركْه في أمري. وأمرُه النبوةُ والرِّسالة، وليس هذا إليه ﷺ فيخبِرَ به، إنما سأل اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يُشركَه معه في النبوَّة.

وفَتَحَ الياءَ من ﴿أَخِى﴾ ابنُ كثير وأبو عمرو[٤].

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ قيل: معنى «نسبحك»: نصلِّي لك[٥]. ويحتمل أن يكونَ التسبيحُ باللسان. أي: ننزِّهك عمَّا لا يَليق بجلالك. و«كَثِيراً» نعتٌ لمصدر محذوف.

---

(١) في النسخ الخطية: هو وهارون، والمثبت من (م). والكلام بنحوه في عرائس المجالس ص١٨٣-١٨٤ .

(٢) قراءة ابن عامر في السبعة ص٤١٨ ، والتيسير ص١٥١ . وقراءة الحسن وابن أبي إسحاق في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨ . ويحيى بن الحارث: هو الإمام الكبير أبو عمرو الغساني، الذِّماري، ثم الدمشقي، إمام جامع دمشق. قرأ على ابن عامر. السير ٦/ ١٨٩ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨ .

(٤) السبعة ص٤١٨ ، والتيسير ص٦٧ - ٦٨ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٥ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٠ .

ويجوز أن يكونَ نعتاً لوقت[١]. والإدغامُ حسن، وكذا ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[٢].

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ قال الخطّابي: البصير: المبصر، والبصير: العالم بخفيّات الأمور، فالمعنى؛ أي: عالماً بنا، ومُدرِكاً لنا في صِغَرنا فأحسنت إلينا، فأَحسِنْ إلينا كذلك يا ربّ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ لمَّا سأله شرحَ الصدر وتيسيرَ الأمر إلى ما ذكر، أجاب سُؤلَه، وآتاه طَلِبَته ومرغوبه[٣]. والسؤل: الطَّلِبة، فُعْل بمعنى مفعول، كقولك: خُبز بمعنى مخبوز، وأُكْل بمعنى مأكول[٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي: قبل هذه، وهي[٥] حفظُه سبحانه له مِن شرِّ الأعداء في الابتداء، وذلك حين الذَّبح. والله أعلم. والمنُّ: الإحسان والإفضال. وقولُه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ قيل: «أوحينا»: ألهمنا[٦]. وقيل:

(١) يعني لوقت محذوف، أي: وقتاً كثيراً. ينظر الدر المصون ٨/ ٣٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٥٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣ بنحوه.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٣٦ .

(٥) في النسخ الخطية: وهو، والمثبت من (م).

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٧ .

أَوحى إليها في النوم[١]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَوحى إليها كما أوحى إلى النبيِّين.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ قال مقاتل: مؤمن آلِ فرعونَ هو الذي صنع التابوت ونَجَره، وكان اسمُه حِزْقيل[٢]. وكان التابوت من جُمَّيز[٣]. ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: اطرحيه في البحر: نهر النيل.

﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أمرٌ، وفيه معنى المُجازاة، أي: اقذفيه، يُلقِه اليمُّ. وكذا قولُه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني فرعون، فاتخذت تابوتاً، وجعلت فيه نِطعاً[٥]، ووضعت فيه موسى، وقَيَّرت[٦] رأسَه وخِصَاصه ـ يعني: شقوقَه ـ ثم ألقته في النيل، وكان يَشْرَع منه نهرٌ كبير في دار فرعون، فساقه اللهُ في ذلك النهرِ إلى دار فرعون.

ورويَ أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه وقَيَّرته وجَصَّصته، ثم ألقته في اليمّ؛ وكان يَشْرَع منه إلى بستان فرعونَ نهرٌ كبير، فبينا هو جالسٌ على رأس بِركةٍ مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به فأُخرج، ففتح، فإذا صبيٌّ أصبح الناس، فأحبَّه عدوُّ اللهِ حبًّا شديداً لا يتمالكُ أن يصبرَ عنه[٧]. وظاهرُ القرآن يدلُّ على أنَّ البحر ألقاه بساحله، وهو شاطئه، فرأى فرعونُ التابوتَ بالساحل، فأمر بأخذه. ويحتمل أن يكونَ إلقاءُ اليمِّ بموضعٍ من الساحل، فيه فُوَّهةُ نهرِ فرعون، ثم أدَّاه النهرُ إلى حيثُ[٨]

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٥٢.

(٣) ضرب من الشجر يشبه التين. اللسان (جمز).

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩.

(٥) النطع: بساط من الأدم. القاموس (نطع).

(٦) أي: طلته بالقار. وهو شيء أسود يُطلى به السفن والإبل، أو هو الزفت. القاموس (قير).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧، وزاد المسير ٥/ ٢٨٤ بنحوه.

(٨) في (د) وف): جنب، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٥٣٦، والكلام منه.

البِركة. والله أعلم.

وقيل: وجدَتْه ابنةُ فرعونَ وكان بها بَرَص، فلما فتحت التابوتَ شُفيت.

ورويَ أنهم حين التقطوا التابوت، عالجوا فتحَه فلم يقدِروا عليه، وعالجوا كسرَه فأعياهم، فدنت آسِيةُ فرأت في جوف التابوتِ نوراً، فعالجته ففتحته، فإذا صبيٌّ نورُه بين عينيه، وهو يَمَصُّ إبهامَه لبناً، فأحبُّوه. وكانت لفرعون بنتٌ برصاء، وقال له الأطبَّاء: لا تبرأُ إلَّا من قِبَل البحر، يوجد فيه شِبهُ إنسانٍ دواؤها رِيقُه، فلطَّخت البرصاءُ بَرَصَها بريقه فبرئت. وقيل: لمَّا نظرت إلى وجهه برئت[١]. والله أعلم.

وقيل: وجَدَتْه جَوارٍ لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون، فرأى صبيًّا مِن أصبح الناس وجهاً، فأحبَّه فرعون، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. قال ابن عباس: أحبَّه اللهُ وحَبَّبه إلى خلقه. وقال عطية[٢]: جعل عليه مسحةً مِن جمالٍ لا يكاد يصبر عنه مَن رآه. وقال قَتَادة: كانت في عيني موسى مَلَاحةٌ؛ ما رآه أحدٌ إلا أحبَّه وعَشِقَه[٣]. وقال عِكْرمة: المعنى: جعلت فيك حُسناً ومَلاحة، فلا يراك أحدٌ إلا أحبَّك[٤].

وقال الطبَري: المعنى: وألقيتُ عليك رحمتي. وقال ابن زيد: جعلتُ مَن رآك أحبَّك، حتى أحبَّك فرعونُ، فسلِمتَ من شرِّه، وأحبَّتك آسيةُ بنتُ مُزَاحم فتبنَّتك[٥].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ قال ابن عباس: يريد: إنَّ ذلك بعيني حيث جُعلتَ في التابوت، وحيث أُلقي التابوتُ في البحر، وحيث التقطكَ جواري امرأةِ فرعون؛ فأردنَ أنْ يفتَحن التابوتَ لينظرن ما فيه، فقالت منهنَّ واحدة: لا تَفتحْنه حتى تأتينَ به

---

(١) الكلام بنحوه في عرائس المجالس ص١٧٢ .

(٢) في (م): ابن عطية.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٨ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٠٢ .

سيِّدَتكنَّ، فهو أحظى لَكُنَّ عندها، وأجدرُ بألَّا تتَّهمَكُنَّ بأنكنَّ وجدتنَّ فيه شيئاً فأخذتنَّه لأنفسكنّ. وكانت امرأةُ فرعونَ لا تشرب من الماء إلَّا ما استقينه أولئك الجواري. فذهبنَ بالتابوت إليها مُغلَقاً، فلما فتحته رأتْ صبيًّا لم يُرَ مثلُه قطّ، وأُلقِيَ عليها محبَّته، فأخذته، فدخلت به على فرعون، فقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ قال لها فرعون: أمَّا لكِ فنعَم، وأما لي فلا. فبلغَنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنَّ فرعون قال: نَعم، هو قُرَّةُ عينٍ لي ولك، لآمن وصدَّق»؛ فقالت: هَبْه لي ولا تقتلْه؛ فوهبه لها[1].

وقيل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي: تُربَّى وتُغذَّى على مرأًى مني؛ قاله قتادة[2].

قال النحَّاس: وذلك معروفٌ في اللغة، يقال: صنعت الفرسَ وصنَّعته[3]: إذا أحسنتَ القيامَ عليه. والمعنى: «ولِتصنع على عينِي» فعلتُ ذلك. وقيل: اللام متعلِّقةٌ بما بعدها مِن قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ على التقديم والتأخير، فـ«إذ» ظرفُ «لِتُصنع». وقيل: الواو في «ولِتصنع» زائدة.

وقرأ ابنُ القَعْقَاع: «وَلْتُصْنعْ» بإسكان اللام على الأمر[4]، وظاهرُه للمخاطَب، والمأمورُ غائب.

وقرأ أبو نُهَيك: «ولِتَصْنَعَ» بفتح التاء[5]. والمعنى: ولِتكونَ حركتُك وتصرُّفك بمشيئتي وعلى عينٍ مني. ذكره المهدوي[6].

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ العامل في «إِذ تَمشِي»: «أَلْقَيْتُ» أو: «تُصْنَعَ»، ويجوز أن يكون بدلاً من «إِذْ أَوْحَيْنَا». وأختُه اسمُها مريم[7].

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً النسائي في الكبرى (١١٢٦٣)، والطبري ١٦/ ٦٤ - ٦٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٩ .

(٣) في (ظ): واصطنعته، وفي (م): وأصنعته، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النشر ٢/ ٣٢٠ . وابن القعقاع: هو أبو جعفر من العشرة.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٦٠ .

(٦) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤ ، لثعلب.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٣٧ .

﴿فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك أنها خرجت متعرفة خبره، وكان موسى لما وهبه فرعون لامرأته طلبت له المراضع، وكان لا يأخذ من أحدٍ، حتى أقبلت أختُه، فأخذته ووضعته في حِجْرها وناولته ثديَها، فمصَّه وفَرِحَ به. فقالوا لها: تُقيمين عندنا، فقالت: إنه لا لبنَ لي، ولكن أَدلُّكم على مَن يَكْفُله وهم له ناصحون. قالوا: ومن هي؟ قالت: أمي: فقالوا: لها لبنٌ؟ قالت: لبنُ أخي هارون[(١)]. وكان هارون أكبرَ من موسى بسنة. وقيل: بثلاث. وقيل: بأربع، وذلك أنَّ فرعون رَحِمَ بني إسرائيل فرفع عنهم القتلَ أربعَ سنين، فَوُلِدَ هارونُ فيها؛ قاله ابنُ عباس. فجاءت الأمُّ فقبل ثديَها. فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾. وفي مصحف أُبيّ: «فرددناك».

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وروى عبد الحميد عن ابن عامر: «كَيْ تَقِرَّ عَيْنُهَا» بكسر القاف[(٢)].

قال الجوهري: وقرِرتُ به عيناً، وقرَرْتُ به قُرَّةً وقُروراً فيهما، ورجلٌ قريرُ العين، وقد قرَّت عينُه تَقِرُّ وتَقَرّ: نقيض سَخُنتْ. وأقرَّ اللهُ عينه، أي: أعطاه حتى تَقَرَّ، فلا تطمحُ إلى مَن هو فوقَه، ويقال: حتى تَبْرُدَ ولا تسخُن. فللسُّرور دمعةٌ باردة، وللحزن دمعةٌ حارَّة. وقد تقدَّم هذا المعنى في «مريم»[(٣)]. «وَلَا تَحْزَنَ» أي: على فقدك.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قال ابن عباس: قتل قِبْطيًّا كافراً. قال كعب: وكان إذ ذاك ابنَ اثنتي عشرةَ سنة[(٤)]. في «صحيح» مسلم[(٥)]: وكان قتله خطأ؛ على ما يأتي.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٦، وزاد المسير ٥/ ٢٨٥.

(٢) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ هذه القراءة دون نسبة، وقراءة ابن عامر المشهورة عنه كقراءة الجماعة وعبد الحميد هو ابن بكار، أبو عبد الله الكلاعي الدمشقي، نزيل بيروت. قرأ القرآن بحرف ابن عامر على أيوب بن تميم الداري. غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٣٦٠، وتهذيب الكمال ١٦/٤٠٨-٤٠٩.

(٣) ١٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧ - ٢١٨.

(٥) برقم (٢٩٠٥): (٥٠) من قول سالم بن عبد الله بن عمر ﵄.

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: آمنّاك من الخوف والقتل والحبس.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك اختباراً حتى صلَحتَ للرِّسالة. وقال قتادة: بلوناك بلاءً. مجاهد: أخلصناك إخلاصاً[١]. وقال ابن عباس: اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أوَّلُها: حملته أُمُّه في السَّنة التي كان فرعون يَذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في اليمّ، ثم مَنْعُه من الرَّضاع إلَّا مِن ثدي أمِّه، ثم جرُّه بلحية فرعون، ثم تناولُه الجمرةَ بدل الدُّرَّة، فدرأ ذلك عنه قَتْلَ فرعون، ثم قَتْلُه القِبطيَّ وخروجُه خائفاً يترقَّب، ثم رعايته[٢] الغنمَ ليتدرَّبَ بها على رعاية الخلق. فيقال: إنه نَدَّ له من الغنم جَدْيٌ فاتَّبعه أكثرَ النهار، وأتعبه، ثم أخذه فقبَّله وضمَّه إلى صدره، وقال له: أتعبتني وأتعبتَ نفسَك؛ ولم يغضَبْ عليه. قال وَهْب بنُ منبّه: ولهذا اتَّخذه الله كليماً. وقد مضى في «النساء»[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ يريد: عشرَ سنينَ أتمَّ الأجلين. وقال وَهْب: لبث عند شعيب ثماني وعشرين سنة، منها عشرٌ مهرُ امرأتِه صفورا ابنةِ شعيب، وثماني عشرةَ أقامها عنده حتى وُلِد له عنده[٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بنُ كيسان: يريد: موافقاً للنبوَّة والرسالة؛ لأن الأنبياء لا يُبعثون إلَّا أبناءَ أربعين سَنة[٥]. وقال مجاهدٌ ومقاتل: «على قَدَرٍ»: على وعد. وقال محمد بنُ كعب: ثم جئتَ على القَدَر الذي قدَّرتُ لك أنك تجيء فيه[٦]. والمعنى واحد، أي: جئتَ في الوقت الذي

---

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ٧٠ - ٧١ .

(٢) في النسخ الخطية: رعاية، والمثبت من (م). والخبر بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٠٣ .

(٣) ٧/ ٢٢٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢١٨ .

(٥) ذكره البغوي ٣/ ٢١٨ عن عبد الرحمن بن كيسان، وأخرجه الطبري ١٦/ ٧٢ عن قتادة مختصراً.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٨ .

أردنا إرسالَك فيه. وقال الشاعر[(١)]:

نــالَ الــخــلافــةَ أو كــانــت لــه قَــدَراً كــمــا أتَــى ربَّــه مــوســى عــلــى قَــدَرِ

قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ قال ابن عباس: أي: اصطفيتك لوحيي ورسالتي[(٢)]. وقيل: «اصْطَنَعْتُكَ»: خلقتك، مأخوذٌ من الصَّنعة[(٣)]. وقيل: قوَّيتُك وعلَّمتُك لتبلِّغَ عبادي أمري ونهيي.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ قال ابن عباس: يريد التِّسعَ الآياتِ التي أُنزلت عليه[(٤)]. ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ قال ابن عباس: تضعفا، أي: في أمر الرسالة؛ وقاله قتادة[(٥)]. وقيل: تفترا. قال الشاعر:

فــمــا وَنَــى مــحــمــدٌ مُــذَ انْ غَــفَــرْ لــه الإلــهُ مــا مــضــى ومــا غَــبَــرْ[(٦)]

والْوَنَى: الضَّعفُ والفتور، والكَلَال والإعياء. وقال امرؤ القيس:

مِسَحٌّ إذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى أثـرنَ غُـبـاراً بـالـكَـدِيـد الـمُـركَّـلِ[(٧)]

ويقال: وَنَيْتُ في الأمر أني وَنًى ووَنْياً، أي: ضَعُفت، فأنا وانٍ، وناقةٌ وانِية، وأَوْنيتُها أنا: أضعفتها وأتعبتها. وفلانٌ لا يَني كذا، أي: لا يزال[(٨)]. و به فَسَّر أبانٌ معنى الآيةِ، واستشهد بقول طَرَفة:

---

(١) هو جرير، والبيت في ديوانه ١/ ٤١٦، وقد سلف ١/ ٣٢٥.
(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠٤.
(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٨.
(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٧٣ - ٧٤ عنهما بنحوه.
(٦) النكت والعيون ٣/ ٤٠٤، والرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص٦٧، وسلف ٩/ ٢٧٩.
(٧) ديوان امرئ القيس ص٢٠. قال شارحه: قوله: مسحّ، أي: يسحّ العَدْوَ سحًّا مثل سح المطر، وهو انصبابه. والسابحات: التي تبسط يديها إذا عَدَت فكأنها تسبح. والكديد: ما غلظ من الأرض. والمُركَّل: الذي ركلته الخيل بحوافرها، فأثارت الغبار لصلابتها وشدة وقعها.
(٨) الصحاح (وني).

كـأنَّ الـقُـدورَ الـرَّاسـيـاتِ أمـامـهـم قِـبَـابٌ بَـنَـوهـا لا تَـنـي أبـداً تَـغْـلـي[١]

وعن ابن عباس أيضاً: لا تُبطئا[٢]. وفي قراءة ابنِ مسعود: «وَلَا تَهِنا فِي ذِكرِي»[٣] وتحميدي وتمجيدي وتبليغ رسالتي.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ﴾ قال في أول الآية: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ وقال هنا: «اذهبا»، فقيل: أمر اللهُ تعالى موسى وهارونَ في هذه الآيةِ بالنُّفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب أوَّلاً موسى وحدَه تشريفاً له[٤]، ثم كرَّر للتأكيد[٥]. وقيل: بيَّن بهذا أنه لا يكفي ذهابُ أحدِهما. وقيل: الأول: أمرٌ بالذهاب إلى كل الناس، والثاني: بالذهاب إلى فرعون[٦].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ دليلٌ على جواز الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وأنَّ ذلك يكون باللِّين من القول لمن معه القُوَّة وضُمنت له العِصمة، ألَا تراه قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، وقال: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٧] [الآية: ٤٦]. فكيف بنا، فنحن أَوْلى بذلك. وحينئذٍ يحصل الآمرُ والناهي على مرغوبه، ويظفَر بمطلوبه، وهذا واضحٌ.

---

(١) لم نقف عليه في ديوان طرفة والكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٠٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٠١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٧ .

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ٥٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٨ .

الثالثة: واختلف الناس في معنى قوله: «لَيِّناً»؛ فقالت فِرقةٌ منهم الكلبيُّ وعكرمة: معناه: كَنِّياه. وقاله ابنُ عباس ومجاهد والسُّدِّي. ثم قيل: وكُنْيته أبو العباس. وقيل: أبو الوليد. وقيل: أبو مُرَّة[(١)]؛ فعلى هذا القولِ تكنيةُ الكافر جائزةٌ إذا كان وجيهاً[(٢)] ذا شرف، وطُمِع بإسلامه. وقد يجوز ذلك وإن لم يُطمَع بإسلامه؛ لأن الطمعَ ليس بحقيقة تُوجب عملاً.و قد قال ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه»[(٣)] ولم يقل: وإنْ طَمِعتم بإسلامه[(٤)]، ومن الإكرام دعاؤه بالكُنية[(٥)].وقد قال ﷺ لصفوان بنِ أمية: «اِنْزِلْ أبا وهب»[(٦)] فكنَّاه. وقال لسعد: «ألم تسمع ما يقولُ أبو حُبَاب؟» يعني عبدَ الله بنَ أُبيّ[(٧)].

ورُوي في الإسرائيليَّات أنَّ موسى عليه السلام قام على باب فرعونَ سَنةً، لا يَجِدُ رسولاً يُبلِّغ كلاماً حتى خرج، فجرى له ما قصَّ اللهُ علينا من ذلك، وكان ذلك تسليةً لمن جاء بعده من المؤمنين في سيرتهم مع الظالمين، وربُّك أعلمُ بالمهتدين[(٨)].

وقيل: قال له موسى: تؤمنُ بما جئتُ به، وتعبد ربَّ العالمين، على أنَّ لك شباباً لا يَهْرَم إلى الموت، ومُلكاً لا يُنزع منك إلى الموت، ويُنسأ في أجلك أربع مئة سنة،

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧، وزاد المسير ٥/ ٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٢) في (خ) و(ف): وجهاً.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال البوصيري: في إسناده سعيد بن مسلمة، وهو ضعيف.

(٤) في (م): في إسلامه.

(٥) التمهيد ١٢/ ٣٥ .

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣ - ٥٤٤ عن الزهري مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٢/ ١٩ : هذا الحديث لا أعلمه يتصل من وجه صحيح، وهو حديث مشهور، معلوم عند أهل السير... وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده إن شاء الله.

(٧) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (٦٢٠٧)، ومسلم (١٧٩٨)، وسلف ٢/ ٣١٥ ، وسعد: هو ابن عبادة ﷺ.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٨ .

فإذا مِتُّ دخلتَ الجنة. فهذا القولُ اللَّيِّن.

وقال ابن مسعود: القولُ اللَّيِّن قولُه تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[١] [النازعات: ١٨-١٩].

وقد قيل: إنَّ القول اللَّيِّنَ قولُ موسى: يا فرعونُ، إنَّا رسولا ربِّك ربِّ العالمين. فسمَّاه بهذا الاسمِ؛ لأنه كان أحبَّ إليه ممَّا سواه[٢] مما قيل له، كما يسمَّى عندنا الملكُ ونحوُه.

قلت: القول اللَّيِّن هو القولُ الذي لا خُشونةَ فيه، يقال: لان الشيءُ يَلِين لِيناً، وشيءٌ لَيِّن، ولَيْن مخفَّفٌ منه، والجمع: أَلْيِناء[٣]. فإذا كان موسى أُمر بأن يقولَ لفرعون قولاً ليناً، فمَن دونَه أحرى بأنْ يقتديَ بذلك في خطابه، وأمْرِه بالمعروف في كلامه. وقد قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[٤]، والحمدُ لله.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ معناه: على رجائكما وطَمَعِكما. فالتوقُّع فيها إنما هو راجعٌ إلى جهة البشر[٥]؛ قاله كُبَراء النحويِّين؛ سيبويه وغيرُه[٦]. وقد تقدَّم في أوَّل «البقرة»[٧].

قال الزجَّاج[٨]: «لعل» لفظةُ طمعٍ وتَرَجٍّ، فخاطبهم بما يعقلون. وقيل: «لعل»

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٥٨ .

(٢) قوله: مما سواه، من (م).

(٣) الصحاح (لين).

(٤) ٢/ ٢٣٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٧ .

(٧) ١/ ٣٤٢ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٧ .

هاهنا بمعنى الاستفهام، والمعنى: فانظُر هل يتذكَّر[١]. وقيل: هي بمعنى كي[٢]. وقيل: هو إخبارٌ من الله تعالى عن قول هارونَ لموسى: لعله يتذكَّر أو يخشى؛ قاله الحسن.

وقيل: إنَّ لعل وعسى في جميع القرآنِ لِما قد وقع. وقد تذكَّر فرعونُ حين أدركه الغرقُ وخشي فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. ولكن لم يَنفعْه ذلك؛ قاله أبو بكر الورَّاق[٣] وغيرُه.

وقال يحيى بنُ معاذ في هذه الآية: هذا رِفقُك بمن يقول: أنا الإله، فكيف رفقُك بمن يقول: أنت الإله[٤]؟!.

وقد قيل: إنَّ فرعون رَكَنَ إلى قول موسى لـمَّا دعاه، وشاور امرأتَه فآمنتْ، وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامانَ فقال: لا تفعل، بعد أن كنتَ مالكاً تصيرُ مملوكاً، وبعد أن كنتَ ربًّا تصير مربوباً[٥]. وقال له: أنا أردُّك شابًّا، فخَضَبَ لحيتَه بالسَّواد، فهو أوَّلُ مَن خضب[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ قال الضحَّاك: «يَفْرُطَ»: يَعْجَل. قال: و«يَطْغَى»: يعتدي. النحَّاس[٧]: التقدير: نخاف أن يفرطَ علينا

---

(١) ردَّ السمين في الدر ٨/ ٤٣ : كونها استفهامية وقال: يستحيل الاستفهام في حق الله تعالى كما يستحيل الترجّي.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٨ .

(٣) ذكره عنه البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٤) أخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠٨ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٦) أورده السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير ٣/ ٩٣) وعزاه للديلمي في الفردوس، عن أنس ﷺ، ورمز لضعفه.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩ - ٤٠ .

منه أمر، أي: يبدر[١]. قال الفرَّاء[٢]: فَرَط منه أمر[٣]؛ قال: وأفرط: أسرف. قال: وفَرَّط: ترك.

وقراءة الجمهور: «يَفْرُطَ» بفتح الياءِ وضمِّ الراء، ومعناه: يَعْجَل ويُبادِر بعقوبتنا. يقال: فَرَط منِّي أمرٌ، أي: بدر، ومنه: الفارطُ في الماء: الذي يتقدَّم القومَ إلى الماء[٤]. أي: يُعذِّبنا عذابَ الفارطِ في الذنب، وهو المتقدِّم فيه؛ قاله المبرّد[٥].

وقرأت فرقةٌ منهم ابنُ محيصِن: «يَفْرَطَ» بفتح الياء والراء؛ قال المهدوي: ولعلَّها لغة. وعنه أيضاً: بضم الياءِ وفتحِ الراء[٦]، ومعناها: أن يَحْمِلَه حاملٌ على التسرُّع إلينا. وقرأت طائفة: «يُفْرِط» بضم الياءِ وكسر الراء؛ وبها قرأ ابنُ عباس ومجاهدٌ وعكرمة وابن محيصن أيضاً. ومعناه: يشتط[٧] في أذيَّتنا[٨]، قال الراجز:

قـد أفـرطَ الـعِـلْـجُ عـلـيـنـا وعَـجـلْ[٩]

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال العلماء: لمَّا لَحِقَهما ما يَلحقُ البشرَ من الخوف على أنفسهما،

---

(١) قوله: أي: يبدر، ليس في (م).

(٢) معاني القرآن ٢/ ١٨٠ .

(٣) بعدها في (م): أي: بدر. والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠ ، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ .

(٥) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٥ .

(٦) المحتسب ٢/ ٥٢ .

(٧) في (د) و(م): يشطط.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ . ولم ينسب القراءة لأحد.

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤٠٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٧٦ ، وعندهما: فرطه بدل: أفرط.

عرَّفهما اللهُ سبحانه أنَّ فرعونَ لا يَصِلُ إليهما، ولا قومه. وهذه الآيةُ تردُّ على مَن قال: إنه لا يخاف؛ والخوفُ من الأعداء سُنَّةُ الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتِهم. ولقد أحسن البصريُّ رحمه الله حين قال للمخبِرِ عن عامر بنِ عبد الله[1] ـ أنه نزل مع أصحابه في طريق الشامِ على ماء، فحال الأسدُ بينهم وبين الماء، فجاء عامرٌ إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له: قد خاطرتَ بنفسك، فقال: لَأَن تختلفَ الأسنَّةُ في جَوْفي أحبُّ إليَّ مِن أنْ يعلمَ اللهُ أني أخاف شيئاً سواه ـ: قد خاف مَن كان خيراً من عامر؛ موسى ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠-٢١]، وقال: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال حين ألقى السحرةُ حبالَهم وعصيَّهم: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٧-٦٨].

قلت: ومنه حَفْرُ النبيِّ ﷺ الخندقَ حولَ المدينةِ تحصيناً للمسلمين وأموالِهم، مع كونه من التوكُّل والثقةِ بربه بمحلٍّ لم يبلُغْه أحد، ثم كان مِن أصحابه ما لا يجهله أحدٌ مِن تحوُّلهم عن منازلهم، مرَّة إلى الحبشة، ومرةً إلى المدينة؛ تخوُّفاً على أنفسهم من مشركي مكة، وهرباً بدينهم أنْ يَفْتنوهم عنه بتعذيبهم. وقد قالت أسماء بنتُ عُمَيس لِعمرَ لمَّا قال لها: سبقناكم بالهجرة[2]؛ فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم: كذبتَ يا عمر؛ كلَّا واللهِ، كنتم مع رسول الله ﷺ، يُطعِم جائعَكم، ويَعِظُ جاهلَكم، وكنا في دارِ ـ أو أرض ـ البُعداءِ البُغَضاءِ في الحبشة؛ وذلك في الله وفي رسوله؛ وايمُ اللهِ، لا أَطْعَمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكرَ ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنَّا نُؤذَى ونُخاف. الحديث بطوله خرَّجه مسلم[3].

---

(١) وهو عامر بن عبد قيس، أبو عبد الله، ويقال: أبو عمرو التميمي العنبري البصري، الزاهد. كان ثقة من عبَّاد التابعين. قيل: توفي في زمن معاوية ﷺ. السير ٤/ ١٥ . وقصته مذكورة بمعناها في تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٨٣٤).

(٢) في النسخ الخطية: للهجرة.

(٣) برقم (٢٥٠٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

قال العلماء: فالمخبِرُ عن نفسه بخلاف ما طَبَعَ اللهُ نفوسَ بني آدم كاذب؛ وقد طَبَعهم على الهرب ممَّا يضرُّها ويؤلمها ويُتْلفها. قالوا: ولا ضارَّ أضرُّ مِن سَبُع عادٍ في فلاة من الأرض على مَن لا آلةَ معه يدفعه بها عن نفسه، من سيف أو رمحٍ أو نَبْل أو قوس، وما أشبهَ ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ يريد: بالنصر والمعونةِ والقدرةِ على فرعون. وهذا كما تقول: الأمير مع فلان، إذا أردتَ أنه يَحميه. وقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عبارةٌ عن الإدراك الذي لا تَخفى معه خافية، تبارك اللهُ ربُّ العالمين[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ في الكلام حذفٌ، والمعنى: فأتياه، فقالا له ذلك. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خَلِّ عنهم. ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: بالسُّخْرة والتعب في العمل، وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذابٍ شديد، يُذبِّح أبناءهم، ويستخدم[(٢)] نساءهم، ويُكلِّفهم من العمل في الطِّين واللَّبِن وبناء المدائن ما لا يُطيقونه[(٣)]. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ قال ابن عباس: يريد العصا واليد[(٤)].

وقيل: إن فرعون قال له: وما هي؟ فأدخل يدَه في جيبِ قميصه، ثم أخرجها بيضاءَ لها شعاعٌ مثل شعاع الشمس، غلب نورُها على نور الشمس، فعَجِب منها. ولم يُرِهِ العصا إلا يومَ الزِّينة[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٦، وصفة السمع من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة والإجماع، فيجب إثباتها من غير تأويل ولا تحريف، وهو سمع حقيقي يليق بجلاله عز وجل.

(٢) في (د) و(م): يستحيي.

(٣) زاد المسير ٥/ ٢٩١، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ بنحوه.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٩٠ دون ذكر اليد.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢١٩ بنحوه.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ قال الزجاج[١]: أي: من اتَّبعَ الهدى سَلِمَ من سَخَطِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعذابه. قال: وليس بتحيةٍ، قال: والدليلُ على ذلك أنه ليس بابتداء لِقاءٍ ولا خِطاب. الفراء[٢]: السلامُ على مَن اتَّبع الهُدى ولمن اتَّبع الهُدى سواءٌ.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ يعني الهلاك والدَّمار في الدنيا، والخُلود في جهنم في الآخرة ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أنبياءَ الله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أعرَضَ عن الإيمان. وقال ابن عباس: هذه أرْجى آيةٍ للموحِّدين؛ لأنهم لم يُكذِّبوا ولم يتولَّوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ ذكر فرعون موسى دون هارون لرؤوس الآي. وقيل: خصَّصه بالذِّكر؛ لأنه صاحبُ الرسالة والكلامِ والآية[٣]. وقيل: إنهما جميعاً بلَّغا الرسالةَ وإنْ كان ساكتاً؛ لأنه في وقت الكلام إنما يتكلَّم واحدٌ، فإذا انقطع وازَره الآخرُ وأيَّده. فصار لنا في هذا البناء فائدةُ علم: أنَّ الاثنين إذا قُلِّدا أمراً فقام به أحدُهما، والآخرُ شخْصُه هناك موجودٌ مُستغنًى عنه في وقتٍ دون وقت أنهما أدَّيا الأمرَ الذي قُلِّدا، وقاما به واستوجبا[٤] الثوابَ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وقال: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ وقال: ﴿فَقُولَا لَهُ﴾، فأمَرهما جميعاً بالذهاب وبالقول، ثم أعلَمَنا في وقت الخطاب بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ أنه كان حاضراً مع موسى.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي: إنه يُعرَف بصفاته، وليس له اسم علم حتى يقال: فلان، بل هو خالقُ العالَم، وهو الذي خصَّ كلَّ مخلوقٍ بهيئة وصورة. ولو كان الخِطاب معهما لقالا: قالا ربنا.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٨٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ بنحوه.

(٤) في (خ) و(ف): واستوفيا.

و«خَلْقَهُ» أول مفعولَي «أعطى»، أي: أعطى خَليقتَه كلَّ شيء يحتاجون إليه ويَرتفقون به، أو ثانيهما، أي: أعطى كلَّ شيءٍ صورته وشَكْلَه الذي يُطابق المنفعةَ المَنُوطةَ به[١]؛ على قول الضحاك على ما يأتي. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال ابن عباس وسعيدُ بن جُبير والسديُّ: أعطى كلَّ شيء زوجَه من جنسه، ثم هداه إلى مَنْكَحِه ومَطْعمِه ومَشْربِه ومَسْكنِه. وعن ابن عباس: ثم هداه إلى الأُلفة والاجتماع والمناكحة. وقال الحسنُ وقتادة: أعطى كلَّ شيءٍ صلاحَه، وهَداه لِما يُصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيءٍ صورةً؛ لم يجعل خَلْقَ الإنسان في خَلْقِ البهائم، ولا خَلْق البهائم في خَلْق الإنسان، ولكن خَلَق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً[٢].

وقال الشاعر:

ولــه فــي كــلِّ شــيءٍ خِــلْــقَــةٌ وكــذاك الــلــهُ مــا شــاء فَــعَــلْ[٣]

يعني بالخِلقة الصورة، وهو قولُ عطية ومقاتل. وقال الضحاك: أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقه من المنفعة المَنوطة به المُطابقةِ له. يعني اليد للبطش، والرِّجْل للمشي، واللسان للنُّطْق، والعين للنظر، والأُذن للسَّمع[٤].

وقيل: أعطى كلَّ شيء ما ألهمه من علم أو صناعة[٥].

وقال الفراء[٦]: خلق الرَّجُلَ للمرأة، ولكل ذَكَرٍ ما يُوافقه من الإناث، ثم هدى الذَّكر للأنثى. فالتقدير على هذا: أعطى كلَّ شيء مثلَ خَلْقِهِ.

قلت: وهذا معنى قولِ ابن عباس. والآيةُ بعمومها تتناول جميعَ الأقوال.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٩ .

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٨١ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٦ ولم ينسبه، وفيه الأقوال السالفة.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ .

(٥) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٤٠٦ .

(٦) معاني القرآن له ٢/ ١٨١ بنحوه.

وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ: «الَّذِي أَعْطَى كُل شَيْءٍ خَلَقَهُ» بفتح اللام[١]؛ وهي قراءة ابنِ أبي إسحاق. ورواها نُصير عن الكسائي وغيره[٢]، أي: أعطى بني آدَمَ كلَّ شيءٍ خَلَقه مما يحتاجون إليه. فالقراءتان متفقتان في المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ﴾ البال: الحال، أي: ما حالُها وما شأنُها؟ فأعلَمه أنَّ علمها عند اللهِ تعالى، أي: إن هذا من علم الغيب الذي سألتَ عنه، وهو مما استأثر اللهُ تعالى به لا يَعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبدٌ مثلك؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علَّامُ الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوبٌ[٣] عند الله في اللوح المحفوظ.

وقيل: المعنى: فما بالُ القرون الأولى لم يُقِرُّوا بذلك؟. أي: فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربِّك.

وقيل: إنما سأله عن أعمال القرون الأولى، فأعلمه أنها مُحْصاة عند الله تعالى، ومحفوظةٌ عنده في كتاب. أي: هي مكتوبة، فسيجازيهم غداً بها وعليها. وعنَى بالكتاب اللوحَ المحفوظ[٤]. وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة.

الثانية: هذه الآية ونظائرها مما تقدَّم ويأتي تدلُّ على تدوين العلوم وكَتْبها لئلا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠ .

(٢) القراءات الشاذة ص٨٧ . ونُصير: هو ابن يوسف بن أبي نصر أبو المنذر، الرازي، ثم البغدادي، النحوي، من جِلة أصحاب الكسائي. طبقات القراء ٢/ ٣٤٠ . وقراءة الكسائي المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) في النسخ: مكتوبة، والمثبت من الكشاف ٢/ ٥٣٩ ، والكلام منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ بنحوه.

تُنسى. فإنَّ الحِفْظَ قد تَعتريه الآفاتُ من الغَلَط والنِّسيان. وقد لا يَحفظُ الإنسان ما يسمع، فيقيده لئلَّا يذهبَ عنه. وروينا بالإسناد المتصل عن قتادةَ أنه قيل له: أنكتبُ ما نسمعُ منك؟ قال: وما يَمنعك أن تكتبَ وقد أخبرك اللطيفُ الخبير أنه يكتب، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا قضى اللهُ الخلقَ كَتَبَ في كتابه على نفسه، فهو موضوع عنده: إنَّ رحمتي تَغلِبُ غضبي»[٢].

وأسند الخطيب أبو بكر عن أبي هريرة قال: كان رجلٌ من الأنصار يَجلِسُ إلى النبيِّ ﷺ يستمع منه الحديثَ ويُعجبه ولا يَحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أسمعُ منك الحديثَ يُعجبني ولا أحفظه، فقال له رسول الله ﷺ: «اِستعِنْ بيمينِك» وأَوْمَأ إلى الخَطِّ[٣]. وهذا نصٌّ.

وعلى جواز كَتْب العلم وتدوينه جمهورُ الصحابة والتابعين[٤]. وقد أَمَرَ ﷺ بكَتْب الخُطبة التي خطَب بها في الحَجِّ لأبي شاه ـ رجل من اليمن ـ لما سأله كَتْبَها. أخرجه مسلم[٥].

وروى عمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ قال: «قَيِّدوا العلمَ بالكتاب»[٦]. وقال معاويةُ بن قُرَّة: مَن لم يكتب العلمَ لم يُعَدَّ عِلْمُه عِلْماً[٧].

---

(١) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٢ ، والخطيب البغدادي في تقييد العلم ص١٠٣ .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٥١)، وسلف ١/ ٢٤٣ .

(٣) تقييد العلم ص٦٧ ، والجامع لأخلاق الراوي والسامع ١/ ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وأخرجه الترمذي (٢٦٦٦) وفي إسناده الخليل بن مرة، قال الترمذي: هذا حديث إسناده ليس بذلك القائم، وسمعت محمد بن إسماعيل (يعني البخاري) يقول: الخليل بن مرة منكر الحديث.

(٤) إكمال المعلم ٤/ ٤٧٤ ، والمفهم ٣/ ٤٧٦ .

(٥) برقم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٧٢٤٢)، والبخاري (٢٤٣٤).

(٦) في (م): بالكتابة. والحديث أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٦٥ ، والخطيب في تقييد العلم ص٩٦ .

(٧) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٢ ، والخطيب في تقييد العلم ص١٠٩ .

وقد ذهب قومٌ إلى المنع من الكَتْب، فروى أبو نضرة قال: قيل لأبي سعيد: أنكتبُ حديثكم هذا؟ قال: لِمَ تجعلونه قرآناً؟ ولكن احفظوا كما حَفِظنا[١].

وممن كان لا يكتب الشعبيُّ ويونس بن عبيد وخالد الحذّاء ـ قال خالد: ما كتبتُ شيئاً قطُّ إلا حديثاً واحداً؛ فلمَّا حفِظته محوتُه ـ وابن عون والزُّهريُّ.

وقد كان بعضُهم يكتبُ فإذا حَفِظَ مَحَاه؛ منهم محمدُ بن سيرين وعاصمُ بن ضَمْرة. وقال هشام بن حسان: ما كتبتُ حديثاً قطُّ إلا حديثَ الأعماق فلمَّا حَفِظتُه مَحَوْته[٢].

قلت: وقد ذكرنا عن خالد الحذَّاء مثل هذا. وحديث الأعماق خرَّجه مسلمٌ في آخر الكتاب: «لا تقومُ الساعةُ حتى ينزلَ الرومُ بالأعْماق أو بدابق» الحديث ذكره في كتاب الفتن[٣].

وكان بعضُهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ؛ منهم الأعمشُ، وعبد الله بن إدريس، وهُشيم وغيرهم[٤]. وهذا احتياطٌ على الحفظ.

والكَتْبُ أولى على الجُملة، وبه وَردت الآيُ والأحاديثُ، وهو مَرْويٌّ عن عمر، وعليٍّ، وجابر، وأنس ﷺ، ومَن يَليهم من كُبراء التابعين، كالحسن وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير ومَن بعدَهم من أهل العلم[٥]. قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ

---

(١) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٩ ، والخطيب في تقييد العلم ص٣٦ - ٣٧ . وأبو نضرة: هو المنذر بن مالك بن قُطَعَة العبدي.

(٢) سنن الدارمي ١/ ١٣١ - ١٣٥ ، والمحدث الفاصل ص٣٨٠ - ٣٨٣ ، وتقييد العلم ص٥٩ . وحديث الأعماق سيأتي ذكره بعده.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. والأعماق: كورة قرب دابق بين حلب وأنطاكية. ودابق: قرية قرب حلب. معجم البلدان ١/ ٢٢٢ و ٢/ ٤٠٦ .

(٤) المحدث الفاصل ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(٥) المحدث الفاصل ص٣٨٥ .

بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣]، وقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ إلى غير هذا من الآي. وأيضاً فإنَّ العلم لا يُضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابَلة والمُدارسة، والتعهد والتحفظ، والمُذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا.

وإنما كَرِه الكتاب مَن كَرِه من الصدر الأول لِقُرب العهد، وتقاربِ الإسناد ولئلَّا يعتمده الكاتب فيُهملَه، أو يَرغَبُ عن تحفظه[1] والعمل به، فأمّا والوقتُ مُتباعِدٌ، والإسناد غير مُتقارب، والطرق مختلفة، والنَّقَلة متشابهون، وآفةُ النسيان معترضة، والوهمُ غير مأمون؛ فإن تقييدَ العلم بالكتاب أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى.

فإن احتجَّ مُحتجٌّ بحديث أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا تكتبوا عني، ومَن كتبَ عني غيرَ القرآن فَلْيَمْحُهُ» خرَّجه مسلم[2]، فالجواب أنَّ ذلك كان مُتقدِّماً، فهو منسوخٌ بأمره بالكتابة وإباحتِها لأبي شاه وغيره. وأيضاً كان ذلك لئلا يُخلَط بالقرآن ما ليس منه. وكذا ما رُوي عن أبي سعيدٍ أيضاً: حَرصنا أن يأذَن لنا النبيُّ ﷺ في الكتابة فأبَى[3]؛ إن كان محفوظاً فهو قبلَ الهجرة، وحين كان لا يُؤمن الاشتغال به عن القرآن.

الثالثة: قال أبو بكر الخطيب[4]: ينبغي أن يُكتب الحديث بالسواد، ثم بالحبر

---

(١) في (د) و(م): حفظه، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق للمحدث الفاصل ص٣٨٥ - ٣٨٦، والكلام منه.

(٢) برقم (٣٠٠٤)، وهو في مسند أحمد (١١٠٨٥) و(١١١٥٨).

(٣) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٨٦، وينظر المفهم ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧.

(٤) في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٣٨٣.

خاصةً دون المِداد؛ لأن السوادَ أصبغُ الألوان، والحبرَ أبقاها على مرِّ الدُّهور. وهو آلةُ ذوي العلم، وعدَّةُ أهلِ المعرفة.

ذكر عبدُ الله بنُ أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: رآني الشافعيُّ وأنا في مجلسه وعلى قميصي حِبرٌ وأنا أُخفيه؛ فقال: لم تُخفيه وتَستُره؟ إنَّ الحبرَ على الثوب من المروءة، لأن صورته في الأبصار سوادٌ، وفي البصائر بَيَاض.

وقال خالد بن يزيد: الحِبرُ في ثوب صاحب الحديث مثلُ الخَلُوق في ثوب العروس. وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البَلَوي فقال:

مِدادُ المَحَابرِ طيبُ الرجال وطِيب النساءِ من الزّعفرانْ

فهذا يَليقُ بأثواب ذَا وهذا يليقُ بثوب الحَصَانْ[1]

وذكر الماورديُّ[2] أن عُبيدَ الله بن سليمان[3] ـ فيما حكَى ـ رأى على بعض ثيابه أثر صُفرةٍ؛ فأخذ من مِداد الدواة فطلاه به، ثم قال: المِدادُ بنا أحسنُ من الزَّعفران؛ وأنشد:

إنَّما الزّعفرانُ عِطرُ العَذَارَى ومِدادُ الدُّويِّ عِطْرُ الرِّجالِ[4]

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ اختلف في معناه على أقوال خمسة:

الأول: إنه ابتداء كلام، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين، وقد كان الكلام تَمَّ في قوله: «في كتاب»[5]. وكذا قال الزجاج، وأن معنى «لا يضلُّ» لا يَهْلِك، من

---

(١) أخرج هذه الآثار الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٣٨٦.

(٢) في أدب الدنيا والدين ص٥٦.

(٣) في (م): عبد الله بن سليمان، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لأدب الدنيا والدين. ولعله عبيد الله بن سليمان بن وهب، الوزير الكبير، أبو القاسم وزير المعتضد، توفي سنة (٢٨٨هـ). السير ١٣/ ٤٩٧.

(٤) ذكر القصة والبيت التنوخي في نشوار المحاضرة ٣/ ٢٥٤ ونسبها لأبي علي ابن مُقْلة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧.

قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. «وَلَا يَنْسَى» شيئاً[١]، نزَّهه عن الهلاك والنِّسيان.

القول الثاني: «لَا يَضِلُّ»: لا يُخطئ؛ قاله ابن عباس[٢]؛ أي: لا يُخطئ في التدبير، فمن أنظره فَلِحِكمة أنظره، ومن عاجَله فَلِحِكمة عاجَله.

القول الثالث: «لا يضلُّ»: لا يغيب. قال ابن الأعرابي: أصلُ الضلال الغَيبوبة؛ يقال: ضلَّ الناسي: إذا غاب عنه حفظُ الشيء. قال: ومعنى «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» أي: لا يغيبُ عنه شيء، ولا يغيبُ عن شيءٍ[٣].

القول الرابع ـ قاله الزجاج أيضاً، وقال النحاس[٤]: وهو أشبهها بالمعنى ـ: أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنه لا يحتاج إلى كتاب، والمعنى: لا يضلُّ عنه علمُ شيءٍ من الأشياء ولا معرفتها، ولا يَنسى ما عَلِمَه منها.

قلت: وهذا القول راجعٌ إلى معنى قولِ ابن الأعرابي.

وقول خامس: إنَّ «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» في موضع الصفة لـ «كتاب» أي: الكتاب غير ضالٍّ عن الله عزَّ وجلَّ[٥]، أي: غير ذاهب عنه. «وَلَا يَنْسَى» أي: غير ناسٍ له، فهما نعتان لـ «كتاب». وعلى هذا يكون الكلام متصلاً، ولا يُوقَفُ على «كتاب». تقول العرب: ضلَّني الشيءُ: إذا لم أجده، وأَضْلَلْتُه أنا: إذا تركتَه في موضع فلم تجده فيه[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ ، ولم نقف على قول الزجاج في معاني القرآن له، ولم ينسبه النحاس له.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٨٣ ، والكلام الذي بعده فيه.

(٣) تهذيب اللغة ١١/ ٤٦٥ ، وفيه: أبو عمرو، بدل: ابن الأعرابي.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤١ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧ بنحوه.

وقرأ الحسنُ وقتادة وعيسى بن عمر وابن مُحيصن وعاصم الجَحْدري وابن كثير فيما روى شِبل عنه: «لَا يُضِلُّ» بضم الياء على معنى لا يُضيعه ربّي ولا ينساه[١].

قال ابن عرفة: الضلالةُ عند العرب سلوكُ سبيل غير القصد؛ يقال: ضلَّ عن الطريق، وأضلَّ الشيء: إذا أضاعه. ومنه قرأ مَن قرأ: «لا يُضِلُّ رَبِّي» أي: لا يُضيع، هذا مذهبُ العرب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ «الذي» في موضع نعت لِ «رَبِّي» أي: لا يضلُّ رَبي الذي جعل. ويجوز أن يكون خبرَ ابتداء مُضمر، أي: هو الذي. ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني[٢]. وقرأ الكوفيون: «مَهْداً» هنا وفي «الزخرف»[٣] بفتح الميم وإسكان الهاء. الباقون: «مِهَاداً»[٤]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لاتّفاقهم على قراءة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

النحاس[٥]: والجمعُ أولى لأن «مهداً» مصدرٌ، وليس هذا موضع مصدر إلَّا على حذف، أي: ذات مهد. المهدويّ: ومَن قرأ: «مَهْداً» جاز أن يكون مصدراً، كالفَرْش، أي: مَهَدَ لكم الأرضَ مَهْداً، وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: ذاتَ مهد. ومن قرأ: «مِهَاداً»؛ جاز أن يكون مفرداً، كالفراش، وجاز أن يكون

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١، والبحر المحيط ٦/ ٢٤٨، والقراءة المتواترة عن ابن كثير كقراءة الجماعة.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٤٠.

(٣) الآية (١٠).

(٤) السبعة ص٤١٨، والتيسير ص١٥١.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤١.

جمع «مهدٍ» استُعمِلَ استعمالَ الأسماءَ فكُسِّر[١]. ومعنى «مِهَاداً» أي: فراشاً وقَراراً تستقرّون عليها.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طرقاً[٢]. نظيره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١٠].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تقدَّم معناه[٣]. وهذا آخرُ كلام موسى. ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾. وقيل: كُلُّه من كلام موسى[٤]. والمعنى: «فأخرجنا به» أي: بالحرث والمعالجة؛ لأن الماءَ المنزلَ سببُ خروج النبات.

ومعنى ﴿أَزْوَاجًا﴾: ضروباً وأشباهاً، أي: أصنافاً من النبات المختلفة الأزواج والألوان[٥]. وقال الأخفش: التقدير أزواجاً شَتَّى من نبات. قال: وقد يكون النبات شَتَّى، فـ «شَتَّى» يجوز أن يكون نعتاً لأزواج، ويجوز أن يكون نعتاً للنبات[٦]. و«شَتَّى» مأخوذٌ من شتَّ الشيءُ، أي: تفرَّق. يقال: أمرٌ شَتٌّ، أي: متفرِّقٌ. وشَتَّ الأمرُ [يَشِتُّ] شَتًّا وشَتاتاً: تفرَّق؛ واسْتَشَتَّ[٧] مثله. وكذلك التَّشتت. وشَتَّته تَشْتِيتاً فرَّقه. وأشتَّ بي قومي، أي: فرَّقوا أمري. والشَّتيت المتفرِّق. قال رُؤْبة يصف إبلاً:

---

(١) الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٩٧ - ٩٨ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٨٥ عن قتادة.

(٣) ٢/ ٤٩٧ .

(٤) قال الرازي في تفسيره ٢٢/ ٦٨ : «فأخرجنا» إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى، والأول باطل؛ لأن قوله بعد ذلك: «كلوا وارعوا أنعامكم... منها خلقناكم وفيها نعيدكم..» لا يَليق بموسى عليه السلام.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٦) لم نقف على قول الأخفش، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٦٩ .

(٧) في النسخ: اشتتَّ، والمثبت من الصحاح (شتت) وما بين حاصرتين منه.

جَـاءتْ مَـعـاً واطَّـرَقـتْ شَـتِـيـتـا وهـي تُـثـيـرُ الـسَّـاطِـعَ الـسِّـخْـتِـيـتَـا[١]

وثَغْرٌ شَتيتٌ، أي: مُفلَّج. وقومٌ شتَّى، وأشياءُ شَتَّى، وتقول: جاؤوا أشتاتاً، أي: متفرِّقين، واحدهم شَتٌّ، قاله الجوهري[٢].

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ أمر إباحة. «وَارْعَوْا» مِن: رعت الماشيةُ الكلأ، ورعاها صاحبها رعايةً، أي: أسامها وسرحها، لازم ومتعدٍّ[٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: العقول. الواحدة: نُهْية. قال لهم ذلك؛ لأنهم الذين يُنْتهى إلى رأيهم. وقيل: لأنهم ينهَوْن النفس عن القبائح[٤]. وهذا كلُّه من موسى احتجاجٌ على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله: «فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى». وبيَّن أنه إنما يُستدلُّ على الصانع اليوم بأفعاله.

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ يعني آدم عليه السلام لأنه خُلق من الأرض، قاله أبو إسحاق الزجَّاج وغيره[٥]. وقيل: كلُّ نطفةٍ مخلوقةٌ من التراب، على هذا يدلُّ ظاهر القرآن[٦]. وروى أبو هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ مولودٍ إلا وقد ذُرَّ عليه مِن تراب حُفْرته» أخرجه أبو نُعيم الحافظ في باب ابن سيرين، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من حديث [ابن] عَوْن لم نكتبه إلَّا من حديث أبي عاصم النبيل، وهو أحدُ الثقاتِ الأعلام من أهل البصرة[٧]. وقد مضى هذا المعنى مُبيَّناً في سورة الأنعام

---

(١) ديوان رؤبة ص١٧١ . والرجز يصف به إبلاً، يقول: جاءت مجتمعة، فلما صدرت تفرَّقت متشتِّتة. والسِّختيت: الشديد، وعنى به هاهنا الغبار الذي تثيره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٢٠ .

(٢) الصحاح (شتت).

(٣) الصحاح (رعي).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ بنحوه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٩ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ .

(٧) حلية الأولياء ٢/ ٢٨٠ ، وما بين حاصرتين منه، وينظر تنزيه الشريعة ١/ ٣٧٣ .

عن ابن مسعود[١].

وقال عطاء الخراساني: إذا وقعت النطفة في الرَّحِم انطلق المَلَكُ المُوكَّلُ بالرَّحِم، فأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه، فيذرُّه على النطفة، فيخلق الله النَّسَمة من النُّطفة ومن التراب، فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[٢].

وفي حديث البراء عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا خرجَتْ رُوحُه؛ صَعِدَتْ به الملائكةُ، فلا يمرون بها على مَلأٍ من الملائكة إلَّا قالوا: ما هذه الروحُ الطيِّبة؟ فيقولون: فلانُ بن فلان؛ بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا، فيستفتحون لها، فيفتح؛ فَيُشيِّعه من كلِّ سماءٍ مُقرَّبوها إلى السماء التي تليها حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا لعبدي كتاباً في عِلِّيِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى. فتعاد روحُه في جسده». وذكر الحديث[٣]. وقد ذكرناه بتمامه في كتاب «التذكرة»[٤]، ورُوي من حديث عليٍّ ﷺ، ذكره الثعلبي.

ومعنى ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بعد الموت ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: للبعث والحساب ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[٥]. يرجع هذا إلى قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ لا إلى ﴿نُعِيدُكُمْ﴾. وهو كقولك: اشتريتُ ناقةً وداراً وناقةً أخرى. فالمعنى: من الأرض أخرجناكم، ونُخرجكم بعد الموت من الأرض تارةً أخرى[٦].

---

(١) ٨/ ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٣٤ ، وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٤٠٠ .

(٣) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وأخرجه أبو داود (٤٧٥٣) بنحوه.

(٤) ص١١٩ - ١٢١ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٠ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨١ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: المعجزاتِ الدالَّةَ على نُبوَّة موسى. وقيل: حُجج الله الدالة على توحيده[١]. ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ أي: لم يؤمن. وهذا يدلُّ على أنه كفرَ عِناداً، لأنه رأى الآياتِ عِياناً لا خبراً[٢]. نظيره: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ لمَّا رأى الآياتِ التي أتاه بها موسى قال: إنها سحر. والمعنى: جئت لِتوهم الناس أنك جئتَ بآيةٍ توجب اتِّباعَكَ والإيمانَ بك، حتى تغلبَ على أرضنا وعلينا. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: لَنُعارِضَنَّكَ بمثل ما جئتَ به لِيتبيَّن للناس أنَّ ما أتيتَ به ليس من عند الله[٣]. ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هو مصدر، أي: وعداً. وقيل: الموعد اسمٌ لمكان الوعد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]. فالموعد هاهنا مكان. وقيل: الموعد اسمٌ لزمان الوعد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾[٤] [هود: ٨١] فالمعنى: اجعل لنا يوماً معلوماً، أو مكاناً معروفاً.

قال القشيري: والأظهر أنه مصدر ولهذا قال: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ أي: لا نخلف ذلك

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٠٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١.

(٣) ينظر زاد المسير ٥/ ٢٩٤.

(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٧١.

الوعد، والإخلاف أن يَعِدَ شيئاً ولا يُنجزه[١]. وقال الجوهري[٢]: والميعاد: المواعدة والوقت والموضع، وكذلك المَوْعِد.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج: «لَا نُخْلِفْهُ»؛ بالجزم جواباً لقوله «اجْعَلْ»[٣]. ومن رفع فهو نعتٌ لـ «موعد»، والتقدير: موعداً غيرَ مُخْلَفٍ.

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: «سُوًى» بضم السين. الباقون: بكسرها[٤]، وهما لغتان؛ مثل: عُداً وعِداً، وطُوًى وطِوًى[٥]. واختار أبو عُبيد وأبو حاتم كسر السين؛ لأنها اللغة العالية الفصيحة. وقال النحاس[٦]: والكسر أعرفُ وأشهرُ. وكلهم نَوَّنوا الواو[٧]، وقد رُوِيَ عن الحسن ـ واختُلِفَ عنه ـ ضمُّ السين بغير تنوين[٨].

واختُلِفَ في معناه؛ فقيل: سِوى هذا المكان، قاله الكلبي[٩]. وقيل: مكاناً مستوياً يتبيَّن للناس ما بينَّا فيه، قاله ابن زيد[١٠]. ابن عباس: نَصَفاً. مجاهد: مَنْصَفاً، وعنه أيضاً وقتادة: عَدْلاً بيننا وبينك[١١]. قال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى «سُوًى» نَصَفٌ وعَدْلٌ، وهو قولٌ حسن[١٢]، قال سيبويه: يقال: سِوًى وسُوًى، أي:

---

(١) أورده أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٢ .
(٢) في الصحاح (وَعَدَ).
(٣) قراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٠ ، وقراءة شيبة ذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٣ .
(٤) السبعة ص٤١٨ ، والتيسير ص١٥١ .
(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٨٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ .
(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢ .
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ .
(٨) المحتسب ٢/ ٥٢ ، وينظر البحر المحيط ٦/ ٢٥٣ .
(٩) أورده البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢١ ، والرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٢ .
(١٠) أخرجه الطبري ١٦/ ٩٠ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٨ .
(١١) تفسير الطبري ١٦/ ٩٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ .
(١٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ .

عَدْلٌ، يعني مكاناً عَدْلاً بين المكانين فيه النَّصَفة[١]، وأصلُه من قولك: جلس في سَواء الدار؛ بالمدّ، أي: في وسطها، ووسط كل شيء أعدَلُه، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: عَدْلاً[٢]»، وقال زهير:

أَرُونَا خُطَّةً لا ضَيْمَ فِيهَا   يُسَوَّى بينَنا فيها السَّوَاءُ[٣]

وقال أبو عُبيدة والقُتبي: وَسَطاً بين الفريقين[٤]، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وإنَّ أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ   سِوًى بين قيسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

والفِزْر: سعد بن زيد مَناة بن تميم[٥].

وقال الأخفش: «سُوًى» إذا كان بمعنى غير، أو بمعنى العدل، يكون فيه ثلاثُ لغات: إنْ ضممتَ السين أو كسرتَ؛ قصرت فيهما جميعاً. وإن فتحت مددت، تقول: مكان سِوًى وسُوًى وسَواء، أي: عَدْلٌ ووسط فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

وجدنا أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ

البيتَ[٦]. وقيل: «مكاناً سُوًى» أي: قصداً، وأنشد صاحب هذا القول:

لو تَمنَّتْ حَبِيبتي ما عَدَتْني   أو تَمنَّيتُ ما عَدوتُ سِواها[٧]

---

(١) الكلام بنحوه في الصحاح (سوى) منسوب للأخفش.

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٦٨)، والترمذي (٢٩٦١)، وسلف ٢/ ٤٣٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ ، والبيت في ديوان زهير ص٨٤ .

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٩ ، وفيهما: القريتين، بدل: الفريقين.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٠ ، والبيت في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ ، وخزانة الأدب ١/ ٣٠٢ . وموسى بن جابر الحنفي: نصراني جاهلي، يلقب أزيرق اليمامة، كثير الشعر. معجم الشعراء ص٢٨٥ .

(٦) الصحاح (سوى)، وسلف البيت قبله.

(٧) سمط اللآلئ للبكري ١/ ٥٠٦ .

وتقول: مررت برجل سِواكَ وسُوَاكَ وسَوَائِكَ، أي: غيرِكَ. وهما في هذا الأمر سواء، وإن شئت: سَواءان. وهم سواءٌ للجميع، وهم أسواءٌ، وهم سَواسِية؛ مثل ثمانية؛ على غير قياس[١].

وانتصب «مكاناً» على المفعول الثاني لـ «جعل». ولا يَحْسُنُ انتصابُه بالموعد على أنه مفعول أو ظرف له؛ لأن الموعدَ قد وصف، والأسماء التي تعمل عمل الأفعال إذا وُصفت أو صُغِّرت لم يَسُغْ أن تعمل؛ لخروجها عن شبه الفعل، ولم يحسن حملُه على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثاني؛ لأن الموعدَ إذا وقع بعده ظرف لم تُجرِه العرب مُجرى المصادر مع الظروف، لكنهم يتَّسعون فيه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] و﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾[٢].

واختُلِفَ في يوم الزينة، فقيل: هو يومُ عيد كان لهم يتزيَّنون ويجتمعون فيه، قاله قتادة والسُدِّيّ وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: كان يومَ عاشوراء. وقال سعيد بن المسيِّب: يوم سوق كان لهم يتزيَّنون فيها، وقاله قتادة أيضاً. وقال الضحَّاك: يوم السبت. وقيل: يوم النيروز[٣]، ذكره الثعلبي[٤]. وقيل: يومٌ يكسر فيه الخليج[٥]، وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون، وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبَلِ النيل.

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفي والسُّلَميّ وهُبيرة عن حفص: «يَوْمَ الزِّينَةِ» بالنصب[٦]. ورُويت عن أبي عمرو[٧]، أي: في يوم الزينة إنجازُ موعدنا. الباقون

(١) الصحاح (سوى).
(٢) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٨ - ٤٩ .
(٣) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٩١ - ٩٢ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩٤ - ٢٩٥ .
(٤) في عرائس المجالس ص١٨٨ .
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ .
(٦) المحتسب ٢/ ٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩ ، وقراءة هبيرة عن حفص ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٩٤ ، والقراءة المشهورة عن حفص: يومُ، كقراءة الجماعة. وهبيرة: هو أبو عمر بن محمد البغدادي، الأبرش، التمّار، طبقات القراء ٢/ ٣٥٣ .
(٧) وهي غير المشهورة عنه، وقد ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٥٣ .

بالرفع على أنه خبر الابتداء.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي: وجمعُ الناس، فـ «أَنْ» في موضع رفع على قراءة من قرأ: «يَوْمُ» بالرفع[1]. وعطفُ «وَأَنْ يُحْشَرَ» يُقوّي قراءة الرفع؛ لأن «أَنْ» لا تكون ظرفاً، وإن كان المصدر الصريح يكون ظرفاً، كَمقْدَمِ الحاجّ؛ لأن من قال: آتيك مَقْدَمَ الحاجّ لم يقل: آتيكَ أن يقدَمَ الحاجُّ[2]. النحاس: وأولى من هذا أن يكون في موضع خفضٍ عطفاً على الزينة. والضُّحى مؤنثة تُصغِّرها العرب بغير هاء لئلا يُشبهَ تصغيرُها تصغيرَ ضحوة، قاله النحاس[3]. وقال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضُّحَى، وهي حين تُشرق الشمس، مقصورة؛ تُؤنَّث وتُذكَّر، فمن أَنَّثَ ذهب إلى أنها جمع ضحوة، ومَن ذكَّر ذهب إلى أنه اسم على فُعَل، مثل: صُرَدٍ ونُغَرٍ، وهو ظرف غير متمكِّن مثل: سَحَر، تقول: لَقِيتُه ضُحًى وضُحَى، إذا أردتَ به ضُحَى يومك لم تُنوِّنه، ثم بعده الضَّحاء؛ ممدود مُذكَّر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى[4]. وخَصَّ الضُّحى لأنه أول النهار، فلو امتدَّ الأمر فيما بينهم كان في النهار مُتَّسع.

ورُوِيَ عن ابن مسعود والجَحدريّ وغيرهما: «وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحاً» على معنى: وأن يَحْشُرَ اللهُ الناسَ ونحوه. وعن بعض القراء: «وَأَنْ تَحْشُرَ الناس»[5] والمعنى: وأن تحشرَ أنت يا فرعون الناس. وعن الجَحدريّ أيضاً: «وَأَنْ نَحْشُرَ» بالنون[6]. وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علوُّ كلمة الله وظهورُ دينه وكبت الكافر

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ .

(٢) ينظر مجمع البيان ١٦/ ١١١ - ١١٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢ .

(٤) الصحاح (ضحا).

(٥) القراءات الشاذة ص٨٨ ، والمحتسب ٢/ ٥٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ دون نسبة.

وزهوقُ الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المَجمع الغاصِّ؛ لتقوَى رغبةُ من رَغِبَ في الحقِّ، ويكلَّ حدُّ المبطلين وأشياعِهم، ويَكثُرَ التحدُّثُ بذلك الأمر العام[١] في كل بدوٍ وحضرٍ، ويَشيعَ في جمع أهل الوَبَر والمدَر[٢].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي: حِيَلَه وسِحْرَه، والمراد جَمْعُ السَّحَرة[٣]. قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، مع كل ساحرٍ منهم حبالٌ وعِصيٌّ. وقيل: كانوا أربع مئة. وقيل: كانوا اثني عشرَ ألفاً. وقيل: أربعةَ عشرَ ألفاً. وقال ابن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً. وقيل: كانوا مجمعين على رئيس يقال له: شمعون. وقيل: كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيباً، مع كل نقيبٍ عشرون عريفاً، مع كل عريفٍ ألفُ ساحرٍ. وقيل: كانوا ثلاثَ مئة ألفِ ساحرٍ من الفيُّوم، وثلاثَ مئة ألفِ ساحر من الصعيد، وثلاثَ مئة ألفِ ساحرٍ من الريف، فصاروا تسعَ مئة ألفٍ، وكان رئيسهم أعمى[٤].

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: أتى الميعاد. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أي: قال لفرعون والسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ عليهم بالويل. وهو بمعنى المصدر. وقال أبو إسحاق الزجَّاج[٥]: هو منصوب بمعنى: ألزمهم الله وَيْلاً. قال: ويجوز أن يكون نداءً، كقوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾ [يس: ٥٢].

﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تُشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات: إنها سحر[٦]. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ مِن عِنده، أي: يستأصِلكم

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٧٣.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١.

(٤) سلفت هذه الأقوال في الأعراف ٩/ ٢٩٥، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٨، وهذه الأقوال ليس لها سند يوقف عنده.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ بنحوه.

بالإهلاك. يقال منه: سَحَت وأَسْحت بمعنًى. وأصله من استقصاء الشَّعر.

وقرأ الكوفيون: «فَيُسْحِتَكُمْ»[١] من أسْحَت، الباقون: «فَيَسْحَتَكُمْ» من سَحَت، وهذه لغةُ أهل الحجاز، [والأُولى لغة] بني تميم. وانتصب على جواب النهي. وقال الفرزدق:

وعَضُّ زمانٍ يا ابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ ... من المالِ إلَّا مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ[٢]

الزمخشري: وهذا بيتٌ لا تزال الركب تصطكُّ في تسوية إعرابه[٣].

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: خَسِرَ وهَلَكَ، وخاب من الرحمة والثواب من ادَّعى على الله ما لم يأذن به.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تشاوروا، يريد السَّحرة. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾. قال قتادة: قَالُوا: إن كان ما جاء به سحراً فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر، وهذا الذي أسرُّوه. وقيل: الذي أسرُّوا قولهم: «إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» الآية، قاله السُّدِّيّ ومقاتل. وقيل: الذي أسرُّوا قولهم: إن غَلَبنا اتَّبعناه، قاله الكلبي، دليله ما ظهر من عاقبة أمرهم. وقيل: كان سِرُّهم أن قالوا حين قال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: ما هذا بقول ساحرٍ[٤]. و«النجوى»: المناجاة،

---

(١) قرأ بها عاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي. السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣ . وما بين حاصرتين زيادة ضرورية، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٧٣ ، وفتح القدير ٣/ ٣٧٢، والبيت في ديوان الفرزدق ص٥٥٦ ، وقد سلف ٥/ ٢٧٩ ، و ٧/ ٤٨٤ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٤٣ ، وينظر ما ذكرناه في إعراب هذا البيت ٧/ ٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٤) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٩٥ - ٩٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

يكون اسماً ومصدراً، وقد تقدَّم في «النساء» بيانه[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ قرأ أبو عمرو: «إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ»[(٢)]. ورُويت عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة[(٣)]، وكذلك قرأ الحسنُ وسعيد بن جُبير وإبراهيم النَّخَعيّ وغيرهم من التابعين، ومن القُرَّاء عيسى بن عمر وعاصم الجَحدَرِيّ، فيما ذكر النحاس[(٤)]. وهذه القراءة موافقةٌ للإعراب مخالفةٌ للمصحف[(٥)]. وقرأ الزُّهريُّ والخليل بن أحمد والمفضَّل وأبان وابن مُحيصن وابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه: «إِنْ هَذَانِ» ـ بتخفيف «إن» ـ «لساحران»، وابن كثير يشدّد نون «هذانّ»[(٦)]. وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، ويكون معناها: ما هذان إلَّا ساحران[(٧)]. وقرأ المدنيون والكوفيون: «إِنَّ هَذَانِ» ـ بتشديد «إنَّ» ـ «لساحران»[(٨)]، فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب[(٩)]. قال النحاس[(١٠)]: فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة، ورُويَ عن عبد الله ابن مسعود أنه قرأ: «إِنْ هذانِ إِلَّا ساحِرانِ»[(١١)] وقال الكسائي في قراءة عبد الله: «أَنْ هَـذَانِ سَـاحِـرَانِ» بـغـيـر لام[(١٢)]، وقـال الـفـرَّاء فـي حـرف أُبـيّ: «إِنْ ذَانِ إِلَّا

(١) ٧/ ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٣) زاد المسير ٥/ ٢٩٧ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ ، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٠٠ .

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣ ، وقراءة ابن كثير وحفص في السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

(٨) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ ، والنشر ٢/ ٣٢١ .

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣ .

(١١) نسبها الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٦١ لأُبيّ.

(١٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ ، والرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٤ . قال السمين في الدر ٨/ ٦٨ : على أنها وما في حيِّزها بدل من «النجوى».

سَاحِرَانِ»[(١)]. فهذه ثلاثُ قراءات أُخرى تُحمل على التفسير، لا أنها جائزٌ أن يُقرأ بها؛ لمخالفتها المصحف.

قلت: وللعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال؛ ذكرها ابن الأنباري في آخر كتاب «الردّ» له، والنحاس في إعرابه[(٢)]، والمهدويُّ في «تفسيره»، وغيرهم دخلَ[(٣)] كلامُ بعضهم في بعض.

وقد خطَّأها قومٌ حتى قال أبو عمرو: إني لأستحي من الله أن أقرأ: «إِنَّ هَذَانِ»[(٤)]. وروى عروةُ عن عائشة رضيَ الله عنها أنها سُئلت عن قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [النساء: ١٦٢]، ثم قال: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ [النساء: ١٦٢] وفي «المائدة»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩] و﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرانِ﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذا خطأٌ من الكاتب. وقال عثمان بن عفان ﷺ: في المصحف لحنٌ، وستقيمه العرب بألسنتهم[(٥)]. وقال أبان بن عثمان: قرأت هذه الآية عند أبي عثمانَ بن عفان، فقال: لحنٌ وخطأ، فقال له قائل: ألا تُغيِّروه؟ فقال: دَعُوه، فإنه لا يُحرِّم حلالاً ولا يُحلِّل حراماً[(٦)].

القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بني الحرث بن كعب وزَبيد وخَثْعم وكنانة ابن زيد؛ يجعلون رفعَ الاثنين ونصبَه وخفضَه بالألف، يقولون: جاء الزيدان، ورأيتُ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٨ لابن مسعود ﷺ.

(٢) ٣/ ٤٤ - ٤٦.

(٣) في (م): أدخل.

(٤) زاد المسير ٥/ ٢٩٧، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٣، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤. وسلف حديث عائشة ٧/ ٢١٩، ونقل المصنف ثمة عن القشيري قوله: هذا المسلك باطل، لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوةً في اللغة، فلا يُظنُّ بهم أنهم يدرجون في القرآن ما لم ينزل. وينظر ما نقلناه عن الباقلاني في الردِّ على مثل هذه الأخبار.

(٦) لم نقف عليه.

الزيدان، ومررت بالزيدان، ومنه قوله تعالى: «ولا أدْرَأْتُكم به»[١] [يونس: ١٦] على ما تقدم. وأنشد الفرَّاء[٢] لرجلٍ من بني أسد، قال: وما رأيتُ أفصحَ منه:

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولو يَرَى مَساغاً لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا[٣]

ويقولون: كَسرتُ يداه ورَكِبتُ عَلَاه؛ بمعنى: يديه وعليه؛ قال شاعرهم:

تَزوَّدَ مِنّا بين أُذْنَاهُ ضَرْبَةً دعته إلى هابي التُّرابِ عَقِيمِ[٤]

وقال آخر:

طَارُوا عَلَاهُنَّ فَطِرْ عَلَاهَا[٥]

أي: عليهنّ، وعليها.

وقال آخر:

إنَّ أَبَاهَا وأَبَا أبَاهَا قد بَلَغَا في المجدِ غايتاها[٦]

أي: إنَّ أبا أبيها وغايتيها. قال أبو جعفر النحاس[٧]: وهذا القولُ من أحسن ما

---

(١) هي قراءة الحسن، وأصلُها: «ولا أدْرَيْتُكُم» أُبدلت الياء ألفاً لانفتاح ما قبلها، على لغة بني الحارث بن كعب كما سلف ١٠/ ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥ .

(٣) الضبعي، وهو في الأصمعيات ص٢٤٦ ، والشعر والشعراء ١/ ١٨٠ ، ومختارات ابن الشجري ص٢٩ ، وعند الأصمعي وابن الشجري: لنابيه. والشجاع: ضرب من الحيات، وصمَّمَ، أي: عضَّ ونيَّب فلم يرسل ما عضَّ. الصحاح (شجع) و(صمم).

(٤) البيت لهوبر الحارثي، وهو في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري ص٨٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٦ . والهابي: تراب القبر. القاموس (هبو).

(٥) الرجز لبعض أهل اليمن كما في نوادر أبي زيد ص٥٨ ، وفيه:

أيُّ قلوصِ راكبٍ تراها طاروا عليهن فَشُل علاها
واشدد بمثْنَي حَقَب حقواها ناجيةً وناجياً أباها

وأورده بلفظ المصنف الرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٥ .

(٦) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٢٢٧ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ .

حُملت عليه الآية؛ إذ كانت هذه اللغةُ معروفةً، وقد حكاها من يُرتضى بعلمه وأمانته، منهم أبو زيد الأنصاري، وهو الذي يقول: إذا قال سيبويه: حدَّثني مَن أثِقُ به فإنما يعنيني، وأبو الخطَّاب الأخفش، وهو رئيسٌ من رؤساء اللغة، والكسائي والفرَّاء[١] كلهم قالوا هذا على لغة بني الحرث بن كعب. وحكى أبو عُبيدة[٢] عن أبي الخطَّاب أن هذه لغة بني كنانة. المهدويُّ: وحكى غيره أنها لغةٌ لخثعم[٣].

قال النحاس[٤]: ومن أبين ما في هذا قولُ سيبويه: واعلم أنك إذا ثنَّيتَ الواحد زِدْتَ عليه زائدتين، الأُولى منهما حرف مدّ ولين، وهو حرف الإعراب، قال أبو جعفر: فقول سيبويه: وهو حرف الإعراب، يُوجب أن الأصلَ ألَّا يتغيَّر، فيكون «إِنَّ هَذَانِ» جاء على أصله ليعلم ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة:١٩]، ولم يقل: استحاذ؛ فجاء هذا ليدلَّ على الأصل، وكذلك «إِنَّ هَذَانِ»، ولا يُفكَّر في إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رَوَوْها.

القول الثاني: أن يكون «إنَّ» بمعنى «نعم»، كما حكى الكسائي عن عاصم قال: العرب تأتي بـ«إنَّ» بمعنى «نعم»، وحكى سيبويه أن «إنَّ» تأتي بمعنى «أَجَلْ»، وإلى هذا القول كان محمد بن يزيد وإسماعيل بن إسحاق القاضي يذهبان. قال النحاس: ورأيتُ أبا إسحاق الزجَّاج وعليَّ بن سليمان يذهبان إليه[٥]. الزمخشري[٦]: وقد أُعجِبَ به أبو إسحاق.

النحاس[٧]: وحدَّثنا عليُّ بن سليمان، قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن عبد

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢١ .

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٥ عن قطرب.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ – ٤٧ .

(٥) معاني القرآن للزجاج، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤ .

(٦) الكشاف ٢/ ٥٤٣ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤ .

السلام النيسابوريّ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد فحدَّثني، قال: حدَّثني عُمير بن المتوكل، قال: حدَّثنا محمد بن موسى النَّوفلي من ولد حارث بن عبد المطلب، قال: حدثنا عمرو[1] بن جُميع الكوفي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليٍّ ـ وهو ابن الحسين ـ عن أبيه، عن عليِّ بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين، قال: لا أُحصي كم سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول على منبره: «إنَّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه»[2] ثم يقول: «أنا أفصحُ قريش كلِّها وأفصحُها بعدي أبانُ بن سعيد بن العاص»[3]. قال أبو محمد الخفاف[4]: قال عُمير: إعرابُه عند أهل العربية والنحو: «إنَّ الحمدَ لله» بالنصب؛ إلا أن العربَ تجعل «إنَّ» في معنى نعم، كأنه أراد ﷺ: نعم، الحمدُ لله؛ وذلك أن خُطباء الجاهلية كانت تفتتح خُطَبها بنعم. وقال الشاعر في معنى نعم:

قالوا غَدَرْتَ فقلتُ إنَّ وربَّما ... نَالَ العُلَا وشَفَى الغَليلَ الغادِرُ[5]

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيَّات:

بَكَرَ العواذلُ في الصَّبا ... حِ يَلُمْنَنِي وأَلُومُهُنَّهْ

(١) في (م): عمر، وهو خطأ، وعمرو بن جميع كذَّبه ابن معين، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: يتهم بالوضع. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٥١ .

(٢) لم نقف عليه عند غير النحاس، وأورد ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠ المرفوعَ منه.

(٣) لم نقف عليه، وقوله منه: «أنا أفصح قريش كلها» قال السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ص٥٢ : أورده أصحاب الغريب، ولا يُعرف له إسناد.

وأبان بن سعيد بن العاص: قرشيٌّ أموي، شهد بدراً مشركاً، وأسلم أيام خيبر، وشهدها مع النبي ﷺ، ومات النبي ﷺ وأبان على البحرين. وقتل في أجنادين سنة ثلاث عشرة، وقيل غير ذلك. الإصابة ١/ ١٥ - ١٧ ، وينظر فتح الباري ٩/ ١٩ .

(٤) هو عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابوري السالف ذكره في إسناد النحاس.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤ ، والبيت في أمالي ابن الشجري ٢/ ٤٢ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١٣٠ ، وخزانة الأدب ١١/ ٢١٥ .

ويَـقُـلْـنَ شَـيْـبٌ قـد عَـلَا كَ وقـد كَـبِـرتَ فـقـلـتُ إنَّـهْ[(١)]

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ بمعنى نعم، ولا تنصب. قال النحاس[(٢)]: أنشدني داود بن الهيثم[(٣)]، قال: أنشدني ثعلب:

ليت شعري هل للمحبِّ شفاءٌ من جَوَى حُبِّهِنَّ إنَّ اللقاءُ

قال النحاس[(٤)]: وهذا قول حسن؛ إلَّا أن فيه شيئاً؛ لأنه إنما يقال: نعم زيدٌ خارج، ولا تكاد تقع اللام هاهنا، وإن كان النحويون قد تكلَّموا في ذلك فقالوا: اللام يُنوَى بها التقديم، كما قال:

خالي لأنتَ ومَنْ جريرٌ خالُه يَنَلِ العَلَاء ويَكرُمِ الأخوالَا[(٥)]

آخر:

أمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ تَرْضَى من الشَّاةِ بعَظْمِ الرَّقَبَهْ[(٦)]

أي: لَخالي، ولأُمّ الحُليس، وقال الزجَّاج[(٧)]: والمعنى في الآية: إنَّ هذان لهما ساحران، ثم حذف المبتدأ. المهدوي: وأنكره أبو عليّ[(٨)] وأبو الفتح بن جنيّ[(٩)]. قال

---

(١) ديوان عبيد الله (ويقال: عبد الله) بن قيس الرُّقيات ص٦٦، والبيت الأول فيه:

بَكَرَتْ عليَّ عواذلي يَلحينني وأَلومهنَّهْ

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥، وما قبله منه.

(٣) أبو سعد التنوخي الأنباري، النحوي، اللغوي، أخذ الأدب عن ثعلب. توفي سنة (٣١٦ هـ). السير ١٤/ ٤٨٣.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦.

(٥) هو في خزانة الأدب ١٠/ ٣٢٣.

(٦) ذكره البغدادي في خزانة الأدب ١٠/ ٣٢٢، وقال: قال العيني: قائله رؤبة بن العجاج، ونسبه الصاغاني في العباب إلى عنترة بن عروش، وهو الصحيح. اهـ. والشهربة: العجوز الكبيرة.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦.

(٨) الحجة ٥/ ٢٣٠.

(٩) في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٨٠.

أبو الفتح: «هما» المحذوف لم يُحذَف إلا بعد أن عُرِف، وإذا كان معروفاً فقد استُغني بمعرفته عن تأكيده باللام، ويَقبُحُ أن يُحذفَ المؤكَّد ويُتركَ المؤكِّد.

القول الثالث: قاله الفرَّاء أيضاً[(١)]: وجدت الألف دعامةً ليست بلام الفعل، فزدت عليها نوناً ولم أغيرها، كما قلت: «الذي»، ثم زدت عليه نوناً فقلت: جاءني الذين عندك، ورأيت الذين عندك، ومررت بالذين عندك.

القول الرابع: قاله بعضُ الكوفيين، قال: الألف في «هذان» مُشبهة بالألف في يَفعلان، فلم تغير[(٢)].

القول الخامس: قال أبو إسحاق[(٣)]: النحويون القدماء يقولون: الهاء هاهنا مضمرة، والمعنى: إنه هذان لساحران.

قال ابن الأنباري: فأضمرت الهاء التي هي منصوب «إنَّ»، و«هذان» خبر «إنَّ»، و«ساحران» يرفعها «هما» المُضمر، [والتقدير:][(٤)] إنه هذان لهما ساحران. والأشبهُ عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم «إن»، و«هذان» رفع بالابتداء، وما بعده خبر الابتداء[(٥)].

القول السادس: قال أبو جعفر النحاس[(٦)]: وسألت أبا الحسن بن كَيسان عن هذه الآية، فقال: إنْ شئتَ أجبتك بجواب النحويين، وإنْ شئت أجبتك بقولي؛

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦ .

(٣) هو الزجَّاج، وكلامه في كتابه معاني القرآن ٣/ ٣٦٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ .

(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) يعني والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر لـ «إنَّ» وقد ضُعِّفَ هذا القول ـ فيما ذكره السمين في الدر ٨/ ٦٧ ـ بأن حذف اسم إن غير جائز إلا في الشعر، وبأن اللام دخلت في الخبر.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ .

فقلت: بقولك، فقال: سألني إسماعيل بن إسحاق عنها فقلت: القولُ عندي أنه لما كان يقال: «هذا» في موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة، وكانت التثنية يجب ألَّا يغير لها الواحد، أُجريت التثنية مُجرى الواحدة. فقال: ما أحسنَ هذا لو تقدَّمكَ أحدٌ بالقول به حتى يؤنس به! قال ابن كَيسان: فقلت له: فيقول القاضي[1] به حتى يؤنس به؛ فتبسَّم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ هذا من قول فِرعون للسحرة[2]، أي: غرضُهما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه، كما قال فرعون: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]. ويقال: فلانٌ حسنُ الطريقة، أي: حسنُ المذهب. وقيل: طريقةُ القوم أفضلُ القوم[3]، وهذا الذي ينبغي أن يسلكُوا طريقته ويقتدوا به، فالمعنى: ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم؛ استمالةً لهم. أو يذهبا ببني إسرائيل وهم الأماثلُ وإن كانوا خَوَلاً لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأنبياء. أو يذهبا بأهل طريقتكم، فحذف المضاف[4].

و«المُثلى» تأنيث الأمثل، كما يقال: الأفضل والفُضلى. وأنَّثَ الطريقة على اللفظ، وإنْ كان يُراد بها الرجال. ويجوز أن يكون التأنيثُ على الجماعة[5]. وقال الكسائي: «بطريقتكم»: بسنتكم وسَمْتكم. و«المثلى» نعتٌ، كقولك: امرأة كبرى. تقول العرب: فلان على الطريقة المُثلى، يعنون: على الهَدْي المستقيم[6].

(١) يعني: القاضي إسماعيل بن إسحاق.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤١١ .

(٣) في (م): القول، وهو خطأ.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٠٢ - ١٠٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٤١١ - ٤١٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ الإجماع: الإحكام والعزم على الشيء. تقول: أجمعتُ الخروجَ وعلى الخروج، أي: عزمتُ[١].

وقراءة كل الأمصار: «فَأَجْمِعُوا» إلَّا أبا عمرو، فإنه قرأ: «فَاجْمَعُوا»، بالوصل وفتح الميم[٢]، واحتجَّ بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠].

قال النحاس[٣]: وفيما حُكي لي عن محمد بن يزيد أنه قال: يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه، وهي القراءة التي عليها أكثرُ الناس. قال: لأنه احتجَّ بـ «جمع». وقولُه عزَّ وجلَّ: «فَجمَعَ كيدَه» قد ثبتَ[٤]، فيبعد أن يكون بعده: «فَاجْمَعُوا»، ويقربُ أن يكون بعده: «فَأَجْمِعُوا» أي: اِعْزِموا وجِدُّوا، ولمَّا تقدَّم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه. يقال: أمر مُجْمَعٌ ومُجمعٌ عليه.

قال النحاس[٥]: وتصحيح[٦] قراءة أبي عمرو: «فَاجْمَعُوا»، أي: اجمعوا كلَّ كيدٍ لكم وكلَّ حيلة، فضُمُّوه مع أخيه. وقاله أبو إسحاق[٧].

الثعلبي: القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان:

أحدهما: بمعنى الجمع، تقول: أجمعتُ الشيء وجمعتُه، بمعنى واحد[٨]. وفي «الصحاح»: وأجمعت الشيء: جعلته جميعاً، قال أبو ذُؤيب يَصِفُ حُمُراً:

فكأنَّها بالجِزْعِ بَيْنَ نُبَايِعٍ وأولاتِ ذي العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجمَعُ[٩]

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٥ .

(٢) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧ ، وما قبله منه.

(٤) بعدها في (م): هذا.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧ .

(٦) في (م) و(د): ويصحح. والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٥ .

(٨) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .

(٩) الصحاح (جمع)، والبيت في ديوان الهذليين ص٦ ضمن قصيدة يرثي بها الشاعر أولاده الخمسة. =

أي: مجموع.

والثاني: أنه بمعنى العزم والإحكام، قال الشاعر:

يا ليت شِعرِي والمُنَى لا تَنْفعُ هل أغدُوَنْ يوماً وأمرِي مُجمَعُ[١]

أي: مُحكَم.

﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ قال مقاتل والكلبي: جميعاً. وقيل: صفوفاً؛ ليكون أشدَّ لهيبتكم[٢]. وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبي عُبيدة[٣]، قال: يقال: أتيتُ الصَّفَّ، يعني المُصلَّى، فالمعنى عنده: ائتوا الموضعَ الذي تجتمعون فيه يومَ العيد[٤].

وحُكيَ عن بعض فصحاء العرب[٥]: ما قدرتُ أن آتيَ الصَّفَّ، يعني المصلَّى. وقال الزجَّاج[٦]: يجوز أن يكون المعنى: ثم ائتوا والناس مُصطفُّون، فيكون على هذا مصدراً في موضع الحال. ولذلك لم يُجمع.

وقُرئ: «ثُمِّ ايْتُوا» بكسر الميم وياء[٧]. ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفاً[٨].

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: من غلب. وهذا كلُّه من قول السحرة بعضهم لبعض. وقيل: من قول فرعون لهم[٩].

= ونبايع: اسم مكان أو جبل في ديار هذيل، وروي بتقديم الياء (يُنابع). وأولات ذي العرجاء: مواضع نسبها إلى مكان فيه أكمة عرجاء. معجم البلدان ٥/ ٢٥٧ و ٤/ ٩٨.

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٥، وسلف البيت ١١/ ٢٢.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧.

(٤) وهذا قول الزجاج أيضاً في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٥.

(٥) هو أبو العرب الكُليبي، كما في مجاز القرآن ٢/ ٢٣.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٥.

(٧) نسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١ لابن كثير في رواية شبل (وهي غير المشهورة عن ابن كثير). قال ابن مجاهد في السبعة ص٤٢٠: وهذا غلط، ولا وجه لكسرها.

(٨) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٢٣٤.

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤١١ - ٤١٢.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يريد السحرة. ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك من يدك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ تأدَّبوا مع موسى، فكان ذلك سبب إيمانهم[١]. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ في الكلام حذف، أي: فألقوا، دلَّ عليه المعنى[٢].

وقرأ الحسن: ﴿وَعُصِيُّهُمْ﴾ بضم العين[٣]. قال هارون القارئ: لغة بني تميم «وعُصِيُّهُمْ»، وبها يأخذ الحسن[٤]. الباقون بالكسر إتباعاً لكسرة الصاد. ونحوه: دُلِيّ ودِلِيّ وقُسِيّ وقِسِيّ[٥].

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان ورَوْح عن يعقوب: «تُخَيَّلُ» بالتاء[٦]، وردّوه إلى العِصِيّ والحبال؛ إذ هي مؤنثة. وذلك أنهم لطخوا العِصِيّ بالزئبق، فلمّا أصابها حرّ الشمس ارتهشت واهتزّت[٧]. قال الكلبي:

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٨١.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٨، ونسبها لعيسى.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٨.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٣.

(٦) قراءة ابن ذكوان (وهو راوي ابن عامر) وقراءة رَوْح عن يعقوب في التيسير ص١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤.

خُيِّل إلى موسى أن الأرض حيّات، وأنها تسعى على بطنها[١].

وقُرئ: «تَخَيَّل» بمعنى تتخيل، وطريقُه طريق «تُخَيَّلُ»[٢]، ومن قرأ: «يُخَيَّلُ» بالياء ردَّه إلى الكيد[٣]. وقرئ: «نُخَيِّل» بالنون؛ على أن الله هو المُخيِّل، للمحنة والابتلاء[٤].

وقيل: الفاعل «أَنَّهَا تَسْعَى»، فـ«أنَّ» في موضع رفع، أي: يخيَّل إليه سعيُها، قاله الزجَّاج[٥]. وزعم الفرَّاء[٦] أن موضعها موضع نصب؛ أي: بأنها، ثم حذف الباء.

والمعنى في الوجه الأوّل: تشبَّه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظنَّ أنها تسعى. وقال الزجَّاج[٧]: ومن قرأ بالتاء جعل «أنَّ» في موضع نصب، أي: تُخَيَّل إليه ذاتَ سعي. قال: ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ بدلاً من الضمير في «تُخيَّل»، وهو عائد على الحبال والعِصِيّ، والبدل فيه بدل اشتمال. و«تسعى» معناه: تمشي.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: أضمر. وقيل: وَجَدَ. وقيل: أحسَّ، أي: من الحيّات، وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدَّم[٨]. وقيل: خاف أن يفتتنَ الناسُ قبل أن يُلقيَ عصاه. وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناسُ قبل ذلك فيفتتنوا[٩].

وقال بعض أهل الحقائق: إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لمّا التقى

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٤ .

(٢) نسبها السمين في الدر المصون ٨/ ٧٣ لأبي السمَّال.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤ .

(٤) الكشاف ٢/ ٥٤٤ ، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٩ لأبي حيوة.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٦ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٨ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٨) ص٦٧-٦٨ من هذا الجزء.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٨ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٨٤ .

بالسحرة وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] التفت، فإذا جبريلُ على يمينه، فقال له: يا موسى، تَرفَّق بأولياء الله. فقال موسى: يا جبريلُ، هؤلاء سحرة جاؤوا بسحر عظيم ليبطلوا المُعجزة، وينصروا دينَ فرعون، ويردّوا دينَ الله، تقول: ترفَّق بأولياء الله! فقال جبريل: هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة. فلما قال له ذلك، أُوجس في نفس موسى، وخَطَر أن ما يُدريني ما عِلْمُ الله فيَّ، فلعلِّي أكون الآن في حالة، وعِلْم الله فيَّ على خلافها كما كان هؤلاء. فلمّا علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلا في الجنة، للنبوَّة والاصطفاء الذي أتاك الله به.

وأصل «خِيفة»: خِوْفة، فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ ولم يقل: وألق عصاك، فجائزٌ أن يكون تصغيراً لها، أي: لا تُبال بكثرة حبالهم وعِصِيّهم، و ألقِ العُوَيدَ الفَرْدَ الصغير الجِرْم الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يَتلقّفها على وحدته وكَثرتها، وصِغَره وعِظَمها. وجائزٌ أن يكون تعظيماً لها، أي: لا تَحفِل بهذه الأجرامِ الكثيرة الكبيرة، فإن في يمينك شيئاً أعظمُ منها كلِّها، وهذه على كثرتها أقلُّ شيء وأنزرُه عندها، فألقه يَتلقَّفْها بإذن الله ويمحقْها[(٢)].

و«تَلَقَّفْ» بالجزم جوابُ الأمر، كأنه قال: إنْ تُلقِهِ يتلقّف، أي: تأخذ وتبتلع.

وقرأ السُّلَميّ وحفص: «تَلْقَفْ» ساكنة اللام؛ من لَقِفَ يَلْقَفُ لَقْفاً. وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيى بن الحارث: «تَلَقَّفُ» بحذف التاء ورفع الفاء، على معنى فإنها تتلقف[(٣)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٤ .

(٣) قراءة حفص راوي عاصم وقراءة ابن ذكوان راوي ابن عامر في السبعة ص٤٢٠ ، والتيسير ص١١٢ .

والخِطاب لموسى. وقيل: للعصا. واللَّقْف: الأخذ بسرعة؛ يقال: لَقِفتُ الشيء ـ بالكسر ـ أَلْقَفُه لَقْفاً، وتلقَّفتُه أيضاً، أي: تناولته بسرعة. عن يعقوب: يقال: رجلٌ لَقْفٌ ثَقْفٌ، أي: خفيفٌ حاذقٌ. واللَّقَفُ ـ بالتحريك ـ: سقوط الحائط. ولقد لَقِفَ الحوضُ لَقَفاً، أي: تَهوَّر من أسفله واتَّسع[١]. وتَلْقف وتَلقَم وتَلهَم بمعنى. وقد مضى في «الأعراف»[٢]. لَقِمتُ اللُّقمة بالكسر لَقْماً، وتَلقَّمتُها: إذا ابتلعتها في مُهلة. وكذلك لَهِمَهُ بالكسر: إذا ابتلعه[٣].

﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ أي: الذي صنعوه، وكذا ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ أي: إنَّ الذي صنعوه. ﴿كَيْدُ﴾ بالرفع ﴿سِحْرٍ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء، وهي قراءة الكوفيين إلَّا عاصماً[٤]. وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون الكيدُ مضافاً إلى السحر على الإتباع من غير تقدير حذف.

والثاني: أن يكون في الكلام حذفٌ، أي: كيدُ ذي سحر[٥].

وقرأ الباقون: «كَيْدَ»[٦] بالنصب بوقوع الصنع عليه، و«ما» كافَّة، ولا تُضمر هاءً.

«ساحِرٍ» بالإضافة. والكيدُ في الحقيقة على هذه القراءة مضافٌ للساحر؛ لا للسِّحر. ويجوز فتحُ «أنّ» على معنى: لأنَّ ما صنعوا كيدُ ساحر[٧].

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض. وقيل:

---

(١) الصحاح (لقف). ويعقوب: هو ابن السكيت، وقوله في إصلاح المنطق ص٧٤. وقوله: ثَقْف لَقْف؛ قيده الفيروزآبادي في القاموس (لقف) بالفتح، وككتف، وأمير.

(٢) ٩/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٣) الصحاح (لقم) و(لهم).

(٤) السبعة ص٤٢١، والتيسير ص١٥٢.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٥.

(٦) ظاهر العبارة يوهم أن قراءة «كيدَ» بالنصب هي من المتواتر، لكنها قراءة شاذة، قرأ بها ابن مسعود ﷺ وأبو عمران الجوني. زاد المسير ٥/ ٣٠٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩. وقوله: يجوز فتح «أن» يعني في اللغة لا في التلاوة.

حيث احتال. وقد مضى في «البقرة» حكمُ الساحر ومعنى السحر؛ فتأمَّلْه هناك[١].

قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لِمَا رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا، فإنها ابتلعتْ جميعَ ما احتالوا به من الحبال والعِصيّ، وكانت حملَ ثلاث مئة بعير، ثم عادت عصاً لا يعلم أحدٌ أين ذهبت الحبالُ والعِصِيّ إلا اللهُ تعالى[٢]. وقد مضى في «الأعراف»[٣] هذا المعنى وأمر العصا مستوفًى.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ * قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: به، يقال: آمن له، وآمن به، ومنه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]، وفي «الأعراف» قَالَ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية:١٢٣] إنكارٌ منه عليهم، أي: تعدَّيتم وفَعلْتُم ما لم آمرْكم به.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. أي: رئيسُكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذقُ به منكم. وإنما أراد فرعونُ بقوله هذا لِيُشبِّهَ على الناس حتى لا يتَّبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، وإلا فقد علم فرعونُ أنهم لم يتعلَّموا من موسى، بل قد عُلِّموا السحر قبلَ قُدوم موسى وولادته[٤]. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل[٥]. قال سُويد بن أبي كاهل:

هُمُ صَلَبُوا العبديَّ في جذع نخلةٍ ... فلا عَطَستْ شيبانُ إلَّا بأَجْدَعا[٦]

فقطَّع وصلَّب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى.

وقرأ ابن مُحيصن هنا وفي «الأعراف» [الآية:١٢٤]: «فَلَأَقْطَعَنَّ»، «وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ»

---

(١) ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ .

(٣) ٩/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٩ بنحوه.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٣ ، وتفسير الطبري ١٦/ ١١٥ .

(٦) أمالي ابن الشجري ٢/ ٦٠٦ ، ونسبه البصري في حماسته ١/ ٨٠ لقراد بن حنش الصاردي. والأجدع: المقطوع الأنف. شرح أبيات المغني للبغدادي ٤/ ٦٢ .

بفتح الألف والتخفيف؛ من قَطَع وصَلَب[١]. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعني: أنا أَمْ ربُّ موسى[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني السَّحرة ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أي: لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال ابن عباس: يريدُ من اليقين والعلم[٣]. وقال عكرمة وغيره: لمَّا سجدوا أراهم اللهُ في سجودهم منازلَهم في الجنة؛ فلهذا قالوا: «لن نؤثِرك»[٤].

وكانت امرأةُ فرعون تسأل: من غلب؟ فقيل لها: غلبَ موسى وهارون، فقالت: آمنتُ بربِّ موسى وهارون. فأرسل إليها فرعونُ فقال: انظروا أعظمَ صخرةٍ؛ فإنْ مَضَتْ[٥] على قولها فألقُوها عليها، فلما أتَوْها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرَتْ منزلَها في الجنة، فمضت على قولها؛ فنزع اللهُ روحَها[٦]، وألقيت الصخرةُ على جسدها وليس فيها روح[٧].

وقيل: قال مقدّم السّحرة لمن يَثِقُ به لمَّا رأى مِن عصا موسى ما رأى: انظُر إلى

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣، وزاد المسير ٥/ ٣٠٧.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٤ - ٢١٥.

(٥) في النسخ الخطية: مرت، والمثبت من (م).

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(م): فانتزع روحها، والمثبت من (ظ).

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ١١٥ عن القاسم بن أبي بزّة.

هذه الحيَّة: هل تجوَّفت فتكون جنيًا، أو لم تتجوَّف فهي من صنعة الصانع الذي لا يَعزُب عليه مصنوع؟ فقال: ما تجوَّفت[١]؛ فقال: آمنتُ بربِّ هارون وموسى.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قيل: هو معطوفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، ولا على الذي فَطَرَنا، أي: خَلَقَنا. وقيل: هو قسم؛ أي: واللهِ لن نؤثرك[٢].

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ التقدير: ما أنت قاضيه. وليست «ما» هاهنا التي تكونُ مع الفعل بمنزلة المصدر؛ لأنَّ تلك تُوصَلُ بالأفعال، وهذه موصولةٌ بابتداءٍ وخبر[٣]. قال ابن عباس: فاصنعْ ما أنت صانع[٤]. وقيل: فاحكم ما أنت حاكم، أي: من القَطْع والصَّلْب[٥]. وحُذفت الياء من قاضٍ في الوصلِ لسكونها وسكون التنوين. وأجاز[٦] سيبويه إثباتَها في الوقف لأنَّه قد زالت علَّة التقاء الساكنين.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: إنَّما ينفذُ أمرُك فيها. وهي منصوبةٌ على الظرف، والمعنى: إنَّما تقضي في متاع هذه الحياة الدنيا[٧]، أو وقت هذه الحياة الدنيا، فتقدِّر حذف المفعول. ويجوز أنْ يكون التقدير: إنَّما تقضي أمورَ هذه الحياة

(١) في (د) و(م): ..هل تخوفت.. أو لم تتخوف.. ما تخوفت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ - ٥٠.

(٣) جوَّز جماعة كثيرة أن توصل ما المصدرية بالجملة الاسمية، فيما قاله السمين في الدر المصون ٨/ ٧٨. وقد ذكر الوجهين (يعني أن تكون ما موصولة أو مصدرية ظرفية) العكبري في إملاء ما منّ به الرحمن ٣/ ٥٨٩ (على هامش الفتوحات الإلهية).

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١٤، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٥، والبغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٤، والواحدي في الوجيز ٢/ ٢٣ (على هامش مراح لبيد).

(٦) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠ (والكلام منه): واختار، والمثبت من باقي النسخ، وينظر الكتاب ٤/ ١٨٣ - ١٨٥.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠.

الدنيا، فتَنْتَصِب انتصابَ المفعول، و«ما» كافَّةٌ لإنَّ[١]. وأجاز الفرَّاء الرفعَ على أنْ تجعل «ما» بمعنى الذي، وتحذف الهاء من تقضي، ورفعت «هذه الحياة الدنيا»[٢].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ أي: صدَّقنا بالله وحدَه لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ يريدون الشِّرْك الذي كانوا عليه[٣]. ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ «ما» في موضع نصبٍ معطوفةٌ على الخطايا. وقيل: لا موضعَ لها، وهي نافية، أي: ليغفرَ لنا خطايانا من السّحر وما أكرهتنا عليه.

النحاس[٤]: والأول أولى. المهدوي: وفيه بعد؛ لقولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، وليس هذا بقول مُكْرَهين؛ ولأنَّ الإكراهَ ليس بذنب، وإنْ كان يجوز أنْ يكونوا أُكرهوا على تعلمه[٥] صغاراً. قال الحسن: كانوا يُعلَّمون السحر أطفالاً، ثمَّ عَمِلُوه مختارين بعد[٦]. ويجوز أنْ يكون «ما» في موضع رفعٍ بالابتداء ويُضمر الخبر، والتقدير: وما أكرهتنا عليه من السحر موضوعٌ عنَّا[٧]. و«من السحر» على هذا القول والقول الأوَّل يتعلَّق بـ «أكرهتنا». وعلى أنَّ «ما» نافيةٌ؛ يتعلق بـ «خطايانا»[٨].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: ثوابُه خيرٌ وأبقى. فحذف المضاف؛ قاله ابن عباس. وقيل: اللهُ خيرٌ لنا منك، وأبقى عذاباً لنا من عذابك لنا. وهو جوابُ قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ

---

(١) الكلام بنحوه في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٨٨ (على هامش الفتوحات الإلهية).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٦٩-٤٧٠ . وكلام الفراء في جواز رفع «الحياة» يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٥٠ .

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): تعليمه، والمثبت من (ظ).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٥ بنحوه.

(٧) البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ١٤٩، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٨٩ (بهامش الفتوحات الإلهية).

(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ .

﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾. وقيل: الله خيرٌ لنا إنْ أطعناه، وأبقى عذاباً منك إنْ عصيناه[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قيل: هو من قول السحرة لمَّا آمنوا. وقيل: ابتداءُ كلامٍ من الله عزَّ وجلَّ[(٢)]. والكناية في «إنه» ترجعُ إلى الأمر والشأن[(٣)]. ويجوز: إنَّ مَن يأتِ، ومنه قول الشاعر:

إنَّ مـن يَـدخـلِ الـكـنـيـسـةَ يـومـاً ... يـلْـقَ فـيـهـا جـآذِراً وظِـبَـاء[(٤)]

أراد: إنَّه من يدخل.

أي: إنَّ الأمر هذا، وهو أنَّ المجرمَ يدخل النَّار، والمؤمنَ يدخلُ الجنَّة.

والمجرم: الكافر[(٥)]. وقيل: الذي يقترف المعاصي ويَكتسبها. والأول أشبهُ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. وهذه صفةُ الكافر المُكذِّب الجاحد؛ على ما تقدَّم بيانُه في سورة «النّساء»[(٦)] وغيرها، فلا يَنتفع بحياته، ولا يَستريح بموته. قال الشاعر:

ألا مَنْ لنفسٍ لا تموت فينقضي ... شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ[(٧)]

وقيل: نفسُ الكافر معلقةٌ في حَنْجَرته، كما أخبر الله تعالى عنه، فلا يموتُ بفراقها، ولا يحيا باستقرارها[(٨)].

---

(١) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤١٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٠.

(٤) نسبه ابن السيد البطليوسي في الحلل ص٢٨٧ للأخطل، ولم نقف عليه في ديوانه من رواية السكري، وكذا قال البغدادي في الخزانة ١/ ٤٥٨. والجآذر: جمع جُؤْذُر، وهو ولد البقرة.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ٦/ ٩٢.

(٧) البيت في النكت والعيون ٣/ ٤١٥، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٥، وزاد المسير ٥/ ٣٠٩، واللسان (طعم).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤١٥.

ومعنى ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾: من يأتِ موعدَ ربِّه. ومعنى ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ أي: يمت عليه، ويُوافيه مصدِّقاً به. ﴿قَدْ عَمِلَ﴾ أي: وقد عمل ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: الطاعات وما أُمِر به ونُهِي عنه. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: الرفيعةُ التي قصرت دونها الصفات. ودلَّ قولُه: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ على أنَّ المرادَ بالمجرم المشرك.

قوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ بيانٌ للدَّرجات وبدلٌ منها، والعَدْن: الإقامة، وقد تقدَّم بيانُه[١]. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت غُرَفها وسُرُرِها ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ من الخمر والعسل واللَّبن والماء، وقد تقدَّم[٢]. ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين دائمين. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: من تَطهَّرَ من الكفر والمعاصي.

ومن قال: هذا من قول السَّحرة؛ قال: لعلَّ السَّحرة سمعوه من موسى، أو من بني إسرائيل إذْ كان فيهم بمصرَ أقوام، وكان فيهم أيضاً المؤمنُ من آل فرعون.

قلت: ويَحتمِلُ أنْ يكون ذلك إلهاماً من الله لهم، أنطقَهم بذلك لمَّا آمنوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ تقدَّم الكلام في هذا مستوفًى. ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: يابساً لا طينَ فيه ولا ماء، وقد مضى في «البقرة» ضربُ موسى البحرَ، وكُنيته إيَّاه[٣]، وإغراقُ فرعون، فلا معنى للإعادة.

﴿لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا﴾ أي: لَحاقاً من فرعون وجنوده. ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾. قال ابن جُريج:

---

(١) ١٣/٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) ١٢/٢١٨ .

(٣) سلف ٢/٩٢ - ٩٣ .

قال أصحابُ موسى له: هذا فرعون قد أدركَنَا، وهذا البحرُ قد غَشِيَنا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ أي: لا تخاف دَرَكاً من فرعون، ولا تخشى غَرَقاً من البحر إنْ غَشِيَك[١].

وقرأ حمزة: «لا تَخَفْ»[٢] على أنَّه جواب الأمر. التقدير: إنْ تضربْ لهم طريقاً في البحر لا تَخَفْ. «ولا تخشى» مستأنفٌ على تقدير: ولا أنت تخشى[٣]. أو يكون مجزوماً، والألف مشبعةٌ من فتحة، كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، أو يكون على حدِّ قول الشاعر:

كَأَنْ لَم تَرَى قَبْلي أَسِيراً يَمانِيَا[٤]

على تقدير حذف الحركة كما تُحذف حركةُ الصَّحيح. وهذا مذهبُ الفرَّاء[٥].

وقال آخر:

هَجوتَ زَبَّان ثم جئتَ معتذراً   من هجوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو ولَمْ تَدَعِ[٦]

وقال آخر:

أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِي   بِما لَاقَتْ لَبُون بَني زِيادِ[٧]

قال النحاس[٨]: وهذا من أقبح الغلط أن يُحمل كتابُ الله عزَّ وجلَّ على الشذوذ

---

(١) في (د): أن يمسّك، وفي (م): أن يمسّك إن غشيك، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) و(ف)، وهو الموافق للنكت والعيون ٣/ ٤١٥ - ٤١٦ والكلام منه.

(٢) السبعة ص٤٢١، والتيسير ص١٥٢.

(٣) في (خ) و(ز) و(ف): ولا أنت لا تخشى، وفي (د): ولا أنت ولا تخشى، والمثبت من (ظ) و(م). والكلام في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠، والبيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ١٥٠.

(٤) قائله عبد يغوث الحارثي اليمني، وصدره: وتضحك مني شيخة عبشميَّة، وهو في خزانة الأدب ٢/ ٢٠١.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٦) البيت لأبي عمرو بن العلاء البصري يخاطب به الفرزدق، وكان هجاه ثم جاءه معتذراً، وزبّان هو أبو عمرو نفسه. والبيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٧، ومعجم الأدباء ١١/ ١٥٨.

(٧) البيت لقيس بن زهير، وقد سلف ١١/ ٤٤٣.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٥١، وفيه البيتان السالفان.

من الشعر. وأيضاً فإنَّ الذي جاءَ به من الشِّعر لا يُشبه من الآية شيئاً؛ لأنَّ الياءَ والواو مُخالفتان للألف؛ لأنَّهما تتحركان، والألف لا تتحرك، فللشاعر إذا اضطُر أنْ يُقدِّرهما متحركتين، ثم يَحذف الحركةَ للجزم، وهذا محالٌ في الألف.

والقراءةُ الأُولى أَبين؛ لأنَّ بعده: «وَلَا تَخْشَى» مُجمعٌ عليه بلا جزم؛ وفيها ثلاثُ تقديرات:

الأول: أنْ يكون «لا تخاف» في موضع الحال من المُخاطب، التقدير: فاضرِبْ لهم طريقاً في البحر يَبَساً غيرَ خائف ولا خاشٍ.

الثاني: أنْ يكون في موضع النعت للطَّريق؛ لأنَّه معطوفٌ على «يَبَس» الذي هو صفة، ويكون التقدير: لا تخاف فيه، فحذفَ الراجع من الصفة.

والثالث: أنْ يكون منقطعاً خبرَ ابتداء محذوف، تقديره: وأنت لا تخاف[١].

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي: أتبعهم ومعه جنودُه، وقُرئ: «فَاتَّبَعَهُمْ» بالتشديد[٢]، فتكون الباء في «بِجنودِهِ» عَدَّت الفعلَ إلى المفعول الثاني؛ لأنَّ اتَّبع يتعدَّى إلى مفعولٍ واحد. أي: تبعهم ليلحقهم بجنوده، أي: مع جنوده كما يُقال: ركب الأمير بسيفه، أي: مع سيفه.

ومن قطع، فأتبع يتعدَّى إلى مفعولين: فيجوز أنْ تكون الباء زائدة، ويجوز أنْ يكون اقتصرَ على مفعولٍ واحد. يقال: تَبِعَه وأَتْبعَه، ولَحِقَه وأَلْحَقه بمعنًى واحد. وقوله: «بِجنودِهِ» في موضع الحال، كأنَّه قال: فأتبعهم سائقاً جنودَه[٣].

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: أصابهم من البحر ما غرَّقهم، وكرَّرَ على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ .

(٢) هي رواية عبيد عن أبي عمرو البصري كما في السبعة ص٤٢٢ ، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥ بنحوه.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: أضلَّهم عن الرُّشد، وما هداهم إلى خيرٍ ولا نجاة؛ لأنَّه قدَّر أنَّ موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأنَّ بين أيديهم البحر.

فلمَّا ضرب موسى البحرَ بعصاه انفلق منه اثنا عشرَ طريقاً، وبين الطرق الماءُ قائماً كالجبال. وفي سورة الشعراء ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الآية: ٦٣]، أي: الجبل الكبير، فأخذَ كلُّ سِبْطٍ طريقاً. وأوحى الله إلى أطواد الماء أنْ تَشبَّكي، فصارت شبكاتٍ يرى بعضُهم بعضاً، ويسمع بعضُهم كلامَ بعض، وكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلمَّا أقبل فرعون، ورأى الطرق في البحر، والماءَ قائماً، أوهمَهم أنَّ البحر فعلَ هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابُه فانطبقَ البحر عليهم(١).

وقيل: إنَّ قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيدٌ لإضلاله إيَّاهم. وقيل: هو جوابُ قول فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فكذَّبه الله تعالى(٢).

وقال ابن عباس: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما هدى نفسَه، بل أهلك نفسَه وقومَه.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ لمَّا أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا. ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ «جانب» نصب على المفعول الثاني لـ «واعدنا» ولا يحسن أنْ ينتصب على الظرف؛ لأنَّه ظرفُ مكانٍ مختص(٣) غير مبهم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٥٢ دون ذكر تَشبُّك الماء ليرى بعضهم بعضاً.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥.

(٣) في النسخ: محض، والمثبت من مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ والكلام منه، وينظر الدر المصون ٨/ ٨٥.

وإنَّما تتعدَّى الأفعالُ والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مُبهمةً.

قال مكيّ: هذا أصلٌ لا خلاف فيه، وتقديرُ الآية: وواعدناكم إتيانَ جانب الطُّور، ثمَّ حذف المضاف.

قال النحاس[١]: أي: أَمَرْنا موسى أنْ يأمرَكم بالخروج معه؛ لنُكلِّمه[٢] بحضرتكم، فتسمعوا الكلام.

وقيل: وعدَ موسى بعد إغراق فرعون أنْ يأتيَ جانبَ الطور الأيمنَ فَيُؤتيه التوراة[٣]، فالوعدُ كان لموسى، ولكن خُوطبوا به؛ لأنَّ الوعد كان لأجلهم.

وقرأ أبو عمرو: «وَوَعَدْنَاكُمْ» بغير ألف[٤]، واختاره أبو عُبيد؛ لأنَّ الوعد إنَّما هو من الله تعالى لموسى خاصة، والمُواعدةُ لا تكون إلَّا من اثنين؛ وقد مضى في «البقرة» هذا المعنى[٥].

و«الْأَيْمَنَ» نصب؛ لأنَّه نعتٌ للجانب، وليس للجبل يمينٌ ولا شمال، فإذا قيل: خُذْ عن يمين الجبل؛ فمعناه: خُذْ على يمينك من الجبل[٦]. وكان الجبل على يمين موسى إذْ أتاه.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي: في التِّيه، وقد تقدَّم القول فيه[٧].

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: من لذيذ الرزق. وقيل: من حلاله؛ إذْ لا صُنع فيه لآدميٍّ فتدخُلَه شُبهة.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٥٢.

(٢) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس: ليكلمه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٦.

(٤) السبعة ص٤٢٢، والتيسير ص٧٣.

(٥) ٢/ ٩٨.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥٩ عند قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] بنحوه.

(٧) ٢/ ١١٨.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي: لا تحملنَّكُم السَّعة والعافية أنْ تعصوا؛ لأنَّ الطُّغيان: التجاوزُ إلى ما لا يجوز[١]. وقيل: المعنى: أي لا تكفروا النِّعمة، ولا تنسَوْا شُكرَ المُنعم بها عليكم. وقيل: أي: ولا تستبدلوا بها شيئاً آخر، كما قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. وقيل: لا تدَّخِروا منه لأكثرَ من يومٍ وليلة، قال ابن عباس: فدوّد عليهم ما ادَّخروه؛ ولولا ذلك ما دَوَّدَ[٢] طعامٌ أبداً.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: يجب وينزل، وهو منصوبٌ بالفاء في جواب النهي من قوله: «وَلَا تَطْغَوْا».

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بنُ وثَّاب والكسائي: «فَيَحُلَّ» بضمِّ الحاء، «وَمَنْ يَحْلُلْ» بضمِّ اللّام الأولى[٣]. الباقون بالكسر، وهما لغتان. وحكى أبو عُبيدة[٤] وغيره أنَّه يقال: حَلَّ يَحِلُّ: إذا وجبَ، وحَلَّ يَحُلُّ: إذا نزل. وكذا قال الفراء[٥]: الضمُّ من الحُلول بمعنى الوقوع، والكسر من الوجوب. والمعنيان متقاربان؛ إلَّا أنَّ الكسر أولى؛ لأنَّهم قد أجمعوا على قوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[٦] [الزمر: ٤٠]. وغضبُ الله: عقابُه ونِقْمته وعذابه.

﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قال الزَّجَّاج[٧]: فقد هلك، أي: صارَ إلى الهاوية، وهي قَعْرُ النار، من هَوَى يَهوي هَوِيًّا، أي: سقط من عُلْوٍ إلى سُفْل، وهوى فلان، أي: مات[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ .

(٢) في النسخ: فتدَوَّد عليهم... ما تدوَّد، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٤١٦ (والكلام منه) ومن معاجم اللغة.

(٣) قراءة الكسائي في السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٢ ، وقراءة الأعمش ذكرها البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٧ .

(٤) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ والكلام منه: أبو عُبيد. ولم نقف على هذا الكلام في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ - ٥٣ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣ .

(٨) تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٨ - ٤٩٠ .

وذكر ابن المبارك: أخبرنا إسماعيل بن عيَّاش قال: حدثنا ثعلبةُ بن مسلم، عن أيوبَ بن بَشِير، عن شُفَيّ الأصبحيّ قال: إنَّ في جهنَّم جبلاً يُدعى صَعُوداً، يطلَع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أنْ يرقاه، قال الله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧]، وإنَّ في جهنم قصراً يُقال له: هَوَى، يُرمى الكافرُ من أعلاه، فيهوي أربعينَ خريفاً قبل أنْ يبلُغ أصلَه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ وذكر الحديث[١]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: من الشّرك. ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: أقامَ على إيمانه حتى مات عليه؛ قاله سفيانُ الثوري وقتادة وغيرهما[٣]. وقال ابن عباس: أي: لم يَشكَّ في إيمانه، ذكره الماوردي[٤] والمهدوي. وقال سهلُ ابن عبد الله التُّستَريّ وابن عباس أيضاً: أقام على السنَّة والجماعة[٥]، ذكره الثعلبي. وقال أنس: أخذ بسنَّة النبي ﷺ، ذكره المهدوي، وحكاه الماوردي عن الربيع بن أنس[٦]. وقول خامس: أصاب العمل، قاله ابن زيد[٧]، وعنه أيضاً: تعلَّمَ العلمَ لِيهتديَ كيف يَفعل[٨]، ذكر الأوّل المهدوي، والثاني الثعلبيّ. وقال الشعبيّ ومقاتل والكلبيّ: علم أنَّ لذلك ثواباً وعليه عقاباً[٩]؛ وقاله الفراء[١٠]. وقول ثامن: «ثم

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٦ - زوائد نعيم)، وهو مقطوع، وأيوب بن بشير مجهول، كما في ميزان الاعتدال ١/ ٢٨٥ .

(٢) ص٤٠١ - ٤٠٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ عن قتادة. وسيأتي الخبر عن سفيان.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٤١٦ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٢٧ - ١٢٨ .

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣١٢ عن سعيد بن جبير.

(٦) في النكت والعيون ٣/ ٤١٧ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ .

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١٧ .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٧ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧ .

(١٠) في معاني القرآن ٢/ ١٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣ .

اهتدى» في ولاية أهل بيت النبي ﷺ؛ قاله ثابت البُنَاني[١].

والقولُ الأول أحسنُ هذه الأقوال إنْ شاء الله، وإليه يرجع سائرها. قال وكيع عن سفيان: كنَّا نسمع في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: من الشِّرك، ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بعد الشِّرك ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: صلَّى وصام ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: مات على ذلك[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: ما حملك على أنْ تسبقَهم؟ قيل: عَنى بالقوم جميعَ بني إسرائيل، فعلى هذا قيل: استخلف هارونَ على بني إسرائيل، وخرج معه بسبعين رجلاً للميقات.

فقوله: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ ليس يريد أنَّهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب مني ينتظرون عودي إليهم[٣]. وقيل: لا، بل كان أَمَر هارونَ بأنْ يَتْبع في بني إسرائيل أثرَه ويلتحقوا به[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٩، وهو في النكت والعيون ٣/ ٤١٧، وزاد المسير ٥/ ٣١٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٣.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٩ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٣٠ عن ابن إسحاق بنحوه.

وقال قوم: أرادَ بالقوم السبعين الذين اختارهم، وكان موسى لمَّا قرُب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله عزَّ وجلَّ[١].

وقيل: لما وَفد إلى طور سيناء بالوعد[٢] اشتاق إلى ربِّه، وطالت عليه المسافةُ من شدَّة الشوق إلى الله تعالى، فضاق به الأمرُ حتى شقَّ قميصَه، ثمَّ لم يصبر حتى خلَّفهم ومضى وحده، فلمَّا وقف في مقامه قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ فبقي ﷺ مُتحيراً عن الجواب وكنَى عنه بقوله: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾، وإنَّما سألَه عن السبب الذي أعجلَه بقوله: «ما» فأخبرَ عن مجيئهم بالأثر. ثم قال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، فكنَى عن ذكر الشوق وصَرَفه[٣] إلى ابتغاء الرضا[٤].

ذكر عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة في قوله: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ قال: شوقاً. وكانت عائشةُ رضي الله عنها إذا أوتْ إلى فراشها تقول: هاتوا المجيد. فتُؤتَى بالمصحف، فتأخذه في صدرها، وتنام معه تتسلَّى بذلك؛ رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضي الله عنها[٥]. وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خَلَع ثيابه، وتجرَّد حتى يُصيبه المطر، ويقول: «إنَّه حديثُ عهدٍ بربِّه»[٦]. فهذا من الرسول ﷺ وممن بعدَه من قَبيل الشوق؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يُروى عنه: «طال شوقُ الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوقُ»[٧].

قال ابن عباس: كان الله عالماً ولكن قال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾ رحمةً لموسى، وإكراماً له بهذا القول، وتسكيناً لقلبه، ورِقَّةً عليه، فقال مُجيباً لربِّه: ﴿هُمۡ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧، وزاد المسير ٥/ ٣١٣ بنحوه.

(٢) في (خ): بالوفد.

(٣) في (د) و(م): وصدقه.

(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٩ بنحوه.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) في (خ) و(م): بربي. والحديث أخرجه أحمد (١٢٣٦٥) ومسلم (٨٩٨) من حديث أنس ﷺ.

(٧) ذكره الديلمي في الفردوس (٨٠٦٧) عن أبي الدرداء ﷺ موقوفاً.

﴿أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: قال أبو حاتم: قال عيسى: بنو تميمٍ يقولون: «هُمْ أولَا» مقصورة مرسلة، وأهل الحجاز يقولون: «أولاءِ» ممدودة. وحكى الفراء[1]: «هُمْ أُولَايَ عَلَى أَثَرِي». وزعم أبو إسحاق الزَّجَّاج[2] أنَّ هذا لا وجه له.

قال النحاس[3]: وهو كما قال؛ لأنَّ هذا ليس مما يُضاف فيكون مثل: هُدَايَ. ولا يخلو من إحدى جهتين: إمَّا أنْ يكون اسماً مبهماً، فإضافتُه مُحال، وإمَّا أنْ يكون بمعنى الذين، فلا يُضاف أيضاً؛ لأنَّ ما بعدَه من تمامه، وهو معرفة.

وقرأ ابن أبي إسحاق، ونصر، ورُويس عن يعقوب: ﴿على إِثْرِي﴾ بكسر الهمزة وإسكان الثاء[4]: وهو بمعنى أَثَر، لغتان.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: عجلتُ إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عنّي[5]. يقال: رَجلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعَجْلَانُ: بَيِّنُ العَجَلة، والعَجَلةُ: خلاف البُطء[6].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: اختبرناهم وامتحنَّاهم بأنْ يستدلُّوا على الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أي: دعاهم إلى الضلالة، أو هو سببُها.

وقيل: فتنَّاهم: ألقيناهم في الفتنة، أي: زيَّنَّا لهم عبادةَ العجل، ولهذا قال موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٨٨ ونسبه إلى بعض القراء. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣، وما قبله وما بعده منه.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧١.

(٣) في إعراب القرآن له ٣/ ٥٣.

(٤) قراءة رُويس عن يعقوب في النشر ٢/ ٣٢١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤.

(٦) الصحاح (عجل).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان السامريُّ من قومٍ يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر، فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر[١]. وقيل: كان رجلاً من القبط، وكان جاراً لموسى؛ آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيماً من عُظَماء بني إسرائيل، من قبيلةٍ تُعرف بالسَّامرة، وهم معروفون بالشام. قال سعيد بن جُبير: كان من أهل كَرْمَان[٢].

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾ حال. وقد مضى في «الأعراف» بيانُه مستوفًى[٣]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ وعدَهم عزَّ وجلَّ الجنَّة إذا أقاموا على طاعته[٤]، ووَعدهم أنَّ يُسمعهم كلامَه في التوراة على لسان موسى، ليعمَلوا بما فيها، فيستحقُّوا ثوابَ عملهم. وقيل: وعدَهم النصرَ والظَّفَر. وقيل: وَعْدُه قولُه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية [طه: ٨٢][٥].

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: أفنسيتم؟ كما قيل: والشيءُ قد يُنسَى لطول العهدِ.

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: «يحلّ» أي: يجب وينزل. والغضب: العقوبة والنّقمة. والمعنى: أَمْ أردتُم أنْ تفعلوا فعلاً يكون سببَ حلول غضب الله بكم؛ لأنَّ أحداً لا يطلب غضبَ الله، بل قد يرتكبُ ما يكون سبباً للغضب.

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ لأنَّهم وعدوه أنْ يُقيموا على طاعة الله عزَّ وجلَّ إلى أنْ يرجع

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٥٢ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٧ ، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٣) مطولاً، وقد ذكره ابن كثير بطوله في تفسيره ٥/ ٢٨٥-٢٩٣ ثم قال: ..كأنه تلقّاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أُبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم.

(٢) عرائس المجالس ص٢١٠ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٠١ . وكرمان: ولاية كبيرة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. معجم البلدان ٤/ ٤٥٤ .

(٣) ٩/ ٣٣٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٧ - ٤١٨ .

إليهم من الطُّور[١]. وقيل: وعدَهم أن يسيروا[٢] على أثره للميقات فتوقفوا[٣].

﴿قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بفتح الميم، وهي قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر[٤]. قال مجاهد والسديّ: ومعناه: بطاقتنا. ابن زيد: لم نملك أنفسنا، أي: كنا مضطرين[٥].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «بِمِلْكِنَا» بكسر الميم[٦]. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّها اللُّغة العالية. وهو مصدر مَلَكتُ الشيء أَمْلِكُه مِلْكاً. والمصدر مضافٌ إلى الفاعل، والمفعول محذوف، كأنَّه قال: بمِلْكنا الصواب، بل أخطأنا، فهو اعترافٌ منهم بالخطأ[٧].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «بِمُلْكنا» بضمِّ الميم[٨]، والمعنى: بسُلطاننا، أي: لم يكن لنا مُلك فنخلفَ موعدك[٩].

ثم قيل: قوله: «قَالُوا» عامٌّ يُراد به الخاص، أي: قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أنْ رجع[١٠] إليهم من الطُّور: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا﴾[١١]. وكانوا اثني عشر ألفاً، وكان جميعُ بني إسرائيل ستَّ مئة ألف[١٢].

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٠٢ بنحوه.

(٢) قوله: أن يسيروا، من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤١٨ .

(٤) قراءة نافع وعاصم في السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ١٣٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٤١٨ .

(٦) السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٧) الحجة للفارسي ٥/ ٢٤٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ بنحوه.

(٨) السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٩) الحجة للفارسي ٥/ ٢٤٤ .

(١٠) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: يرجع.

(١١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤ .

(١٢) عرائس المجالس ص٢١٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨ .

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة؛ قراءة نافعٌ وابن كثير وابن عامر وحفص ورُويس. الباقون بفتح الحرفين خفيفة[1]. واختارَه أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّهم حَملوا حُلِيَّ القوم معهم وما حملوه كرهاً[2].

﴿أَوْزَارًا﴾ أي: أثقالاً[3] ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: من حُلِيِّهم. وكانوا استعاروه حين أرادوا الخروجَ مع موسى عليه السلام، وأَوهموهم أنَّهم يجتمعون في عيدٍ لهم أو وليمةٍ. وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون، لمَّا قذفَهم البحرُ إلى الساحل. وسُمِّيت أوزاراً بسبب أنَّها كانت آثاماً، أي: لم يحلَّ لهم أخذُها، ولم تحلَّ لهم الغنائم[4]، وأيضاً فالأوزار: هي الأثقالُ في اللُّغة[5].

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ثَقُلَ علينا حملُ ما كان معنا من الحُلِيِّ، فقذفناه في النَّار ليذوب[6]، أي: طرحناه فيها. وقيل: طرحناه إلى السامريّ؛ لترجعَ فترى فيها رأيك.

قال قتادة: إنَّ السامريّ قال لهم حين استبطأ القومُ موسى: إنَّما احتبسَ عليكم من أجل ما عندكم من الحُليّ. فجمعوه ودفعوه إلى السامريِّ، فرمى به في النار، وصاغَ لهم منه عجلاً، ثمَّ ألقى عليه قبضةً من أثر فرس الرسول؛ وهو جبريل عليه السَّلام. وقال معمر: الفرس الذي كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى عليه القبضةَ صار عجلاً جسداً له خُوار[7]. والخُوار: صوت البقر.

وقال ابن عباس: لمَّا انسكبت الحُلِيُّ في النَّار، جاء السامريّ وقال لهارون:

---

(١) السبعة ص٤٢٣ ، والتيسير ص١٥٣ ، والنشر ٢/ ٣٢٢ . ورُويس: هو راوي يعقوب من العشرة.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٣٦ - ١٣٧ عن مجاهد.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٨ بنحوه، وسلف هذا الكلام ٩/ ٣٣٣ .

(٥) ينظر الصحاح (وزر).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤ .

(٧) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٤١٩ .

يا نبيَّ الله، أَأُلقي ما في يدي؟ وهو يظنُّ أنَّه كبعض ما جاء به غيره من الحليّ؛ فقذف الترابَ فيه، وقال: كنْ عجلاً جسداً له خُوار، فكان كما قال؛ للبلاء والفتنة، فخار خَورةً واحدةً لم يُتبعها مثلَها[١].

وقيل: خُواره وصوته كان بالريح؛ لأنَّه كان عَمِل فيه خروقاً، فإذا دخلت الريح في جوفه خَار، ولم تكن فيه حياة. وهذا قولُ مجاهد.

وعلى القول الأوَّل كان عجلاً من لحم ودم، وهو قول الحسن وقتادة والسديّ[٢].

وروى حمَّاد عن سِماك، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: مرَّ هارون بالسامريّ وهو يصنع العجل، فقال: ما هذا؟ فقال: ينفع ولا يضر، فقال: اللهم أعطه ما سألَك على ما في نفسه، فقال: اللهم إنِّي أسألك أنْ يخور. وكان إذا خار سجدوا، وكان الخُوار من أجل دعوة هارون[٣].

قال ابن عباس: خار كما يخور الحيُّ من العُجول[٤].

ورُويَ أنَّ موسى قال: يا رب، هذا السامريّ أخرجَ لهم عجلاً جسداً له خُوار من حُلِيِّهم، فمن جعل الجسد والخُوار؟ قال الله تبارك وتعالى: أنا. قال موسى ﷺ: وعزَّتكَ وجلالك وارتفاعك وعلوِّك وسلطانك[٥]، ما أضلَّهم غيرُك. قال: صدقتَ يا حكيم الحكماء. وقد تقدَّم هذا كله في سورة «الأعراف»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٦٧١ - ٦٧٢ مطولاً، وينظر عرائس المجالس ص٢١١ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤١٩ . قال الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير ٩/ ١١٠ : ما وقع من القصص أنه كان لحماً ودماً ويأكل ويشرب، فهو من وضع القصاصين. وسلف هذا ٩/ ٣٣٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٣١٠ - ٣١١ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨ .

(٥) قوله: وارتفاعك وعلوك وسلطانك، ليس في (خ)، ووقع في (ظ): وعلو شأنك.

(٦) ٩/ ٣٣٢ - ٣٣٤ .

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ أي: قال السامريُّ ومن تَبعه وكانوا ميَّالين إلى التَّشبيه؛ إذ قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾. ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: فضلَّ موسى [وذهب] يطلبه[١]، فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربِّه. وقيل معناه: فتركه موسى هنا وخرج يطلبه. أي: ترك موسى إلهه هنا[٢].

ورَوى إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أي: فنسي موسى أنْ يذكرَ لكم أنَّه إلهه[٣]. وقيل: الخطابُ خبرٌ عن السامريّ، أي: ترك السامريُّ ما أمرَه به موسى من الإيمان فضلَّ[٤]؛ قاله ابن الأعرابيّ.

فقال الله تعالى مُحتجًّا عليهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: يعتبرون ويتفكرون في أنه لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً، أي: لا يُكلِّمهم. وقيل: لا يعودُ إلى الخُوار والصوت. ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف يكون إلهاً؟! والذي يعبدُه موسى ﷺ يضرُّ وينفع، ويُثيبُ ويُعطي ويمنع.

و«أَنْ لَا يَرْجِعُ» تقديره: أنَّه لا يرجع، فلذلك ارتفعَ الفعلُ، فخففت «أنْ» وحُذف الضمير. وهو الاختيار في الرؤية والعلم والظن[٥]. قال:

في فتيةٍ كسيوف[٦] الهندِ قد علموا أنْ هالكٌ كلُّ مَنْ يَحْفَى ويَنْتَعِلُ[٧]

وقد يُحذف مع التشديد، قال:

---

(١) في (د) و(ز) و(خ): يطلب.

(٢) أخرج الطبري ١٦/ ١٤٢ نحو هذه الأخبار، وما بين حاصرتين منه، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ١٠٤.

(٣) زاد المسير ٥/ ٣١٥.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ١٤١ عن ابن عباس.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٣.

(٦) في (د) و(ز) و(خ) و(م): من سيوف، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٧) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٩. والشطر الثاني فيه: أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ. وهما روايتان للبيت فيما ذكره التبريزي في شرح القصائد العشر ص٣٣٨.

فلو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرابتي ولكنَّ زنجيٌّ عظيمُ المَشافِرِ[١]

أي: ولكنك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أنْ يأتيَ موسى ويرجعَ إليهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: ابتُليتم وأُضللتم به، أي: بالعجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ في عبادته ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ لا أمرَ السامريّ. أو: فاتَّبعوني في مَسيري إلى موسى ودعوا العجل. فعصَوه و﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ أي: لن نزالَ مُقيمين على عبادة العجل[٢] ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فننظرَ هل يعبدُه كما عبدناه؛ فتوهَّموا أنَّ موسى يعبدُ العجل، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رَجَعَ موسى وسمع الصِّياح والجَلَبة، وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين معه: هذا صوتُ الفتنة؛ فلما رأى هارونَ أخذَ شعر رأسه بيمينه، ولحيتَه بشماله غضباً[٣]، و﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ أي: أخطؤوا الطريقَ وكفروا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ «لا» زائدة أي: أنْ تتَّبع أمري ووصيتي. وقيل: ما منعك عن اتِّباعي في الإنكار عليهم[٤]. وقيل: معناه: هلَّا قاتلتهم إذْ قد علمتَ أني لو

---

(١) البيت للفرزدق كما في الكتاب ٢/ ١٣٦، وخزانة الأدب ١٠/ ٤٤٤. قال البغدادي: والبيت في هجو رجل من ضبَّة، نفاه عن ضبَّة ونسبه إلى الزنج. والمشافر: جمع مِشْفَر بكسر الميم وفتح الفاء، وهو شفة البعير، واستُعير هنا لشفة الإنسان لما قصد من بشاعة خلقه. ثم قال البغدادي: واعلم أن قافية البيت اشتهرت كذا عند النحويين، وصوابه: ولكنَّ زنجيًّا غلاظاً مشافرُه.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٩.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩، وينظر عرائس المجالس ص٢١٦.

(٤) ذكره الماوردي عن مقاتل ٣/ ٤٢٠.

كنتُ بينهم لقاتلتُهم على كُفرهم. وقيل: ما منعك من اللُّحوق بي لما فُتنوا[١].

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ يريد: أنَّ مُقامَك بينهم وقد عبدوا غيرَ الله تعالى عِصيانٌ منك لي؛ قاله ابن عباس[٢]. وقيل: معناه: هلَّا فارقتهم، فتكون مفارقتك إيَّاهم تقريعاً لهم وزَجْراً[٣].

ومعنى «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» قيل: إنَّ أمرَه ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فلما أقامَ معهم، ولم يُبالِغْ في مَنْعهم، والإنكارِ عليهم، نسبه إلى عِصيانه ومُخالفة أمره[٤].

مسألة: وهذا كلُّه أصلٌ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله، وأنَّ المقيمَ بينهم - لا سيَّما إذا كان راضياً - حُكْمُه كحكمهم. وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» و«النساء» و«المائدة» و«الأنعام» و«الأعراف» و«الأنفال»[٥].

وسُئِل الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشيُّ رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأُعلِم - حرس الله مدته - أنَّه اجتمع جماعةٌ من رجال، فيُكثِرون من ذِكر الله تعالى، وذكر محمدٍ ﷺ، ثمَّ إنَّهم يُوقعون بالقضيب على شيءٍ من الأديم، ويقوم بعضُهم يرقص ويتواجد حتى يقع مَغْشيًّا عليه، ويُحضرون شيئاً يأكلونه. هل الحضور معهم جائزٌ أم لا؟ أفتونا مأجورين يرحمكم الله[٦]. وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخُ كُفَّ عن الذُّنوبْ قبلَ التَّفرُّق والزَّلَلْ
واعْمَلْ لنفسكَ صالحاً ما دام ينفعُك العَمَلْ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩.
(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٠٨ بنحوه.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩.
(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٠.
(٥) ٥/ ٧٣، ٧/ ١٨٥، ٨/ ١٠٥، ٩/ ٣٦٥، ٩/ ٤٨٦.
(٦) لفظة: مأجورين من (م).

أمّا الشبابُ فقد مَضَى ومَشيبُ رأسكَ قد نَزلْ

وفي مثل هذا ونحوه.

الجواب: ـ يرحمك الله ـ مذهبُ الصوفية بطالةٌ وجهالةٌ وضلالة، وما الإسلام إلَّا كتابُ الله وسنةُ رسوله، وأمَّا الرقص والتواجد، فأولُ من أحدثَه أصحاب السامريّ، لما اتَّخذَ لهم عجلاً جسداً له خُوار؛ قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دينُ الكفَّار وعُبَّاد العجل، وأمَّا القضيبُ فأوَّلُ من اتَّخذه الزنادقة لِيشغَلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى. وإنَّما كان يجلسُ النبيُّ ﷺ مع أصحابه كأنَّما على رؤوسهم الطير[1] من الوقار؛ فينبغي للسلطان ونُوَّابه أنْ يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يَحِلُّ لأحدٍ يؤمنُ بالله واليوم الآخر أنْ يَحضُرَ معهم، ولا يُعينهم على باطلهم. هذا مذهبُ مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ ابن عباس: أَخذَ شعرَهُ بيمينه ولحيتَه بيساره[2]؛ لأنَّ الغَيْرةَ في الله مَلكته، أي: لا تفعل هذا، فيتوهَّموا أنه منك

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٥٤)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والنسائي في الكبرى (٥٨٤٤) من حديث أسامة بن شريك ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢٠ .

استخفافٌ أو عقوبة. وقد قيل: إنَّ موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفافٍ ولا عقوبة كما يأخذ الإنسانُ بلحية نفسه. وقد مضَى هذا المعنى في «الأعراف» مستوفًى[(١)]. والله عزَّ وجلَّ أعلمُ بما أراد نبيُّه عليه السلام.

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خشيتُ أن أخرجَ وأتركَهم، وقد أمرتَني أن أخرجَ معهم، فلو خرجتُ لاتَّبعني قومٌ وتخلَّف[(٢)] مع العجل قومٌ، وربما أدّى الأمرُ إلى سفك الدماء، وخشيتُ إنْ زَجرتُهم أن يقع قتالٌ فتلومَني على ذلك[(٣)].

وهذا جوابُ هارونَ لموسى عليه السلام عن قوله: «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي»[(٤)] وفي «الأعراف» [الآية: ١٥٠]: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي[(٥)] فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ لأنك أمرتَني أن أكونَ معهم، وقد تقدَّم.

ومعنى ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: لم تعمل بوصيَّتي في حِفظه؛ قاله مقاتل. وقال أبو عُبيدة[(٦)]: لن تنتظر عهدي وقُدومي.

فتركه موسى، ثم أقبل على السامريّ ف ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي: ما أمرُك وشأنُك، وما الذي حملك على ما صنعتَ؟ قال قتادة: كان السامريُّ عظيماً في بني إسرائيلَ من قبيلة يقال لها: سامرة[(٧)]، ولكن عدوَّ الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى.

فلما مرَّتْ بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى

(١) ٩/ ٢٤٠ .
(٢) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): يتخلف.
(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٩ .
(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢١ .
(٥) بعدها في (د): على ذلك، وهذا جواب هارون لموسى عليه السلام.
(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٦ ، ونقله المصنف عنه مع قول مقاتل الذي قبله من النكت والعيون ٣/ ٤٢١ .
(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢١ .

﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فاغتنمها السامريّ، وعَلِمَ أنهم يميلون إلى عبادة العجل، فاتَّخذ العجل. فـ ﴿قَالَ﴾ السامريّ مُجيباً لموسى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ يعني: رأيتُ ما لم يَرَوْا؛ رأيتُ جبريلَ عليه السلام على فرس الحياة، فأُلقي في نفسي أن أقبضَ من أَثَره قبضةً، فما ألقيتُه على شيء إلا صار له روحٌ ولحمٌ ودمٌ، فلما سألوك أن تجعلَ لهم إلهاً زَيَّنَتْ لي نفسي ذلك[١].

وقال عليّ رضي الله عنه: لما نزل جبريلُ لِيصعَدَ بموسى عليه السلام إلى السماء، أبصره السامريُّ من بين الناس، فقبض قبضةً من أثر الفرس.

وقيل: قال السامريّ: رأيتُ جبريلَ على الفرس، وهي بلقاء[٢]، خَطْوُها مدُّ البصر، فأُلقي في نفسي أن أقبضَ من أثرها، فما ألقيتُه على شيء إلا صار له روحٌ ودمٌ. وقيل: رأى جبريلَ يومَ نزل على رَمَكة وَدِيقٍ[٣]، فتقدَّم خيلَ فرعون في ورود البحر.

ويقال: إنّ أُمَّ السامريّ جعلته حين وضعَتْه في غارٍ خوفاً مِن أن يقتله فرعون، فجاءه جبريلُ عليه السلام، فجعل كفَّ السامريِّ في فم السامريّ، فَرَضِعَ العسلَ واللَّبن، فاختلف إليه فعرفه من حينئذ. وقد تقدَّم هذا المعنى في «الأعراف»[٤]. ويقال: إن السامريّ سمع كلامَ موسى عليه السلام، حيث عمل تمثالين من شَمَعٍ؛ أحدهما ثور والآخر فرس، فألقاهما في النيل حين[٥] طلب قبر يوسف عليه السلام وكان في تابوت من حجر في النيل، فأتى به الثورُ على قَرنه، فتكلَّم السامريّ بذلك

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٣، وعرائس المجالس ص٢١٠، والوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٠.

(٢) في (د) و(م): تلقى.

(٣) الرَّمَكَة: الفرس والبرذونة تُتَّخذ للنسل. القاموس (رمك). والوديق: التي تشتهي الفحل. النهاية (ودق).

(٤) ٩/ ٣٣٣ - ٣٣٤، وتنظر قصة السامري في تفسير الطبري ١/ ٦٦٩ وما بعدها، وعرائس المجالس ص٢١٠ - ٢١١، وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

(٥) قوله: حين، من (ظ).

الكلام الذي سمعه من موسى، وألقى القبضةَ في جوف العجل فخار.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وخلف: «بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا» بالتاء على الخِطاب. الباقون بالياء على الخبر[١].

وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة: «فَقَبَصْتُ قَبْصَة» بصاد غير مُعجمة. ورُوي عن الحسن ضَمُّ القاف من «قبصة» والصاد غير معجمة[٢]. الباقون: ﴿قَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بالضاد المعجمة.

والفرق بينهما أنَّ القبضَ بجميع الكفِّ، والقبص بأطراف الأصابع، ونحوهما الخَضْم والقَضْم[٣]، والقُبْضة بضم القاف: القَدْر المقبوض؛ ذكره المَهْدوي. ولم يذكر الجوهري «قُبْصة» بضم القاف والصاد غير المعجمة، وإنما ذكر «القُبْضة» بضم القاف والضاد المعجمة، وهو ما قبضتَ عليه من شيء، يقال: أعطاه قُبْضةً من سَويق أو تمر، أي: كفًّا منه، وربما جاء بالفتح[٤]. قال: والقِبْصُ ـ بكسر القاف والصاد غير المعجمة ـ: العدد الكثير من الناس، قال الكُميت:

لكم مسجدا اللهِ المَزوران والحَصَى لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرَى وأَقْتَرَى[٥]

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحتُها في العجل.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي: زيَّنته؛ قاله الأخفش. وقال ابن زيد: حدَّثتني

(١) السبعة ص٤٢٤، والتيسير ص١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢، وذكرها عن الأعمش أبو حيان في البحر ٦/ ٢٧٣.

(٢) قراءة ابن مسعود وأُبيّ في المحرر الوجيز ٤/ ٦١، وقراءة الحسن وقتادة في القراءات الشاذة ص٨٩.

(٣) الخضم: الأكل بأطراف الأضراس، والقضم: الأكل بأطراف الأسنان. القاموس (خضم) و(قضم).

(٤) الصحاح (قبض).

(٥) الصحاح (قبص)، والبيت في ديوان الكميت ص١٥٥، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٥٢٧ في هذا البيت: يعني المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ، والحصى: العدد الكثير، وأثرى: أكثر، وأقتر: أقلّ، أراد الناس جميعاً.

نفسي[١]. والمعنى مُتقارب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾ أي: قال له موسى: فاذهب، أي: من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ طولَ الحياة. فنفاه موسى عن قومه، وأمر بني إسرائيل ألّا يُخالطوه، ولا يَقربوه، ولا يُكلِّموه، عقوبةً له، قال الشاعر:

تَـمـيـمٌ كـرهـط الـسّـامـريِّ وقـولـه ألَا لا يـريـدُ الـسـامـريُّ مِـسـاسـا[٢]

قال الحسن: جعل اللهُ عقوبةَ السامريّ ألا يُماسَّ الناسَ ولا يُماسُّوه؛ عقوبةً له ولمن كان منه إلى يوم القيامة، وكأن الله عزَّ وجلَّ شدَّد عليه المحنة، بأن جعله لا يُماسُّ أحداً، ولا يُمكِّن من أن يَمسَّه أحدٌ، وجعل ذلك عقوبةً له في الدنيا. ويقال: ابتُلي بالوسواس، وأصلُ الوسواس من ذلك الوقت[٣].

وقال قتادة: بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك: لا مساس، وإن مَسَّ واحدٌ من غيرهم أحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقت. ويقال: إن موسى هَمَّ بقتل السامريّ، فقال الله تعالى له: لا تَقتُلْه، فإنه سخيٌّ[٤].

ويقال: لمَّا قال له موسى: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خاف فهربَ، فجعل يَهيم في البرّيّة مع السِّباع والوحش، لا يجد أحداً من الناس يَمَسُّه؛ حتى صار كالقائل: لا مساس، لبعده عن الناس وبُعدِ الناس عنه، كما قال الشاعر:

حَـمَّـالُ رايـاتٍ بـهـا قِـنْـعـاسـا حـتـى تـقـولَ الأزدُ لا مـسـاسـا[٥]

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٢٣ ، وعنه نقل المصنف قول الأخفش.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ ، والبيت في مجاز القرآن ٢/ ٢٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٦٢ ، وعندهما: مَساسِ، بدل: مساساً.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٣ .

(٤) عرائس المجالس ص٢١٤ ، وينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٢٣ ، وذكر الشطر الثاني من الرجز ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٦١ ، =

مسألة: هذه الآية أصلٌ في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم، وألا يُخالَطوا، وقد فعل النبيُّ ﷺ ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلِّفوا[١].

ومَن التجأ إلى الحرم وعليه قَتلٌ لا يُقْتَل عند بعض الفقهاء، ولكن لا يُعامل ولا يُبايع ولا يُشارى، وهو إرهاقٌ إلى الخروج. ومن هذا القَبيل التغريب في حدِّ الزنى، وقد تقدَّم جميعُ هذا كلِّه في موضعه، فلا معنى لإعادته[٢]. والحمد لله وحده.

وقال هارون القارئ: ولغةُ العرب: لا مَساسِ، بكسر السين وفتح الميم، وقد تكلَّم النحويون فيه، فقال سيبويه[٣]: هو مبنيٌّ على الكسر كما يقال: اضربِ الرجلَ. وقال أبو إسحاق[٤]: «لا مساس» نفي، وكُسرت السين لأن الكسرةَ من علامة التأنيث، تقول: فعلتِ يا امرأة[٥].

قال النحاس[٦]: وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: سمعت محمدَ بن يزيد يقول: إذا اعتلَّ الشيء من ثلاث جهات وجبَ أن يُبنى، وإذا اعتلَّ من جهتين وجب ألا ينصرف، لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء، فمساسِ ودراكِ اعتلَّ من ثلاث جهات؛ منها: أنه معدول، ومنها أنه مؤنَّث، وأنه معرفة، فلما وجب البناءُ فيه، وكانت الألفُ قبل السين ساكنة كُسرت السين لالتقاء الساكنين، كما تقول: اضربِ الرّجلَ. ورأيتُ أبا إسحاق يذهب إلى أن هذا القولَ خطأٌ، وألزم أبا العباس إذا سمَّى

= ونسبه لرؤبة، ولم نقف عليه في المطبوع من ديوانه. ووقع في النسخ: قناعسا، بدل: قنعاسا. ووقع في (م): مسابساً، وفي النسخ الخطية: مسايساً، بدل: مساسا، والمثبت من المصدرين السالفين. وقوله: قِنعاسا، أي الرجل الشديد المنيع، والجمع: قناعيس. تاج العروس (قنعس).

(١) أخرج حديثهم البخاري ومسلم، وسلف ١٠/ ٤١٣ .

(٢) مسألة من التجأ إلى الحرم وعليه قتل سلفت ٢/ ٣٧٣ ، ومسألة التغريب في حدّ الزاني سلفت ٦/ ١٤٥ وما بعدها.

(٣) ينظر الكتاب ٤/ ١٥٢ .

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٥) في النسخ: المرأة، والمثبت من معاني القرآن للزجاج وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٦ والكلام منه.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٥٦ - ٥٧ .

امرأةٌ بفرعون أن يبنيَه، هذا لا يقولُه أحدٌ.

وقال الجوهري في «الصحاح»: وأما قولُ العرب: لا مَساسِ، مثال: قَطامِ، فإنما بُني على الكسر؛ لأنه معدولٌ عن المصدر، وهو المَسُّ[١].

وقرأ أبو حيوة: «لا مَسَاسِ»[٢].

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يعني يومَ القيامة. والموعد مصدر، أي: إنَّ لك وعداً لعذابك. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «تُخْلِفَهُ» بكسر اللام[٣]، وله معنيان: أحدهما: ستأتيه ولن تَجِده مُخلَفاً، كما تقول: أحمدته، أي: وجدته محموداً. والثاني: على التهديد، أي: لابدَّ لك من أن تصيرَ إليه[٤]. الباقون بفتح اللام؛ بمعنى: إنَّ الله لن يُخلفك إيَّاه.

قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: دُمتَ وأقمتَ عليه. ﴿عَاكِفًا﴾ أي: مُلازماً، وأصلُه: ظَلِلْت، قال:

خَلَا أنّ العِتاقَ من المَطايا أَحَسْنَ به فهنَّ إليه شُوسُ[٥]

أي: أَحْسَسْنَ. وكذلك قرأ الأعمشُ بلامين على الأصل[٦].

وفي قراءة ابن مسعود: «ظِلْتَ» بكسر الظاء. يقال: ظَلِلتُ أفعلُ كذا: إذا فعلته نهاراً، وظَلْت وظِلْت؛ فمن قال: ظَلْت حذَفَ اللام الأُولى تخفيفاً، ومن قال:

---

(١) الصحاح (مسس).

(٢) المحتسب ٢/ ٥٦ .

(٣) السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧ .

(٥) قائله أبو زُبيد الطائي، وهو في أمالي القالي ١/ ١٧٦ ـ وفيه: حَسِيْنَ، بدل: أَحَسْنَ ـ والاقتضاب ص٢٩٩ ، والبيت ضمن أبيات يصف فيها قوماً سروا والأسد يقفو آثارهم لكي ينتهز فيهم فرصة. وقوله: شُوس: الشَّوَس: النظر بِمُؤْخِرِ العين تكبُّراً وتغيُّظاً. القاموس (شوس).

(٦) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٩ لأُبيّ.

ظِلْت، أَلقى حركةَ اللام على الظاء[1].

و﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ قراءة العامة بضم النون وشد الراء؛ من حرَّق يُحرِّق. وقرأ الحسنُ وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء، من أحرقه يُحرقه[2]. وقرأ عليّ وابن عباس وأبو جعفر وابن مُحيصن وأشهب العُقيلي: «لَنَحْرُقَنَّهُ» بفتح النون وضم الراء خفيفة[3]؛ من حَرَقْتُ الشيءَ أَحْرُقُه حرقاً: بردته وحَكَكْت بعضَه ببعض، ومنه قولهم: حَرَق نابَه يَحرِقه ويَحرُقه، أي: سَحقه حتى سُمِع له صَرِيف، فمعنى هذه القراءة: لَنَبرُدَنَّه بالمَبارد[4]، ويقال لِلمبرد: المِحْرَق. والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار. وقد يمكن جمع ذلك فيه.

قال السُّدِّيُّ: ذبحَ العجلَ، فسالَ منه كما يسيل من العجل إذا ذُبح، ثم بَرَد عظامه بالمِبرد وحَرَقه[5].

وفي حرف ابن مسعود: «لَنذبحنَّه ثم لَنَحْرُقَنَّه»[6] واللَّحمُ والدمُ إذا أُحرقا صارا رماداً، فيمكن تذريته في اليمّ، فأما الذهب فلا يصير رماداً. وقيل: عَرَفَ موسى ما صَيَّر به الذهبَ رماداً، وكان ذلك من آياته.

ومعنى ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾: لَنُطيِّرنه. وقرأ أبو رجاء: «لَنَنْسُفَنَّهُ» بضم السين[7]، لغتان،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧ ، وقراءة ابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص٨٩ .

(٢) قرأ بها أبو جعفر ـ وهو من العشرة ـ في رواية ابن جماز. النشر ٢/ ٣٢٢ ، وذكرها عن الحسن ابن خالويه في الشاذة ص٨٩ .

(٣) قراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في رواية ابن وردان في النشر ٢/ ٣٢٢ ، وذكرها عن علي وابن عباس ابنُ خالويه في الشاذة ص٨٩ ، وابن جني في المحتسب ٢/ ٥٨ .

(٤) الصحاح (حرق).

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ١١٢ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ١٥٦ عن قتادة. وينظر هذا الكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٦٢ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ١١٢ - ١١٣ بنحوه.

(٧) القراءات الشاذة ص٨٩ ونسبها لعيسى.

والنَّسْف: نفضُ الشيء لتذهبَ به الريح، وهو التَّذرية، والمِنْسَف: ما يُنسف به الطعام، وهو شيء منصوب[1] الصَّدر، أعلاه مُرتَفِع، والنُّسَافة: ما يَسقط منه، يقال: اِعزِل النُّسَافة وكُلْ من الخالص. ويقال: أتانا فلانٌ كأنّ لحيته مِنْسف؛ حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم[2]. والمِنْسَفة: آلةٌ يُقلَع بها البناء، ونسفتُ البناء نسفاً: قلعته، ونَسفَ البعيرُ الكَلأَ يَنْسِفه ـ بالكسر ـ إذا اقتلعه بأصله، وانتسفتُ الشيء: اقتلعته؛ عن أبي زيد[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ لا العِجْل، أي: وَسِع كلَّ شيء عِلْمُه؛ يفعل الفعل عن العلم، ونصب على التفسير. وقرأ مجاهد وقتادة: «وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً»[4].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف[5]، أي: كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قَصَصاً كذلك من أخبار ما قد سبق؛ ليكون تسليةً لك، وليدلَّ على صدقك.

---

(١) كذا في النسخ الخطية والصحاح والقاموس (نسف) وفي (م) وتهذيب اللغة ١٣/٦ : متصوب.

(٢) الباهلي، صاحب الأصمعي، روى عنه وعن أبي زيد، صنَّف: النبات والشجر، أبيات المعاني، ما يلحن به العامة.. توفي سنة (٢٣١هـ). بغية الوعاة ١/ ٣٠١ .

(٣) الصحاح (نسف).

(٤) القراءات الشاذة ص٨٩ ، والمحتسب ٢/ ٥٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧ .

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني القرآن. وسمّى القرآن ذِكراً لما فيه من الذِّكر، كما سمّى الرسولَ ذِكراً؛ لأن الذِّكر كان ينزل عليه. وقيل: «آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً» أي: شرفاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [الزخرف:٤٤] أي: شرفٌ وتنويهٌ باسمك[١].

قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: القرآن فلم يُؤمن به، ولم يَعملْ بما فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: إثماً عظيماً، وحِمْلاً ثقيلاً. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ يُريد: مُقيمين فيه، أي: في جزائه، وجزاؤه جهنم. ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ يريد: بئس الحملُ حملوه يومَ القيامة. وقرأ داود بن رفيع: «فَإِنَّهُ يُحَمَّلُ»[٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ قراءة العامة «يُنْفَخُ» بضم الياء على الفعل المجهول. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بنون مسمى الفاعل[٣]. واستدلَّ أبو عمرو بقوله تعالى: «وَنَحْشُرُ» بنون[٤]. وعن ابن هُرْمُز: «يَنْفُخُ» بفتح الياء[٥]، أي: ينفخ إسرافيل.

أبو عياض: «فِي الصُّوَرِ»[٦]. الباقون: «في الصُّورِ» وقد تقدَّم هذا في «الأنعام»[٧] مستوفًى، وفي كتاب «التذكرة»[٨].

وقرأ طلحة بن مُصرِّف: «ويُحْشَرُ» بضم الياء، «الْمُجْرِمُونَ» رفعاً بخلاف المُصحف[٩]. والباقون: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين.

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٢/ ١١٣ .

(٢) القراءات الشاذة ص٩٠ ، ولم نقف على ترجمة داود بن رفيع. ووقع في (ظ): داود وابن رفيع.

(٣) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٤) ينظر الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٢٥٠ .

(٥) ذكرها الرازي في تفسيره ٢٢/ ١١٤ ، وأبو حيان في البحر ٦/ ٢٧٨ دون نسبة.

(٦) المحتسب ٢/ ٥٩ وفيه: عياض. وسلفت القراءة ٨/ ٤٣١ عن عياض أيضاً، وذكرها أبو حيان في البحر في موضعين: ٤/ ١٦١ عن عياض و ٦/ ٢٧٨ عن ابن عياض. ولم نعرفه.

(٧) ٨/ ٤٣٠ - ٤٣٢ .

(٨) ص١٦٦ وما بعدها.

(٩) القراءات الشاذة ص٩٠ ونسبها للحسن.

﴿زُرْقًا﴾ حال من المجرمين، والزَّرَق خلاف الكَحَل. والعرب تَتشاءم بزَرَق العيون وتذمّه، أي: تُشوَّه خِلْقَتُهم بِزُرْقة عيونهم وسوادِ وجوههم. وقال الكلبي والفراء[(١)]: «زُرقاً» أي: عُمياً. وقال الأزهري[(٢)]: عطاشا قد ازرقَّتْ أعينُهم من شِدَّة العطش؛ وقاله الزجاج[(٣)]، قال: لأن سوادَ العين يتغيَّر ويزرقُّ من العطش. وقيل: إنه الطمع الكاذب إذا تعقَّبته الخيبة؛ يقال: ابيضَّت عيني لطول انتظاري لكذا.

وقول خامس: إن المراد بالزُّرقة شخوص البصر من شدة الخوف، قال الشاعر:

لقد زَرِقتْ عيناك يا بنَ مُكَعْبِرٍ كما كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللُّؤم أَزْرَقُ[(٤)]

يقال: رجل أزرقُ العين، والمرأة زرقاءُ بيِّنةُ الزَّرَق. والاسم الزُّرقة. وقد زَرِقت عينُه ـ بالكسر ـ وازْرقَّت عينه ازرقاقاً، وازْراقَّت عينُه ازريقاقاً[(٥)].

وقال سعيد بن جبير: قيل لابن عباس في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧] فقال: إنَّ ليوم القيامة حالاتٍ؛ فحالة يكونون فيه زُرقاً، وحالة عُمياً[(٦)].

﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أصلُ الخَفْت في اللغة السكون، ثم قيل لمن خَفَضَ صوتَه: خَفَتَه، والمعنى[(٧)]: يتسارُّون؛ قاله مجاهد[(٨)]، أي: يقول بعضُهم لبعض في الموقف

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٩١، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ وما قبله وما بعده منه.

(٢) نقله عنه المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤، وينظر تهذيب اللغة ٨/ ٤٢٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ - ٤٢٥، والبيت لسُوَيد بن أبي كاهل اليشكري، وهو في الحيوان للجاحظ ٥/ ٣٣٢، وجمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٣٢٤، والأغاني ٢١/ ٣٩٦. وابن مكعبر: هو محرز بن المكعبر الضَّبِّي، من شعراء المفضليات. المفضليات ص٢٥١.

(٥) الصحاح (زرق)، وفيه البيت السابق.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٠٧.

(٧) قوله: والمعنى، من (م).

(٨) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦١ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة.

سرًّا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم، يعني: في الدنيا، وقيل: في القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ يريد: عشرَ ليال. وقيل: أراد ما بين النفختين، وهو أربعون سنة؛ يُرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار ـ في قول ابن عباس ـ فيستقصرون تلك المدة. أو مدة مُقامهم في الدنيا لشدَّة ما يرون من أهوال يوم القيامة[١]، ويُخيَّل إلى أمْثَلِهِم أي: أعدلهم قولاً، وأعقلهم، وأعلمهم عند نفسه أنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً، يعني: لبثهم في الدنيا؛ عن قتادة؛ فالتقدير: إلا مثلَ يوم. وقيل: إنهم من شِدَّة هول المَطْلع نَسُوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأَوه كيوم. وقيل: أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين، أو لبثهم في القبور على ما تقدَّم[٢]. «وعشراً» و«يوماً» منصوبان بـ «لبثتم».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: عن حال الجبال يوم القيامة. ﴿فَقُلْ﴾ جاء هذا بفاء، وكلّ[٣] سؤالٍ في القرآن «قل» بغير فاء إلَّا هذا؛ لأنَّ المعنى: إنْ سألوك عن الجبال فقل، فتضمَّن الكلامُ معنى الشرط. وقد عَلِمَ الله أنَّهم يسألونَه عنها، فأجاب[٤] قبل السؤال، وتلك أسئلةٌ تقدَّمت سألوا عنها النبيَّ ﷺ، فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤالٌ لم يسألوه عنه بعد؛ فتفهَّمه.

﴿يَنسِفُهَا﴾: يُطيِّرها. ﴿نَسْفًا﴾ قال ابن الأعرابي وغيره: يَقْلَعُها قَلْعاً من أصولها،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٢١ بنحوه عن علي بن أحمد النيسابوري.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٦١ - ١٦٢ وزاد المسير ٥/ ٣٢١ بنحوه.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): جاء هذا بعد كل...، والمثبت من (د) و(م).

(٤) في (ظ): فأجابه، وفي (م): فأجابهم.

ثمَّ يُصيِّرها رملاً يسيل سيلاً، ثم يُصيِّرها كالصوف المنفوش تطيِّرها الرياح هكذا وهكذا. قال: ولا يكون العِهنُ من الصوف إلَّا المصبوغ[١]، ثمَّ كالهَباء المنثور.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يذرُ مواضعَها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ القاع: الأرضُ الملساء بلا نباتٍ ولا بناء؛ قاله ابن الأعرابي[٢].

وقال الجوهري[٣]: والقاع: المستوي من الأرض، والجمع أَقْوُعٌ وأقواعٌ وقِيعانٌ، صارت الواو ياءً لكسر ما قبلها.

وقال الفراء: القاعُ: مستنقعُ الماء[٤]. والصَّفصف: القرعاء[٥].

الكلبي: هو الذي لا نباتَ فيه. وقيل: المستوي من الأرض كأنَّه على صفٍّ واحدٍ في استوائه؛ قاله مجاهد[٦]. والمعنى واحدٌ في القاع والصَّفصف، فالقاعُ: الموضع المنكشف، والصَّفصف: المستوي الأملس. وأنشد سيبويه[٧]:

وكَمْ دُونَ بيتكَ من صَفْصَفٍ ودَكْداكِ رَمْلٍ وأَعْقادِهَا[٨]

و«قاعاً» نصب على الحال والصفصف صفتُه[٩]. و﴿لَّا تَرَىٰ﴾ في موضع الصفة.

﴿فِيهَا عِوَجًا﴾ قال ابن الأعرابي: العِوَج: التَّعوجُ في الفِجاج. والأَمْتُ: النَّبَك. وقال أبو عمرو: الأَمْت: النِّباك، وهي التِّلال الصِّغار، واحدُها نَبَكة[١٠]، أي: هي أرضٌ

(١) ياقوتة الصراط ص٣٥٠ .

(٢) ياقوتة الصراط ص٣٥١ .

(٣) في الصحاح (قوع).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩١ .

(٥) ياقوتة الصراط ص٣٥١ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٤٢٦ .

(٧) في الكتاب ٢/ ٥٦ .

(٨) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٢٣ .

(٩) قوله: صفته من (ظ).

(١٠) في النسخ: نَبَك، والمثبت من المعاجم.

مستويةٌ، لا انخفاضَ فيها ولا ارتفاع. تقول: امتلأ [السِّقاء] فما به أَمْت[١]، وملأْتُ القِربة مَلْئاً لا أمتَ فيه، أي: لا استرخاء فيه[٢]. والأَمْتُ في اللغة: المكانُ المرتفع. وقال ابن عباس: «عِوَجاً»: مَيْلاً. قال: والأَمْتُ: الأثرُ مثل الشِّراك. وعنه أيضاً: «عِوَجاً»: وادياً، «وَلَا أَمْتاً»: رابية[٣]. وعنه أيضاً: العِوَج [الانخفاض] والأَمْتُ: الارتفاع[٤]. وقال قتادة: «عِوَجاً»: صَدْعاً، «وَلَا أَمْتاً» أي: أَكَمةً[٥]. وقال يمان: الأَمْتُ: الشقوقُ في الأرض[٦]. وقيل: الأمتُ أنْ يغلُظَ مكانٌ في الفضاء أو الجبل، ويَدِقَّ في مكان؛ حكاه الصُّولي[٧].

قلت: وهذه الآية تدخل في باب الرُّقَى؛ تُرقَى بها الثآليل، وهي التي تُسمَّى عندنا بالبراريق، واحدُها بروقة؛ تطلع في الجسد وخاصةً في اليد: تأخذُ ثلاثةَ أعوادٍ من تبنِ الشعير، يكون في طرف كلِّ عودٍ عُقدة، تُمِرُّ كلَّ عُقدةٍ على الثآليل، وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد في مكان نَدٍ؛ تعفَن وتعفَن الثآليل؛ فلا يبقى لها أثرٌ. جرَّبتُ ذلك في نفسي وفي غيري، فوجدتُه نافعاً إنْ شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ﴾ يريد إسرافيلَ عليه السلام إذا نَفَخَ في الصور ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا مَعْدِلَ لهم عنه، أي: عن دعائه، لا يَزيغون ولا ينحرفون، بل يُسرعون إليه ولا يَحيدون عنه. وعلى هذا أكثرُ العلماء. وقيل: «لَا عِوَجَ

---

(١) الصحاح (أمت) وما بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩١ .

(٣) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٦٤ و ١٦٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٥ من قول مجاهد، وما بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٥ .

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ١٩/ ٥٨ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢٦ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٧ ، والصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول، البغدادي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٣٣٥هـ) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٠١ .

لَهُ﴾ أي: لدعائه[١]. وقيل: يتَّبعون الداعيَ اتِّباعاً لا عِوَج له. فالمصدرُ مضمر، والمعنى: يتَّبعون صوتَ الداعي للمحشر. نظيره: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ الآية [ق: ٤١]. وسيأتي.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ أي: ذَلَّت وسكنت؛ عن ابن عباس[٢].

قال:

لمَّا أتى خبرُ الزُّبير تواضعَتْ ... سورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ[٣]

فكلُّ لسانٍ ساكتٌ هناك للهيبة.

﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من أجله. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الهمسُ: الصوتُ الخفيّ؛ قاله مجاهد[٤]. عن ابن عباس: الحِسُّ الخفيّ. الحسن وابن جُريج: هو صوتُ وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المَحْشر؛ ومنه قولُ الراجز:

وهُنَّ يَمْشِينَ بِنا هَمِيسا

يعني: صوتَ أخفاف الإبل في سيرها[٥]. ويُقال للأسد: الهَمُوس؛ لأنَّه يَهْمِس في الظُّلمة، أي: يطأُ وطئاً خفيًّا. قال رؤبةُ يصفُ نفسَه بالشِّدَّة:

لَيثٌ يَدُقُّ الأسدَ الهَمُوسا ... والأَقْهَبَينِ الفيلَ والجاموسَا[٦]

وهَمَسَ الطَّعامَ، أي: مضغَه وفُوه مُنْضَمٌّ؛ قال الراجز:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ١٦٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣١ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٨ .

(٣) البيت لجرير، وسلف ٢/ ٢٠٩ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٧ . وهو في تفسير مجاهد ١/ ٤٠٢ - ٤٠٣ ، وتفسير الطبري ١٦/ ١٦٩ بلفظ: الهمس: خفض الصوت.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ١٦٨ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٢٧ ، والرجز سلف ٣/ ٣٢٢ .

(٦) الصحاح (همس)، والرجز في ديوان رؤبة ص٦٩ والأقهب: ما كان لونه إلى الكدرة مع البياض للسواد، والأقهبان: الفيل والجاموس؛ كل واحدٍ منهما أقهب للونه. اللسان (قهب).

لـقـد رأيـتُ عـجـبـاً مُـذْ أَمْـسـا عـجـائـزاً مـثـلَ الـسَّـعَـالِـي خَـمْـسـا
يَـأكـلْـنَ مـا أصـنـعُ هَـمْـسـاً هَـمْـسـاً[1]

وقيل: الهمسُ: تحريكُ الشَّفَةِ واللِّسان. وقرأ أبيٌّ بن كعب: «فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْساً»[2]. والمعنى متقارب، أي: لا يُسمع لهم نطقٌ ولا كلامٌ ولا صوتُ أقدام.

وبناء (هـ م س) أصلُه الخَفاء كيفَما تصرَّف؛ ومنه الحروف المهموسة، وهي عشرةٌ يجمعُها قولك: حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ، وإنَّما سُمِّي الحرفُ مهموساً؛ لأنه ضَعُفَ[3] الاعتمادُ في موضعه حتى جَرَى معه النَّفَس.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ «مَن» في موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأوّل[4]، أي: لا تنفعُ الشفاعة أحداً إلَّا شفاعةُ من أذن له الرحمن[5]. ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: رَضيَ قولَه في الشفاعة. وقيل: المعنى، أي: إنَّما تنفعُ الشفاعةُ لمن أَذِن له الرحمن في أنْ يُشفَع له، وكان له قولٌ يُرضَى. قال ابن عباس: هو قولُ: لا إله إلا الله[6].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من أمر السَّاعة. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمرِ الدنيا؛ قاله قتادة. وقيل: يعلم ما يصيرون إليه من ثوابٍ أو عقاب، «وما خلفهم»: ما خلَّفوه وراءَهم في الدنيا[7]. ثم قيل: الآيةُ عامةٌ في جميع الخلْق[8]. وقيل: المراد:

---

(١) الرجز في نوادر أبي زيد ص٥٧ ، وكتاب سيبويه ٣/ ٢٨٥ . قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ٢٢٢ (طبعة دار صادر): والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي ما عُرف قائلها. وقال ابن المستوفي: وجدت هذه الأبيات الثمانية في كتاب نحو قديم للعجاج أبي رؤبة، وأراه بعيداً عن نمطه. والسعالي: جمع سِعلاة؛ وهي أنثى الغول. وقيل: ساحرة الجن. ويُروى: مثل الأفاعي.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢٧ .

(٣) في (خ) و(د) و(ز) والصحاح (همس) والكلام منه: أضعف، والمثبت من (ظ) و(م).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨ .

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ١١٨ .

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٢ .

(٧) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٠ - ١٧١ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٦٥ .

الذين يتَّبعون الداعي[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ الهاء في «به»: لله تعالى، أي: أحدٌ لا يحيطُ به علماً، إذ الإحاطةُ مُشعِرَةٌ بالحدِّ، ويتعالى الربُّ عن التحديد. وقيل: تَعود على العِلْم، أي: أحدٌ لا يحيطُ علماً بما يعلمه الله[٢].

وقال الطبري[٣]: الضميرُ في «أيديهم»، و«خلفَهم»، و«يحيطون»؛ يعودُ على الملائكة؛ أَعْلَمَ الله مَن يعبدُها أنَّها لا تعلمُ ما بين أيديها وما خلفها.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ أي: ذلَّت وخضعَت؛ قاله ابن الأعرابي وغيره[٤]. ومنه قيل للأسير: عانٍ[٥]. قال أميةُ بن أبي الصَّلْت[٦]:

مَليكٌ على عرش السَّماءِ مُهَيْمِنٌ … لِعِزَّته تَعنُو الوجوهُ وتَسجدُ

وقال أيضاً:

وَعَنَا له وَجْهي وخَلْقي كُلُّه … في السَّاجدين لوجهه مَشْكُورَا[٧]

قال الجوهري[٨]: عنا يعنو: خضعَ وذلَّ، وأعنَاه غيرُه، ومنه قوله تعالى:

(١) بعدها في (د) و(م): والحمد لله. وذكر هذا القول البغوي في تفسيره ٣/ ٢٣٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٢ .

(٣) في تفسيره ١٦/ ١٧١ ، ونسبه لبعضهم، وهو قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٩٢ .

(٤) ياقوتة الصراط ص٣٥٢ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٢٣٢ ، وينظر الصحاح (عنو).

(٦) في ديوانه ص٣٩ .

(٧) ديوانه ص٦٩ ، وفيه: في الخاشعين، بدل: في الساجدين. وهو في النكت والعيون ٣/ ٤٢٧ مثل رواية المصنف.

(٨) في الصحاح (عنو).

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، ويقال أيضاً: عَنَا فيهم فلانٌ أسيراً، أي: أقامَ فيهم على إسارِه واحتُبِس. وعَنَّاه غيرُه تَعْنِيةً: حبسَه. والعاني: الأسير، وقومٌ عُنَاة، ونسوةٌ عَوَانٍ. وعَنَتْ به أمورٌ: نزلت.

وقال ابن عباس: «عَنَت»: ذلَّت. وقال مجاهد: خشعت[1]. الماوردي[2]: والفرقُ بين الذُّلِّ والخشوع ـ وإنْ تقاربَ معناهُما ـ هو[3] أنَّ الذلَّ: أنْ يكون ذليلَ النفس، والخشوعَ: أنْ يتذلَّل لذي طاعة. وقال الكلبي: «عنت» أي: عملَت. عطية العَوْفي: استسلمَتْ. وقال طَلْق بن حبيب: إنَّه وضعُ الجبهةِ والأنفِ على الأرض في السجود[4].

النحَّاس[5]: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ في معناه قولان: أحدهما: أنَّ هذا في الآخرة. ورَوى عكرمةُ عن ابن عباس: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قال: الركوعُ والسجود. ومعنى «عنت» في اللغة: القهرُ والغلبة، ومنه: فُتِحَت البلادُ عَنْوةً، أي: غلبةً، قال الشاعر:

فما أخذوها عَنْوةً عن مودَّةٍ ولكن بضرب المَشْرَفيِّ اسْتقَالَها[6]

وقيل: هو من العناء بمعنى التعب. وكنَى عن النَّاس بالوجوه؛ لأنَّ آثارَ الذُّلِّ إنَّما تتبينُ في الوجه[7].

---

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٢٧ ، وما قبله منه.

(٣) لفظة: هو. ليست في (د) و(م).

(٤) هذه الأقوال في النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ . وقول طلق بن حبيب أخرجه الطبري ١٦/ ١٧٤ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٥٨ .

(٦) قائله كثير عزة، وهو في ديوانه ص٢٢٧ ، وفيه: فما تركوها، بدل: فما أخذوها. وبحدٌ، بدل: بضرب. والبيت أورده الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٩٣ مثل رواية المصنف. والمشرفي: السيف المنسوب إلى المشارف، وهي قرى من أرض اليمن. اللسان (شرف).

(٧) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٠ بنحوه.

﴿لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ وفي القيوم ثلاث تأويلات؛ أحدها: أنَّه القائمُ بتدبير الخلق. الثاني: أنَّه القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبت. الثالث: أنَّه الدائم الذي لا يَزول ولا يَبيد[1]. وقد مضى في «البقرة» هذا[2]. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: خَسِرَ من حَمل شِركاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأنَّ العملَ لا يُقبل من غير إيمان. و«مِن» في قوله: «مِنَ الصَّالِحَاتِ» للتبعيض[3]، أي: شيئاً من الصالحات. وقيل: للجنس[4].

﴿فَلَا يَخَافُ﴾ قرأ ابن كثير ومجاهد وابن مُحيصن: «يَخَفْ» بالجزم[5]، جواباً لقوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ». الباقون: «يَخَافُ» رفعاً على الخبر، أي: فهو لا يَخَافُ، أو: فإنَّه لا يخاف. ﴿ظُلْمًا﴾ أي: نقصاً لثواب طاعته، ولا زيادة عليه في سيئاته. ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بالانتقاص من حقِّه. والهضمُ: النقصُ والكسر؛ يقال: هَضَمتُ ذلك من حقِّي، أي: حَطَطْتُه وتركْتُه. وهذا يَهْضِمُ الطعام، أي: يَنْقُص ثِقَلَه. وامرأةٌ هَضِيمُ الكَشح: ضامرةُ البطن[6]. الماوردي: والفرق بين الظلم والهضم؛ أنَّ الظلمَ: المنعُ من الحقِّ كُلِّه، والهَضْمَ: المنعُ من بعضه، والهضمُ: ظلمٌ وإنْ افترقا من وجه، قال المتوكل الليثي:

إنَّ الأذِلَّةَ واللئامَ لَمَعشرٌ مَوْلَاهُمُ المتهضَّمُ المظلومُ[7]

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ .

(٢) ٤/ ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٦٥ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٢ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢٤ .

(٥) قراءة ابن كثير في السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٦) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٨ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢٤ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ ، والبيت في ديوان المتوكل الليثي ص٧٩ ، وفي طبقات فحول الشعراء =

قال الجوهري(١): ورجلٌ هَضيمٌ ومُهتضَم: أي: مظلوم. وتَهضَّمه، أي: ظلَمَه، واهتضمَه: إذا ظلمه وكَسَر عليه حقَّه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بيَّنَّا لك في هذه السُّورة من البيان، فكذلك جعلنَاه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: بيَّنَّا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يخافون الله فيجتنبون مَعَاصيَه، ويحذَرون عقابَه.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: موعظة. وقال قتادة: حذراً وورعاً. وقيل: شرفاً(٢)؛ فالذكرُ هاهنا بمعنى الشرف، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقيل: أي: ليتذكَّروا العذاب الذي تُوُعِّدوا به. وقرأ الحسن: «أَوْ نُحْدِثُ» بالنون، ورُوي عنه رفعُ الثاء وجزمُها(٣).

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ لمَّا عَرَّف العبادَ عظيمَ نعمه وإنزالَ القرآن؛ نزَّه نفسَه عن الأولاد والأنداد فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: جلَّ الله الملك الحق، أي: ذو الحق.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ علَّم نبيَّه كيف يتلقَّى القرآن.

= ٢/ ٦٨٤ ، وفيه: معاشر، بدل: لمعشر. والمتوكل الليثي عدَّه ابن سلام في الطبقة السابعة من الإسلاميين، وقال: يكنى أبا جهمة كان كوفياً، وكان في عصر معاوية.

(١) الصحاح (هضم).

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٢٨ .

(٣) الكشاف٢/ ٥٥٤ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢٥ ، والبحر المحيط ٦/ ٢٨١ . وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ٢/ ٥٩ عن الحسن بالياء وجزم الثاء.

قال ابن عباس: كان عليه الصلاة والسلام يُبادرُ جبريلَ، فيقرأُ قبل أنْ يَفْرُغ جبريلُ من الوحي حرصاً على الحِفْظ، وشفقةً على القرآن مخافةَ النسيان، فنهاه الله عن ذلك وأنـزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾. وهـذا كـقـولـه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[1] [القيامة:١٦] على ما يأتي.

وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: لا تَتْلُه قبل أنْ تتبيَّنه[2]. وقيل: «وَلَا تَعْجَلْ» أي: لا تسألْ[3] إنزالَه «قبل أن يُقْضَى» أي: يأتيَك «وَحْيُهُ». وقيل: المعنى: لا تُلْقِه إلى الناس قبل أنْ يأتيَك بيانُ تأويله[4].

وقال الحسن: نزلَتْ في رجلٍ لَطَم وجهَ امرأته، فجاءت إلى النبيِّ ﷺ تطلبُ القِصاص، فجعل النبيُّ ﷺ لها القِصَاص، فنزل ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، ولهذا قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [الكهف:١١٤] أي: فَهْماً؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام حكم بالقِصَاص وأبى الله ذلك[5].

وقرأ ابن مسعود وغيره: «مِن قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ» بالنون وكسر الضاد «وَحْيَهُ» بالنصب[6].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ قرأ الأعمشُ باختلافٍ عنه

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٣ ، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه البخاري (٤٩٢٩)، ومسلم (٤٤٨) بنحوه.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٤٠٣ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٨٠ عنه، وفيهما: لا تتله على أحد حتى نُبيِّنه لك.

(٣) في (د) و(م): لا تسل.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٩ .

(٥) أخرجه الطبري ٦/ ٦٨٨ ، والواحدي في أسباب النزول ص١٤٥ ، وهو مرسل. وسلف ٦/ ٢٧٩ .

(٦) قرأ بها يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٣٢٢ ، وذكرها عن ابن مسعود ﷺ ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٢٦ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٠ للجحدري والحسن ومجاهد.

«فَنَسِيْ» بإسكان الياء[١]، وله معنيان:

أحدهما: تَرَكَ، أي: تَرَكَ الأمر والعهد؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين[٢]، ومنه ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]. و[الثاني]: قال ابن عباس: «نسي» هنا من السهو والنسيان، وإنَّما أُخِذَ الإنسان منه لأنَّه عُهِد إليه فَنَسِيَ[٣]. قال ابن زيد: نَسِيَ ما عَهِدَ الله إليه في ذلك، ولو كان له عزمٌ ما أطاع عدوَّه إبليس[٤]. وعلى هذا القول يَحتمِلُ أنْ يكون آدمُ عليه السلام في ذلك الوقت مُؤاخذاً[٥] بالنسيان، وإنْ كان النسيان عنَّا اليومَ مرفوعاً.

ومعنى «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبل أنْ يأكل من[٦] الشجرة؛ لأنَّه نُهِيَ عنها.

والمرادُ تسليةُ النبيِّ ﷺ، أي: طاعةُ بني آدم للشيطان أمرٌ قديم، أي: إنْ نَقَضَ هؤلاء العهدَ؛ فإنَّ آدم أيضاً عهدنا إليه فَنَسي؛ حكاه القشيري وكذلك الطبري[٧]. أي: وإن يُعرِضْ يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي، ويخالفوا رسُلي، ويطيعوا إبليس، فَقِدْماً فعلَ ذلك أبوهم آدم.

قال ابن عطية[٨]: وهذا التأويلُ ضعيف، وذلك كون آدمَ مثالاً للكفَّار الجاحدين بالله ليس بشيء، وآدم إنَّما عصى بتأويل، ففي هذا غَضاضةٌ عليه ﷺ، وإنَّما الظاهرُ في الآية إمَّا أن يكونَ ابتداءَ قصصٍ لا تعلُّقَ له بما قبله، وإمَّا أنْ يجعل تعلُّقه أنَّه لمَّا

---

(١) المحتسب ٢/ ٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ .

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): مأخوذاً، والمثبت من (ظ). والكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٢٣٣ .

(٦) لفظة: من، من (م)، وهذا القول ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٢٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في تفسيره ١٦/ ١٨١ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٦٦ ، وما قبله منه.

عَهِد إلى محمدٍ ﷺ ألَّا يَعْجَلَ بالقرآن، مثَّل له بنبيٍّ قبلَه عهدَ إليه فَنَسي فعُوقِب؛ ليكونَ أشدَّ في التحذير وأبلغَ في العهد إلى محمد ﷺ، والعهد هاهنا في معنى الوصية، «ونسيَ» معناه: ترك، ونسيانُ الذُّهول لا يمكن هنا؛ لأنَّه لا يتعلَّق بالناسي عقاب.

والعزم: المُضيُّ على المعتقد في أيِّ شيءٍ كان، وآدمُ عليه السلام قد كان يعتقد ألَّا يأكل من الشجرة، لكن لمَّا وسوس إليه إبليسُ لم يعزم على مُعتقده. والشيء الذي عُهِدَ إلى آدمَ هو ألَّا يأكل من الشجرة، وأُعلِمَ مع ذلك أنَّ إبليس عدوٌّ له.

واختُلف في معنى قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فقال ابن عباس وقتادة: لم نجدْ له صبراً عن أكل الشجرة ومُواظبةً على التزام الأمر[1].

قال النحاس: وكذلك هو في اللغة، يقال: لفلانٍ عزمٌ، أي: صبرٌ وثَباتٌ على التحفُّظ من المعاصي حتى يَسلم منها، ومنه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وعن ابن عباس أيضاً وعطية العوفي: حِفْظاً لما أُمر به[2]، أي: لم يتحفَّظ ممَّا نَهيتُه حتى نَسِيَ. وذَهبَ عن عِلْم ذلك بترك الاستدلال؛ وذلك أنَّ إبليس قال له: إنْ أكلتَها خُلِّدتَ في الجنة، يعني: عينَ تلك الشجرة، فلم يُطِعْه، فدعَاه إلى نظير تلك الشَّجرة ممَّا دخلَ في عُموم النهي، وكان يجب أنْ يستدلَّ عليه فلم يفعل، وظنَّ أنَّها لم تدخل في النهي، فأكلَها تأويلاً[3]. ولا يكون ناسياً للشيء من يعلم أنَّه معصيةٌ.

وقال ابن زيد: «عزماً»: مُحافظةً على أمر الله[4]. وقال الضحَّاك: عزيمةَ أمر. ابن كيسان: إصراراً ولا إضماراً للعود إلى الذنب.

قال القشيري: والأوَّلُ أقربُ إلى تأويل الكلام؛ ولهذا قال قوم: آدم لم يكن من

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٣ عن قتادة مختصراً.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٦/ ١٨٣ - ١٨٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣/ ١٣ بنحوه، وسلف نحو هذا الكلام ١/ ٤٥٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٤ .

أُولي العزم من الرسل؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. وقال المُعْظَم: كلُّ الرسل أولو العزم، وفي الخبر: «ما من نبيٍّ إلَّا وقد أخطأ ـ أو همَّ بخطيئة ـ ما خلا يحيى بن زكريا»[١]. فلو خرج آدمُ بسبب خطيئته من جُملة أُولي العزم؛ لخرج جميعُ الأنبياء سوى يحيى.

وقد قال أبو أُمامة: لو أنَّ أحلامَ بني آدم جُمعت منذ خلقَ اللهُ الخلقَ إلى يوم القيامة، ووُضِعت في كفَّة ميزان، وَوِضع حِلمُ آدم في كفةٍ أُخرى؛ لرجَحَهم، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ تقدَّم في «البقرة»[٣] مستوفًى.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ نهيٌ، ومَجازه: لا تقبلا منه، فيكون ذلك سبباً لخروجكما من الجنة[٤]. ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ يعني: أنت وزوجك؛ لأنَّهما في استواء العلَّة واحد[٥]، ولم يقل: فتشقَيا؛ لأنَّ المعنى معروف، وآدمُ عليه السلام هو

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ وعنده: أحد: بدل: نبي ـ، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٧ - ١٢٨ .
وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٨١٤ من طريق آخر عن ابن عباس، وقال: غريب من حديث شعبة وغيره، لا يرويه إلا إبراهيم السباك عن سليمان بن حرب عن شعبة. اهـ.

(٢) سلف ١/ ٤٥٧ .

(٣) ١/ ٤٣٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠ .

المُخاطَب، وهو المقصود[١]. وأيضاً لمَّا كان الكادَّ عليها والكاسبَ لها؛ كان بالشقاء أخصَّ[٢].

وقيل: الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدمَ وحدَه، وهو شقاوة البدن، ألَا ترى أنه عقَّبهُ بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ أي: في الجنة ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، فأعلَمه أنَّ له في الجنة هذا كلَّه: الكسوةُ والطعام والشراب والمسكن، وأنَّك إن ضَيَّعت الوصية، وأطعتَ العدوَّ؛ أخرجَكما من الجنة، فشقيت تعباً ونصَباً، أي: جُعْتَ وعريتَ وظَمِئتَ وأصابتك الشمس؛ لأنَّك تُرَدُّ إلى الأرض إذا أُخرِجت من الجَنَّة.

وإنَّما خصَّهُ بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقيان؛ لِيُفهمنا[٣] أنَّ نفقة الزوجة[٤] على الزوج، فمن يومئذٍ جرتْ نفقةُ النساء على الأزواج، فلمَّا كانت نفقةُ حواءَ على آدم، كذلك نفقاتُ بناتها على بني آدم بحق الزوجيَّة.

وأعلمنا في هذه الآية أنَّ النفقةَ التي تجبُ للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام، والشراب، والكسوة، والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة، فقد خرجَ لها[٥] من نفقتها، فإنْ تفضَّل بعد ذلك فهو مأجور، فأمَّا هذه الأربعة فلابدَّ لها منها؛ لأنَّ بها إقامةَ المُهجة[٦].

قال الحسن: المراد بقوله: «فتشقى» شقاء الدنيا، لا يُرى ابنُ آدم إلَّا ناصباً. وقال الفرَّاء[٧]: هو أنْ يأكل من كَدِّ يديه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠ .

(٣) في (د) فعلمنا، وفي (خ) و(ز) و(م): يعلمنا، والمثبت من (ظ).

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): المرأة.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): إليها، والمثبت من (ظ).

(٦) المُهجة: الروح. القاموس المحيط (مهج).

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ١٩٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٨ ، وقول الحسن الذي قبله منه.

وقال سعيدُ بن جبير: أُهبِطَ إلى آدم ثورٌ أحمر، فكان يحرث عليه، ويمسحُ العرقَ عن جبينه، فهو شقاؤه الذي قال الله تبارك وتعالى[١].

وقيل: لمَّا أُهبِط من الجنة كانَ من أوَّل شقائه أنَّ جبريلَ أنزل عليه حباتٍ من الجنَّة، فقال: يا آدم، ازرع هذا. فحرث وزرع، ثمَّ حصد، ثمَّ نقَّى، ثمَّ طحن، ثمَّ عجن، ثمَّ خبز، ثم جلس ليأكلَ بعد التعب، فتدحرج رغيفُه من يده حتى صار أسفلَ الجبل، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عَرِقَ جبينُه، قال: يا آدم، فكذلك رزقُك بالتعب والشقاء، ورزقُ ولدك من بعدك ما كنت في الدنيا[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

فيه مسألتان[٣]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة. ﴿وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾ أي: لا تعطش. والظَّمأ: العطش. ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: تبرز للشمس فتجد حرَّها. إذْ ليس في الجنة شمسٌ، إنَّما هو ظلٌّ ممدود[٤]، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

قال أبو العالية: نهارُ الجنة هكذا: وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر.

قال أبو زيد: ضَحَا الطريقُ يَضْحُو ضَحْواً[٥]: إذا بدا لك وظهر. وضَحِيتُ[٦] - بالكسر - ضَحاً: عرقت. وضَحِيتُ أيضاً للشمس ضَحَاءً، ممدود: بَرزتُ، وضَحَيتُ - بالفتح - مثلُه، والمستقبل: أَضْحَى، في اللغتين جميعاً[٧]، قال عمر بن أبي ربيعة:

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٦ .

(٢) تاريخ الطبري ١/ ١٢٨ - ١٢٩ ، وعرائس المجالس ص٣٩ - ٤٠ ، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) كذا وقع، لكنه لم يرد إلا مسألة واحدة.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٥) قال الزبيدي في تاج العروس (ضحى): ضحا الطريق ضُحُوًّا؛ كعُلُوّ.. ونقله الجوهري [الصحاح (ضحى)] عن أبي زيد وضبط مصدره بالفتح.

(٦) قبلها في (م): وضَحَيْتُ. والكلام من هنا إلى قوله: برزت. ساقط من (د) و(ز) و(ظ).

(٧) الصحاح (ضحو).

رَأَتْ رَجُلاً أَيْمَا إذا الشمسُ عَارضَتْ فَيَضْحَى وأمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[١]

وفي الحديث أنَّ ابن عمر رأى رجلاً مُحرِماً قد استظلَّ، فقال: أَضْحِ لمن أحرمتَ له[٢]. هكذا يَرويه المُحدِّثون، بفتح الألف وكسر الحاء، من أضحيتُ. وقال الأصمعي: إنَّما هو: اِضْحَ لمن أحرمتَ له، بكسر الألف وفتح الحاء، من ضَحِيتُ أَضْحَى؛ لأنَّه إنَّما[٣] أَمَرَه بالبروز للشمس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[٤]. وأنشد:

ضَحِيتُ له كَيْ أستظلَّ بِظلِّهِ إذا الظلُّ أَضْحَى في القيامة قَالِصا[٥]

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلَّا عاصماً في رواية أبي بكر عنه: «وَأَنَّكَ» بفتح الهمزة[٦] عطفاً على «أَلَّا تَجُوعَ». ويجوز أنْ يكون في موضع رفعٍ عطفاً على الموضع، والمعنى: ولك أنَّك لا تظمأ فيها. الباقون بالكسر على الاستئناف، وعلى العطف على «إِنَّ لَكَ»[٧].

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[٨]. ﴿قَالَ﴾ يعني

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٦٤ ، وفيه: أمَّا، بدل: أيما. وسلف البيت ١/ ٣٦٦ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٤/ ٣٠٩ (نشرة العمروي)، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٧٠ ، ووقع في مطبوع ابن أبي شيبة: ضح لمن أحرمت له.

(٣) لفظة: إنما، ليست في (د) و(م).

(٤) الصحاح (ضحو).

(٥) ذكره المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ٢/ ٩٦ دون نسبة. وقَلَص الظلُّ: انقبض. القاموس (قلص).

(٦) وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي وابن عامر الشامي. السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٩ .

(٨) ٩/ ١٧٤ - ١٧٥ .

الشيطان: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾. وهذا يدلُّ على المُشافهة، وأنه دخل الجنة في جوف الحية على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[١]، وتقدَّم هناك تعيين الشجرة، وما للعلماء فيها، فلا معنى للإعادة. ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ تقدَّم في «الأعراف» مستوفًى[٢]. وقال الفرَّاء[٣]: «وَطَفِقَا» في العربية: أقبَلَا، قال: وقيل: جعَلَا يُلْصِقان عليهما ورق التين.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ **فيه ست مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ تقدَّم في «البقرة» القولُ في ذنوبِ الأنبياء[٤]، وقال بعضُ المتأخرين من علمائنا: والذي ينبغي أنْ يقال: إنَّ الله تعالى قد أخبرَ بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونَسبَها إليهم، وعَاتبَهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم، وتنصَّلوا منها، واستغفروا منها، وتابوا، وكلُّ ذلك وردَ في مواضعَ كثيرةٍ لا يقبلُ التأويلَ جملتُها، وإنْ قَبِلَ ذلك آحادُها، وكلُّ ذلك مما لا يُزري بمناصبهم، وإنَّما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم[٥] حسناتٌ، وفي حقِّهم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصبهم، وعلوِّ أقدارهم؛ إذ قد يُؤاخذُ الوزير بما يُثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحقُّ.

ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين[٦]. فهم

---

(١) ١/ ٤٦٤، وسلف الكلام أن خبر دخول إبليس الجنة في جوف الحية من الإسرائيليات.

(٢) ٩/ ١٧٩.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٩.

(٤) ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠، والكلام الذي سيذكره المصنف حتى نهاية المسألة الأولى سلف ثمة.

(٥) لفظة: بالنسبة: من (م)، وفي (ظ): فهي لغيرهم.

(٦) ذكره العروسي في حاشيته على شرح الرسالة القشيرية للشيخ زكريا الأنصاري ١/ ١٤١، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ٦٥ ونسبه لأبي سعيد الخراز.

ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وإن كانوا قد شَهِدَت النصوصُ بوقوعِ ذنوبٍ منهم، فلم يُخِلَّ ذلك بمناصبهم، ولا قَدَح في رُتَبهم[١]، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكَّاهم، واختارهم، واصطفاهم، صلواتُ الله عليهم وسلامه.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٢]: لا يجوز لأحدٍ منا اليوم أنْ يُخبِر بذلك عن آدم إلَّا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيِّه، فأمَّا أن يَبتدئَ ذلك من قِبَل نفسه؛ فليس بجائزٍ لنا في آبائنا الأدنَين إلينا، المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبيِّ المُقدَّم، الذي عَذَره الله سبحانه وتعالى، وتاب عليه، وغَفَرَ له.

قلت: وإذا كان هذا في المخلوق لا يجوز، فالإخبارُ عن صفات الله عزَّ وجلَّ كاليد والرجل، والإصبع والجنب، والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع، وأنَّه لا يجوز الابتداءُ بشيءٍ من ذلك إلَّا في أثناء قراءةِ كتابه، أو سُنَّة رسوله. ولهذا قال الإمام مالك بن أنس ﷺ: من وصف شيئاً من ذات الله عزَّ وجلَّ مثل قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، فأشار بيده إلى عنقه قُطِعت يده، وكذلك في السمع والبصر يُقطَع ذلك منه؛ لأنه شبَّه الله تعالى بنفسه[٣].

الثالثة: روى الأئمة ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا، خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنَّة، فقال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله عزَّ وجلَّ بكلامه، وخطَّ لك بيده[٤]، أتلومني[٥] على أمرٍ قدَّره الله عليَّ قبل أنْ يخلقني بأربعين سنة، فَحجَّ آدمُ موسى» ثلاثاً[٦].

---

(١) في (م): رتبتهم.

(٢) في أحكام القرآن له ٣/ ١٢٤٩ .

(٣) التمهيد ٧/ ١٤٥ .

(٤) بعدها في (د) و(م) لفظة: يا موسى.

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): تلومني.

(٦) صحيح البخاري (٦٦١٤)، وهو في مسند أحمد (٧٣٨٧)، وصحيح مسلم (٢٦٥٢) وسلف قسم منه ٢/ ٢١٥ و ٥/ ٣٧٥ .

قال المهلَّب: قوله: «فحجَّ آدمُ موسى» أي: غلَبه بالحُجَّة.

قال الليث بن سعد: وإنَّما صحَّت الحُجَّة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام، من أجل أنَّ الله تعالى قد غَفَرَ لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أنْ يُعيِّره بخطيئةٍ قد غفرَها الله تعالى له؛ ولذلك قال آدم: أنت موسى الذي آتاك اللهُ التوراةَ، وفيها عِلْم كلِّ شيءٍ، فوجدتَ فيها أنَّ الله قد قدَّر عليَّ المعصية، وقدَّر عليَّ التوبةَ منها، وأسقط بذلك اللَّومَ عنِّي، أفتلومني أنت، واللهُ لا يلومني؟.

وبمثل هذا احتجَّ ابن عمر على الذي قال له: إنَّ عثمان فرَّ يومَ أُحد، فقال ابن عمر: ما على عثمانَ ذنبٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد عفا عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾[1] [آل عمران: ١٥٥].

وقد قيل: إنَّ آدمَ عليه السلام أبٌ، وليس تعييره من بِرّه أنْ لو كان مما يُعيَّر به غيره[2]، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقولُ في الأبوين الكافرين: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. ولهذا إنَّ إبراهيم عليه السلام لمَّا قال له أبوه وهو كافر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٦-٤٧]، فكيف بأبٍ هو نبيٌّ قد اجتباه ربُّه وتابَ عليه وهدى؟!

الرابعة: وأما مَن عَمِلَ الخطايا ولم تأتِهِ المغفرة، فإن العلماء مُجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتجَّ بمثل حُجَّة آدم فيقولَ: تلومني على أن قتلتُ أو زنيتُ أو سرقتُ وقد قدَّر الله عليَّ ذلك، والأمةُ مُجمعةٌ على جواز حمد المُحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه[3].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي: ففَسَدَ عليه عيشُه، حكاه النقاش، واختاره

---

(١) أخرجه البخاري مطولاً (٤٠٦٦) وسلف بتمامه ٥/ ٣٧٤.

(٢) ذكره بنحوه أبو العباس القرطبي في المفهم ٦/ ٦٦٧ - ٦٦٨، ثم قال: وهذا نأي عن معنى الحديث، وعما سبق له.

(٣) التمهيد ١٨/ ١٥، والاستذكار ٢٦/ ٨٨.

القُشيريّ. وسمعتُ شيخنا الأستاذَ المقرئ أبا جعفر القرطبي[١] يقول: «فَغَوَى»: ففسد عيشُه بنزوله إلى الدنيا، والغَيُّ: الفساد. وهو تأويلٌ حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: إنَّ[٢] «فغوى» معناه: ضلَّ، من الغَيِّ الذي هو ضد الرُّشد.

وقيل: معناه: جَهِلَ موضعَ رُشْده، أي: جَهِلَ أنَّ تلك الشجرة هي التي نُهيَ عنها، والغَيُّ: الجهل.

وعن بعضهم: «فغَوى»: فبَشِم[٣] من كثرة الأكل. الزمخشريّ[٤]: وهذا ـ وإن صحَّ على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً، فيقول في فَنيَ وبَقيَ: فَنَى وبَقَى، وهم بنو طيِّئ ـ تفسيرٌ خبيث.

السادسة: قال القشيري أبو نصر: قال قومٌ: يقال: عصى آدمُ وغوى، ولا يقال له: عاصٍ ولا غاوٍ، كما أنَّ من خاطَ مرةً يقالُ له: خاط، ولا يقال له: خيَّاط، ما لم تتكرر منه الخياطة[٥].

وقيل: يجوز للسيِّد أنْ يُطلِق في عِبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه[٦]. وهذا تكلُّفٌ، وما أُضيف مِن هذا إلى الأنبياء فإمَّا أنْ تكون صغائرَ، أو تركَ الأولى، أو قبل النبوَّة.

قلت: هذا حسن.

قال الإمام أبو بكر بن فُورَك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدمَ قبل النبوَّة، ودليلُ

---

(١) هو أحمد بن محمد القيسي المعروف بابن أبي حجة، توفي سنة (٦٤٣هـ). بغية الوعاة ١/ ٣٨٣، وسلف ذكره ٥/ ٤١٢.

(٢) لفظة: إن، ليست في (م).

(٣) البَشَم: التخمة. النهاية (بشم).

(٤) في الكشاف ٢/ ٥٥٧.

(٥) وهو قول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٣١٣.

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٨.

ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فذكر أنَّ الاجتباءَ والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوَّة، فجائزٌ عليهم الذنوبُ وجهاً واحداً؛ لأنَّ قبل النبوّة لا شرعَ علينا في تصديقهم، فإذا بعثَهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين؛ لم يضرَّ ما قد سلفَ منهم من الذنوب. وهذا نفيسٌ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾ خاطب آدم وإبليس[١]. «مِنها» أي: من الجنة وقد قال لإبليس: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ﴾ [الأعراف:١٨]، فلعلَّه أُخرِج من الجنة إلى موضعٍ من السماء، ثم أُهبِط إلى الأرض.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ تقدَّم في «البقرة»[٢]، أي: أنت عدوٌّ للحيَّة ولإبليس، وهما عدوَّان لك. وهذا يدلُّ على أن قوله: «اهبِطا» ليس خطاباً لآدم وحوّاء؛ لأنَّهما ما كانا مُتعاديين، وتضمَّن هبوطُ آدمَ هبوطَ حوّاء.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: رشداً وقولاً حقًّا. وقد تقدَّم في «البقرة»[٣].

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ يعني: الرسل والكتب. ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية. وعنه: من قرأ القرآن واتَّبع ما فيه هَدَاه الله من الضلالة،

---

(١) زاد المسير ٥/ ٣٣٠.

(٢) ١/ ٤٧٤.

(٣) ١/ ٤٨٨.

ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية[١].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: ديني، وتلاوة كتابي والعمل بما فيه. وقيل: عما أَنْزَلتُ من الدلائل[٢]. ويَحتمِلُ أن يُحملَ الذِّكر على الرسول؛ لأنَّه كان منه الذِّكر.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: عيشاً ضَيِّقاً؛ يقال: منزلٌ ضَنْك، وعيشٌ ضَنْك، يستوي فيه الواحد والاثنان، والمذكر والمؤنث والجمع؛ قال عنترة:

إنْ يُلحَقوا أَكْرُرْ وإنْ يُستلحَمُوا أَشدُدْ وإنْ يُلفَوْا بضَنْكٍ أنزلِ[٣]

وقال أيضاً[٤]:

إنَّ المنيةَ لو تُمثَّل مُثِّلت مثلي إذا نَزلُوا بضَنْكِ المنزلِ

وقُرِئ: «ضَنْكَى» على وزن فَعْلَى[٥]. ومعنى ذلك: أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعلَ مع الدين التسليمَ والقناعةَ والتوكُّلَ عليه وعلى قسمته، فصاحبُه يُنفقُ مما رزقَه الله عزَّ وجلَّ بسماحٍ وسهولةٍ، ويعيشُ عيشاً رافِغاً[٦]؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. والمُعرِض عن الدِّين مستولٍ عليه الحرصُ الذي لا يزال يَطمحُ به إلى الازدياد من الدنيا، مُسَلَّطٌ عليه الشُّحُّ، الذي يقبضُ يدَه عن الإنفاق، فعيشُه ضَنكٌ، وحالُه مظلِمةٌ؛ كما قال بعضهم: لا يُعرِضُ أحدٌ عن ذكر ربِّه إلا أظلمَ عليه وقتُه، وتَشوَّش عليه رزقُه، وكان في عيشه في ضنك[٧].

وقال عكرمة: «ضَنْكاً»: كسباً حراماً. الحسن: طعامُ الضَّرِيع والزَّقُّوم. وقولٌ

---

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٩١ - ١٩٢ ، وأوردهما ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٣٠ .

(٢) مجمع البيان للطبرسي ١٦/ ١٥٢ بنحوه.

(٣) ديوان عنترة ص٥٧ ، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٩٢ .

(٤) ديوانه ص٥٨ .

(٥) قرأ بها الحسن. القراءات الشاذة ص٩٠ .

(٦) عيشٌ أرفغُ، ورافِغٌ، ورفيغٌ: خصيبٌ واسعٌ طيب. اللسان (رفغ).

(٧) في (م): في عيشة ضنك.

رابعٌ: وهو الصحيح؛ أنَّه عذابُ القبر؛ قاله أبو سعيد الخدري، وعبدُ الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعاً عن النبي ﷺ[١]، وقد ذكرناهُ في كتاب «التذكرة»[٢]. قال أبو هريرة: يضيقُ على الكافر قبرُه حتى تختلفَ فيه أضلاعه، وهو المعيشةُ الضنك[٣].

﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ قيل: أعمى في حالٍ وبصيراً في حال، وقد تقدَّم في آخر «سبحان»[٤]. وقيل: أعمى عن الحجَّة، قاله مجاهد. وقيل: أعمى عن جهات الخير، لا يهتدي لشيءٍ منها[٥]. وقيل: عن الحِيلة في دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذي لا حِيلةَ له فيما لا يراه.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ﴾ أي: بأيِّ ذنبٍ عاقبتني بالعَمَى. ﴿وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ أي: في الدنيا، وكأنَّه يظنُّ أنْ[٦] لا ذنبَ له. وقال ابنُ عباس ومجاهد: أي: «لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى» عن حُجَّتي «وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً» أي: عالماً بحجتي[٧]. القشيري: وهو بعيدٌ إذ ما كان للكافر حجةٌ في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي: قال الله تعالى له: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي: دلالاتُنا على وحدانيتنا وقدرتنا. ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ أي: تركتَها ولم تنظر فيها، وأعرضتَ عنها. ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تترك في العذاب؛ يريد جهنم.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤١٣ ، وقول أبي سعيد الخدري وابن مسعود رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٦/ ١٩٦ و ١٩٨ . وحديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٦٤٤)، والطبري في تفسيره ١٦/ ١٩٨ - ١٩٩ ، وابن حبان في صحيحه (٣١٢٢).

(٢) ص١٣٣ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٩٧ .

(٤) ١٣/ ١٧٩ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣١ .

(٦) في (م): أنه.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٠٠ - ٢٠١ عن مجاهد.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أي: وكما جزينا من أعرض عن القرآن، وعن النظر في المصنوعات والتفكر فيها، وجاوزَ الحدَّ في المعصية. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: لم يُصدِّق بها.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ أي: أفظعُ من المعيشة الضَّنك وعذابِ القبر. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدومُ وأثبت؛ لأنَّه لا ينقطع ولا ينقضي.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يريدُ أهلَ مكَّة، أي: أفلم يتبين لهم خبرُ من أهلكنا قبلهم من القرون، يمشون في مساكنهم؛ إذا سافروا وخرجوا في التجارة وطلبِ المعيشة، فيرون بلادَ الأُمم الماضية والقرون الخالية خاويةً، أي: أفلا يخافون أنْ يحُلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بالكفار قبلَهم.

وقرأ ابنُ عباس والسُّلَميُّ وغيرهما: «نَهْدِ لَهُمْ» بالنون[1]، وهي أَبْيَنُ. و«يهد» بالياء مشكلٌ لأجل الفاعل؛ فقال الكوفيون: ﴿كَمْ﴾ الفاعل. النحاس[2]: وهذا خطأ؛ لأنَّ «كم» استفهامٌ، فلا يَعملُ فيها ما قبلها. وقال الزَّجَّاج[3]: المعنى: أو لم يهدِ لهم الأمرُ بإهلاكنا مَن أهلكناه. وحقيقة «يهدي» يدلُّ على الهدى؛ فالفاعلُ هو الهدى، تقديره: أفلم يهدِ الهدى لهم. قال الزَّجَّاج: «كم»: في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

---

(١) ذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٨٨، وذكرها الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٧٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٦٩، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٥٨. دون نسبة.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٦٠. وما قبله وقول الزجاج الآتي منه.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، أي: ولولا كلمةٌ سبقت من ربِّك وأجلٌ مسمى لكان لزاماً؛ قاله قتادة[١]. واللِّزام: المُلازمة، أي: لكان العذابُ لازماً لهم. وأضمر اسم كان.

قال الزجاج[٢]: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على «كلمة». قتادة: والمراد القيامة؛ وقاله القتبي. وقيل: تأخيرُهم إلى يوم بدر[٣].

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَه تعالى بالصبر على أقوالهم: إنَّه ساحر، إنَّه كاهن، إنَّه كذَّاب، إلى غير ذلك. والمعنى: لا تَحْفِل بهم[٤]، فإنَّ لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدَّم ولا يتأخر. ثم قيل: هذا منسوخٌ بآية القتال[٥]. وقيل: ليس منسوخاً؛ إذ لم يستأصل الكفارَ بعد آية القتال، بل بقي المُعظم منهم.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال أكثر المتأولين: هذا إشارةٌ إلى الصلوات الخمس: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ العَتَمَة، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ المغرب والظهر[٦]؛ لأنَّ الظهرَ في آخر طرف النهار الأوَّل، وأوَّلِ طرفِ النهار الآخر؛ فهي في طرفين منه، والطرفُ الثالث: غروب الشمس؛ وهو وقت المغرب[٧].

وقيل: النهار ينقسمُ قسمين فَصَلَهما الزَّوال، ولكلٍّ قسمٍ طرفانِ، فعند الزوال طرفان؛ الآخِر من القسم الأوَّل، والأوَّلُ من القسم الآخر؛ فقال عن الطرفين أطرافاً

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢ ، وكلام القتبي في غريب القرآن له ص٢٨٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٦٩ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٣٦ ، وابن الجوزي في الناسخ والمنسوخ ص٤٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

(٧) تفسير الطبري ١٦/ ٢٠٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٦ .

على نحو: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وأشارَ إلى هذا النظر ابنُ فورك في «المشكل»[١].

وقيل: النهارُ للجنس، فلكلِّ يوم طرف؛ وهي التي[٢] جُمِع، لأنَّه يعودُ في كلِّ نهار. وآناء الليل: ساعاتُه، وواحدُ الآناء: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى[٣].

وقالت فرقة: المرادُ بالآية صلاةُ التطوّع؛ قاله الحسن[٤].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بفتح التاء، أي: لعلَّك تُثابُ على هذه الأعمال بما ترضى به.

وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم: «تُرْضَى» بضمِّ التاء، أي: لعلَّك تُعطَى ما يُرضِيك[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ قد تقدَّم معناه في «الحجر»[٦].

و﴿أَزْوَٰجًا﴾ مفعول بـ «متَّعنا».

و﴿زَهْرَةَ﴾ نصب على الحال.

وقال الزجاج[٧]: «زهرة» منصوبة بمعنى «متَّعنا» لأنَّ معناه: جعلنا لهم الحياة

---

(١) ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

(٢) في (م): وهو إلى. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤/ ٧٠ والكلام منه.

(٣) نزهة القلوب ص٨٦ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٢ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ ، وقراءة الكسائي وأبي بكر في السبعة ص٤٢٥ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٦) ١٢/ ٢٥٣ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨٠ . ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦١ .

الدنيا زهرةً، أو بفعلٍ مضمر، وهو «جعلنا» أي: جعلنَا لهم زهرةَ الحياة الدنيا؛ عن الزجاج أيضاً.

وقيل: هي بدلٌ من الهاء في «به» على الموضع، كما تقول: مررتُ به أخاك. وأشار الفراءُ[١] إلى نصبه على الحال؛ والعاملُ فيه: «مَتَّعْنَا». قال: كما تقول: مررتُ به المسكينَ؛ وقدَّره: متَّعناهم به زهرةً في الحياة الدنيا وزينةً فيها.

ويجوزُ أنْ تنصبَ على المصدر مثل: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ [النمل:٨٨] و﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ [الروم:٦]، وفيه نظر. والأحسنُ أنْ ينصب على الحال، ويحذفَ التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة؛ كما قُرئ: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ﴾[٢] [يس:٤٠] بنصب النَّهار بسابق، على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام، وتكون «الحياة» مخفوضةً على البدل من «ما» في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦ﴾، فيكون التقدير: ولا تمدنَّ عينيكَ إلى الحياة الدنيا زهرةً، أي: في حال زَهْرتها.

ولا يَحسُنُ أنْ تكون «زهرة» بدلاً من «ما» على الموضع في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾؛ لأنَّ «لِنَفْتِنَهُمْ» متعلقٌ بـ «متَّعنا»[٣].

و«زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» يعني: زينتَها بالنبات. والزَّهَرةُ؛ بالفتح في الزاي والهاء: نَوْر النبات. والزُّهَرة؛ بضمِّ الزاي وفتح الهاء: النَّجم. وبنو زُهْرة بسكون الهاء؛ قاله ابن عُزيز[٤].

وقرأ عيسى بن عمر: «زَهَرَةَ» بفتح الهاء[٥]، مثل: نَهْر ونَهَر. ويقال: سراجٌ زاهرٌ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٩٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٤ والكلام منه.

(٢) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٣٣٨ لعمارة بن عقيل.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٤ - ٤٧٥ ، وللكلام تتمة فينظر فيه.

(٤) في نزهة القلوب ص٢٥٦ .

(٥) وقرأ بها يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٣٢٢ ، وذكرها عن عيسى بن عمر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٠ .

أي: له بريق. وزهرُ الأشجار: ما يَرُوق من ألوانها. وفي الحديث: كان النبي ﷺ أزهرَ اللون[١]، أي: نيِّر اللون؛ يقال لكلِّ شيءٍ مستنير: زاهر، وهو أحسن الألوان[٢].

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ أي: لِنَبْتَلِيَهم. وقيل: لنجعلَ ذلك فتنةً لهم وضلالاً[٣].

ومعنى الآية: لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وَزْناً، فإنَّه لا بقاءَ لها.

«وَلَا تَمُدَّنَّ» أبلغُ من: لا تنظرنَّ، لأنَّ الذي يمدُّ بصرَه، إنَّما يحملُه على ذلك حرصٌ مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه[٤].

مسألة: قال بعض الناس: سببُ نزول[٥] هذه الآية، ما رواه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: نزل ضيفٌ برسول الله ﷺ، فأرسلني عليه الصلاة والسلام إلى رجلٍ من اليهود، وقال: «قل له: يقولُ لك محمدٌ: نزلَ بنا ضيفٌ، ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذي يُصلِحه، فبعني كذا وكذا من الدَّقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب» فقال: لا، إلَّا برهن. قال: فرجَعتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «واللهِ، إني لأمينٌ في السماء، أمينٌ في الأرض، ولو أسلفني أو باعني لأدَّيتُ إليه. اذهبْ بدرْعي إليه»[٦] ونزلت الآيةُ تعزيةً له عن الدنيا.

قال ابن عطية[٧]: وهذا معترَضٌ أنْ يكون سبباً؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، والقصة

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٣٣٨١)، ومسلم (٢٣٣٠) (٨٢) من حديث أنس ﷺ.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (زهر).

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

(٥) لفظة: نزول، من (م).

(٦) أخرجه بهذا اللفظ الواحدي في أسباب النزول ص٣١٤ ، وأخرجه الطبري مختصراً ١٦/ ٢١٤ . وفي إسناده موسى بن عُبيدة الرَّبَذي، قال أحمد: لا يكتب حديثه، وضعّفه النسائي وابن عدي. ميزان الاعتدال ٤/ ٢١٣ وحديث رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي صحيح، وسيرد.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

المذكورة مدنيةٌ في آخر عُمر النبي ﷺ؛ لأنَّه ماتَ ودِرعُه مرهونةٌ عند يهودي[١] بهذه القصة التي ذكرت؛ وإنَّما الظاهرُ أنَّ الآيةَ متناسقةٌ مع ما قبلَها، وذلك أنَّ الله تعالى وبَّخهم على ترك الاعتبار بالأُمم السالفة، ثمَّ توعَّدهم بالعذاب المؤجَّل، ثمَّ أمَر نبيَّه بالاحتقار لشأنهم، والصبرِ على أقوالهم، والإعراضِ عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا؛ إذْ ذلك منصرمٌ عنهم؛ صائرٌ إلى خِزي.

قلت: وكذلك ما رويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه مرَّ بإبلِ بني المصطلق وقد عَبِست في أبوالها[٢] من السِّمَن، فتقنَّع بثوبه ثم مضى؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية[٣].

ثم سَلَّاه فقال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ثوابُ الله على الصبر وقلَّةِ المبالاة بالدنيا أولى؛ لأنَّه يبقى والدنيا تفنى.

وقيل: يعني بهذا الرزق ما يفتحُ الله على المؤمنين من البلاد والغنائم.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمرَه تعالى بأن يأمرَ أهله بالصَّلاة ويمتثلَها معهم، ويصطبر عليها ويُلازمَها. وهذا الخطابُ للنبي ﷺ، ويدخلُ في عمومه جميعُ أُمَّته[٤]، وأهلُ بيته على التخصيص.

وكان عليه الصلاة والسلام بعد نزول هذه الآية يذهبُ كلَّ صباح إلى بيت فاطمةَ وعليٍّ رضوان الله عليهما فيقول: «الصلاة»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٩)، والترمذي (١٢١٤)، والنسائي ٧/ ٣٠٣.

(٢) في النسخ الخطية: بأبوالها، والمثبت من (م) قال ابن الأثير في النهاية (عبس): وإنما عدَّاه بفي؛ لأنه أعطاه معنى انغمست.

(٣) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٩، ولم نقف على من أخرجه. قال أبو عبيد: وعبست في أبوالها: يعني: أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها، وذلك إنما يكون من كثرة الشحم.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٧١.

(٥) أخرج أحمد (١٣٧٢٨) والترمذي (٣٢٠٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستَّة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ =

ويروى أنَّ عُرْوةَ بن الزبير ﷺ كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادرَ إلى منزله فدخلَه، وهو يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، ثمَّ ينادي بالصلاة: الصلاةَ يرحمكم الله؛ ويُصلِّي[1]. وكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يُوقظ أهلَ داره لصلاة الليل، ويُصلِّي وهو يتمثَّل بالآية[2].

قوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نسألك أنْ ترزقَ نفسَك وإيَّاهم، وتشتغلَ عن الصلاة بسبب الرزق، بل نحن نتكفَّلُ برزقك وإيَّاهم؛ فكان عليه الصلاة والسلام إذا نزل بأهله ضِيْقٌ؛ أمرَهم بالصلاة[3]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: الجنَّة لأهل التقوى، يعني: العاقبة المحمودة. وقد تكون لغير التقوى عاقبة، ولكنَّها مذمومةٌ، فهي كالمعدومة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ يريد كفارَ مكة، أي: لولا يأتينا محمدٌ بآيةٍ تُوجِبُ العلم الضروري، أو بآيةٍ ظاهرةٍ؛ كالناقة والعصا، أو: هلَّا يأتينا بالآيات التي نقترحُها نحن كما أتى الأنبياءُ من قبله.

= ﴿عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ولم نقف على من ذكر أن ذلك بعد نزول الآية المذكورة أعلاه.

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢١٧.

(٢) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ ١/ ١١٩، ومن طريقه عبد الرزاق في مصنفه (٤٧٤٣). والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٧١.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٠) من حديث عبد الله بن سلام ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧: رجاله ثقات.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يريد التوراةَ والإنجيل، والكتب المتقدمة، وذلك أعظمُ آيةٍ؛ إذ أخبرَ بما فيها[١]. وقُرِئ: «الصُّحْفِ» بالتخفيف[٢].

وقيل: أو لم تأتهم الآيةُ الدَّالَّة على نبوَّته بما وجدوه في الكتب المتقدِّمة من البِشارة[٣].

وقيل: أو لم يأتهم إهلاكُنا الأمَمَ الذين كفروا واقترحوا الآيات، فما يؤمِّنهم إنْ أتتهم الآيات أنْ يكون حالُهم حالَ أولئك[٤].

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبي إسحاق وحفص: «أوَ لَمْ تَأْتِهِمْ»؛ بالتَّاء؛ لتأنيث البيِّنة. الباقون بالياء[٥]؛ لتقدم[٦] الفعل، ولأنَّ البيِّنة هي البيانُ والبرهان، فردُّوه[٧] إلى المعنى، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم[٨].

وحكى الكسائيُّ: «أوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى» قال: ويجوزُ على هذا «بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى».

قال النحاس[٩]: إذا نَوَّنت «بيِّنة» ورَفعت، جعلت «ما» بدلاً منها، وإذا نَصبتها فعلى الحال؛ والمعنى: أو لم يأتهم ما في الصُّحف الأولى مبيَّناً.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٩١، والكشاف ٢/ ٥٦٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٣٧.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢١٨.

(٥) السبعة ص٤٢٥، والتيسير ص١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢.

(٦) في (خ) و(ز) و(ف): لتقديم، وفي (ظ): لتذكير، والمثبت من (د) و(م).

(٧) في (د): فيردوه، وفي (ز) و(ظ): فرده، والمثبت من (خ) و(ف) و(م).

(٨) الحجة للقراء السبعة للفارسي ٥/ ٢٥٣ بنحوه، والكشف عن وجوه القراءات لمكي ٢/ ١٠٨ بنحوه.

(٩) في إعراب القرآن ٣/ ٦١. وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ﴿لَقَالُوا۟﴾ أي: يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلّا أرسلتَ إلينا رسولاً[١].

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾. وقرئ: «نُذَلَّ وَنُخْزَى» على ما لم يُسَمَّ فاعله[٢].

وروى أبو سعيد الخدريّ قال: قال رسولُ الله ﷺ في الهالك في الفترة والمعتوه والمولود قال: «يقول الهالك في الفترة: لم يأتِني كتابٌ ولا رسول، ثم تلا: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية، ويقول المعتوه: ربِّ، لم تجعل لي عقلاً أعقِلُ به خيراً ولا شرًّا، ويقول المولود: ربِّ لم أُدرك العمل، فتُرفَع لهم نارٌ، فيقول لهم: رِدُوها وادخُلوها. قال: فيَرِدُها أو يدخلُها[٣] من كان في علم الله سعيداً لو أدرَك العمل، ويمسكُ عنها من كان في علم الله شقيًّا لو أدرك العمل، قال: فيقولُ الله تبارك وتعالى: إيَّاي عصيتُم، فكيف رُسلي لو أتتكم»[٤] ويروى موقوفاً عن أبي سعيدٍ قوله[٥]؛ وفيه نظر؛ وقد بيناه في كتاب «التذكرة»[٦]، وبه احتجَّ من قال: إنَّ الأطفالَ وغيرَهم يمتحنون في الآخرة.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٨ .

(٢) القراءات الشاذة ص٩١ عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية.

(٣) في (ظ): فيردونها ويدخلها.

(٤) أخرجه البزار (٢١٧٦ - كشف)، والطبري ١٦/ ٢١٩ ، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٢٧ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٣٨ : وفيه عطية، وهو ضعيف. وقال ابن عبد البر بعد ذكر أحاديث الباب: وهي كلها أسانيد ليست بالقوية، ولا يقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب؛ لأن الآخرة دار جزاء، وليست دار عمل ولا ابتلاء... الاستذكار ٨/ ٤٠٤ .

(٥) قال ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٢٨ : من الناس من يوقف هذا الحديث على أبي سعيد ولا يرفعه، منهم أبو نعيم المُلائي.

(٦) ص٥١٤ ، وينظر ما سلف ١٣/ ٤٤ .

«فَنَتَّبِعَ» نصب بجواب التحضيض[١]. «آياتِك» يريدُ: ما جاء به محمدٌ ﷺ. «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ» أي: في العذاب، «وَنَخْزَى» في جهنم؛ قاله ابن عباس. وقيل: «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ» في الدنيا بالعذاب، «ونَخْزَى» في الآخرة بعذابها.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: قل لهم يا محمد: كلٌّ مُتربِّص، أي: كلٌّ المؤمنين والكافرين منتظرٌ دوائرَ الزمان ولمن يكون النصر.

﴿فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ يريد: الدين المستقيم والهدى؛ والمعنى: فستعلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق. وقيل: فستعلمون يومَ القيامة من اهتدى إلى طريق الجنَّة[٢]. وفي هذا ضربٌ من الوعيد والتخويف والتهديد خَتَمَ به السورة.

وقُرِئ: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»[٣]. قال أبو رافع: حَفِظتُه من رسول الله ﷺ؛ ذكره الزمخشريّ[٤].

و«مَن» في موضع رفعٍ عند الزجاج[٥]. وقال الفراء[٦]: يجوزُ أنْ يكونَ في موضع نصبٍ مثل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. قال أبو إسحاق[٧]: هذا خطأ؛ لأنَّ الاستفهامَ لا يعملُ فيه ما قبلَه، و«مَن» هاهنا استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، والمعنى: فستعلمون: أَأَصحابُ[٨] الصراط السَّويِّ؛ نحن أم أنتم؟.

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ) و(ف) و(م): التخصيص، والمثبت من (خ).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٣٤ ، وفيه وفي (خ) و(ز): أهدى، بدل: اهتدى (في الموضعين).

(٣) في (د) و(ظ): يعلمون.

(٤) في الكشاف ٢/ ٥٦١ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦١ - ٦٢ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ١٩٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس

(٧) هو الزجَّاج.

(٨) في (د) و(م): أصحاب، وفي (ف): من أصحاب.

قال النحاس[١]: والفراء يذهبُ إلى أنَّ معنى ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: مَن لم يضلَّ، وإلى أنَّ معنى ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: من ضلَّ ثم اهتدى.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وعاصم الجحدَريُّ: «فَسَتَعْلَمُونَ[٢] مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السُّوَّى» بتشديد الواو؛ بعدها ألفُ التأنيث على فُعْلَى بغير همزة، وتأنيثُ الصراط شاذٌّ قليل، قال الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، فجاء مذكراً في هذا وفي غيره، وقد ردَّ هذا أبو حاتم قال: إنْ كان من السُّوء وجب أنْ يُقال: السُّوءَى، وإن كان من السَّواء وجب أن يقال: السِّيَّا بكسر السين، والأصل: السِّوْيَا[٣].

قال الزمخشري: وقرئ: «السَّواءِ» بمعنى: الوَسَط والعدل، أو المستوِي[٤].

النحاس[٥]: وجوازُ قراءةِ يحيى بنِ يَعْمَر والجَحْدريِّ أن يكون الأصل «السُّوءَى»، والساكنُ ليس بحاجزٍ حَصِينٍ، فكأنه قَلَبَ[٦] الهمزة ضمةً، فأبدلَ منها واواً كما يُبدَلُ منها ألفٌ إذا انفتح ما قبلَها.

تمَّت، والحمد لله وحدَه.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٦٢.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): فسيعلمون.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٢. وقراءة يحيى بن يعمر والجحدري ذكرها أيضاً أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٢.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٦٠، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٢ إلى أبي مجلز وعمران بن حدير.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٦٢.

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(ف): قبل، والمثبت من (م) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس، ووقعت العبارة في (ظ): فكأنه لما كان قبل الهمزة ضمة أبدل منها واو.

سورة الأنبياء

مكية في قول الجميع، وهي مئة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قال عبد الله بن مسعود: الكهفُ ومريمُ وطه والأنبياءُ من العِتَاق الأُول، وهنَّ من تِلادي. يريد من قديم ما كسب وحَفِظَ من القرآن، كالمال التِّلاد[1].

وروي أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمرَّ به آخَرُ في يومِ نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخَر: نزل ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فنفض يده من البنيان، وقال: واللهِ لا بَنَيْتُ أبداً وقد اقترب الحساب[2].

«اقترب» أي: قَرُبَ الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ ، وسلف خبر ابن مسعود ١٣/ ٥ . والتِّلاد: كلُّ مال قديم من حيوان وغيره يورَث عن الآباء. اللسان (تلد).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ .

«للناس» قال ابن عباس: المرادُ بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[١].

وقيل: الناسُ عمومٌ وإن كان المُشَارُ إليه في ذلك الوقتِ كفارَ قريش، يدلُّ على ذلك ما بَعْدُ من الآيات، ومَن عَلِم اقترابَ الساعة قَصُر أملُه، وطابت نفسُه بالتوبة، ولم يَرْكَنْ إلى الدنيا، فكأنَّ ما كان لم يكن إذا ذهب، وكلُّ آتٍ قريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ؛ وموتُ كلِّ إنسانٍ قيامُ ساعتِه، والقيامةُ أيضاً قريبةٌ بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقي من الدنيا أقلُّ ممَّا مضى.

وقال الضحَّاك: معنى ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، أي: عذابُهم، يعني أهلَ مكة؛ لأنَّهم استَبْطَؤوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيباً، وكان قَتْلُهم يومَ بَدْر[٢].

النحاس[٣]: ولا يجوز في الكلام: اقترب حسابُهم للناس؛ لئلَّا يتقدَّم مُضْمَرٌ على مُظْهَرٍ لا يجوز أن يُنْوَى به التأخير. ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، ويجوز النصبُ في غير القرآن على الحال. وفيه وجهان: أحدهما: «وهم في غفلةٍ معرِضون» يعني بالدنيا عن الآخرة. الثاني: عن التأهُّب للحساب وعمَّا جاء به محمدٌ ﷺ.

وهذه الواوُ عند سيبويه بمعنى «إذ» وهي التي يسمِّيها النَّحْويون واوَ الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤][٤].

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ «مُحْدَثٍ» نعتٌ لـ «ذِكْرٍ». وأجاز الكسائيُّ والفرَّاءُ: مُحْدَثاً، بمعنى: ما يأتيهم مُحْدَثاً؛ نصب على الحال. وأجاز الفرَّاء أيضاً رَفْعَ «مُحْدَث» على النعت للذِّكر[٥]؛ لأنك لو حذفتَ «مِن» رفعتَ

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦١ - ٥٦٢.

(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٥.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٦٣.

(٤) ينظر الكتاب ١/ ٩٠، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٣.

(٥) قرأ: محدثٌ: ابنُ أبي عبلة، وقرأ: محدثاً: زيد بن علي، والقراءتان من الشواذ. البحر ٦/ ٢٩٦.

ذكراً[١]، أي: ما يأتيهم ذكرٌ من ربِّهم مُحدَثٌ. يريد: في النزول وتلاوةِ جبريلَ على النبيِّ ﷺ؛ فإنَّه كان ينزل سورةً بعد سورةٍ، وآيةً بعد آيةٍ، كما كان ينزله الله تعالى عليه في وقتٍ بعد وقت، لا أنَّ القرآنَ مخلوق.

وقيل: الذِّكْرُ ما يذكِّرهم به النبيُّ ﷺ ويَعِظُهم به، وقال: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يَنطِقُ إلَّا بالوحي، فوَعْظُ النبيِّ ﷺ وتحذيرُه ذِكْر، وهو مُحْدَث[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ويقال: فلانٌ في مجلس الذكر.

وقيل: الذِّكْرُ الرسولُ نفسُه؛ قاله الحسين بن الفضل؛ بدليل ما في سياق الآية: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٣] ولو أراد بالذِّكر القرآنَ لقال: هل هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين، ودليلُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١-٥٢] يعني محمداً ﷺ، وقال: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ يعني محمداً ﷺ، أو القرآنَ من النبيِّ ﷺ، أو من أمته. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الواوُ واوُ الحال يدلُّ عليه ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

ومعنى «يَلْعَبُونَ»، أي: يلهُون. وقيل: يشتغلون. فإنْ حُمِل تأويلُه على اللَّهو، احتَمَل ما يلهُون به وجهين: أحدهما: بلذَّاتهم. الثاني: بسماع ما يُتلى عليهم. وإن حُمل تأويلُه على الشُّغل، احتَمَل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما: بالدنيا لأنَّها لعب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]. الثاني: يتشاغلون بالقَدْح فيه والاعتراض عليه. قال الحسن: كلَّما جَدَّد لهم الذكرَ استمرُّوا على الجهل[٤]. وقيل: يستمعون القرآنَ مستهزئين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٣، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣.

(٣) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٣٩.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٣٦.

قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ساهيةً قلوبُهم، مُعْرِضةً عن ذكر الله، متشاغلةً عن التأمُّل والتفهُّم، من قول العرب: لَهِيْتُ عن ذكر الشيء: إذا تركتَه وسَلَوْتَ عنه، أَلْهَى لُهِيًّا ولِهْياناً[1].

و«لاهية» نعتٌ تقدَّم الاسمَ، ومن حقِّ النَّعت أن يتبع المنعوتَ في جميع الإعراب، فإذا تقدَّم النعتُ الاسم انتصب، كقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤] و﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤] و﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[2] قال الشاعر:

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ ... يَلُوحُ كَأَنَّهُ خِلَلُ[3]

أراد: طللٌ موحِشٌ. وأجاز الكسائيُّ والفرَّاء: لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ، بالرفع[4] بمعنى: قلوبُهم لاهيةٌ. وأجاز غيرهما الرفعَ على أن يكون خبراً بعدَ خبر، وعلى إضمار مبتدأ. وقال الكسائيُّ: ويجوز أن يكون المعنى: إلَّا استمعوه لاهيةً قلوبُهم[5].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: تَناجَوْا فيما بينهم بالتكذيب، ثم بيَّن مَن هم فقال: «الَّذِينَ ظَلَمُوا»، أي: الذين أشركوا، فـ«الذين ظلموا» بدلٌ من الواو في «أسرُّوا»، وهو عائدٌ على الناس المتقدِّم ذِكْرُهم[6]؛ ولا يوقَف على هذا القولِ على

---

(١) الصحاح (لها). وقيد الجوهري: لِهيتُ بالكسر، وذكر صاحب اللسان (لها) فيها وجهين: لِهِي ولَهَى.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨.

(٣) الجمل في النحو للخليل ص٧٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٦٦٤، واللسان خلل، والخزانة ٣/ ٢١١، وعندهم: لميَّةَ، بدل: لعزة. وجاء في شرح المفصل ٢/ ٦٤:

لِعَزَّةَ موحشاً طللٌ قديم ... عفاه كلُّ أسحمَ مُستديمُ

وذكره البغدادي في الخزانة بلفظ: لمية وقال: مَن رواه: لعزة، قال: هو لكثير عزة، ومن رواه: لمية، قال: إنه لذي الرمة. والخِلل جمع خِلَّة: وهي بطانة يغشَّى بها جَفْنُ السيف ـ وهو غمده ـ تنقش بالذهب وغيره. اللسان (خلل).

(٤) قرأ بها ابن أبي عبلة وعيسى، وهي من الشواذ. البحر ٦/ ٢٩٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٣ - ٦٤، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٨.

(٦) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٤ هذا القول عن سيبويه. وقال أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٧: قاله المبرد، وعزاه ابن عطية إلى سيبويه.

«النجوى»[١]. قال المبرِّد: وهو كقولك: إنَّ الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، فبنو بدلٌ من الواو في انطلقوا[٢].

وقيل: هو رفعٌ على الذمِّ، أي: هم الذين ظلموا[٣].

وقيل: على حذفِ القول، التقدير: يقول الذين ظلموا، وحذفَ القول، مثل: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]. واختار هذا القولَ النحاسُ[٤]؛ قال: والدليلُ على صحة هذا الجوابِ أنَّ بعده: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقول رابع: يكون منصوباً بمعنى: أعني الذين ظلموا[٥].

وأجاز الفراء أن يكون خفضاً بمعنى: اقترب للناس الذين ظلموا حسابُهم[٦]؛ ولا يوقَفُ على هذا الوجه على «النجوى»، ويوقَفُ على الوجوه المتقدِّمة الثلاثةِ قبلَه[٧]. فهذه خمسة أقوال.

وأجاز الأخفش[٨] الرفعَ على لغةِ مَن قال: أكلوني البراغيث. وهو حسن؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة:٧١]، وقال الشاعر:

بك نال النِّضالُ دون المساعي فاهتدينَ النِّبالُ للأغراضِ[٩]

---

(١) المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص٣٨٥ .

(٢) الوسيط ٣/ ٢٢٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٦٣ ، وما قبله منه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٤ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦٣ .

(٧) المكتفى في الوقف والابتداء ص٣٨٥ .

(٨) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦٣ .

(٩) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٢/ ٣١٣ برواية: عاد، بدل: نال. قال التبريزي: =

وقال آخر:

ولكِنْ دِيَافِيٌّ أبوه وأمُّهُ ... بحَوْرَانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أَقَارِبُهْ[١]

وقال الكسائيُّ: فيه تقديمٌ وتأخير، مَجازُه: والذين ظلموا أسرُّوا النجوى[٢].

أبو عبيدة[٣]: «أسرُّوا» هنا من الأضداد، فيَحْتَمِل أن يكونوا أَخْفَوْا كلامَهم، ويَحْتَمِل أن يكونوا أَظْهَروه وأَعْلَنوه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: تناجَوْا بينهم وقالوا: هل هذا الذِّكْرُ الذي هو الرسولُ ـ أو هل هذا الذي يدعوكم ـ إلَّا بشرٌ مثلكم لا يتميَّز عنكم بشيء، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق كما تفعلون. وما عَلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ بيَّن أنه لا يجوزُ أن يُرسِلَ إليهم إلَّا بشراً ليتفَّهموا ويعلِّمهم.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: إنَّ الذي جاء به محمدٌ ﷺ سحرٌ، فكيف تجيئون[٤] إليه وتتَّبعونه؟ فأَطْلَع الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام على ما تناجَوْا به. والسحر في اللغة: كلُّ مموَّهٍ لا حقيقةَ له ولا صحَّة. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنه إنسانٌ مثلُكم، مثل: وأنتم تعقلون؛ لأنَّ: العقل البَصَرُ بالأشياء.

وقيل: المعنى: أفتَقْبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ وقيل: المعنى: أفتَعْدِلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحقَّ[٥]؟ ومعنى الكلامِ التوبيخ.

= أصل النضال في الرمي، وذلك أن يرمي الرجلان والجماعة في الغرض لينظر أيهم أرمى، ثم نقل ذلك إلى الحرب والتفاخر. اهـ والغرض: هدف يرمى فيه. القاموس (غرض).

(١) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/٤٦ ، والكتاب ٢/ ٤٠ ، والخزانة ٥/ ٢٣٤ . قال الشنتمري في شرح الشواهد ص٢٥٢ - ٢٥٣ : هجا رجلاً فجعله من أهل القرى المعتملين لإقامة عيشهم، ودياف قرية بالشام، والسليط: الزيت.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٣٤ .

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): تجيبون.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٧ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ربِّي يعلم القولَ في السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يَخْفَى عليه شيءٌ ممَّا يقال في السماء والأرض. وفي مصاحف أهل الكوفة: ﴿قَالَ رَبِّي﴾[1] أي: قال محمدٌ: ربي يعلم القول، أي: هو عالمٌ بما تَناجَيْتُم به.

وقيل: إنَّ القراءة الأُولى أوْلى؛ لأنهم أسرُّوا هذا القولَ، فأظْهَر الله عزَّ وجلَّ عليه نبيَّه ﷺ، وأمره أن يقول لهم هذا؛ قال النحاس[2]: والقراءتان صحيحتان، وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أنَّ النبيَّ ﷺ أُمر، وأنه قال كما أُمر.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ﴾ قال الزجَّاج[3]: أي قالوا: الذي يأتي به أضغاثُ أحلام. وقال غيره: أي: قالوا: هو أخلاطٌ كالأحلام المختلِطة، أي: أهاويلُ رآها في المنام؛ قال معناه مجاهدٌ وقتادة[4]، ومنه قولُ الشاعر:

كضِغْثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حالِمُه[5]

وقال القُتبيُّ: إنَّها الرؤيا الكاذبة، ومنه قول الشاعر:

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفَدْفَدٍ   تَرقْرَقَ للسَّاري وأضغاثُ حالِمِ[6]

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿قَالَ﴾ بالألف، والباقون من السبعة بغير ألف. السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٥٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٦٤.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٣٨٤.

(٤) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٢٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٧، وسلف ١١/ ٣٦٢.

(٦) ذكر قول القُتبي مع البيت الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧. وطَسْم: قبيلة من عاد انقرضوا. والفَدْفد: الفلاة. اللسان (طسم)، و(فدد).

وقال اليزيديُّ: الأضغاثُ: ما لم يكن له تأويل[١]. وقد مضى هذا في «يوسف»[٢].

فلمَّا رأَوْا أنَّ الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا: «بل افتراه»، ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا: «بل هو شاعر»[٣]. أي: هم متحيِّرون لا يستقرُّون على شيء؛ قالوا مرةً: سحر، ومرةً: أضغاثُ أحلام، ومرةً: افتراه، ومرةً: شاعر.

وقيل: أي: قال فريقٌ: إنه ساحر، وفريقٌ: إنه أضغاث أحلام، وفريقٌ: إنه افتراه، وفريقٌ: إنه شاعر. والافتراءُ: الاختلاق؛ وقد تقدَّم[٤].

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: كما أُرسل موسى بالعصا وغيرِها من الآيات، ومثل ناقة صالح. وكانوا عالِمين بأنَّ القرآن ليس بسحرٍ ولا رؤيا، ولكن قالوا: ينبغي أنْ يأتيَ بآيةٍ نقترحُها. ولم يكن لهم الاقتراحُ بعد ما رأَوْا آيةً واحدة.

وأيضاً إذا لم يؤمنوا بآيةٍ هي من جنسِ ما هم أعلمُ الناس به، ولا مجالَ للشُّبهة فيها، فكيف يؤمنون بآية غيرِها؟! ولو أبرأ الأَكْمَهَ والأبرصَ لقالوا: هذا من بابِ الطبّ، وليس ذلك من صناعتنا. وإنما كان سؤالهم تعنُّتاً؛ إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفايةٌ، وبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنَّهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣][٥].

قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: يريد قومَ صالحٍ وقومَ فرعون. ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ يريد: كان في علمنا هلاكُها ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يريد: يصدِّقون،

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧ .

(٢) ١١/ ٣٦٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٤) ٦/ ٤١١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

أي: فما آمنوا بالآيات، فاستؤصلوا، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لَمَا آمنوا؛ لِمَا سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضاً، وإنَّما تأخَّر عقابهم لِعْلِمنا بأنَّ في أصلابهم مَن يؤمن. و«مِن» زائدةٌ في قوله: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾، كقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أرسَلْنا قَبْلَكَ إلَّا رجالاً يُوحَى إليهم﴾ هذا ردٌّ عليهم في قولهم: «هل هذا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكم» وتأنيسٌ لنبيِّه ﷺ، أي: لم يُرسِل[1] قبلَك إلَّا رجالاً. ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يريد أهلَ التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ؛ قاله سفيان. وسمَّاهم أهلَ الذكر؛ لأنهم كان يذكُرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب. وكان كفار قريشٍ يراجعون أهل الكتاب في أمرِ محمدٍ ﷺ.

وقال ابنُ زيد: أراد بالذِّكر القرآن، أي: فاسألوا المؤمنين العالِمِين من أهل القرآن. قال جابرٌ الجُعْفيُّ: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال عليٌّ ﷺ: نحن أهلُ الذِّكر[2].

وقد ثبت بالتَّواتُر أنَّ الرسل كانوا من البشر، فالمعنى: لا تبدؤوا بالإنكار، وبقولكم: ينبغي أن يكون الرسولُ من الملائكة، بل ناظِروا المؤمنين ليبيِّنوا لكم جوازَ أن يكون الرسول من البشر. والمَلَكُ لا يُسمَّى رجلاً؛ لأنَّ الرجل يقع على ما لَه ضدٌّ من لَفْظِه؛ تقول: رجلٌ وامرأة، ورجلٌ وصبيٌّ، فقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أي: من بني

---

(١) في (خ): نرسل.

(٢) أخرج قول ابن زيد وقول علي ﷺ الطبريُّ ١٦/ ٢٢٩ ، وجابر الجعفي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

آدم. وقرأ حفص: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[١].

مسألة: لم يختلف العلماء أنَّ العامَّة عليها تقليدُ علمائها، وأنَّهم المرادُ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وأجمعوا على أنَّ الأعمى لابدَّ له من تقليدِ غيره ممن يثقُ بمَيْزِه بالقبلة إذا أشكلتْ عليه، فكذلك مَن لا عِلْمَ له ولا بَصَرَ بمعنَى ما يَدِينُ به لابدَّ له من تقليدِ عالِمِه، وكذلك لم يختلف العلماء أنَّ العامَّة لا يجوز لها الفُتيا؛ لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليلُ والتحريمُ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ الضميرُ في: «جعلناهم» للأنبياء، أي: لم نجعل الرسلَ قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعامٍ وشراب ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ يريد: لا يموتون. وهذا جوابٌ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان:٧].

و«جسداً» اسمُ جنس، ولهذا لم يقل: أجساداً[٣]. وقيل: لم يقل: أجساداً؛ لأنه أراد: وما جعلنا كلَّ واحدٍ منهم جسداً.

والجسد: البدن؛ تقول منه: تَجسَّد، كما تقول من الجسم: تَجسَّم. والجسدُ أيضاً: الزَّعْفَرَانُ أو نحوُه من الصِّبْغ، وهو الدَّمُ أيضاً؛ قال النابغة:

وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسَدِ[٤]

وقال الكلبيُّ: والجسدُ هو المجسَّد[٥] الذي فيه الروحُ يأكل ويشرب، فعَلَى

---

(١) السبعة ص٤٢٨ ، والتيسير ص١٣٠. ووقع في النسخ: حفص وحمزة والكسائي، وذكر حمزة والكسائي في هذا الموضع وهم، والصواب أن ثلاثتهم قرؤوا: «نوحي» بالنون في الآية (٢٥) من هذه السورة كما سيرد في موضعه إن شاء الله. وينظر البحر ٦/ ٢٩٨ ، والدر المصون ٦/ ١٣٥ .

(٢) ينظر الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ٦٧ - ٦٨ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٦٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٩ .

(٤) وصدره: فلا لعَمْرُ الذي مسَّحْتُ كعبتَه، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص٣٥ ، والصحاح (جسد)، والكلام منه.

(٥) في (م): المتجسد.

مقتضَى هذا القولِ يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسماً. وقال مجاهدٌ: الجسدُ: ما لا يأكل ولا يشرب؛ فعلى مقتضَى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نَفْساً؛ ذكره الماوَرْديّ[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ يعني الأنبياء، أي: بإنجائهم ونَصْرِهم وإهلاكِ مكذِّبيهم. ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي: الذين صدَّقوا الأنبياء. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المشركين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ رفعٌ بالابتداء، والجملةُ في موضعِ نصبٍ لأنَّها نعتٌ لكتاب[٢]. والمرادُ بالذكر هنا الشرف، أي: فيه شرفُكم، مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤][٣]. ثم نبَّههم بالاستفهام الذي معناه التوقيفُ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٤].

وقيل: فيه ذكركُم، أي: ذِكْرُ أمرِ دِينِكم، وأحكامِ شَرْعِكم، وما تصيرون إليه من ثوابٍ وعقاب، أفلا تعقلون هذه الأشياءَ التي ذكرناها؟!

وقال مجاهد: «فِيهِ ذِكْرُكُمْ»، أي: حديثكم. وقيل: مكارِمُ أخلاقِكم، ومحاسنُ أعمالكم. وقال سهل بن عبد الله: العملُ بما فيه حياتُكم[٥].

قلت: وهذه الأقوالُ بمعنًى، والأوّلُ يَعمُّها؛ إذ هي شرفٌ كلُّها، والكتابُ شرفٌ لنبيِّنا عليه الصلاةُ والسلام؛ لأنه معجزتُه، وهو شرفٌ لنا إنْ عملنا بما فيه، دليلُه قولُه

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٤٣٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٣١ ، وهذا القول ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ عن ابن عيسى، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤١ من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وذكره الطبري ١٦/ ٢٣٢ دون نسبة وقال: وهذا القول أشبه بمعنى الكلمة.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ ، وخبر مجاهد في تفسيره ١/ ٤٠٧ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٢ .

عليه الصلاةُ والسلام: «القرآن حُجَّةٌ لك أو عليك»[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ يريد مدائنَ كانت باليمن. وقال أهل التفسير والأخبار: إنه أراد أهلَ حَضُورٍ، وكان بُعث إليهم نبيٌّ اسمُه شعيب بن ذي مَهْدَم، وقبرُ شعيبٍ هذا باليمن بجبلٍ يقال له: ضِيْن[2]، كثيرِ الثَّلج، وليس بشعيبٍ صاحبِ مَدْيَنَ؛ لأنَّ قصة حَضُورٍ قبل مدةِ عيسى عليه السلام، وبعد مِئينَ من السنين من مدَّةِ سليمانَ عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيَّهم وقَتَل أصحابُ الرَّسِّ في ذلك التاريخ نبيًّا لهم اسمُه: حنظلة بنُ صفوان، وكانت حَضُورٌ بأرض الحجاز من ناحية الشام، فأَوحى الله إلى أرميا أنِ ائتِ بختنصَّر فأَعْلِمْه أنِّي قد سلَّطته على أرض العرب، وأنِّي منتقمٌ بكَ منهم، وأَوحى الله إلى أرميا أنِ احمِلْ مَعَدَّ بنَ عدنان على البُراقِ إلى أرض العراق كي لا تصيبه النِّقمةُ والبلاءُ معهم، فإنِّي مستخرجٌ من صُلْبِه نبيًّا في آخِر الزمان اسمُه محمد. فَحمَل مَعَدًّا وهو ابن اثنتي عَشرةَ سنةً، فكان مع بني إسرائيل إلى أنْ كبِر وتزوَّج امرأةً اسمُها معانة، ثم إنَّ بختنصَّر نهض[3] بالجيوش، وكَمَنَ للعرب في مكانٍ ـ وهو أوَّلُ مَن اتَّخذ المَكَامِنَ فيما ذَكروا ـ ثم شنَّ الغارات على حَضُورٍ، فقتَل وسَبَى وخَرَّب العامِر، ولم يترك بحَضُورٍ[4] أثراً، ثم انصرف راجعاً إلى السَّوَاد.

---

(١) قطعة من حديث أبي مالك الأشعري، أخرجه مسلم (٢٢٣)، وسلف ١/ ٦ .

(٢) اضطرب اللفظ في النسخ، والمثبت من التعريف والإعلام ص١١٢ ، والكلام منه، وكذا ذكره ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٤٦٥ وقال: ضِيْن بكسر الضاد وسكون الياء.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): نهد، ولم تجود في (د)، والمثبت من (م) والتعريف والإعلام.

(٤) في التعريف والإعلام: لحضور.

و«كَمْ» في موضع نصبٍ بـ «قصمنا»[١]. والقَصْمُ: الكسر؛ يقال: قَصَمْتُ ظَهْرَ فلانٍ [إذا كسرته]، وانقصَمَتْ سِنُّه: إذا انكسرت، والمَعْنِيُّ به هاهنا: الإهلاك[٢]. وأمَّا الفَصْم ـ بالفاء ـ فهو الصَّدْعُ في الشيء من غير بينونة؛ قال الشاعر:

كـأنَّـهُ دُمْـلُـجٌ مِـن فِـضَّـةٍ نَـبَـهٌ في مَلْعبٍ من عَذَارَى الحيِّ مَفْصُومُ[٣]

ومنه الحديث: «فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَه لَيتفصَّدُ عَرَقاً»[٤].

وقولُه: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة، يعني: أهلها. والظلمُ: وضعُ الشيء في غيرِ مَوْضِعِه، وهم وَضَعوا الكفرَ مَوْضِعَ الإيمان. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أَوْجَدْنَا وأَحْدَثْنا بعد إهلاكهم ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي: رأَوْا عذابنا؛ يقال: أحسستُ منه ضَعْفاً. وقال الأخفش: «أحسُّوا»: خافوا وتوقَّعوا.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ويَفِرُّون. والرَّكضُ: العَدْوُ بشدَّةِ الوَطْء. والرَّكضُ: تحريكُ الرِّجل، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ وركَضْتُ الفرسَ برِجْلي: استَحْثَثْتُه ليَعْدُوَ، ثم كَثُر حتى قيل: رَكَض الفرسُ: إذا عَدَا، وليس بالأصل، والصوابُ: رُكِضَ الفرسُ، على ما لم يسمَّ فاعلُه، فهو مَرْكوض[٥].

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي: لا تَفِرُّوا. وقيل: إنَّ الملائكة نادتهم لمَّا انهزموا استهزاءً بهم

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٢٣٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لذي الرمة، والبيت في ديوانه ١/ ٣٩١، والصحاح (فصم). قال الجوهري: يذكر غزالاً يشبِّهه بدُمْلُج فضة، وإنما جعله مفصوماً؛ لتثنِّيه وانحنائه إذا نام. وقال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: نَبَهٌ: مَنْسيٌّ، انتبهوا له انتباهاً، لا يدرون أي موضع افتقدوه، وقوله: في ملعب، أي: حيث تلعب الجواري. اهـ والدملج: حلية تحيط بالعضد. المعجم الوسيط (دملج).

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦١٩٨)، والبخاري (٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) الصحاح (ركض).

وقالت: «لا تركضوا»[١].

﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: إلى نعمكم التي كانت سببَ بَطَرِكم، والمُترَفُ: المتنعِّم، يقال: أُترفَ على فلان، أي: وُسِّعَ عليه في معاشه. وإنما أَتْرفَهم الله عزَّ وجلَّ كما قال: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي: لعلكم تُسألون شيئاً من دنياكم؛ استهزاءً بهم؛ قاله قتادة[٢]. وقيل: المعنى: لعلكم تُسألون عمَّا نزل بكم من العقوبة فتخبِرون به. وقيل: المعنى: لعلكم تُسألون أنْ تؤمنوا كما كنتم تُسألون ذلك قبل نزول البأس بكم، قيل لهم ذلك استهزاءً وتقريعاً وتوبيخاً.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ لمَّا قالت لهم الملائكة: «لا تركضوا»، ونادت: يا لَثاراتِ الأنبياء! ولم يَرَوْا شخصاً يكلِّمهم، عرفوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي سلَّط عليهم عدوَّهم بقتلهم النبيَّ الذي بُعث فيهم، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، فاعترفوا بأنَّهم ظَلموا حين لا ينفع الاعتراف.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: لم يزالوا يقولون: «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: بالسيوف كما يُحصَد الزرع بالمِنْجَل؛ قاله مجاهد[٣]. وقال الحسن: أي: بالعذاب[٤] ﴿خَامِدِينَ﴾ أي: ميتين. والخُمودُ: الهمودُ؛ كخمود النار إذا طَفِئَتْ، فشبَّه خمودَ الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات: قد طَفِئَ؛ تشبيهاً بانطفاء النار[٥].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/٣٦٣-٣٦٤، ونسبه لقتادة ومقاتل.

(٢) النكت والعيون ٣/٤٣٩، وأخرجه عنه الطبري ١٦/٢٣٦.

(٣) أخرجه عنه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/٢٢، والطبري ١٦/٢٣٧.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٤٣٩.

(٥) النكت والعيون ٣/٤٣٩ - ٤٤٠.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: عَبَثاً وباطلاً، بل للتَّنبيه على أنَّ لها خالقاً قادراً يجب امتثالُ أمره، وأنه يجازي المسيءَ والمُحْسِن؛ أي: ما خَلَقْنا السماءَ والأرض ليظلم بعضُ الناس بعضاً، ويكفُرَ بعضُهم، ويخالفَ بعضُهم ما أُمر به، ثم يموتوا ولا يُجازَوْا، ولا يؤمروا[١] في الدنيا بحَسَنٍ ولا يُنْهَوا عن قبيح. وهذا اللعبُ المَنْفيُّ عن الحكيم ضدُّه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ لمَّا اعتقدَ قومٌ أنَّ له ولداً قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ واللهوُ: المرأةُ بلغة اليمن؛ قاله قتادة[٢].

وقال عقبة بن أبي جَسْرَة ـ وجاءه طاوسٌ وعطاءٌ ومجاهدٌ يسألونه عن قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ فقال ـ: اللهوُ: الزوجة. وقاله الحسن[٣].

وقال ابن عباس: اللهو: الولد[٤]. وقاله الحسن أيضاً[٥].

قال الجوهريُّ[٦]: وقد يُكْنَى باللَّهو عن الجِماع.

قلت: ومنه قولُ امرئ القيس:

---

(١) في (د) و(ز): ولا يأمروا، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٦ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٩ .

(٣) كذا قال المصنف رحمه الله، والخبر كما أخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٨ : عن عقبة عن أبي جسرة قال: شهدت الحسن بمكة، قال: وجاءه طاوسٌ وعطاءٌ ومجاهد فسألوه عن قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال الحسن: اللهو: المرأة.

(٤) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٦٤ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢٣٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤٣ ، وهو من رواية الكلبي عن ابن عباس كما ذكر الواحدي.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٤٠ .

(٦) في الصحاح (لها).

أَلَا زَعَمتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أَنَّني كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ اللَّهْوَ أَمثالي[١]

وإنَّما سُمِّي الجماعُ لهواً؛ لأنَّه مَلْهًى للقلب، كما قال:

وفيهِنَّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرُ[٢]

الجوهريُّ[٣]: وقولُه تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قالوا: امرأةً، ويقال: ولداً.

﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مِن عندِنا لا مِن عندِكم. قال ابن جريج: [لاتَّخذْنا نساءً وولداً] مِن أهل السماء لا مِن أهل الأرض[٤]. قيل: أراد الرَّدَّ على مَن قال: إنَّ الأصنام بناتُ الله، أي: كيف يكون مَنْحُوتكم ولداً لنا؟ وقال ابن قتيبة[٥]: الآيةُ ردٌّ على النصارى.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال قتادةُ ومقاتلٌ وابن جريج والحسن: المعنى: ما كنا فاعلين[٦]، مثل: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] أي: ما أنت إلَّا نذير. و«إن» بمعنى الجَحْدِ، وتمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾.

وقيل: إنه على معنى الشَّرط، أي: إن كنَّا فاعلين ذلك، ولكنْ لَسْنا بفاعلين ذلك[٧] لاستحالة أن يكون لنا ولد؛ إذ لو كان ذلك لم نخلقْ جنةً ولا ناراً، ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً[٨].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٢٨ .

(٢) صدر بيت لزهير وعجزه: أنيقٌ لعين الناظر المتوسم، وهو في شرح ديوانه ص١٠ برواية: للَّطيف، بدل: للصديق، وسلف ١٢/ ٢٣٣ .

(٣) في الصحاح (لها).

(٤) أخرجه عنه الطبري ١٦/ ٢٣٩ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٠ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص١٢٤ .

(٦) أخرجه عن قتادة وابن جريج الطبري ١٦/ ٢٣٩ ، وذكره عن مقاتل البغوي ٣/ ٢٤١ ، وعن الحسن ابن الجوزي ٥/ ٣٤٤ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٧ . وقال الزجاج: والقول الأول قول المفسرين، والثاني قول النحويين، وهم أجمعون يقولون القول الأول ويستجيدونه.

(٨) في (د) و(ز): حياتاً.

وقيل: لو أردنا أن نتخذ ولداً على طريق التبنِّي لاتخذناه من عندنا من الملائكة. ومالَ إلى هذا قوم؛ لأنَّ الإرادة قد تتعلَّق بالتبنِّي، فأمَّا اتِّخاذُ الولدِ فهو مُحال، والإرادةُ لا تتعلَّق بالمستحيل؛ ذكره القُشَيْريّ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ القذف: الرَّمْي، أي: نرمي بالحقِّ على الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يَقْهَره ويُهْلِكُه. وأصلُ الدَّمْغ: شجُّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه: الدَّامِغة[(١)]. والحقُّ هنا: القرآن، والباطل: الشيطان؛ في قول مجاهد[(٢)]؛ قال: وكلُّ ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان. وقيل: الباطلُ: كذبُهم ووَصْفُهم الله عزَّ وجلَّ بغير صفاته من الولد وغيره.

وقيل: أراد بالحقِّ: الحُجَّةَ، وبالباطل: شُبَهَهُم. وقيل: الحقُّ: المواعظ، والباطل: المعاصي[(٣)]. والمعنى متقارِبٌ، والقرآنُ يتضمَّن الحجَّةَ والموعظة.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: هالِكٌ تالِف؛ قاله قتادة[(٤)]. ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أي: العذاب في الآخرة بسبب وَصْفِكم اللهَ بما لا يجوز وَصْفُه. وقال ابن عباس: الويلُ وادٍ في جهنَّم؛ وقد تقدَّم[(٥)].

﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: مما تكذبون؛ عن قتادة ومجاهد[(٦)]، نظيرُه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩] أي: تكذيبَهم[(٧)]. وقيل: مما تصفون اللهَ به من المُحال، وهو اتِّخاذُ الولد[(٨)].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٤١، والصحاح (دمغ).

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤١ عن قتادة، ولم نقف عليه من مجاهد.

(٣) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤١ وقال: قاله بعض أهل الخواطر.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٤٠.

(٥) ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١ مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وإسناده ضعيف ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤١ عن قتادة.

(٧) في (م): بكذبهم.

(٨) في (م): وهو اتخاذه سبحانه الولد.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: مِلْكاً وخَلْقاً، فكيف يجوز أن يُشرك به ما هو عَبْدُه وخَلْقُه؟! ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة الذين ذكرتُم أنهم بناتُ الله. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا يأْنفون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ والتذلُّلِ له ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: يُعْيُون؛ قاله قتادة. مأخوذٌ من الحسير: وهو البعيرُ المنقطِعُ بالإعياء والتعب[١]، حَسَر البعيرُ يَحسِر حُسوراً: أعْيا وكَلَّ، واستَحْسَر وتَحَسَّر مِثْلُه، وحَسَرْتُه أنا حَسْراً، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وأَحْسَرْته أيضاً فهو حَسير[٢].

وقال ابن زيد: لا يَمَلُّون[٣]. ابن عباس: لا يَستنكفون[٤]. وقال أبو زيد[٥]: لا يَكِلُّون. وقيل: لا يفشلون؛ ذكره ابن الأعرابي[٦]؛ والمعنى واحد.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يُصَلُّون ويذكرون الله وينزِّهونه دائماً ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يَضعفون ولا يسأمون، يُلْهَمون التَّسبيحَ والتَّقديسَ كما يُلهمون النَّفَس. قال عبدالله بن الحارث: سألت كعباً فقلت: أمَا لهم شغلٌ عن التسبيح؟ أمَا يَشْغلُهم عنه شيء؟ فقال: مَن هذا؟ فقلت: مِن بني عبد المطلب، فضمَّني إليه وقال: يا ابن أخي، هل يشغلك شيءٌ عن النَّفَس؟! إنَّ التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس[٧]. وقد استدلَّ بهذه الآيةِ

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٤١ ، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٦/ ٢٤٣ .

(٢) الصحاح (حسر).

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤٣ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤١ عن الكلبي، وأخرج الطبري ١٦/ ٢٤٢ عن ابن عباس قال: لا يرجعون.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): ابن زيد، ولم نقف على قوله.

(٦) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٥٩ .

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤٤ ، والبيهقي في الشعب (١٦١).

مَن قال: إنَّ الملائكة أفضلُ من بني آدم. وقد تقدَّم والحمد لله[١].

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ قال المفضَّل: مقصودُ هذا الاستفهام: الجَحدُ، أي: لم يتَّخذوا آلهةً تقدِرُ على الإحياء. وقيل: «أم» بمعنى «هل»، أي: هل اتَّخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض يُحيون الموتى؟ ولا تكون «أم» هنا بمعنى بل؛ لأنَّ ذلك يُوجِب لهم إنشاءَ الموتى، إلَّا أن تقدَّر «أم» مع الاستفهام، فتكون «أم» المنقَطِعةَ، فيصحّ المعنى[٢]؛ قاله المبرِّد.

وقيل: «أم» عطفٌ على المعنى، أي: أفَخلقْنا السماءَ والأرض لعباً، أم هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكونَ لهم مَوْضعَ شبهة؟ أو: هل ما اتَّخذوه من الآلهة في الأرض يُحيي الموتى فيكونَ موضعَ شُبْهةٍ؟. وقيل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ١٠]، ثم عَطَفَ عليه بالمعاتبة، وعلى هذين التأويلين تكونُ «أم» متَّصلةً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُنشِرُونَ﴾ بضمِّ الياء وكَسْرِ الشين مِن أَنْشَر الله الميتَ فنُشِر، أي: أحياه فحييَ. وقرأ الحسن بفتح الياء[٣]، أي: يَحْيَوْنَ ولا يموتون[٤].

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات

---

(١) ١/ ٤٣٠.

(٢) قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦٦ : هذه أم المنقطعة، الكائنة بمعنى بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٧٨ .

(٣) القراءات الشاذة ص٩١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٨ .

والأرضين آلهةٌ غيرُ الله معبودون لفَسَدَتا. قال الكسائيُّ وسيبويه: «إلَّا» بمعنى غير، فلمَّا جُعلت إلَّا في موضعِ غيرٍ؛ أُعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غير، كما قال:

وكـلُّ أخٍ مـفـارقُـه أخـوهُ   لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ إلَّا الـفَـرْقَـدَانِ[1]

وحكى سيبويه: لو كان معنا رجلٌ إلَّا زيدٌ لهلَكْنا.

وقال الفراء: «إلا» هنا في موضعِ سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهةٌ سوى اللهِ لفَسَد أهلُهما[2]. وقال غيره: أي: لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأنَّ أحدهما إن أراد شيئاً وأراد الآخَرُ ضدَّه كان أحدهما عاجزاً.

وقيل: معنى «لَفَسَدَتَا» أي: خَرِبتا وهَلَكَ مَن فيهما بوقوع التنازُع والاختلاف[3] الواقعِ بين الشركاء.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَزَّه نفسه وأَمَر العباد أن ينزِّهوه عن أن يكون له شريكٌ أو ولد.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ قاصمةٌ للقدريَّة وغيرهم. قال ابن جريج: المعنى: لا يسأله الخَلْقُ عن قضائه في خَلْقِه، وهو يَسأل الخَلْقَ عن عملهم؛ لأنهم عبيد. بيَّن بهذا أنَّ مَن يُسأل غداً عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلُح للإلهية. وقيل: لا يؤاخَذ على أفعاله وهم يؤاخَذون[4].

وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، أيُحِبُّ ربُّنا أن يُعصَى؟

---

(١) الكتاب ٢/ ٣٣٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٧، والكلام منه، وسلف ١١/ ٥٤. والشاهد فيه: نعت «كلُّ» بقوله: «إلا الفرقدان» على تأويل «غير»، والتقدير: وكلُّ أخ غيرُ الفرقدين مفارقه أخوه. شرح الشواهد للشنتمري ص٣٦٨.

(٢) في النسخ: أهلها، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨ وعنه نقل المصنف.

(٣) في (د) و(ز) و(م): بالاختلاف، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٤٢.

قال: أفيُعْصَى ربُّنا قَهراً؟ قال: أرأيتَ إنْ منعني الهدى ومنحني الرَّدى، أأحْسَنَ إليَّ أم أساء؟ قال: إن منعك حقَّك فقد أساء، وإن منعك فَضْلَه فهو فضلُه يؤتيه مَن يشاء. ثم تلا الآية: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1].

وعن ابن عباس قال: لمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ موسى وكلَّمه، وأنزل عليه التوراة، قال: اللهمَّ إنك ربٌّ عظيم، لو شئتَ أن تُطاع لأُطِعت، ولو شئت ألَّا تُعصى ما عُصيتَ، وأنت تحبُّ أن تطاع، وأنت في ذلك تُعصى، فكيف هذا يا رب؟! فأوحى الله إليه: إنِّي لا أُسأل عمَّا أَفعَلُ وهم يُسألون[2].

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ أعاد التعجُّبَ في اتِّخاذ الآلهة من دون الله مبالغةً في التوبيخ، أي: صفتهم كما تقدَّم في الإنشاء والإحياء، فتكون «أم» بمعنى هل، على ما تقدَّم، فليأتوا بالبرهان على ذلك.

وقيل: الأولُ احتجاجٌ من حيث المعقولُ؛ لأنه قال: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ويُحيون الموتى، هيهات! والثاني احتجاجٌ بالمنقول، أي: هاتوا برهانكم من هذه الجهة، ففي أيِّ كتابٍ نزل هذا؟! في القرآن، أم في الكتب المنزلةِ على سائر الأنبياء؟!

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ بإخلاص التوحيد في القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ﴾ في التوراة والإنجيل وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل في كتابٍ من هذه الكتب أنَّ الله أمر باتخاذ آلهةٍ سواه؟! فالشرائعُ لم تختلف فيما يتعلَّق بالتوحيد، وإنما اختلفت في

---

(١) لم نقف عليه عن علي ﷺ، وذكره ابن شيث في حزّ الغلاصم ص١٨ عن جعفر بن محمد مع أحد القدرية، وذكر نحوه ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٦٤ -٦٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وأخرج القطعة الثانية منه وهي قوله: أرأيت إن منعني...، عن ابن عباس بنحوها. وذكره الحافظ في الفتح ٤٥١/١٣ بتمامه على أنه مناظرة بين بعض أئمة السنة مع بعض أئمة المعتزلة، وزاد في أوله: قال المعتزلي: سبحان مَن تنزَّه عن الفحشاء، فقال السُّنِّي: سبحان مَن لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال المعتزلي: أيشاء ربنا أن يعصى...

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٦٠٦) مطولاً، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٦٨) واللفظ له. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٠ : فيه أبو يحيى القتات، وهو ضعيف عند الجمهور... ومصعب بن سوار لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

الأوامر والنَّوَاهي.

وقال قتادة: الإشارة إلى القرآن، المعنى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ بما يلزمُهم من الحلال والحرام ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِيٓ﴾ من الأمم، ممَّن نجا بالإيمان وهلك بالشرك[١].

وقيل: ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ بما لهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِيٓ﴾ من الأمم السالفةِ فيما يُفعل بهم في الدنيا، وما يُفعل بهم في الآخرة[٢].

وقيل: معنى الكلامِ الوعيدُ والتهديد، أي: افعلوا ما شئتم، فعن قريب ينكشف الغطاء.

وحكى أبو حاتم: أنَّ يحيى بنَ يَعْمُر وطلحةَ بنَ مُصرِّفٍ قرأا: «هذا ذِكْرٌ مِن معي وذِكْرٌ مِن قَبْلي» بالتنوين وكَسْرِ الميم[٣]، وزعم أنه لا وجهَ لهذا. وقال أبو إسحاق الزجَّاج في هذه القراءة: المعنى: هذا ذكرٌ مما أُنزل إليَّ وممَّا هو معي، وذكرٌ مِن قَبْلي[٤]. وقيل: ذكرٌ كائن مِن قَبْلي، أي: جئتُ بما جاءت به الأنبياء مِن قَبْلي.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن: «الْحَقُّ» بالرفع، بمعنى: هو الحقُّ، أو هذا الحقُّ[٥]. وعلى هذا يوقفُ على: «لا يعلمون» ولا يوقف عليه على قراءة النصب. ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن الحقِّ، وهو القرآن، فلا يتأمَّلون حجَّةَ التوحيد.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٨ .

(٣) المحتسب ٢/ ٦١ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩١ عن يحيى وحده، وذكر عن طلحة أنه قرأ: «هذا ذكرٌ معي وذكرٌ قبلي». والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): هو الحق وهذا هو الحق، والمثبت من (خ) و(ظ) والمحتسب ٢/ ٦١ والكلام منه. وذكر القراءة أيضاً عن ابن محيصن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٩١ .

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رسولٍ إِلَّا يُوحَى إليه﴾. وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿نُوحِيٓ إِلَيْهِ﴾ بالنون[١]؛ لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: قلنا للجميع: لا إله إلا الله؛ فأدلةُ العقل شاهدةٌ أنه لا شريكَ له، والنقلُ عن جميع الأنبياء موجود، والدليلُ إمَّا معقولٌ وإمَّا منقول. وقال قتادة: لم يُرسَل نبيٌّ إلَّا بالتوحيد، والشرائعُ مختلفةٌ في التوراة والإنجيل والقرآن، وكلُّ ذلك على الإخلاص والتوحيد[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزلت في خُزاعةَ حيث قالوا: الملائكةُ بناتُ الله[٣]، وكانوا يعبدونهم طَمَعاً في شفاعتهم لهم. وروى معمرٌ عن قتادة قال: قالت اليهود ـ قال معمر في روايته[٤]: أو طوائفُ من الناس ـ: [إن الله] خاتَنَ إلى الجنِّ، والملائكةُ من الجنِّ، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهاً له ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أي: بل هم عبادٌ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾[٥]. أي: ليس كما زَعَم هؤلاء الكفار.

---

(١) السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٥٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٥٠ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٢، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٥٩.

(٤) يشير المصنف إلى رواية ثانية من غير طريق معمر، كما في التعليق التالي.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٥١، وما سلف بين حاصرتين منهما، وفيهما: وطوائف، بالواو. وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٥٠ من طريق سعيد عن قتادة دون قوله: أو طوائف من الناس، وفيه: صاهر الجن، بدل: خاتن إلى الجن.

ويجوز النَّصب عند الزجَّاج[١] على معنى: بل اتخذ عباداً مُكْرمين. وأجازه الفراء[٢] على أن يَرُدَّه على ولد، أي: بل لم نتَّخذهم ولداً، بل اتخذناهم عباداً مُكْرمين.

والولدُ هاهنا للجمع، وقد يكون الواحدُ[٣] والجمعُ وَلَداً[٤]. ويجوز أن يكون لفظُ الولد للجنس، كما يقال: لفلانٍ مالٌ.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون حتى يقول، ولا يتكلَّمون إلَّا بما يأمرهم. ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بطاعته وأوامره. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما عملوا وما هم عاملون؛ قاله ابن عباس[٥]. وعنه أيضاً: «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ»: الآخرة، «وَمَا خَلْفَهُمْ»: الدنيا[٦]؛ ذكر الأولَ الثَّعْلبيُّ، والثاني القُشَيريّ.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ قال ابن عباس: هم أهلُ شهادةِ أنْ لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كلُّ مَن رضيَ الله عنه[٧]، والملائكة يشفعون غداً في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره[٨]، وفي الدنيا أيضاً؛ فإنهم يستغفرون للمؤمنين ولمن في الأرض، كما نصَّ عليه التنزيل على ما يأتي[٩]. ﴿وَهُم﴾ يعني الملائكة ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ يعني من خوفه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون لا يأمَنون مَكْرَه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٩ . وقال الزجاج: ولو قرئت: بل عباداً، لم يجز لمخالفة المصحف.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٠١ ، ويعني النصب في اللغة، لا في التلاوة.

(٣) في (ظ): للواحد.

(٤) في (ظ) و(ف): أولاد، وفي (خ) و(د) و(ز): أولادا، والمثبت من (م). وينظر الصحاح (ولد).

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ ، والرازي ٢٢/ ١٦٠ بلفظ: يعلم ما قدَّموا وما أخروا من عملهم.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ عن الكلبي.

(٧) ذكر قول ابن عباس وقول مجاهد البغوي ٣/ ٢٤٢ .

(٨) صحيح مسلم (١٨٣)، ومسند أحمد (١١٨٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً.

(٩) عند تفسير الآية (٧) من سورة غافر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما: عنى بهذه الآية إبليس حيث ادَّعى الشركة، ودعا إلى عبادةِ نَفْسِه وكان من الملائكة، ولم يقل أحدٌ من الملائكة إنّي إلهٌ غيره[١].

وقيل: الإشارةُ إلى جميع الملائكة، أي: فذلك القائلُ ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾. وهذا دليلٌ على أنَّهم وإن أُكرموا بالعصمة فهم متعبَّدون، وليسوا مضطرِّين إلى العبادة كما ظنَّه بعضُ الجُهَّال. وقد استدلَّ ابنُ عباس بهذه الآية على أنَّ محمداً ﷺ أفضلُ من[٢] أهل السماء. وقد تقدَّم في «البقرة»[٣].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: كما جزينا هذا بالنار؛ فكذلك نجزي الظالمين الواضِعين الألوهيةَ والعبادة في غير موضعهما.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قراءةُ العامة: ﴿أَوَلَمْ﴾ بالواو. وقرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وحميد وشِبل بن عبّاد: ﴿أَلَمْ يَرَ﴾ بغير واو[٤]، وكذلك هو في مصحف مكة[٥].

---

(١) أخرجه بنحوه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٣/ ٢٥٤ ، وأخرجه عن الضحاك ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣١٧ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٩ : وهذا ضعيف لأن إبليس لم يُرْوَ قطُّ أنه ادعى ربوبية.

(٢) قوله: من، من (ظ).

(٣) ٤/ ٢٥٥ .

(٤) السبعة ص٤٢٨ ، والتيسير ص١٥٥ عن ابن كثير.

(٥) المقنع لأبي عمرو الداني ص١٠٤ .

﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ بمعنى: يعلم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ قال الأخفش: قال: ﴿كَانَتَا﴾؛ لأنهما صنفان، كما تقول العرب: هما لِقَاحان أسودان[١]، وكما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] قال أبو إسحاق: قال: «كانتا»؛ لأنه يعبِّر عن السماوات بلفظِ الواحدِ بسماء؛ ولأن السماوات كانت سماءً واحدة، وكذلك الأرضون. [قال:] وقال: «رَتقاً» ولم يقل: رَتْقَيْن؛ لأنه مصدرٌ، والمعنى: كانتا ذواتَيْ رَتْقٍ. وقرأ الحسن: «رَتَقاً» بفتح التاء. قال عيسى بن عمر: هو صوابٌ وهي لغة[٢]. والرَّتْق: السدُّ، ضدُّ الفَتْق، وقد رَتَقْتُ الفَتْقَ أَرْتُقُه فارْتَتَق، أي: الْتأَم، ومنه الرَّتْقاء للمنضمَّة الفَرْج[٣].

قال ابن عباس والحسن وعطاءٌ والضحَّاك وقتادة: يعني أنَّها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين، ففَصَل الله بينهما بالهواء[٤]. وكذلك قال كعب: خَلَقَ الله السماوات والأرضَ بعضَها على بعضٍ، ثم خلق ريحاً تَوسَّطَتْها[٥] ففتحها بها، وجعل السماواتِ سبعاً والأرضين سبعاً.

وقولٌ ثانٍ قاله مجاهد والسدِّيُّ وأبو صالح: كانت السماواتُ مؤتلفةً طبقةً واحدةً، ففتقها فجعلها سبعَ سماوات، وكذلك الأرضين كانت مُرْتَتِقةً طبقةً واحدةً، ففتقها فجعلها سبعاً[٦].

---

(١) لِقاح جمع لَقْحة، وهي الناقة القريبة العهد بالنِّتاج، أو الحلوب الغزيرة اللبن. معجم متن اللغة (لقح). وهذا من باب تثنية الجمع، مثل بُسْران وتمران، أي: ضربان مختلفان، وكذلك: إبلان. الكتاب ٣/ ٦٢٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول أبي إسحاق الزجاج في كتابه معاني القرآن ٣/ ٣٩٠ ، وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ٦٢ . وهي في القراءات الشاذة ص٩١ عن أبي حيوة.

(٣) تهذيب اللغة ٩/ ٥٣ - ٥٤ ، والصحاح (رتق).

(٤) أخرجه عن ابن عباس والحسن وقتادة الطبري ١٦/ ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣ عن ابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء.

(٥) في (م): بوسطها، وفي (ظ): متوسطتها. ووقع في مطبوع تفسير البغوي (والكلام منه) ٣/ ٢٤٣ : فوسطها.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ١٦/ ٢٥٦ - ٢٥٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٤٣ عن مجاهد والسدي.

وحكاه القُتبيُّ في «عيون الأخبار» له، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ قال: كانت السماء مخلوقةً وحدَها والأرضُ مخلوقةً وحدَها، ففتق من هذه سبعَ سماوات، ومن هذه سبعَ أرضين؛ خلق الأرضَ العليا فجعل سكَّانها الجنَّ والإنس، وشقَّ فيها الأنهارَ، وأنبتَ فيها الأثمار، وجعل فيها البحار، وسمَّاها رِعاء، عرضُها مسيرةُ خمسِ مئة عام. ثم خلق الثانيةَ مثلَها في العَرْض والغِلَظِ، وجعل فيها أقواماً؛ أفواهُهم كأفواه الكلاب، وأيديهم أيدي الناس، وآذانُهم آذانُ البقر، وشعورُهم شعورُ الغنم، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يَأْجوجَ ومأجوج، واسمُ تلك الأرض الدكماء[١]. ثم خلق الأرضَ الثالثة غِلَظُها مسيرةُ خمسِ مئة عام، ومنها هواءٌ إلى الأرض. الرابعةُ خَلَقَ فيها ظلمةً وعقاربَ لأهل النار مثلَ البغال السُّود، ولها أذنابٌ مثلُ أذناب الخيل الطِّوال، يأكل بعضُها بعضاً فتسلَّط[٢] على بني آدم. ثم خلق الله الخامسةَ مثلَها[٣] في الغلظِ والطول والعرض، فيها سلاسلُ وأغلالٌ وقيودٌ لأهل النار. ثم خلق الله الأرضَ السادسة واسمُها ماد، فيها حجارةٌ سُودٌ بُهْم، ومنها خُلقت تربة آدمَ عليه السلام، تُبعث تلك الحجارةُ يومَ القيامة، وكلُّ حجرٍ منها كالطَّوْد العظيم، وهي من كبريتٍ، تُعلَّقُ في أعناق الكفار، فتشتعل حتى تُحرقَ وجوههم وأيديَهم، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، والتحريم: ٦]. ثم خلق الله الأرض السابعة واسمُها عربية وفيها جهنم، فيها بابان[٤]؛ اسمُ الواحد: سجِّين، واسمُ الآخرِ: الغَلَق، فأمَّا سجِّين فهو مفتوحٌ وإليه ينتهي كتابُ الكفار، وعليه يُعرض أصحاب المائدة وقومُ فرعون، وأمَّا الغَلَق فهو مُغلَقٌ لا يُفتح إلى يوم القيامة[٥].

---

(١) في (ز) و(ف): الركما، وفي (د): الوكما، وفي (ظ): الرخاء، ولم تجود في (خ)، والمثبت من (م).

(٢) في (ظ): تتسلط.

(٣) في (ظ): كهن، والمثبت من (ز)، وسقطت من باقي النسخ.

(٤) في (ز) و(ظ): وفيها.

(٥) لم نقف عليه.

وقد مضى في «البقرة»[1] أنها سبعُ أرضين بين كلِّ أرضَيْن مسيرةُ خمس مئة عام، وسيأتي له في آخِرِ «الطلاق» زيادةُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

وقول ثالث قاله عكرمةُ وعطية وابن زيد، وابنُ عباس أيضاً فيما ذكر المَهْدَويُّ: إنَّ السماوات كانت رتقاً لا تُمْطِر، والأرض كانت رتقاً لا تُنْبِت، ففتَقَ السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات[2]؛ نظيره قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١-١٢]. واختار هذا القولَ الطبريُّ[3]؛ لأنَّ بعده: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قلت: وبه يقع الاعتبارُ مشاهَدةً ومُعاينة، ولذلك أَخبر بذلك في غير ما آية؛ ليدلَّ على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء. وقيل:

يَهونُ عليهم إذا يَغضبو ... نَ سُخْطُ العُداةِ وإرغامُها
ورَتْقُ الفُتوق وفَتْقُ الرُّتو ... ق ونَقْضُ الأمورِ وإبرامُها[4]

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ثلاثُ تأويلات:

أحدُها: أنه خَلَق كلَّ شيءٍ من الماء؛ قاله قتادة.

الثاني: حَفِظَ حياةَ كلِّ شيءٍ [حيٍّ] بالماء.

الثالث: : وجَعَلْنا من ماء الصُّلْب كلَّ شيءٍ حيٍّ؛ قاله قطرب[5].

«وجعلنا» بمعنى: خلقنا. وروى أبو حاتم البُسْتِيُّ في المسند الصحيح له من

---

(١) ١/ ٣٨٧.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٤٤، وأخرج قول عكرمة وعطية وابن زيد الطبري ١٦/ ٢٥٧، وأخرجه عن ابن عباس الحاكم ٢/ ٣٨٢، وفيه طلحة بن عمرو، قال عنه الذهبي في التلخيص: واه.

(٣) في تفسيره ١٦/ ٢٥٩.

(٤) قائلهما عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كما في الحماسة البصرية ١/ ١٣٢، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٤٤ وما سلف بين حاصرتين منه، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٦٠ بلفظ: كلُّ شيءٍ حيٌّ خلق من الماء.

حديث أبي هريرةَ قال: قلتُ: يا رسول الله، إذا رأيتُك طابت نفسي، وقَرَّتْ عيني؛ أنبِئْني عن كلِّ شيء؟ قال: «كلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء» الحديث؛ قال أبو حاتم: قولُ أبي هريرة: أنبئني عن كلِّ شيء، أراد به عن كلِّ شيءٍ خُلق من الماء، والدليلُ على صحة هذا جوابُ المصطفى إياه حيث قال: «كلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء» [فهذا جوابٌ خرج على سؤالٍ بعَيْنِه، لا أنَّ كلَّ خَلْقٍ من الماء] وإن لم يكن مخلوقاً[١].

وهذا احتجاجٌ آخَرُ سوى ما تقدَّم من كَوْن السماوات والأرضِ كانتا[٢] رَتْقاً.

وقيل: الكلُّ قد يُذْكَر بمعنى البعض، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقولِه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والصحيحُ العمومُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ شيءٍ خُلق من الماء» والله أعلم.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدِّقون بما يُشاهِدون، وأنَّ ذلك لم يكن بنفسه، بل بمكوِّنٍ[٣] كوَّنه، ومدبِّرٍ أَوْجَدَه، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوِّن مُحْدَثاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثَوابِت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلَّا تميدَ بهم ولا تتحرَّكَ؛ ليتمَّ القرارُ عليها؛ قاله الكوفيون. وقال البصريُّون: المعنى: كراهيةَ أن تميد. والمَيْدُ: التحرُّك والدوران. يقال: ماد رأسه، أي: دار. وقد مضى في «النحل» مستوفًى[٤].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ يعني في الرَّواسي؛ عن ابن عباس[٥]. والفِجاجُ: المسالك. والفَجُّ: الطريقُ الواسع بين الجبلين.

وقيل: وجعلنا في الأرض فِجاجاً، أي: مسالكَ، وهو اختيار الطبري[٦]؛

---

(١) صحيح ابن حبان (٢٥٥٩)، وما بين حاصرتين منه، وسلف ١/ ٣٨٥ .

(٢) قوله: كانتا، من (ظ).

(٣) في (م): لمكون.

(٤) ١٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٢ .

(٦) في تفسيره ١٦/ ٢٦٢ .

لقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: يهتدون إلى السير في الأرض.

﴿سُبُلًا﴾ تفسير الفِجاج؛ لأنَّ الفجَّ قد يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً وقد لا يكون. وقيل: ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: محفوظاً من أن يقع ويسقطَ على الأرض، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥][١].

وقيل: محفوظاً بالنجوم من الشياطين؛ قاله الفرَّاء[٢]، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

وقيل: محفوظاً من الهَدْم والنَّقْض[٣]، وعن أن يبلغه أحدٌ بحيلة. وقيل: محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد.

وقال مجاهد: مرفوعاً. وقيل: محفوظاً من الشرك والمعاصي[٤].

﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ قال مجاهد: يعني الشمسَ والقمر [والنجوم][٥]. وأضاف الآياتِ إلى السماء لأنها مجعولةٌ فيها، وقد أضاف الآياتِ إلى نفسه في مواضع؛ لأنه الفاعلُ لها. بيَّن أنَّ المشركين غَفَلُوا عن النظر في السماوات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسِها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى؛ إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أنَّ لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل[٦] أن يكون له شريك.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٦٥، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٣.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٠١.

(٣) في (د) و(ف): والنقص.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٤٥، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٣.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٤، وما بين حاصرتين منه.

(٦) في (م): فيستحيل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ذَكَّرهم نعمةً أخرى؛ أنْ[١] جَعَل لهم الليلَ ليسكنوا فيه، والنهارَ ليتصرَّفوا فيه لمعايشهم. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: وجَعَل الشمسَ آيةَ النهار، والقمرَ آيةَ الليل؛ لتُعلَم الشهورُ والسِّنونَ والحسابُ، كما تقدَّم في «سبحان» بيانُه[٢].

﴿كُلٌّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجْرُون ويسيرون بسرعةٍ؛ كالسابح في الماء[٣]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ [النازعات:٣] ويقال للفرس الذي يَمدُّ يده في الجَرْي: سابح[٤].

وفيه من النَّحْو أنه لم يقل: يَسْبَحْن، ولا تَسبح؛ فمذهب سيبويه: أنه لمَّا أخبر عنهنَّ بفعلِ مَن يَعْقِلُ وجَعَلهنَّ في الطاعة بمنزلةِ مَن يعقل، أخبر عنهنَّ بالواو والنون. ونحوَه قال الفرَّاء[٥]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يوسف»[٦].

وقال الكسائيُّ: إنَّما قال: «يَسْبَحون» لأنه رأسُ آية، كما قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر:٤٤] ولم يقل: منتصرون[٧].

وقيل: الجريُ للفَلَكِ، فنسب إليها. والأصحُّ أنَّ السيارة تجري في الفَلَك، وهي سبعةُ أفلاكٍ دون السماواتِ المطبقة التي هي مجالُ الملائكة وأسباب الملكوت. فالقمرُ في الفَلَكِ الأدنى، ثُمَّ عُطَارِد، ثم الزُّهَرَة، ثم الشمس، ثم المِرِّيخ، ثم المُشْتَري، ثم زُحَل، والثامنُ فَلَكُ البروج، والتاسعُ الفَلَكُ الأعظم.

---

(١) لفظة «أن» من (ظ).

(٢) ١٣/ ٣٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٣.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٦، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠١، وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٤٧.

(٦) ١١/ ٢٤٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٦.

والفَلَكُ واحدُ أفلاكِ النجوم. قال أبو عمرو: ويجوز أن يُجمع على فُعْلٍ، مثل: أَسَدٍ وأُسْد، وخَشَبٍ وخُشْب. وأصلُ الكلمة من الدوران، ومنه فَلْكةُ المِغزل لاستدارتها. ومنه قيل: فَلَّك ثَدْيُ المرأة تفليكاً، وتَفلَّك: استدار[١]. وفي حديث ابن مسعود: تركتُ فرسي كأنه يدور في فَلَك. كأنه لدورانه شبَّهه بفَلَكِ السماء الذي تدور عليه النجوم[٢].

قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجومِ والشمسِ والقمر، قال: وهي بين السماء والأرض[٣].

وقال قتادة: الفَلَكُ استدارةٌ في السماء تدور [فيها] النجوم[٤] مع ثبوت السماء.

وقال مجاهد: الفَلَكُ كهيئة حديدة الرَّحى وهو قُطْبُها. وقال الضحاك: فَلَكُها: مَجراها وسرعةُ سَيْرِها. وقيل: الفَلَكُ موجٌ مكفوف، ومجرى الشمسِ والقمر فيه[٥]؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي: دوامَ البقاءِ في الدنيا؛ نزلت حين قالوا: نتربَّص بمحمدٍ رَيْبَ المَنُون[٦]. وذلك أنَّ المشركين كانوا يدفعون نبوَّته

---

(١) الصحاح (فلك).

(٢) تهذيب اللغة ١٠/ ٢٥٦، وأخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٩٦، وهو فيهما بلفظ: أن رجلاً أتى رجلاً وهو جالس عند عبد الله، فقال: إني تركت فرسك يدور كأنه في فلك...، وأخرجه بنحوه مطولاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٦.

(٤) في النسخ عدا (ظ): بالنجوم، والمثبت من (ظ) والنكت والعيون ٣/ ٤٤٦، والكلام وما بين حاصرتين منه، وينظر تفسير الطبري ١٦/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٣٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٤.

ويقولون: شاعرٌ نتربَّص به رَيْبَ المنون، ولعلَّه يموت كما مات شاعرُ بني فلان، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولَّى الله دينَه بالنصر والحِياطة، فهكذا نحفظ دينك وشَرْعك. ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: أَفَهُم، مثل قول الشاعر:

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيلِدُ لم[1] تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ[2]

أي: أهم؟! فهو استفهامُ إنكار.

وقال الفرَّاء: جاء بالفاء ليدلَّ على الشَّرط؛ لأنه جوابُ قولهم: سيموت[3].

ويجوز أن يكون جيء بها؛ لأنَّ التقدير فيها: أَفَهُم الخالدون إنْ متَّ! قال الفرَّاء: ويجوز حذفُ الفاء وإضمارُها؛ لأنَّ «هم» لا يتبيَّن فيها الإعراب[4]. أي: إن متَّ فهم يموتون أيضاً، فلا شماتةَ في الإماتة.

وقُرئ: «مِتَّ» و«مُتَّ» بكسر الميم وضمِّها لغتان[5].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[6] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ «فِتْنَةً» مصدرٌ على غير اللفظ. أي: نختبركم بالشدَّة والرخاء والحلالِ والحرام، لننظر كيف شكركم وصبرُكم. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: للجزاء بالأعمال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما

---

(١) في (م): لا، وهي رواية أخرى للبيت.

(٢) قائله أبو خراش، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ١٤٤، وسلف ٦/ ٤٦٩، و٨/ ٤٤٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٠، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٢، وهو أيضاً قول الطبري في التفسير ١٦/ ٢٦٨، ونصه: دخلت الفاء في الجزاء وهو «إن» وفي جوابه؛ لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت الفاء في قوله «فهم» لأنه جواب للجزاء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٦٨.

(٥) قرأ بضم الميم: ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر، والباقون بكسرها. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

(٦) ٥/ ٤٤٧.

يتَّخذونك. والهزءُ: السخريَة، وقد تقدَّم(١). وهم المستهزئون المتقدِّمو الذكرِ في آخر سورة الحجر، في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الآية: ٩٥]. كانوا يَعيبون مَن جَحَد إلهيةَ أصنامِهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن! وهذا غايةُ الجهل.

﴿أَهَـٰذَا الَّذِى﴾ أي: يقولون: أهذا الذي؟ فأضمر القول، وهو جواب «إذا»، وقولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كلامٌ معترِضٌ بين «إذا» وجوابِه.

﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: بالسوء والعيب، ومنه قول عَنْتَرة:

لا تَـذْكُـري مُـهْـري ومـا أطـعـمـتُـه فيكونَ جِلْدُكِ مثلَ جِلْدِ الأَجْربِ(٢)

أي: لا تعيبي مُهري.

﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ﴾ أي: بالقرآن ﴿هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ «هم» الثانية توكيدُ كفرِهم، أي: هم الكافرون؛ مبالغةً في وَصْفِهم بالكفر.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: رُكِّب على العَجَلة فخلق عَجُولاً، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] أي: خلق الإنسان ضعيفاً، ويقال: خُلِق الإنسان من الشرّ، أي: شرِّيراً، إذا بالغتَ في وصفه به(٣). ويقال: إنما

---

(١) ١/ ٣١٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٣، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٨٩، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٤٠٩، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٣١٧ لخُزَز بن لَوْذان، وحكى البغدادي في الخزانة ٦/ ١٩٠ عن الصاغاني أن البيت موجود في ديوان أشعار عنترة وخزز، ومعناه ـ كما ذكر البغدادي ـ أنه يقول لزوجته: لا تلوميني في إيثار فرسي فأبغضك وأهجر مضجعك وأتحاماك كما يُتحامى الأجرب من الإبل، وقيل: معناه أضربك فيبقى أثر الضرب عليك كالجرب.

(٣) هذا قول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٩٢، وقال: إنما خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر الشيء: خلقت منه.

أنت ذهابٌ ومجيء. أي: ذاهب جائي[١]. أي: طَبْعُ الإنسانِ العجلة، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مُضِرَّة.

ثم قيل: المرادُ بالإنسانِ آدمُ عليه السلام. قال سعيد بن جبير والسدِّي: لمَّا دخل الروحُ في عينَيْ آدمَ عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلمَّا دخل جوفَه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروحُ رجليه عجلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك قولُه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾[٢].

وقيل: خُلق آدمُ يومَ الجمعة في آخر النهار، فلمَّا أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تتميمَ نفخِ الروح فيه قبل غروب الشمس؛ قاله الكلبيُّ ومجاهدٌ وغيرهما[٣].

وقال أبو عبيدة وكثيرٌ من أهل المعاني: العَجَل: الطين بلغة حِمْيَر، وأنشدوا:

والنخلُ يَنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ[٤]

وقيل: المرادُ بالإنسان الناسُ كلُّهم.

وقيل: المراد: النَّضْرُ بن الحارِث بن علقمةَ بن كلدة بن عبد الدار؛ في تفسير ابن عباس[٥]، أي: لا ينبغي لمن خُلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله.

وقيل: إنه من المقلوب، أي: خُلق العَجَلُ من الإنسان. وهو مذهبُ أبي

---

(١) في (ظ): وجائي.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٧١.

(٣) أخرجه عن مجاهد ابنُ أبي شيبة ١٤/ ١١٥، والطبري ١٦/ ٢٧٢، وذكره عن الكلبيِّ الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٤٤٧. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٨٢: هذا قول ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية.

(٤) وصدره: والنبعُ في الصخرة الصمَّاء مَنْبَتُه، وهو في تهذيب اللغة ١/ ٣٦٩ والنكت والعيون ٣/ ٤٤٧، والكشاف ٢/ ٥٧٣، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٢، ومجمع البيان ١٧/ ٢٧، واللسان (عجل). قال ابن عطية: وهذا أيضاً ضعيف، ومعناه مباينٌ لمعنى الآية.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٧٣، وزاد المسير ٥/ ٣٥١، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٧١، ومجمع البيان ١٧/ ٢٧.

عبيدة[١]. النحاس: وهذا القول لا ينبغي أن يجاب[٢] به في كتاب الله؛ لأنَّ القَلْبَ إنما يقع في الشعر اضطراراً كما قال:

كما كان الزِّنَاءُ فريضةَ الرَّجْم[٣]

ونظيرُه هذه الآية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١]. وقد مضى في «سبحان».

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ هذا يقوِّي القولَ الأول، وأنَّ طَبْعَ الإنسان العَجَلة، وأنه خُلق خلقاً لا يتمالك، كما قال عليه الصلاة والسلام، حَسْبَ ما تقدم في «سبحان»[٤].

والمرادُ بالآيات: ما دلَّ على صِدْقِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة. وقيل: ما طلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وما علموا أنَّ لكلِّ شيءٍ أجلاً مضروباً. نزلت في النضر بن الحارثِ وقوله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال:٣٢][٥].

وقال الأخفش سعيد: معنى «خلِق الإنسان مِن عَجَلٍ» أي: قيل له: كن، فكان[٦]. فمعنى «فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» على هذا القول: أنه مَن يقول للشيء: كن، فيكون، لا يُعْجِزُه إظهارُ ما استعجلوه من الآيات.

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٣٨ - ٣٩.

(٢) في (ظ): يجاء.

(٣) وتمامه: كانت فريضةَ ما أَتَيْتَ كما...، والبيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢٣٥، وقال الطبري ١٦/ ٢٧٤: وفي إجماع أهل التأويل على خلاف هذا القول الكفايةُ المغنية عن الاستشهاد على فساده بغيره.

(٤) ١٣/ ٣٥ - ٣٦.

(٥) سلف قريباً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكر هذا القول عن الأخفش الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٢٧ والرازي في تفسيره ٢٢/ ١٧٢، وذكره الطبري ١٦/ ٢٧٣ عن بعض أهل العربية من أهل البصرة، ولم يسمِّه. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٢: وهذا أيضاً ضعيف، وفيه تخصيصُ ابن آدم بشيءٍ كلُّ مخلوقٍ يشاركه فيه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الموعود، كما يقال: الله رجاؤنا، أي: مَرْجُوُّنا. وقيل: معنى «الوعد» هنا: الوعيد، أي: الذي يَعِدُنا من العذاب. وقيل: القيامة.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يا معشر المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ العلمُ هنا بمعنى المعرفة، فلا يقتضي مفعولاً ثانياً، مثل: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وجوابُ «لو» محذوف، أي: لو علموا الوقت الذي ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وعَرَفوه، لَمَا استعجلوا الوعيد[١]. وقال الزجاج[٢]: أي: لعلموا صِدْقَ الوعد.

وقيل: المعنى: لو علموه لَمَا أقاموا على الكفر، ولآمنوا[٣].

وقال الكسائيُّ: هو تنبيهٌ على تحقيق وقوعِ الساعة، أي: لو علموه عِلْمَ يقينٍ لعلموا أنَّ الساعة آتيةٌ، ودل عليه: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة. يعني القيامة، وقيل: العقوبة، وقيل: النار، فلا يتمكَّنون من حيلة.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال الجوهريّ[٤]: بَهَتَه بَهْتاً: أَخَذَه بغتة؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾.

وقال الفراء: «فتبهتُهم» أي: تحيِّرهم؛ يقال: بَهَتَه يبهته: إذا واجهه بشيء يحيِّره[٥]. وقيل: فتَفْجَأُهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: صَرْفَها عن ظهورهم. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون[٦] ويؤخَّرون لتوبةٍ واعتذار.

---

(١) الوسيط ٣/ ٢٣٨ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٣ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٦ .

(٤) في الصحاح (بهت).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٣٨ ، دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٦) في (م): أي لا يمهلون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ له[1]. يقول: إن استَهزأ بك هؤلاء، فقد استُهزئ بمَن قبلك من الرسل[2]، فاصبر كما صبروا. ثم وَعَدَه النصرَ فقال: ﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط ودار ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ كفروا و﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ وهزَؤوا بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاءُ استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: يحرسُكم ويحفظُكم. والكِلَاءة: الحِراسةُ والحفظ؛ كَلأَه الله كِلَاءة[3] ـ بالكسر ـ أي: حَفِظَه وحَرَسَه. يقال: اذهب في كِلاءة الله، واكتلأتُ منهم: احترست[4]؛ قال الشاعر؛ هو ابنُ هَرْمة[5]:

إنَّ سُلَيْمى واللهُ يَكلؤُها ضَنَّتْ بشيءٍ ما كان يَرْزَؤُها

وقال آخر:

أَنَختُ بَعِيري واكْتَلأْتُ بعَيْنِهِ[6]

---

(١) في (ظ): وتقوية.

(٢) في (م): فقد استهزئ برسل من قبلك.

(٣) في (م): كِلاءً، وكلاهما صحيح. القاموس كلأ.

(٤) الصحاح (كلأ).

(٥) ديوانه ص٥٥ ، ومجاز القرآن ٢/ ٣٩ . وابنُ هَرْمة: هو إبراهيم أبو إسحاق، آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم، وكان من مخضرمي الدولتين، مدح الوليد بن يزيد ثم أبا جعفر المنصور، وكانت وفاته في خلافة الرشيد بعد (١٥٠هـ). الخزانة ١/ ٤٢٥ .

(٦) الصحاح (كلأ)، وقائله كعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٨٠ برواية: =

وحكى الكسائيُّ والفراء: «قل مَن يَكْلَوْكُمْ» بفتح اللام وإسكان الواو. وحَكَيا: «مَن يَكْلَاكُمْ»، على تخفيف الهمزة في الوجهين، والمعروفُ تحقيقُ الهمزة، وهي قراءةُ العامَّة[١]. فأما «يَكْلَاكُم» فخطأٌ من وجهين فيما ذكره النحاس[٢]؛ أحدهما: أنَّ بدل الهمزة إنما يكون[٣] في الشعر. والثاني: أنَّهما يقولان في الماضي: كَلَيْتُه، فينقلب المعنى؛ لأنَّ كَلَيته: أوجعتُ كُلْيَته، ومَن قال لرجل: كَلَاكَ الله، فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع في كُلْيته.

ثم قيل: مخرجُ اللفظ مخرجُ الاستفهام، والمرادُ به النَّفْيُ، وتقديره: قل: لا حافظَ لكم ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ إذا نمتم ﴿و﴾ بـ ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ إذا قمتم وتصرَّفتم في أموركم ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أي: من عذابه وبأسه[٤]، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود:٦٣] أي: من عذاب الله. والخطابُ لمن اعترف منهم بالصانع، أي: إذا أَقْرَرْتم بأنه الخالق، فهو القادرُ على إحلال العذاب الذي تستعجلونه.

﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم﴾ أي: عن القرآن. وقيل: عن مواعظ ربِّهم. وقيل: عن معرفته. ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: لاهون غافلون.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ المعنى: ألهم، والميمُ صلة[٥]. ﴿تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ أي: من عذابنا. ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يعني الذين زعم هؤلاء الكفارُ أنهم ينصرونهم، لا يستطيعون ﴿نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾، فكيف ينصرون عابِديهم؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: يُمنَعون[٦]. وعنه: يُجَارُون[٧]، وهو اختيارُ

= أنخت قَلُوصي واكتلأت بعينها وآمرْتُ نفسي أيَّ أمريَّ أفعلُ

وكذا ذكره الزمخشري في أساس البلاغة (كلأ) وقال: أي: احترستُ بعينها؛ لأنها إذا رأت شيئاً ذُعرت.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧١، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٤، وذكَر الفراء أن هذين الوجهين في غير القرآن.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٧١.

(٣) في إعراب القرآن: إنما يجوز.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٨، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٨.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٨، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٧٤.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٥.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٨٠.

الطبريّ(١). تقول العرب: أنا لك جارٌ وصاحبٌ من فلان، أي: مجيرٌ منه؛ قال الشاعر:

يُنادِي بأعلى صوتِه متعوِّذاً ليُصحَبَ منها والرِّماحُ دَوَاني(٢)

وروى معمرٌ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: «يُنْصَرُونَ» أي: يُحفظون(٣). قتادة: أي: لا يَصْحَبهم الله بخير(٤)، ولا يجعلُ رحمتَه صاحباً لهم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد أهلَ مكة. أي: بَسَطْنا لهم ولآبائهم في نعيمها و﴿طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ في النعمة، فظنوا أنَّها لا تزول عنهم، فاغترُّوا وأعرضوا عن تدبُّر حُجَجِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي: بالظهور عليها لك يا محمدُ أرضاً بعد أرضٍ، وفَتْحِها بلداً بعد بلدٍ ممَّا حَوْلَ مكة؛ قال معناه الحسنُ وغيره. وقيل: بالقتل والسَّبي؛ حكاه الكلبيّ. والمعنى واحد، وقد مضى في «الرعد» الكلامُ في هذا مستوفى(٥).

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ـ يعني كفارَ مكةَ ـ بعد أن نَقَصْنا من أطرافهم؟ بل أنت تغلبهم وتظهرُ عليهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ أي: أخوِّفكم وأحذِّركم بالقرآن ﴿وَلَا

---

(١) في تفسيره ١٦/ ٢٨١ .

(٢) ذكره الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٤٠٩ ، وفيه: ليصحب منا...

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٤ ، والطبري ١٦/ ٢٨٠ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٥) ١٢/ ٩٥ - ٩٦ ، وقول الحسن وقول الكلبي ذكرهما أبو الليث ٢/ ٣٦٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٩ .

يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: مَن أَصَمَّ الله قلبَه، وخَتَم على سَمْعِه، وجَعَل على بصره غشاوةً، عن فَهْمِ الآيات وسماع الحقّ.

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ ومحمد بن السَّمَيفع: «ولا يُسْمَعُ»؛ بياءٍ مضمومةٍ وفتحِ الميم على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ «الصُّمُّ» رفعاً[١]، أي: إنَّ الله لا يُسمعهم.

وقرأ ابن عامر والسُّلَميُّ أيضاً، وأبو حَيْوَةَ ويحيى بنُ الحارِث: «ولا تُسْمِعُ»؛ بتاءٍ مضمومةٍ وكَسْرِ الميم؛ «الصُّمَّ» نصباً[٢]، أي: إنك يا محمدُ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ، فالخطابُ للنبيِّ ﷺ. وردَّ هذه القراءةَ بعضُ أهل اللغة. وقال: كان يجب أن يقول: إذا ما تنذرهم. قال النحاس[٣]: وذلك جائز؛ لأنه قد عُرِف المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: طَرَفٌ[٤]. قال قتادة: عقوبة[٥]. ابن كيسان: قليل[٦] وأدنى شيء، مأخوذٌ من نَفْح المسك؛ قال:

وعَمْرةُ من سَرَواتِ النِّساءِ ... تَنْفَحُ بالمسكِ أَرْدَانُها[٧]

ابن جريج: نصيبٌ، كما يقال: نَفَحَ فلانٌ لفلانٍ من عطائه: إذا أعطاه نصيباً من المال[٨]؛ قال الشاعر:

لَمَّا أَتيتُك أرجو فَضْلَ نائِلِكُمْ ... نَفَحْتني نَفْحةً طابتْ لها العَرَبُ[٩]

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٢٨٣، عن السلمي، والقراءات الشاذة ص٩١ عن الحسن.
(٢) السبعة ص٤٢٩، والتيسير ص١٥٥ عن ابن عامر، وذكرها عن السلمي الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٠٥، والنحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٢.
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٧٢.
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٦.
(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٨٤.
(٦) الوسيط ٣/ ٢٣٩.
(٧) قائله قيس بن الخطيم كما في الأغاني ٢/ ٤٢٧ - ٤٢٨، وجمهرة اللغة ٢/ ٢٥٧، واللسان (ردن)، وهو بلا نسبة في الصحاح (ردن).
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٦.
(٩) البيت لابن ميادة؛ قاله في مدح الوليد بن يزيد، وهو بهذه الرواية في الصحاح (نفح)، وهو في =

أي: طابت لها النفس.

والنفحةُ في اللغة: الدفعةُ اليسيرة؛ فالمعنى: ولئن مسَّهم أقلُّ شيءٍ من العذاب ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: متعدِّين، فيعترفون حين لا ينفعُهم الاعتراف.

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الموازينُ جمعُ ميزان. فقيل: إنه يدلُّ بظاهره على أنَّ لكلِّ مكلَّفٍ ميزاناً توزن به أعمالُه، فتوضع الحسنات في كِفّة، والسيِّئاتُ في كِفّة.

وقيل: يجوز أن يكون هناك موازينُ للعامل الواحد، يوزن بكلِّ ميزانٍ منها صنفٌ من أعماله، كما قال:

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعَدْلِه فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ[1]

ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عبّر عنه بلفظ الجمع. وخرَّج اللَّالَكائيُّ الحافظُ أبو القاسم في «سننه» عن أنس يرفعه: «إنَّ مَلَكاً موكَّلٌ بالميزان، فيؤتَى بابن آدمَ فيوقَفُ بين كِفَّتي الميزان، فإنْ رَجَح؛ نادى الملكُ بصوتٍ يُسمِعُ الخلائقَ: سَعِد فلانٌ سعادةً لا يَشْقَى بعدها أبداً، وإنْ خفَّ نادى الملك: شَقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يَسْعدُ بعدها أبداً»[2].

= ديوانه برواية:

لـمَّـا أتـيـتُـكَ مـن نـجـدٍ وسـاكـنـه نَفَحتَ لي نفحةً طارت بها العرب

(١) لم نقف عليه.

(٢) شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٢٢٠٥)، وأخرجه أيضاً الحارث (١١٢٥ - بغية الباحث)، والبزار (٣٤٤٥ - كشف)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٧٤ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٠ : فيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه. واللالكائي هو هبة الله بن الحسن بن منصور، الطبري الرازي الشافعي، الحافظ المفتي، توفي سنة (٤١٨هـ). السير ١٧/ ٤١٩ .

وخرَّج عن حذيفةَ ﷺ قال: «صاحبُ الميزان يومَ القيامة جبريلُ عليه السلام»[١].

وقيل: للميزان كِفَّتان، وخيوطٌ، ولسانٌ، والشاهين[٢]، فالجمع يرجع إليها.

وقال مجاهد وقتادة والضحاك: ذِكْرُ الميزان مَثَلٌ، و ليس ثَمَّ ميزانٌ، وإنما هو العدل[٣]. والذي وردت به الأخبارُ، وعليه السوادُ الأعظم، القولُ الأوّل.وقد مضى في «الأعراف» بيانُ هذا، وفي «الكهف» أيضاً[٤]. وذكرناه في كتاب «التذكرة»[٥] مستوفًى والحمد لله.

و«القِسط»: العدل، أي: ليس فيها بَخْسٌ ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا. و«الْقِسْطَ» صفةُ الموازين، ووحّد لأنه مصدر؛ يقال: ميزانٌ قِسْطٌ، وميزانان قِسْطٌ، وموازينُ قِسْطٌ. مثل: رجالٌ عَدْلٌ ورضاً[٦].و قرأت فرقة: «الْقِصْطَ»، بالصاد[٧].

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: لأهل يوم القيامة. وقيل: المعنى: في يوم القيامة .﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ أي: لا يُنْقَصُ من إحسان مُحْسِنٍ، ولا يزاد في إساءة مسيء.

﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبةُ وأبو جعفر: ﴿مِثْقالُ حبةٍ﴾

---

(١) شرح أصول الاعتقاد (٢٢٠٩) من طريق يوسف بن صهيب، عن موسى بن أبي المختار، عن بلال العبسي، عن حذيفة. وموسى بن أبي المختار مجهول، تفرد بالرواية عنه يوسف بن صهيب، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان. ينظر حاشية الحديث (٢٣٢٦٦) من مسند أحمد . وينظر ما سلف ٩/ ١٥٩ .

(٢) الشاهين: عمود الميزان. القاموس (شهن). قال ابن حزم في الفصل في المِلل والأهواء والنحل ٥/ ٦٥ : وأمور الآخرة لا تُعلم إلا بما جاء في القرآن، أو بما جاء عن رسول الله ﷺ، ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام شيء يصح في صفة الميزان. فنقطع على أن الموازين توضع يوم القيامة لوزن أعمال العباد، ونقطع على أن تلك الموازين أشياء يبين الله عزَّ وجلَّ بها لعباده مقادير أعمالهم من خير وشر.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧٦ ، وأخرجه عن مجاهد عبد الرزاق ٢/ ٢٤ ، والطبري ١٦/ ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٤) ٩/ ١٥٦ - ١٦٠ ، و١٣/ ٣٩٥ .

(٥) ص٣٠٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٤ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٨٥ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٨٥ ، والبحر ٦/ ٣١٦ دون نسبة.

بالرفع هنا وفي «لقمان»، على معنى: إنْ وقع أو حضر، فتكون «كان» تامةً، ولا تحتاج إلى خبر. الباقون: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب[١]، على معنى: وإن كان العملُ أو ذلك الشيءُ مثقالَ. ومثقالُ الشيء: ميزانُه من مِثْلِه.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مقصورةَ الألف قراءةُ الجمهور، أي: أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها. و«بها» أي: بالحبة[٢]، ولو قال به ـ أي: بالمثقال ـ لجاز. وقيل: مثقالُ الحبة ليس شيئاً غيرَ الحبة، فلهذا قال: «أَتَيْنَا بِهَا».

وقرأ مجاهد وعكرمةُ: «آتَيْنَا» بالمدِّ، على معنى: جازَيْنا بها[٣]، يقال: آتى يؤاتي مؤاتاة.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ أي: محاسبين على ما قدَّموه من خيرٍ وشرّ. وقيل: «حاسِبِين» أي[٤]: لا أحدَ أسرعُ حساباً منا. والحسابُ: العدّ. روى الترمذيُّ عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رجلاً قعد بين يدي النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنَّ لي مملوكِينَ يكذبونني ويخونونني ويَعْصونني، وأشتُمهم وأضربُهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «يُحسَبُ ما خانوك وعَصَوْك وكذبوك وعقابُكَ إيَّاهم، فإن كان عقابُك إيَّاهم بقَدْر ذنوبهم كان كَفَافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إيَّاهم دونَ ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك [إيَّاهم] فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منك الفضلُ». قال: فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف. فقال رسول الله ﷺ: «أمَا تقرأ كتاب الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾؟» فقال الرجل: والله يا رسول

---

(١) السبعة ص٤٢٩، والتيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن نافع وأبي جعفر، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١١١.

(٢) في (م): للمجازاة عليها ولها يجاء بها أي بالحبة.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٥ عن مجاهد، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٦٣ عن مجاهد وابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهم، ولم نقف عليها عن عكرمة.

(٤) في النسخ عدا (ظ): إذ، والمثبت من (ظ).

الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم، أُشْهِدكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهم. قال: حديث غريب[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ وحُكي عن ابن عباس وعكرمة: «الفُرْقانَ ضياءً» بغير واو على الحال[٢]. وزعم الفرَّاء أنَّ حَذْفَ الواو والمجيءَ بها واحد، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا﴾ [الصافات:٦-٧] أي: حفظاً. وردَّ عليه هذا القولَ الزجَّاجُ؛ قال: لأنَّ الواو تجيءُ لمعنًى فلا تُزاد، قال: وتفسيرُ «الفرقان»: التوراة؛ لأنَّ فيها الفرقَ بين الحلال والحرام. قال: «وَضِيَآءً» مثل: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦][٣].

وقال ابن زيد: «الفرقان» هنا: هو النصرُ على الأعداء، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:٤١] يعني يومَ بدر[٤].

قال الثعلبيُّ: وهذا القولُ أشبهُ بظاهرِ الآية؛ لدخول الواو في الضياء، فيكون معنى الآية: ولقد آتينا موسى وهارون النَّصرَ والتوراةَ التي هي الضِّياءُ والذِّكر ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: غائبين؛ لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أنَّ لهم ربًّا قادراً يجازي على الأعمال، فهم يخشَوْنه في

---

(١) سنن الترمذي (٣١٦٥)، وهو عند أحمد (٢٦٤٠١)، وما سلف بين حاصرتين منهما. وهذا حديث ضعيف. ينظر التهذيب ٢/ ٥٤٢ ، وحاشية هذا الحديث في مسند أحمد.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٢ ، والمحتسب ٢/ ٦٤ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٢ - ٧٣ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٥ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٧ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٨٨ .

سرائرهم وخَلَواتهم التي يغيبون فيها عن الناس، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: من قيامها قَبْلَ التوبة ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وَجِلُون.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ﴾ يا معشرَ العرب ﴿مُنكِرُونَ﴾ وهو معجزٌ لا تقدرون على الإتيان بمثله. وأجاز الفرَّاء[1]: وهذا ذِكْرٌ مُباركاً أنزلناه، بمعنى أنزلناه مباركاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ قال الفرَّاء[2]: أي: أعطيناه هُداه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ النُّبوَّة، أي: وفَّقناه للنظر والاستدلال لمَّا جَنَّ عليه الليلُ فرأى النجم والشمس والقمر.

وقيل: «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبلِ موسى وهارون، والرُّشْدُ على هذا: النبوَّة. وعلى الأول أكثرُ أهل التفسير، كما قال ليحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. وقال القُرَظيُّ: رشده: صلاحه[3]. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: أنه أهلٌ لإيتاء الرشد وصالحٌ للنبوة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ قيل: المعنى: أي: اذكر حين قال لأبيه، فيكون الكلام قد تمَّ عند قوله: «وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ». وقيل: المعنى: «وكنَّا به عالِمِينَ إذْ قال»،

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢٠٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٣.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٠٦.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٧.

فيكون الكلام متَّصلاً ولا يوقف على قوله: «عالمِين». «لأبيه» وهو آزر ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ نمرود ومَن اتَّبعه.

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام. والتمثالُ: اسمٌ موضوعٌ للشيء المصنوع مشبَّهاً بخَلْقٍ من خَلْقِ الله تعالى. يقال: مثَّلت الشيءَ بالشيء، أي: شبَّهته به. واسمُ ذلك الممثَّل: تمثال[1].

﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: مقيمون على عبادتها. ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: نعبدها تقليداً لأسلافنا. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خُسْرانٍ بعبادتها؛ إذ هي جماداتٌ لا تنفع ولا تضرُّ ولا تعلم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أجادٌّ أنت مُحِقٌّ[2] فيما تقول؟ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: لاعبٌ مازح ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لست بلاعبٍ، بل ربُّكم والقائمُ بتدبيركم خالقُ السماوات والأرض ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خَلَقهنَّ وأبدعهنّ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: على أنه ربُّ السماوات والأرض. والشاهدُ يبيِّن الحكم، ومنه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] أي: بَيَّن الله، فالمعنى: وأنا أبيِّن بالدليل ما أقول.

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أخبر أنه لم يكتفِ بالمُحاجَّة باللسان بل[3] كسَّر أصنامهم فِعْلَ واثقٍ بالله تعالى، مُوطِّنٍ نَفْسَه على مقاساة المكروه في

---

(١) الوسيط ٣/ ٢٤١ .

(٢) في (ظ): أجاد محق، وفي (د): أجادلت بحق، وفي (م): أجاءٍ أنت بحق، ولم تجود في (ز)، والمثبت من (خ). وينظر الوسيط ٣/ ٢٤١ ، والوجيز (على هامش مراح لبيد) ٢/ ٣٩ .

(٣) في (ظ): حتى.

الذبُّ عن الدِّين. والتاء في «تَاللهِ» تختصُّ في القسم باسم الله وحده، والواو تختصُّ بكلّ مُظْهَرٍ، والباءُ بكلِّ مُضْمَرٍ ومظهَر[1]، قال الشاعر:

تـالـلـهِ يَـبْـقَـى عـلـى الأيـام ذو حِـيَـدٍ بـمُـشْـمَـخِـرٍّ بـه الـظَّـيَّـانُ والآسُ[2]

قال ابن عباس: أي: وحرمةِ الله لأكيدنَّ أصنامكم، أي: لأمْكُرنَّ بها. والكيدُ: المَكْر. كاده يَكيدُه كيداً ومَكِيدةً، وكذلك المُكايدة؛ وربما سمِّي الحربُ كيداً؛ يقال: غزا فلانٌ فلم يَلْقَ كيداً، وكلُّ شيءٍ تعالجه فأنت تَكِيدُه[3].

﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ أي: مُنْطَلِقين ذاهبين. وكان لهم في كلِّ سنةٍ عيدٌ يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجتَ معنا إلى عيدنا أعجبك دينُنا ـ رُوي ذلك عن ابن مسعود على ما يأتي بيانُه في «والصافاتِ»[4] ـ فقال إبراهيم في نفسه: تاللهِ لَأَكيدَنَّ أصنامَكم.

قال مجاهد وقتادة: إنما قال ذلك إبراهيم في سرٍّ من قومه، ولم يسمعه إلَّا رجلٌ واحد، وهو الذي أفشاه عليه[5]. والواحدُ يُخْبَر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أُخبر به عنه[6] ممَّا يَرضَى به غيره، ومثله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨].

---

(١) أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص٢٤٧ .

(٢) نُسب البيت لمالك بن خالد الخُناعي، ولأبي ذؤيب الهذلي، ولأمية بن أبي عائد، وللفضل بن عباس بن عتبة بن ربيعة، وهو في الصحاح (شمخر)، والحلل للبطليوسي ص٩٦ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٤٠ والخزانة ١٠/ ٩٥ ، وورد في الكتاب ٣/ ٤٩٦ ، والمقتضب ٢/ ٣٢٤ ، وشرح المفصل ٩/ ٩٨ ، والخزانة ٥/ ١٧ برواية: لله، بدل: تالله، وهما روايتان كما ذكر البطليوسي. وقوله: يبقى، هو جواب القسم بتقدير «لا» النافية. ويعني بقوله: ذو حيد: الوعل، ويروى بفتح الحاء وكسرها. والمشمخر: الجبل الشامخ. والظَّيَّان: ياسمين البَرّ. والآس: الريحان. ينظر الخزانة ٥/ ١٧٧، وشرح الشواهد للشنتمري ص٥١٣ .

(٣) الصحاح (كيد).

(٤) عند تفسير الآيات (٨٧ - ٨٩)، وينظر الوسيط ٣/ ٢٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٢٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٧ .

(٦) قوله: عنه، ليس في (م).

وقيل: إنما قاله بعد خروج القوم، ولم يبقَ إلّا الضعفاءُ، فهم الذين سمعوه. وكان إبراهيم احتال في التخلُّف عنهم بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩] أي: ضعيفٌ عن الحركة[١].

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: فُتاتاً. والجَذُّ: الكسر والقطع؛ جَذَذْتُ الشيءَ: كَسَرتُه وقَطعتُه. والجِذاذ والجُذاذ: ما كُسِر منه، والضمُّ أفصح من كسره؛ قاله الجوهريُّ[٢]. الكسائي: ويقال لحجارة الذهب: جُذاذ؛ لأنها تُكْسَر.

وقرأ الكسائيُّ والأعمش وابن محيصن: «جِذَاذاً»؛ بكسر الجيم، أي: كِسَراً وقِطَعاً، جمع جَذيذٍ: وهو الهشيم، مثل خَفيف وخِفاف، وظَريف وظِراف[٣]. قال الشاعر:

جَـذَّذ الأصـنـامَ فـي مِـحْـرابِـهـا ذاك فـي الـلـه الـعـلـيِّ الـمـقـتَـدِرْ[٤]

الباقون بالضمِّ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، كالحُطام[٥] والرُّفات، الواحدةُ: جُذَاذة.

وهذا هو الكيد الذي أقسم بالله ليفعلنَّه بها. وقال: «فجعلهم»؛ لأن القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية.

وقرأ ابن عباس وأبو نَهِيكٍ وأبو السمَّال: «جَذَاذاً» بفتح الجيم، والفتح والكسر لغتان، كالحَصاد والحِصاد. أبو حاتم: الفتحُ والكسرُ والضمُّ بمعنى؛ حكاه قُطْرُب[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٥ مطولاً عن السدي.

(٢) في الصحاح (جذذ)، وما بعده منه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٨ ،وقراءة الكسائي في السبعة ص٤٢٩ ، والتيسير ص١٥٥ . وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٥١ .

(٥) في النسخ: أي الحطام، والمثبت من المحتسب، وفيه قول أبي حاتم. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦ .

(٦) المحتسب ٢/ ٦٤ . وقال أبو حاتم ـ فيما ذكر ابن جني ـ: وأجودها الضم، وقد سلف ذلك عنه قريباً.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: عظيم الآلهة في الخلق؛ فإنه لم يكسره. قال السدِّيُّ ومجاهد: ترك الصنم الأكبر وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه[١]؛ ليَحتجَّ به عليهم. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ودينه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إذا قامت الحجة عليهم. وقيل: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ» أي: إلى الصنم الأكبر «يَرْجِعُونَ» في تكسيرها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المعنى: لمَّا رجعوا من عيدهم ورأوا ما أُحْدَثَ بآلهتهم، قالوا على جهة البحث والإنكار: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وقيل: «مَن» ليس استفهاماً، بل هو ابتداءٌ، وخبرُه: «[إنه][٢] لمِن الظالِمين»، أي: فاعلُ هذا ظالم. والأوّل أصحُّ؛ لقوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾، وهذا هو جوابُ: «مَنْ فَعَلَ هذا»، والضمير في «قالوا» للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم، أو الواحدِ، على ما تقدَّم. ومعنى «يذكُرهم»: يَعيبُهم ويسبُّهم، فلعلَّه الذي صنع هذا.

واختلف الناس في وجه رَفْعِ إبراهيم؛ فقال الزجَّاج: يرتفع على معنى: يقال له: هو إبراهيم[٣]، ويكون مبتدأً وخبرُه محذوف[٤]، والجملةُ مَحْكِيَّة. قال: ويجوز أن

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الدر المصون ٨/ ١٧٤.

(٣) يعني أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو، أو: هذا، والكلام إلى هذا الموضع في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦.

(٤) وذلك على تقدير: إبراهيم فاعلُ ذلك. الإملاء ٤/ ٦ (بهامش الفتوحات الإلهية).

وقد وقع في النسخ الخطية: فيكون مبتدأ... الخ. ولعل ثمة سقطاً أو وهماً وقع فيها. ولفظة: «ويكون» المثبتة أعلاه بدل: «فيكون» أولى بالسياق. فبها يتبيَّن القولان السالفان في وجه رفع «إبراهيم» كما جاء في المصادر.

يكون رفعاً على النداء، وضمُّه بناءٌ، وقام «له» مقامَ ما لم يسمَّ فاعله[١].

وقيل: رَفْعُه على أنه مفعولُ ما لم يسمَّ فاعلُه؛ على أن يُجعل «إبراهيم» غيرَ دالٍّ على الشَّخص، بل يجعل النُّطقُ به دالًا على بناءِ هذه اللفظة. أي: يقال له هذا القولُ وهذا اللفظُ، وهذا كما تقول: زيدٌ وزنُ فَعْل، أو: زيدٌ ثلاثةُ أحرفٍ، فلَمْ تدلَّ بوجهٍ على الشَّخص، بل دلَلْتَ بنُطقك على نفس اللفظة. وعلى هذه الطريقة تقول: قلتُ إبراهيمَ، ويكون مفعولاً صحيحاً أنزلته منزلةَ قولٍ وكلام؛ فلا يتعذَّر بعد ذلك أن يُبنَى الفعل فيه للمفعول. هذا اختيار ابن عطية في رَفْعِه[٢].

وقال الأستاذ أبو الحجَّاج الإشْبِيليُّ الأعْلَم[٣]: هو رفعٌ على الإهمال؛ قال ابن عطية[٤]: لمَّا رَأَى وجوهَ الرفع كأنها لا تُوضح المعنى الذي قصدوه، ذهب إلى رَفْعِه بغيرِ شيءٍ، كما قد يَرفع التجرُّدُ والعِرْوُ عن العوامل الابتداءَ.

والفتى: الشابُّ، والفتاة: الشَّابَّة. قال ابن عباس: ما أَرسل الله نبيًّا إلا شابًّا[٥]، ثم قرأ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ فيه مسألة واحدة،

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٣ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٨٠ ، والبيان ٢/ ١٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ ، وما قبله وبعده منه. وذكر السمين في الدر المصون ٨/ ١٧٥ أن في هذه المسألة خلافاً بين النحويين؛ يعني: تسلُّط القول على المفرد الذي لا يؤدِّي معنى جملة، مثل: قلت خطبة، وشعراً، ولا هو مقتطع من جملة، كقول الشاعر: إذا ذقتُ فاها قلتُ طعم مدامة...، ولا هو مصدرٌ لقال، ولا هو صفة لمصدره، نحو: قلت حقًّا.

(٣) يوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي النحوي، والأعلم هو المشقوق الشَّفة، والشنتمري نسبة إلى شَنْتَمرية ـ مدينة بالأندلس ـ من مصنفاته: تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، وهو شرح أبيات الكتاب لسيبويه. ينظر السير ١٨/ ٥٥٥ ، وإنباه الرواة ٤/ ٥٩ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ ، وقد ردَّ الآلوسي في روح المعاني ١٧/ ٦٤ قول الأعلم.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٥ (١٣٦٧١)، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وهي: أنه لمَّا بلغ الخبرُ نمرودَ وأشرافَ قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة، فقالوا: ائتوا به ظاهراً بمرأى من الناس حتى يروه، لعلَّهم يَشْهَدون عليه بما قال؛ ليكون ذلك حجَّةً عليه. وقيل: لعلَّهم يشهدون عقابَه، فلا يُقْدِمُ أحدٌ على مِثْلِ ما أَقْدَمَ عليه. أو: لعلَّ قوماً يَشْهَدون بأنهم رأَوْه يكسر الأصنام، أو: لعلَّهم يَشْهَدون طَعْنَه على آلهتهم؛ ليعلموا أنه يَستحقُّ العقاب.

قلت: وفي هذا دليلٌ على أنه كان لا يؤخذ[1] أحدٌ بدعوى أحدٍ فيما تقدَّم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ وهكذا الأمر في شرعنا ولا خلافَ فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: لمَّا لم يكن السَّماعُ عامًّا ولا ثبتت الشهادة، استفهموه هل فَعَل أم لا؟ وفي الكلام حذف، أي: فجاء إبراهيم حين أُتِيَ به فقالوا: أأنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: إنه غار وغضب من أن يُعبد هو ويُعبَد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك[2]، إن كانوا ينطقون فاسألوهم. فعلَّق فِعْلَ الكبير بنطق الآخَرين؛ تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم. كأنه قال: بل هو الفاعلُ إنْ نَطَق هؤلاء. وفي الكلام تقديمٌ على هذا التأويل في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

وقيل: أراد: بل فَعَلَه كبيرهم إن كانوا ينطقون. بيَّن أنَّ مَن لا يتكلَّم ولا يعلم لا يستحقُّ أن يُعبد. فكان قولُه من المعاريض، وفي المعاريض مندوحةٌ عن الكذب،

---

(١) في (د) و(م): يؤاخذ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧.

أي: سَلُوهم إنْ نطقوا فإنَّهم يَصْدُقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل.

وفي ضمن هذا الكلام اعترافٌ بأنه هو الفاعل، وهذا هو الصحيح؛ لأنه عدَّده على نفسه، فدلَّ أنه خرج مَخْرَج التعريض. وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتَّخذونهم آلهةً من دون الله، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ الآية [مريم: ٤٢]، فقال إبراهيم: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرُّون، فيقول لهم: فلِمَ تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجةُ منهم؛ ولهذا يجوز عند الأئمة[1] فرضُ الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحقِّ من ذات نفسه؛ فإنه أقربُ في الحجة وأَقْطَعُ للشُّبهة، كما قال لقومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وهذه أختي، و﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] و﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[2].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «بل فَعَلَّهُ» بتشديد اللام[3]، بمعنى: فلعلَّ الفاعل كبيرهم.

وقال الكسائيُّ: الوقفُ عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ أي: فَعَلَه مَن فَعَلَه، ثم يبتدئ: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[4].

وقيل: أي: لِمَ تُنكرون أن يكون فَعَلَه كبيرهم؟ فهذا إلزامٌ بلفظ الخبر، أي: مَن اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلاً، والمعنى: بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم.

الثانية: روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ في شيءٍ قطُّ إلَّا في ثلاثٍ؛ قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [ولم يكن سقيماً]، وقولُه لسارة: أختي، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾» لفظُ الترمذيّ. وقال: حديثٌ حسن صحيح[5].

---

(١) في النسخ: الأمة، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣، وقول إبراهيم: هذه أختي، سيأتي قريباً.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٩، والبحر ٦/ ٣٢٥، والدر المصون ٨/ ١٧٨.

(٥) صحيح البخاري (٣٣٥٧) و(٣٣٥٨) و(٥٠٨٤) مرفوعاً وموقوفاً، وصحيح مسلم (٢٣٧١)، وسنن الترمذي (٣١٦٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٩٢٤١).

ووقع في الإسراء في «صحيح» مسلم[1] من حديث أبي هريرةَ ﷺ في قصة إبراهيم قال: وذكر قوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾. فعلى هذا تكون الكذبات أربعاً، إلَّا أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام قد نفى تلك بقوله: «لم يكذبْ إبراهيم النبيُّ قطُّ إلَّا ثلاثَ كذبات؛ ثِنْتين في ذات الله: قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾، وواحدة في شأن سارة». الحديثَ، لفظُ مسلم. وإنما لم يُعَدَّ عليه قولَه في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ كذبةً ـ وهي داخلة في الكذب ـ لأنه ـ والله أعلم ـ كان حين قال ذلك في حالِ الطُّفولية، وليست حالَ تكليف[2]. أو قاله لقومه مستفهماً لهم على جهة التوبيخِ والإنكار، وحُذفت همزةُ الاستفهام. أو على طريق الاحتجاج على قومه، تنبيهاً على أنَّ ما يتغيَّر لا يصلح للربوبية[3]. وقد تقدَّمت هذه الوجوهُ كلُّها في «الأنعام» مبيَّنةً والحمد لله[4].

الثالثة: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[5]: في هذا الحديث نكتةٌ عُظمى تَقْصِمُ الظَّهر، وهي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لم يكذب إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَبات» ثِنتين مَاحَلَ بهما عن دين الله، وهما قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾، وقولُه: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾»، ولم يعدَّ [قوله:] هذه أختي، في ذات الله تعالى وإن كان دَفَع بها مكروهاً، و لكنه لَمَّا كان لإبراهيمَ عليه السلام فيها حظٌّ من صيانة فراشه وحماية أهله، لم يجعلها في ذات الله، وذلك لأنه لا يُجعل في جنب الله وذاتِه إلَّا العملُ الخالص من شوائب الدنيا، والمعاريضُ التي تَرْجِع إلى النفس إذا خَلَصَتْ للدِّين

(١) برقم (١٩٤): (٣٢٨)، وهو حديث الشفاعة، وليس في الإسراء.

(٢) في (م): في حال الطفولة وليست حالة تكليف، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٦/ ١٨٤ والكلام منه.

(٣) المفهم ١/ ٤٣٢.

(٤) ٨/ ٤٣٨ وما بعدها.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

كانت لله سبحانه، كما قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾. وهذا لو صَدَر منَّا لكان لله، ولكنَّ منزلة إبراهيمَ اقتضت هذا. والله أعلم.

الرابعة: قال علماؤنا: الكذبُ هو الإخبارُ عن الشيء بخلافِ ما هو عليه. والأَظْهَرُ أنَّ قولَ إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض، وإن كانت معاريضَ وحسناتٍ وحججاً في الخَلْق ودلالاتٍ، لكنَّها أثَّرت في الرتبة، وخفضت عن محمدٍ المنزلةَ، واستحيا منها قائلها ـ على ما ورد في حديث الشفاعة[١] ـ فإن الأنبياء يشفقون ممَّا لا يُشفق منه غيرهم؛ إجلالاً لله؛ فإنَّ الذي كان يليق بمرتبته في النبوَّة والخُلَّة أن يصدع بالحقِّ، ويصرِّحَ بالأمر كيفما كان[٢]، ولكنه رخِّص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة: «إنَّما اتُّخذت خليلاً من وراءَ وراءَ»[٣] بنَصْبِ «وراءَ» فيهما على البناء كخمسةَ عَشَرَ، وكما قالوا: [هو] جاري بَيْتَ بَيْتَ [أي: بيتُه إلى بيتي][٤].

ووقع في بعض نسخ مسلم «من وراء من وراء» بإعادة «من»، وحينئذٍ لا يجوز البناء على الفتح، وإنما يُبنَى كلُّ واحدٍ منهما على الضمّ؛ لأنه قُطِع عن الإضافة ونُويَ المضافُ، كقَبْلُ وبَعْدُ. وإن لم يُنْوَ المضافُ أُعرب ونوِّن، غيرَ أنَّ وراء لا ينصرف؛ لأنَّ أَلِفَه للتأنيث؛ لأنهم قالوا في تصغيرها: وُرَيْئَة ـ قال الجوهريّ[٥]: وهي شاذة ـ

(١) أخرجه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣): (٣٢٢) من حديث أنس ﷺ. ولفظه عند مسلم: ... فيأتون إبراهيم ﷺ، فيقول: لست هُنَاكُم (يعني لست أهلاً لذلك) ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربَّه منها...

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣ (والكلام منه): ويصرح بالأمر فيكون ما كان.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥) مطولاً من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، وسلف ٢/ ٢٥٣ .

(٤) المفهم ١/ ٤٣٠ ، وما بين حاصرتين منه. قال أبو العباس: ومنه قولهم: هي همزة بينَ بينَ، وأتيتك صباحَ مساءَ. وقال النووي في شرح صحيح مسلم ٣/ ٧١ : المشهور الفتح فيهما بلا تنوين، ويجوز عند أهل العربية بناؤهما على الضم.

(٥) في الصحاح (ورى).

فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود «مِن» فيهما[١].

والمعنى: أنِّي كنتُ خليلاً متأخِّراً عن غيري. ويستفاد من هذا أنَّ الخُلَّة لم تصحَّ بكمالها إلَّا لمن صحَّ له في ذلك اليوم المقامُ المحمود[٢] كما تقدم[٣]. وهو نبيُّنا محمدٌ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: رجع بعضهم إلى بعضٍ رجوعَ المنقطِع عن حُجَّته، المتفطِّنِ لصحَّةِ حُجَّةِ خصمه. ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بعبادةِ مَن لا ينطقُ بلفظة، ولا يملك لنفسه لحظةً، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس مَن لا يَردُّ عن رأسه الفأس؟!

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: عادوا إلى جهلهم وعِنادهم[٤]، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فـ ﴿قَالَ﴾ قاطعاً لمَا به يَهْذون[٥]، ومُفْحِماً لهم فيما يتقوَّلون: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي: النَّتَنُ لكم ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!

وقيل: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: طأطَؤوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم[٦]. وفيه

(١) ينظر الصحاح (ورى)، والمفهم ١/ ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٢) المفهم ١/ ٤٢٩ - ٤٣٠ .

(٣) ١٣/ ١٤٧ وما بعدها.

(٤) في (د) و(ز) و(م): وعبادتهم.

(٥) في (د) و(ظ): يهددون.

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٨٦ .

نظر؛ لأنه لم يقل: نَكَسوا رؤوسهم، بفتح الكاف، بل قال: ﴿نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رُدُّوا على ما كانوا عليه في أوَّل الأمر، وكذا قال ابن عباس؛ قال: أدركهم الشقاء، فعادوا إلى كفرهم[١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾ لمَّا انقطعوا بالحجَّة أخذتهم عزَّةٌ بإثم[٢]، وانصرفوا إلى طريق الغَشْم والغَلَبة، وقالوا: حرِّقوه. ورُوي أنَّ قائل هذه المقالةِ هو رجلٌ من الأكراد من أعراب فارس، أي: من باديتها؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج[٣]. ويقال: اسمه هيزر، فخسف الله به الأرض، فهو يَتَجلجلُ فيها إلى يوم القيامة[٤]. وقيل: بل قاله ملكهم نمرود.

﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بتحريق إبراهيم؛ لأنه يسبُّها ويَعِيبُها. وجاء في الخبر: أنَّ نمرود بنى صرحاً طولُه ثمانون ذراعاً، وعرضُه أربعون ذراعاً. قال ابن إسحاق[٥]: وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت حتى أنْ كان الطائر لَيمرُّ بجنباتها فيحترق من شدَّة وهجها. ثم قيَّدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً ـ ويقال: إنَّ إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذٍ ـ فضجَّت السماوات والأرض ومَن فيهنَّ من الملائكة وجميعِ الخلق إلَّا الثقلين ضجةً واحدة [وقالوا: أي] ربَّنا! إبراهيم ليس في أرضك أحدٌ يعبدك غيرُه يُحرَق فيك، فأْذَنْ لنا في نُصرته. فقال الله تعالى: إن

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٤٣ .

(٢) في (ظ): بالإثم، والمثبت من باقي النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٨ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٥٣ ، وأخرجه عن ابن عمر ومجاهد الطبري ١٦/ ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٥ عن شعيب الجَبَائي، ووقع فيه اسم الرجل: هيزن، وكذا ذكره البغوي ٣/ ٢٥٠ .

(٥) ذكره عن ابن إسحاق الثعلبي في عرائس المجالس ص٧٨ - ٧٩ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يَدْعُ غيري، فأنا أعلم به وأنا وليُّه. فلمَّا أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خُزَّان الماء ـ وهو في الهواء ـ فقالوا[١]: يا إبراهيم إن أردتَ أخمدنا النار بالماء فقال: لا حاجةَ لي إليكم. وأتاه مَلَك الريح فقال: لو شئتَ طيَّرتُ النار. فقال: لا. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهمَّ أنت الواحدُ في السماء، وأنا الواحدُ في الأرض[٢]، ليس أحدٌ يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل.

وروى أبيّ بن كعب ﷺ عن النبيِّ ﷺ[٣]: «إنَّ إبراهيم حين قيَّدوه ليُلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمدُ ولك الملكُ لا شريكَ لك» قال: ثم رمَوْا به في المنجنيق من مَضْرِبٍ شاسع، فاستقبله جبريلُ فقال: يا إبراهيم ألك حاجةٌ؟ قال: أمَّا إليك فلا. فقال جبريل: فاسأل ربك. فقال: حَسْبي مِن سؤالي عِلْمُه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٤].

قال بعض العلماء: جعل الله فيها برداً يدفع[٥] حرَّها، وحرًّا يدفع بردَها، فصارت سلاماً عليه. قال أبو العالية: ولو لم يقل: «بَرْداً وَسَلَاماً» لكان بردها أشدَّ عليه من حرِّها، ولو لم يقل: «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد[٦].

---

(١) في العرائس: أتاه ملك المياه فقال.

(٢) في العرائس: اللهم أنت الواحد في السماء وفي الأرض. وأخرج البزار (٢٣٤٩ - كشف الأستار) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك». وحسنه الحافظ ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٢٦٥ . وقال الذهبي في الميزان ٤/ ٦٩ : غريب جدًّا.

(٣) كذا ذكر المصنف، وذكره البغوي في التفسير ٣/ ٢٥٠ عن أبي بن كعب قوله، ووقع في العرائس ص٧٩ : معتمر عن أبي بن كعب عن أرقم، ولعل لفظة «أُبيّ» مقحمة، فقد أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٩ من طريق معتمر عن ابن كعب عن أرقم، ولعل ابن كعب هو محمد .

(٤) عرائس المجالس ص٧٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٠ . وقوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٥٠ بلفظ: علمه بحالي يغني عن سؤالي. وقال: قال ابن تيمية: موضوع.

(٥) في (م): يرفع، في الموضعين، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٣/ ٤٥٤ ، والكلام منه.

(٦) في (ظ): إلى الأبد، وفي (خ): على الأرض، والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٣/ ٤٥٤ =

وذكر بعض العلماء: أنَّ الله تعالى أنزل زَرْبِيَّة[١] من الجنة فبسطها في الجحيم، وأنزل الله ملائكة[٢]: جبريلَ وميكائيل ومَلَكَ البرد وملك السلامة.

وقال عليٌّ وابن عباس: لو لم تُتْبع بردَها سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذٍ نار إلا طَفئتْ، ظنَّتْ أنها تُعنَى[٣].

قال السُّدِّي: وأمر الله كلَّ عودٍ من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته.

وقال كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيمَ إلَّا وِثاقه[٤]. فأقام في النار سبعةَ أيامٍ لم يقدر أحدٌ أن يقرب من النار، ثم جاؤوا فإذا هو قائمٌ يصلِّي.

وقال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم: ما كنتُ أياماً قطُّ أَنْعَمَ منِّي من[٥] الأيام التي كنتُ فيها في النار.

وقال كعبٌ وقتادةُ والزهريُّ: ولم تبقَ يومئذٍ دابَّةٌ إلا أطفأت عنه النار إلَّا الوَزَغُ؛ فإنها كانت تنفخ عليه؛ فلذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلها وسمَّاها فُوَيْسقة[٦].

وقال شعيب الجَبَائي[٧]: أُلقي إبراهيم في النار وهو ابنُ ستَّ عَشْرةَ سنةً. وقال

= والكلام منه، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٣٠٩.

(١) مفرد زرابيّ، وهي البُسُط، وقيل: كل ما بُسط واتُّكئ عليه. اللسان (زرب).

(٢) في (ظ): ملائكته.

(٣) عرائس المجالس ص٧٩، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٣٠٦ - ٣٠٧، وخبر علي أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٧ و ٣٠٩ من طريق قتادة عن كعب.

(٥) في النسخ: في، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/ ٣٠٧، وقد أخرج الخبر فيه.

(٦) عرائس المجالس ص٧٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٥، والطبري ١٦/ ٣٠٩ - ٣١٠ عن قتادة والزهري. وأخرج البخاري (٣٣٥٩) عن أم شَريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام». وأخرجه أحمد (٢٧٣٦٥)، ومسلم (٢٢٣٧) مختصراً بذكر قتل الوَزَغ.

(٧) في (ز): الجمالي، وفي باقي النسخ: الحماني، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/ ٣٠٨ وقد أخرج قوله. قال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٧٨: أخباري متروك؛ قاله الأزدي.

ابن جُرَيْج: أُلقيَ إبراهيم في النار وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة. ذكر الأوّل الثَّعْلبيُّ[1]، والثاني الماوَرْديّ[2]، فالله أعلم.

وقال الكلبيُّ: بردت نيرانُ الأرض جميعاً فما أنضجت كُراعاً[3]، فرآه نمرود من الصرح وهو جالسٌ على السرير يؤنسه مَلَكُ الظِّلّ. فقال: نِعْمَ الربُّ ربُّكَ! لأقرِّبنَّ له أربعةَ آلافِ بقرةٍ. وكَفَّ عنه[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي: أراد نمرودُ وأصحابُه أن يمكروا به ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ في أعمالهم، ورددْنا مكرهم عليهم بتسليطِ أضعفِ خَلْقِنا؛ قال ابن عباس: سلَّط الله عليهم أضعفَ خَلْقِه: البعوضَ، فما برح نمرودُ حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدةٌ في منخره، فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغَه، وكان أكرمَ الناس عليه الذي يضربُ رأسه بِمرْزَبَّةٍ من حديد. فأقام بهذا نحواً من أربع مئة سنة[5].

---

(١) في عرائس المجالس ص٨٠ ، ووقع في مطبوعه: الشعبي بدل: شعيب الجبائي.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٥٣ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره الثعلبي ص٧٩ - ٨٠ مطولاً عن ابن إسحاق. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٨ - ٨٩ : وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم، وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه، ما رأيت اختصاره لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار، فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً، فخرج منها سالماً، وكانت أعظم آية.

(٥) ذكره بنحوه عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٤٤ ، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق في التفسير ١/ ١٠٥ - ١٠٦ ، والطبري ٤/ ٥٧٢ - ٥٧٣ عن زيد بن أسلم. وذكر الآلوسي في روح المعاني =

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: نجَّينا إبراهيم ولوطاً إلى أرض الشام، وكانا بالعراق ـ وكان إبراهيم[١] عليه السلام عمَّه ـ قاله ابن عباس[٢]. وقيل لها: مباركةٌ؛ لكثرة خِصْبها وثمارها وأنهارها؛ ولأنها معادن الأنبياء. والبركةُ: ثبوت الخير، ومنه: بَرَكَ البعير: إذا لزم مكانه فلم يبرح. وقال ابن عباس: الأرض المباركة مكة[٣].

وقيل: بيت المقدس[٤]؛ لأنَّ منها بعثَ الله أكثرَ الأنبياء، وهي أيضاً كثيرة الخِصب والثمر[٥]، عذبةُ الماء، ومنها يتفرَّق في الأرض؛ قال أبو العالية: ليس ماءٌ عذبٌ إلَّا يهبطُ من السماء إلى الصخرة التي ببيت المقدس، ثم يتفرَّق في الأرض[٦]. ونحوه عن كعب الأحبار[٧]. وقيل: الأرض المباركة مصر.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: زيادة؛ لأنه دعا في إسحاق، وزِيْدَ يعقوب[٨] من غير دعاء، فكان ذلك نافلةً، أي: زيادة على ما سأل؛ إذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]. ويقال لولد الولد: نافلة؛ لأنه زيادةٌ على الولد.

= ١٧/ ٧٠ أن المعوَّل عليه في تفسير الآية: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي: أخْسَرَ مِنْ كلِّ خاسر، حيث عاد سعيُهم في إطفاء نور الحقِّ قولاً وفعلاً برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحقّ، وهم على الباطل، وموجِباً لارتفاع درجته عليه السلام، واستحقاقهم لأشدِّ العذاب.

(١) في النسخ: لوط، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١١ عن أبي بن كعب والحسن وقتادة وغيرهم، ولم نقف عليه عن ابن عباس. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٦٨ ، وهذا قول الأكثر .اهـ. واختاره الطبري ١٦/ ٣١٥ وقال: لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١٤ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٤ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): النمو.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١٤ . وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٩ : وهذا ضعيف.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٤ .

(٨) المثبت من (خ) و(ظ)، وفي باقي النسخ: وزيد في يعقوب.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: وكلًّا من إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله. وجَعْلُهم صالحين إنما يتحقَّق بخَلْقِ الصلاح والطاعة لهم، وبخَلْقِ القدرة على الطاعة، ثم ما يكتسبُه العبدُ فهو مخلوقٌ لله تعالى[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: رؤساء يُقتدَى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات. ومعنى «بِأَمْرِنَا» أي: بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، فكأنه قال: يهدون بكتابنا. وقيل: المعنى: يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إيَّاهم بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: أن يفعلوا الطاعات. ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: مطيعين.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ «لوطاً» منصوبٌ بفعلٍ مضمَرٍ دلَّ عليه الثاني، أي: وآتينا لوطاً آتيناه. وقيل: واذكر لوطاً. والحُكْم: النبوَّة، والعلم: المعرفةُ بأمر الدِّين وما يقع به الحُكْم بين الخصوم. وقيل: «عِلْماً»: فهماً، والمعنى واحد.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يريد سَدُوم. ابنُ عباس: كانت سبعَ قُرَى، قَلَبَ جبريلُ عليه السلام ستةً وأبقى واحدةً للوطٍ وعيالِه، وهي زُغَر[2] التي فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حدِّ الشراة[3]، ولها قرى كثيرةٌ إلى حدِّ بحر الحجاز.

---

(١) في (ظ): فإن ما يكتسبه العبد مخلوق لله تعالى.

(٢) على وزن زُفَر، ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/ ١٤٢ و ٤١١، وقال في الموضع الثاني: وهي البحيرة المقلوبة وبقية مدائن لوط، وإنها نجت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة. وذكر الخبر أبو الليث ٢/ ١٣٧ - ١٣٨ بنحوه دون نسبة.

(٣) في النسخ الخطية: السراة، والمثبت من (م). قال ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٣٣٢: الشراة: صُقْع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ. وذكر البكري في معجم ما استعجم ٢/ ٦٩٩ بيت حاتم الطائي: =

وفي الخبائث التي كانوا يعملونها قولان: أحدهما: اللِّواط، على ما تقدَّم. والثاني: الضُّراط[١]، أي: كانوا يَتَضارَطُون في ناديهم ومجالسهم. وقيل: الضُّراط وحَذْفُ الحصى، وسيأتي[٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، والفُسوقُ: الخروجُ، وقد تقدَّم[٣].

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ في النبوّة. وقيل: في الإسلام. وقيل: الجنة. وقيل: عنَى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: واذكر نوحاً إذ نادى، أي: دعا. «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبلِ إبراهيمَ ولوطٍ، على قومه وهو قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وقال لمَّا كذبوه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: من الغرق. والكَرْبُ: الغمُّ الشديد. «وأَهْلَهُ» أي: المؤمنين منهم. ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قال أبو عبيدة: «مِن» بمعنى على[٤]. وقيل: المعنى: فانتقمنا له من القوم الذينَ كذَّبوا بآياتنا .﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: الصغير منهم والكبير.

= سقى الله ربُّ الناس سحًّا وديمة جنوبَ الشَّراة من مآبَ إلى زُغَر

وقال: الشراة أرض في ناحية الشام، ومآب موضع هناك.

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٥٥ .

(٢) عند تفسير الآية (٢٩) من سورة العنكبوت.

(٣) ١/ ٣٦٨ .

(٤) ذكره عن أبي عبيدة البغوي ٣/ ٢٥٢ ، والرازي ٢٢/ ١٩٤ ، والطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٤٧ ، ولم نقف عليه في مجاز القرآن له.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

فيه ست وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ أي: واذكرهما إذ يحكمان، ولم يُرِدْ بقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ الاجتماعَ في الحُكْم؛ وإنْ جَمَعَهما في القول؛ فإنَّ حَكَمين على حُكْم واحدٍ لا يجوز. وإنَّما حَكَمَ كلُّ واحدٍ منهما على انفراده، وكان سليمانُ الفاهِمَ لها بتفهيم الله تعالى إياه[1].

﴿فِى ٱلْحَرْثِ﴾ اختُلف فيه على قولين: فقيل: كان زرعاً؛ قاله قتادة. وقيل: كَرْماً نبتت[2] عناقيده؛ قاله ابن مسعود وشُريح[3]. والحرثُ يقال فيهما، وهو في الزرع أبعدُ من الاستعارة[4].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: رَعَتْ فيه ليلاً، والنَّفْشُ: الرَّعْيُ بالليل. يقال: نَفَشَتْ بالليل وهَمَلت بالنهار: إذا رعت بلا راعٍ. وأَنْفَشَها صاحبُها. وإبلٌ نُفَّاش[5]. وفي حديث عبد الله بن عمرو. الحبةُ في الجنة مِثْلُ كَرِش البعير يبيت نافِشاً، أي: راعياً[6]. حكاه الهَرويّ. وقال ابن سِيْدَه: لا يقال الهَمَل في الغنم، وإنما هو في الإبل[7].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٤ .

(٢) في (ظ): تدلت.

(٣) أخرج قولهما وقول قتادة الطبري ١٦/ ٣٢٠-٣٢١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٩١ .

(٥) الصحاح (نفش) ، وقال الجوهري: ولا يكون النفش إلا بالليل، والهمل يكون ليلاً ونهاراً.

(٦) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث ٢/ ١٢٠ ، والزمخشري في الفائق ٤/ ١٤ ، وابن الأثير في النهاية (نفش).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ .

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان. وقيل: المرادُ الحاكمان والمحكومُ عليه؛ فلذلك قال: «لِحكمِهِم».

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فهَّمناه القضيةَ والحكومة، فكَنَى عنها؛ إذ سبق ما يدلُّ عليها. وفَضَلَ حُكْمُ سليمانَ حُكْمَ أبيه في أنه أحرز أن يبقى مِلْك[1] كلٍّ واحدٍ منهما على متاعه، وتبقى نفسه طيبةً بذلك. وذلك أنَّ داودَ عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث. وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث، والحرثَ إلى صاحب الغنم.

قال ابن عطية[2]: فيُشْبِهُ على القول الواحد أنه رأى الغنم تُقاوِمُ الغلَّةَ التي أفسدت. وعلى القول الثاني رآها تقاومُ الحرث والغلَّة. فلمَّا خرج الخصمان على سليمانَ، وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخرَ، فقال: بمَ قضى بينكما نبيُّ الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فقال: لعلَّ الحكم غيرُ هذا، انصرفا معي. فأتى أباه فقال: يا نبيَّ الله، إنك حكمتَ بكذا وكذا، وإنِّي رأيتُ ما هو أَرْفَقُ بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث[3]، فينتفع بألبانها وسُمُونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرعُ إلى حاله التي أصابته الغنم عليها[4] في السنة المقبلة، ردَّ كلُّ واحدٍ منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفِّقت يا بنيَّ، لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما[5].

---

(١) قوله: ملك، من (ز) و(خ) والمحرر الوجيز ٤/ ٩١ ، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٩١ ، وما قبله منه.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): الزرع.

(٤) قوله: عليها، من (خ).

(٥) أخرجه عن ابن مسعود ومجاهد وغيرهما الطبري ١٦/ ٣٢٢-٣٢٨ .

وقال الكلبيُّ: قوَّم داود الغنم والكرم الذي أفسدته الغنم، فكانت القيمتان سواءً، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريباً منه. وأمَّا في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمةُ ما نال من الغنم وقيمةُ ما أفسدت الغنم سواءً أيضاً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ تأوَّل قومٌ أنَّ داودَ عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أُوتي الحُكْمَ والعلم، وحملوا قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ على أنه فضيلةٌ له على داودَ، وفضيلتُه راجعةٌ إلى داود، والوالدُ تَسُرُّه زيادةُ ولده عليه.

وقالت فرقة: بل لأنه لم يُصِب العينَ المطلوبة في هذه النازلة، وإنَّ ما مَدَحه الله بأنَّ له حكماً وعلماً يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأمَّا في هذه فأصاب سليمانُ وأخطأ داودُ عليهما الصلاة والسلام، ولا يمتنع وجودُ الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يُقَرُّون عليه، وإن أُقِرَّ عليه غيرهم[1].

ولمَّا هدم الوليد كنيسة دمشق، كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تَرْكَها، فإنْ كنتَ مصيباً فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيباً فقد أخطأتَ أنت! فأجابه الوليد: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾[2].

وقال قوم: كان داودُ وسليمانُ ـ عليهما السلام ـ نبيَّينِ يقضيان بما يوحَى إليهما، فحَكَمَ داود بوحيٍ، وحَكَم سليمان بوحيٍ نَسخ الله به حُكْم داود، وعلى هذا «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ»، أي: بطَريق الوحي الناسخ لمَا أُوحي إلى داود، وأُمر سليمان أن يبلِّغ ذلك داود؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾. هذا قولُ جماعةٍ من

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٥٧ .

(٢) العقد الفريد ٢/ ٢٠٢ ، وأخرجه ابن عساكر ٢/ ٢٥٩ و ٦٣/ ١٧٧ .

العلماء، ومنها ابن فوركَ[١].

وقال الجمهور: إنَّ حُكْمهما كان باجتهادٍ وهي:

السادسة: واختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء؛ فمنَعَه قوم، وجوَّزه المحقِّقون[٢]؛ لأنه ليس فيه استحالةٌ عقلية؛ لأنه دليلٌ شرعيٌّ، فلا إحالةَ أن يستدلَّ به الأنبياء، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنِّك كذا؛ فاقطَعْ بأنَّ ما غلب على ظنِّك هو حُكْمي؛ فبلِّغه الأمة، فهذا غيرُ مستحيلٍ في العقل.

فإن قيل: إنَّما يكون دليلاً إذا عُدم النصُّ[٣]، وهم لا يعدمونه.

قلنا: إذا لم ينزل المَلَكُ فقد عُدِمَ النصُّ عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم. والفرقُ بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الغلط والخطأ. وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرُهم ليس كذلك[٤]. هذا مذهبُ[٥] الجمهور في أنَّ جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم.

وذهب أبو علي ابن أبي هريرة[٦] من أصحاب الشافعيِّ إلى أنَّ نبيَّنا ﷺ مخصوصٌ منهم في عدم جواز الخطأ عليه[٧]، وفرَّق بينه وبين غيره من الأنبياء: أنه لم يكن بعده

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩١.

(٢) المفهم ٥/ ١٧٦.

(٣) وقع في المفهم ٥/ ١٦٧ (والكلام منه): إن الاجتهاد إنما يسوغ عند فَقْد النص، بدل قوله: إنما يكون دليلاً إذا عدم النص.

(٤) المفهم ٥/ ١٧٦.

(٥) في (م): كما ذهب، وفي (خ): هذا جواب.

(٦) الحسن بن الحسين البغدادي القاضي، شيخ الشافعية، انتهت إليه رئاسة المذهب، توفي سنة (٣٤٥ هـ). السير ١٥/ ٤٣٠.

(٧) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في جواز الخطأ عليهم، وفي النكت والعيون ٣/ ٤٥٧ (والكلام منه): بجواز الخطأ عليهم دونه.

مَن يستدرك غلطَه، ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بُعِث بعدَ غيره من الأنبياء مَن يستدرك غلطَه.

وقد قيل: إنه على العموم في جميع الأنبياء، وإنَّ نبيَّنا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجويز الخطأ على سواء، إلَّا أنهم لا يُقَرُّون على إمضائه، فلم يعتبر فيه استدراك مَن بعدَهم من الأنبياء.

هذا رسول الله ﷺ وقد سألته امرأةٌ عن العِدَّة، فقال لها: «اعتدِّي حيث شئتِ» ثم قال: «امكُثي في بيتك حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه»[١]. وقال له رجلٌ: أرأيتَ إن قُتِلتُ صابراً محتسباً، أيحجُزني عن الجنة شيء؟ فقال: «لا». ثم دعاه فقال: «إلَّا الدَّين، كذا أخبرني جبريل»[٢].

السابعة: قال الحسن: لولا هذه الآيةُ لرأيت القضاةَ هَلَكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعَذَر داود باجتهاده[٣]. وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا اختلفوا، فقالت فرقة: الحقُّ في طرفٍ واحدٍ عند الله، وقد نَصَبَ على ذلك أدلةً، وحَمَلَ المجتهدين على البحث عنها، والنظرِ فيها، فَمَن صادفَ العين المطلوبة في المسألة فهو المصيبُ على الإطلاق، وله أجران؛ أجرٌ في الاجتهاد، وأجرٌ في الإصابة، ومَن لم يصادفها فهو مصيبٌ في اجتهاده؛ مخطئٌ في أنْ لم يُصب العينَ، فله أجرٌ وهو غيرُ معذور. وهذا سليمانُ قد صادف العين المطلوبة، وهي التي فهم. ورأت فرقة[٤] أنَّ العالم المخطئَ لا إثمَ عليه في خطئه، وإن كان غيرَ معذور.

---

(١) النكت والعيون٣/ ٤٥٧-٤٥٨، والحديث أخرجه مطولاً أحمد (٢٧٠٨٧)، وأبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤) من حديث فُرَيْعة بنت مالك رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٥٤٢)، ومسلم (١٨٨٥) من حديث أبي قتادة ﷺ. وأخرجه أحمد (٨٠٧٥) والنسائي في المجتبى ٦/ ٣٣-٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ. والكلام من النكت والعيون ٣/ ٤٥٨.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٨.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٩١ (والكلام منه): ورأت هذه الفرقة.

وقالت فرقة: الحقُّ في طرفٍ واحدٍ، ولم يَنصِب الله تعالى عليه دليلاً، بل وَكَل الأمر إلى نظر المجتهدين، فَمَن أصابه أصاب، ومَن أخطأ فهو معذورٌ مأجور، ولم[1] نُتعبَّد بإصابة العين، بل تُعُبِّدْنا بالاجتهاد فقط.

وقال جمهور أهل السُّنة ـ وهو المحفوظُ عن مالك وأصحابه ﷺ ـ: إنَّ الحقَّ في مسائل الفروع في الطَّرفين، وكلُّ مجتهدٍ مُصيبٌ، والمطلوبُ إنما هو الأفضلُ في ظنِّه، فكلُّ مجتهدٍ قد أدَّاه نظرهُ إلى الأفضل في ظنِّه؛ والدليلُ على هذه المقالة أنَّ الصحابة فَمَن بَعْدَهم قرَّر بعضهم خلافَ بعض، ولم يَرَ أحدٌ منهم أن يقع الانحمالُ على قوله دون قولِ مُخالفه. ومنه ردُّ مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حَمْل الناس على «الموطأ»، فإذا قال عالمٌ في أمرٍ [ما]: حلالٌ، فذلك هو الحقُّ فيما يختصُّ بذلك العالم عند الله تعالى، وبكلِّ مَن أخذ بقوله، وكذا في العكس. قالوا: وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المُثْلَى والتي هي أرجح، فالأُولى ليست بخطأ، وعلى هذا يحمِلون قولَه عليه الصلاة والسلام: «إذا اجتهد العالم فأخطأ» أي: فأخطأ الأفضلَ[2].

الثامنة: روى مسلم وغيره[3] عن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «إذا حَكَم الحاكمُ فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ، فله أجر». هكذا لفظُ الحديث في كتاب مسلم: «إذا حَكَم فاجتهد»[4]، فبدأ بالحُكْم قبل الاجتهاد، والأمرُ بالعكس، فإنَّ الاجتهاد مقدَّمٌ على الحكم، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع. وإنَّما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾. فعند ذلك يجتهد في النازلة. ويفيد هذا صحةَ ما

---

(١) في (ظ): فإنا لم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٩١-٩٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وسيأتي تخريج الحديث في المسألة التالية.

(٣) صحيح مسلم (١٧١٦)، وهو عند أحمد (١٧٧٧٤) و(١٧٨١٦) ، والبخاري (٧٣٥٢).

(٤) وهو لفظه أيضاً عند أحمد والبخاري.

قاله الأُصوليون: إنَّ المجتهد يجب عليه أن يجدِّد نظراً عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدِّم؛ لإمْكانِ أنْ يَظهر له ثانياً خلافُ ما ظهر له أوَّلاً، اللهمَّ إلَّا أنْ يكون ذاكراً لأركان اجتهاده، مائلاً إليه، فلا يحتاج إلى استئنافِ نظرٍ في أمارةٍ أخرى[١].

التاسعة: إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسُّنَن والقياس، وقضاءِ مَن مضى؛ لأنَّ اجتهاده عبادةٌ، ولا يؤجَر على الخطأ، بل يوضع عنه الإثم فقط، فأمَّا مَن لم يكن محلًا للاجتهاد فهو متكلِّفٌ لا يُعذر بالخطأ في الحكم، بل يُخاف عليه أعظمُ الوِزْر. يدلُّ على ذلك حديثُه الآخَر، رواه أبو داود: «القضاةُ ثلاثة»[٢] الحديث. قال ابن المنذر: إنَّما يؤجَر على اجتهاده في طلب الصَّواب، لا على الخطأ، ومما يؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ الآيةَ. قال الحسن: أثنى على سليمان ولم يذمَّ داود.

العاشرة: ذكر أبو التمام المالكيّ[٣] أنَّ مذهب مالك: أنَّ الحقَّ في واحدٍ من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك في أقاويل المختلفين. وبه قال أكثر الفقهاء. قال: وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكاً عن اختلاف الصحابة، فقال: مخطئٌ ومُصيب، وليس الحقُّ في جميع أقاويلهم. وهذا القول قيل: هو المشهورُ عن مالك، وإليه ذهب محمد بن الحسن. واحتجَّ مَن قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو؛ قالوا: وهو نصٌّ

---

(١) المفهم ٥/ ١٦٧ .

(٢) سنن أبي داود (٣٥٧٣)، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥) من حديث بريدة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار؛ فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحقَّ فقضى به، ورجلٌ عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار». لفظ أبي داود.

(٣) علي بن محمد بن أحمد البصري، من أصحاب الأبهري، له كتاب مختصر في الخلاف يسمى نكت الأدلة، وله كتاب آخر في الخلاف كبير، وكتاب في أصول الفقه. ترتيب المدارك ٤/ ٦٠٥ ، والديباج المذهب ٢/ ١٠٠ . وكلامه ذكره الباجي في إحكام الفصول في أحكام الأصول ص٧٠٧ .

على أنَّ في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئاً ومصيباً[١]. قالوا: والقولُ بأنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ يؤدِّي إلى كون الشيء حلالاً حراماً، وواجباً ندباً.

واحتجَّ أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر؛ قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يومَ انصرف من الأحزاب: «ألَا لا يصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلَّا في بني قُرَيظَة». فتخوَّف ناسٌ فَوْتَ الوقت، فصلَّوا دون بني قُرَيظة، وقال الآخَرون: لا نصلِّي إلا حيث أمَرَنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنَّف واحداً من الفريقين[٢]. قالوا: فلو كان أحد الفريقين مخطئاً لعيَّنه النبيُّ ﷺ.

ويمكن أن يقال: لعلَّه إنما سكت عن تعيين المخطئ[٣] لأنه غيرُ آثمٍ بل مأجور، فاستغنى عن تعيينه. والله أعلم. ومسألةُ الاجتهاد طويلةٌ متشعِّبةٌ، وهذه النُّبذةُ التي ذكرناها كافيةٌ في معنى الآية، والله الموفِّق للهداية.

الحادية عشرة: ويتعلَّق بالآية فصلٌ آخَرُ: وهو رجوعُ الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهادٍ آخَرَ أرجحَ من الأوّل، فإنَّ داود عليه السلام فَعَلَ ذلك. وقد اختلف في ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّفٌ في «الواضحة»: ذلك له ما دام في ولايته، فأمَّا إن كانت ولايةٌ أخرى فليس له ذلك، وهو بمنزلة غيره من القضاة. وهذا هو ظاهرُ قول مالكٍ رحمه الله في «المدونة».

وقال سحنون في رجوعه من اجتهادٍ فيه قولٌ إلى غيره مما رآه أصوبَ: ليس له ذلك. وقاله ابن عبد الحكم. قالا: ويَستأنف الحكم بما قويَ عنده. قال سحنون: إلَّا أن يكون نسيَ الأقوى عنده، أو وَهَمَ فحَكَم بغيره، فله نَقْضُه، وأمَّا إن حكم بحكمٍ هو الأقوى عنده في ذلك الوقتِ، ثم قويَ عنده غيرُه بعد ذلك، فلا سبيلَ إلى نقض الأوّل؛ قاله سحنون في كتاب ابنه.

---

(١) إحكام الفصول ص٧١٠، وينظر جامع بيان العلم ٢/ ٨٨٥.

(٢) أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

(٣) في النسخ: المخطئين، والمثبت من المفهم ٥/ ١٧٥، والكلام منه.

وقال أشهبُ في كتاب ابن المَوَّاز: إن كان رجوعه إلى الأصوب في مالٍ فله نقضُ الأوّل، وإن كان في طلاقٍ أو نكاحٍ أو عتقٍ فليس له نَقْضُه[1].

قلت: رجوعُ القاضي عمَّا حَكَم به إذا تبيَّن له أنَّ الحقَّ في غيره ما دام في ولايته أَوْلَى. وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما[2]؛ رواها الدارقطنيّ[3]، وقد ذكرناها في «الأعراف»[4] ولم نفصِّل[5]، وهي الحجة لظاهِرِ قولِ مالك. ولم يختلف العلماء أنَّ القاضيَ إذا قضى تجوُّزاً وبخلاف أهل العلم، فهو مردودٌ وإن كان على وجه الاجتهاد، فأمَّا أن يتعقَّب قاضٍ حُكْمَ قاضٍ آخَرَ فلا يجوز ذلك له؛ لأنَّ فيه مضرةً عُظْمَى من جهة نقضِ الأحكام، وتبديل الحلال بالحرام، وعَدَمِ ضبط قوانين الإسلام، ولم يتعرَّض أحدٌ من الخلفاء[6] لنقض ما رآه[7] الآخَر، وإنما كان يَحكُم بما يَظْهَر له.

الثانية عشرة: قال بعض الناس: إنَّ داود عليه السلام لم يكن أَنْفَذَ الحكم وظَهَر له ما قال غيره. وقال آخرون: لم يكن حُكْماً وإنما كانت فتيا[8].

قلت: وهكذا تَأَوَّلَ[9] فيما رواه أبو هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهُما جاء الذئبُ فذهبَ بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢، وينظر المدونة ٥/ ١٤٤، والنوادر والزيادات ٨/ ٩٧ - ٩٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥.

(٣) برقم (٤٤٧١)، وجاء فيها: ...لا يمنعك قضاءٌ قضيتَه راجعتَ فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك أن تُراجع الحقَّ؛ فإن الحق قديم، ومراجعةُ الحق خيرٌ من التمادي في الباطل...

(٤) ٩/ ١٦٨.

(٥) في النسخ عدا (د): يفصل، والمثبت من (د).

(٦) في (م): العلماء، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ والكلام منه.

(٧) في (م): رواه، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥.

(٩) في (م): تؤول.

إنَّما ذهب بابنك أنتِ. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتَحاكَمتا إلى داودَ، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمانَ بنِ داود عليهما السلام فأَخْبرَتاه، فقال: ائتوني بالسكِّين أشقُّه بينكما، فقالت الصغرى: لا - يرحمكَ الله - هو ابنُها. فقضى به للصغرى» قال أبو هريرة: [واللهِ] إنْ سمعتُ بالسِّكِّين قطُّ إلَّا يومئذٍ، ما كنَّا نقول إلَّا المُدْية؛ أخرجه مسلم[1].

فأمَّا القولُ بأنَّ ذلك من داود [كان] فتيا فهو ضعيف؛ لأنه كان النبيَّ، وفُتياه حُكْمٌ. وأمَّا القولُ الآخَرُ فبعيدٌ[2]؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ فبيَّن أنَّ كلَّ واحدٍ منهما كان قد حَكم[3]. وكذا قولُه في الحديث: فقضى به للكبرى، يدلُّ على إنفاذ القضاء وإنجازه.

ولقد أَبْعَدَ من قال: إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى، [وهذا أيضاً فاسد؛ لأنَّ اللفظ ليس نصًّا في ذلك، و] لأنَّ الكبر والصغر طَرْدٌ مَحْضٌ عند الدعاوى، كالطُّول والقِصَر والسَّواد والبياض، وذلك لا يوجب ترجيحَ أحد المتداعِيَيْن حتى يُحكَم له أو عليه لأجل ذلك. وهذا مما يَقْطَع به مَن فَهِمَ ما جاءت به الشرائع.

والذي ينبغي أن يقال: إنَّ داود عليه السلام إنَّما قضى به للكبرى لسببٍ اقتضى عنده ترجيحَ قولها، ولم يُذكر في الحديث تعيينُه[4] إذ لم تَدْعُ حاجةٌ إليه، فيمكن أن [يقال: إنَّ] الولد كان بيدها، وعَلِمَ عَجْزَ الأخرى عن إقامة البينة، فقضى به لها إبقاءً لمَا كان على ما كان. وهذا التأويلُ أحسنُ ما قيل في هذا الحديث. وهو الذي تشهد له

---

(١) في صحيحه (١٧٢٠)، وهو عند أحمد (٨٢٨٠)، والبخاري (٣٤٢٧)، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) في (د) و(م): فيبعد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) في (ڈ): بعينه.

قاعدةُ الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلافُ الشرائع فيها.

لا يقال[١]: فإنْ كان داود قضى بسببٍ شرعيٍّ، فكيف ساغ لسليمانَ نَقْضُ حكمه؟ فالجواب: أنَّ سليمان عليه السلام لم يتعرَّض لحكم أبيه بالنَّقْض، وإنَّما احتال حيلةً لطيفةً ظهر له بسببها صدقُ الصغرى، وهي أنه لمَّا قال: هاتِ السكينَ أشقُّه بينكما، قالت الصغرى: لا. فظهر له من قرينة الشفقة في الصغرى، وعُدْمِ ذلك في الكبرى، مع ما عساه انضاف إلى ذلك من القرائن، ما حصل له العلم بصِدْقها فحكم لها. ولعلَّه كان ممن سوِّغ له أن يحكم بعلمه[٢].

وقد ترجم النَّسائيُّ على هذا الحديث: حكم الحاكم بعلمه. وتَرجَم له أيضاً: السعة للحاكم أن يقول للشيء الذي لا يَفعله أَفْعلُ ليستبين الحقّ. وتَرجم له أيضاً: نَقْضُ الحاكم ما يَحكم به غيرُه ممن هو مِثْلُه أو أَجَلُّ منه[٣].

ولعل الكبرى اعترفت بأنَّ الولد للصغرى عندما رأت من سليمان الحزمَ والجِدَّ في ذلك، فقضى بالولد للصغرى. ويكونُ هذا كما إذا حَكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف؛ حَضَر مَن استخرج من المنكِر ما أوجب إقرارَه، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبعدها، ولا يكون ذلك من باب نَقْضِ الحكم الأوّل، لكنْ من باب تبدُّل الأحكام بحسب تبدُّل الأسباب. والله أعلم[٤].

وفي هذا الحديث من الفقه: أنَّ الأنبياء سوِّغ لهم الحكم بالاجتهاد، وقد ذكرناه[٥].

وفيه من الفقه: استعمالُ الحكَّام الحيلَ التي تُستخرج بها الحقوق، وذلك يكون

(١) في المفهم ٥/ ١٧٦ (والكلام وما سلف بين حاصرتين منه): فإن قيل.

(٢) المفهم ٥/ ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٣٤ و٢٣٦ .

(٤) المفهم ٥/ ١٧٦ .

(٥) في المسألة السادسة، والكلام من المفهم ٥/ ١٧٦ .

عن قوّة الذكاء والفطنة، وممارسةِ أحوال الخَلْق؛ وقد يكون في أهل التقوى فِراسةٌ دينية، وتوسُّماتٌ نُورية، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء. وفيه الحجة لمن يقول: إنَّ الأمَّ تُستلحَق، وليس مشهورَ مذهب مالك[١]، وليس هذا موضعَ ذكره. وعلى الجملة فقضاءُ سليمانَ في هذه القصة تضمَّنها مَدْحُه تعالى له بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾.

الثالثة عشرة: قد تقدَّم القول في الحرث[٢]، والحكمُ في هذه الواقعة في شرعنا: أنَّ على أصحاب المواشي حفظها بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار، ثم الضمانُ في المِثْل بالمِثْليَّات، وبالقيمة في ذوات القيم. والأصلُ في هذه المسألة في شرعنا ما حَكَم به نبيُّنا ﷺ في ناقة البراء بن عازب؛ رواه مالك، عن ابن شهاب، عن حرام بن سعد بن مُحيِّصة: أنَّ ناقةً للبراء دخلت حائطَ رجلٍ فأفسدتْ فيه، فقضى رسول الله ﷺ أنَّ على أهل الحوائط حفظَها بالنهار[٣]، وأنَّ ما أفسدت المواشي بالليل ضامنٌ على أهلها[٤].

هكذا رواه جميع رواة [الموطأ][٥] مرسَلاً. وكذلك رواه أصحابُ ابن شهاب عن ابن شهاب، إلَّا ابنَ عيينة، فإنه رواه عن الزهري عن سعيد [بن المسيب] وحرام بن سعد بن مُحيِّصة: أنَّ ناقة، فذكر مثلَه بمعناه[٦].

ورواه ابن أبي ذئبٍ عن ابن شهاب: أنه بلغه أنَّ ناقةً للبراء دخلت حائط قوم،

---

(١) المفهم ٥/ ١٧٧ .

(٢) في المسألة الأولى.

(٣) في النسخ: بالليل، وهو خطأ.

(٤) الموطأ ٢/ ٧٤٧ ، وأخرجه موصولاً أحمد (١٨٦٠٦) و(٢٣٦٩١)، وأبو داود (٣٥٧٠)، وابن ماجه (٢٣٣٢).

(٥) في النسخ: جميع الرواة، والمثبت من التمهيد ١١/ ٨١ ، والاستذكار ٢٢/ ٢٥١ . والكلام وما بين حاصرتين منهما.

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٦٩٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦١٦٠)، والبيهقي ٨/ ٣٤٢ ، وابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٩ من طريق ابن عيينة بالإسناد المذكور.

مثلَ حديث مالك سواء، إلَّا أنه لم يذكرُ حرام بنَ سعد بن محيصة ولا غيره. قال أبو عمر[١]: ولم يصنع ابن أبي ذئب شيئاً؛ لأنه[٢] أفسد إسناده. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهريِّ، عن حرام بن محيِّصةَ، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ، ولم يتابَع عبد الرزاق على ذلك، وأنكروا عليه قولَه: عن أبيه[٣].

ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال: حدثني أبو أمامَة بنُ سهل بنِ حنيف: أنَّ ناقةً دخلت في حائط قومٍ فأفسدت[٤]. فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة، ولم يَذكر أنَّ الناقة كانت للبراء. وجائزٌ أن يكون الحديث عند[٥] ابن شهاب عن ابن مُحيِّصة، وعن سعيد بن المسيِّب، وعن أبي أمامة، والله أعلم. فحدَّث به عمَّن شاء منهم على ما حَضَره، وكلُّهم ثقات.

قال أبو عمر[٦]: وهذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو حديثٌ مشهورٌ أرسله الأئمة، وحدَّث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقَّوه بالقبول، وجرى في المدينة العملُ به، وحَسْبُكَ باستعمال أهل المدينة وسائرِ أهل الحجاز لهذا الحديث.

الرابعة عشرة: ذهب مالكٌ وجمهورُ الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعةٌ من الكوفيين إلى أنَّ هذا الحكم منسوخ، وأنَّ البهائم إذا أفسدت زرعاً في ليلٍ أو نهارٍ أنه لا يلزم صاحبَها شيء، وأَدْخَلَ فسادها في عموم قوله ﷺ: «جُرحُ العَجْماءِ جُبَارٌ»، فقاس جميعَ أفعالها على جرحها. ويقال: إنه ما تقدَّم أبا حنيفةَ أحدٌ بهذا القول[٧]، ولا حجةَ له ولا لمَن تَبعه في حديث العجماء،

---

(١) في التمهيد ١١/ ٨١.

(٢) في (م): إلا أنه، والمثبت من النسخ الخطية والتمهيد.

(٣) التمهيد ١١/ ٨١، والحديث في مصنف عبد الرزاق (١٨٤٣٧)، ومن طريقه أخرجه أبو داود (٣٥٦٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٨٤٣٨).

(٥) في (م): عن، والمثبت من النسخ الخطية والاستذكار ٢٢/ ٢٥١، والكلام منه.

(٦) في التمهيد ١١/ ٨٢.

(٧) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٠١ - ٥٠٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٢ - ٩٣، وقوله: «جرح العجماء جبار» قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧١٢٠)، والبخاري (٦٩١٢)، ومسلم (١٧١٠) عن أبي هريرة ﷺ. والجبار: الذي لا قَوَد فيه ولا دية ولا شيء. المفهم ٥/ ١٤٤.

وكونِه ناسخاً لحديث البراء ومُعارضاً له؛ فإنَّ النَّسْخَ شروطُه معدومة، والتعارُضُ إنما يصحُّ إذا لم يمكن[1] استعمالُ أحدهما إلَّا بنفي الآخَر، وحديثُ: «العجماءُ جُرْحُها جُبَار» عمومٌ متفقٌ عليه، ثم خُصَّ منه الزرع والحوائط بحديث البراء؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لو جاء عنه في حديث واحد: العجماءُ جُرْحُها جُبَارٌ نهاراً لا ليلاً، وفي الزرع والحوائط والحرث [دون غيره]، لم يكن هذا مستحيلاً من القول، فكيف يجوز أن يقال في هذا: متعارض؟! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكورٌ في الأصول.

الخامسة عشرة: إن قيل: ما الحكمةُ في تفريق الشارع بين الليل والنهار؟ وقد قال الليث بن سعد: يضمَن أربابُ المواشي بالليل والنهار كلَّ ما أفسدتْ[2]، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية؟

قلنا: الفرقُ بينهما واضح، وذلك أنَّ أهل المواشي بهم ضرورةٌ إلى إرسال مواشيهم لترعى بالنهار، والأغلبُ عندهم أنَّ مَن عنده زرعٌ، يتعاهدُه بالنهار ويحفظُه عمَّن أراده، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع؛ لأنه وقتُ التصرُّف في المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كلُّ شيء إلى موضعه وسكنه، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، ويردُّ أهل المواشي مواشيَهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرَّط صاحبُ الماشية في ردِّها إلى منزله، أو فرَّط في ضَبْطِها وحَبْسِها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئاً، فعليه ضمانُ ذلك[3]، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح،

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): يكن، والمثبت من (خ) و(م) والتمهيد ١١/ ٨٦ ، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٤ ، والاستذكار ٢٢/ ٢٥٥ بلفظ: يضمن ربُّ الماشية ما أفسدت بالليل والنهار...

(٣) التمهيد ١١/ ٨٦ - ٨٧ .

وكان ذلك أرفقَ بالفريقين، وأسهلَ على الطائفتين، وأحفظَ للمالين، وقد وضح الصبحُ لذي عينين، ولكن لسليم الحاسَّتين.

وأمَّا قولُ الليث: لا يضمن أكثرَ من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر: لا أعلم مِن أين قال هذا الليثُ بن سعد؟ إلَّا أنْ يجعله قياساً على العبد الجاني [أنه] لا يُفْتَكُّ بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيدَه في جنايته أكثرُ من قيمته، وهذا ضعيفُ الوجه. كذا قال في «التمهيد»[١]. وقال في «الاستذكار»[٢]: فخالَفَ الحديثَ في «العجماءُ جرحُها جبار»، وخالَفَ [حديثَ] ناقةِ البراء، وقد تقدَّمه إلى ذلك طائفةٌ من العلماء؛ منهم عطاء؛ قال ابن جريج: قلتُ لعطاء: الحرثُ تصيبه الماشيةُ ليلاً أو نهاراً؟ قال: يضمن صاحبها ويغرم. قلت: كان عليه حَظْرٌ أو لم يكن؟ قال: نعم. قلت: ما يغرم؟ قال: قيمة ما أكل حماره ودابَّتُه وماشيته. وقال معمر عن ابن شُبْرُمة: يُقوَّم الزرع على حاله التي أصيب عليها دراهمَ. وروي عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: يضمن ربُّ الماشية ليلاً ونهاراً[٣]، من طرقٍ لا تصحّ.

السادسة عشرة: قال مالك: ويقوَّم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرجاء والخوف. قال: والحوائطُ التي تُحرس والتي لا تحرس، والمحظَّرُ عليها وغيرُ المحظَّرِ سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغاً ما بلغ، وإن كان أكثرَ من قيمتها. قال: وإذا انفلتت دابةٌ بالليل فوطئت على رجلٍ نائم لم يغرم صاحبها شيئاً، وإنما هذا في الحائط والزرع والحرث؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: ما أفسدت الماشية بالليل فهو في مال ربِّها وإن كان أضعافَ ثمنها؛ لأنَّ الجناية من قِبَله؛ إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم[٤].

---

(١) ١١/ ٨٤ - ٨٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ٢٢/ ٢٥٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): أو نهاراً، والمثبت من باقي النسخ والاستذكار، وخبرا عطاء وابن شبرمة أخرجهما عبد الرزاق (١٨٤٢٩) و(١٨٤٣١).

(٤) التمهيد ١١/ ٨٢ - ٨٣ .

السابعة عشرة: ولا يُستأنَى بالزَّرع أن ينبت أو لا ينبت كما يُفعل في سنِّ الصغير. وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمتُه لو حلَّ بيعه. وقال أشهبُ وابن نافع في «المجموعة» عنه: وإن لم يَبْدُ صلاحُه. ابن العربيِّ[1]: والأوّلُ أقوى لأنَّها صفته، فيقوَّم كما يقوَّم كلُّ متلَفٍ على صفته.

الثامنة عشرة: لو لم يُقْضَ للمفسَد له[2] بشيء حتى نَبَتَ وانجبر، فإن كان فيه قبلَ ذلك منفعةُ رعيٍ أو شيء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعةٌ فلا ضمان. وقال أصبغ: يضمن؛ لأنَّ التلف قد تحقَّق، والجبر ليس من جهته؛ فلا يعتدُّ له به.

التاسعة عشرة: وقع في كتاب ابن سحنون: أنَّ الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطانٌ مُحْدَقة، وأمَّا البلادُ التي هي زروعٌ متَّصلةٌ غيرُ مُحظَرة، وبساتينُ كذلك، فيضمن أربابُ النَّعم ما أفسدت من ليلٍ أو نهار. كأنه ذهب إلى أنَّ ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تعدٍّ؛ لأنها ولابدَّ تُفْسِد[3]. وهذا جنوحٌ إلى قول الليث.

الموفية عشرين: قال أصبغُ في «المدنيَّة»[4]: ليس لأهل المواشي أن يُخرجوا مواشيَهم إلى قرى الزرعِ بغير ذُوَّاد. فركَّب العلماء على هذا أنَّ البقعة لا تخلو أن تكون بقعةَ زرعٍ، أو بقعةَ سَرْحٍ؛ فإن كانت بقعةَ زرعٍ فلا تدخلها ماشيةٌ إلا ماشيةٌ تجتاح [في الزرع]، وعلى أربابها حِفْظُها، وما أفسدتْ فصاحبُها ضامنٌ ليلاً أو نهاراً. وإن كانت بقعةَ سرحٍ فعلى صاحب [الزرع] الذي حَرَثَه فيها حِفْظُه، ولا شيءَ على أرباب المواشي[5].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٧ (والكلام منه): في المفسد، بدل للمفسد له.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ .

(٤) «المدنيَّة» مجموعة كتب لعبد الرحمن بن دينار المالكي الأندلسي، سمعها منه أخوه عيسى بن دينار وعرضها على ابن القاسم. ترتيب المدارك ٣/ ١٥ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٧ - ١٢٥٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

الحادية والعشرون: المواشي على قسمين: ضَوَاري وحَريسة[١]، و عليهما قسمها مالك. فالضَّواري هي المعتادةُ للزرع والثمار، فقال مالك: تُغرَّبُ وتباع في بلدٍ لا زَرْعَ فيه؛ رواه ابن القاسم في «الكتاب» وغيره. قال ابن حبيب: وإن كره ذلك ربُّها، وكذلك قال مالك في الدابَّة التي ضَرِيَتْ[٢] إفساد الزرع: تغرَّبُ وتباع. وأمَّا ما يُستطاع الاحتراسُ منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه.

الثانية والعشرون: قال أصبغ: النَّحلُ والحمام والإوزُّ والدجاج كالماشية، لا يُمنع صاحبها من اتِّخاذها وإن أضرَّت، وعلى أهل القرية حِفْظُ زروعهم. قال ابن العربيِّ[٣]: وهذه روايةٌ ضعيفةٌ لا يُلتفت إليها، مَن أراد أن يتَّخذ ما ينتفع به مما لا يضرُّ بغيره مُكِّن منه، وأمَّا انتفاعُه بما يتَّخذه بإضراره بأحدٍ فلا سبيل إليه. قال عليه الصلاة والسلام: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ»[٤]. وهذه الضواري عن ابن القاسم في «المدنيَّة»: لا ضمانَ على أربابها إلَّا بعد التقدُّم. ابن العربيِّ: وأرى الضمان عليهم قبل التقدُّم إذا كانت ضواري.

الثالثة والعشرون: ذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الشعبيِّ: أنَّ شاةً وقعت في غزل حائكٍ، فاختصموا إلى شُرَيح، فقال الشَّعبيُّ: انظُروه فإنه سيسألهم: أليلا وقعت فيه أم[٥] نهاراً؟ ففعل، ثم قال: إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريحٌ: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: والنَّفَشُ بالليل، والهَمَل بالنهار[٦].

---

(١) الحريسة: فعيلة بمعنى مفعولة، أي: إن لها مَن يحرسها ويحفظها. والمواشي الضارية: هي المعتادة لرعي زروع الناس. النهاية (حرس) و(ضري).

(٢) أي اعتادت، ووقع بعدها في (د) و(م): في، وفي (ظ): على، والمثبت من (خ) و(ز)، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٨ ، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٨ ، وما قبله منه.

(٤) سلف ٦/ ٨١ .

(٥) في النسخ: أو، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٦) الاستذكار ٢٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣ ، والخبر في مصنف عبد الرزاق (١٨٤٣٩).

قلت: ومن هذا البابِ قولُه ﷺ: «العجماءُ جرحُها جُبَارٌ» الحديث. وقال ابن شهاب: والجُبار الهدر، والعجماء البهيمة[١]. قال علماؤنا: ظاهرُ قوله: «العجماءُ جُرْحُها جُبَار» أنَّ ما انفردت البهيمةُ بإتلافه لم يكن فيه شيءٌ، وهذا مُجْمَعٌ عليه. فلو كان معها قائدٌ أو سائقٌ أو راكبٌ، فحملها أحدهم على شيء فأتلفته، لزمه حكمُ المتلَف؛ فإن كانت جنايةً مضمونةً بالقصاص، وكان الحملُ عمداً، كان فيه القصاصُ ولا يُختلف فيه؛ لأنَّ الدابَّة كالآلة. وإن كان عن غير قصدٍ؛ كانت فيه الديةُ على العاقلة، وفي الأموال الغرامةُ في مال الجاني[٢].

الرابعة والعشرون: واختلفوا فيمَن أصابته برجلها أو ذَنَبها، فلم يضمِّن مالكٌ والليث والأوزاعيُّ صاحبها، وضمَّنه الشافعيُّ وابن أبي ليلى وابن شُبْرُمة. واختلفوا في الضَّارِيَة؛ فجمهورُهم أنَّها كغيرها، ومالكٌ وبعضُ أصحابه يضمِّنونه[٣].

الخامسة والعشرون: روى سفيان بن حسين، عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّجْلُ جُبَارٌ»[٤] قال الدارقطنيُّ: لم يَرْوِه غيرُ سفيان بنِ حسين ولم يتابَع عليه، وخالفه الحُفَّاظ عن الزُّهريِّ؛ منهم مالكٌ وابنُ عيينةَ ويونسُ ومعمرٌ وابنُ جُريج والزبيديُّ وعقيلٌ وليث بنُ سعد وغيرهم، كلُّهم رَوَوْه عن الزُّهريِّ فقالوا: «العجماءُ جُبَارٌ، والبئر جُبَارٌ، والمعدنُ جُبَار»[٥] ولم يذكروا الرِّجل، وهو الصَّواب. وكذلك رواه أبو صالح السمان، وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد بنُ سيرين، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة، لم يذكروا

---

(١) سنن الدارقطني (٣٣٠٤).

(٢) المفهم ٥/ ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٩٢)، والنسائي في الكبرى (٥٧٥٦)، والدارقطني (٣٣٠٦) و(٣٣٨٤)، وكلامه بعده فيه.

(٥) سلف تخريجه في المسألة الرابعة عشرة.

فيه: «والرِّجلُ جُبَارٌ»، وهو المحفوظُ عن أبي هريرة.

السادسة والعشرون: قولُه: «والبئر جُبار» قد رُوي موضعه: «والنار»؛ قال الدارقطنيُّ[1]: حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشميُّ، حدَّثنا حنبل بن إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بنَ حنبل يقول في حديث عبد الرزَّاق: حديثُ أبي هريرة: «والنارُ جُبَار» ليس بشيء، لم يكن في الكتاب[2]، باطلٌ ليس هو بصحيح.

حدَّثنا محمد بن مَخْلَد، حدَّثنا أبو إسحاق إبراهيم بنُ هانئ قال: سمعت أحمد ابن حنبل يقول: أهلُ اليمن يكتبون النار: النير، ويكتبون البِير ـ يعني مثلَ ذلك ـ وإنما لُقِّن عبد الرزاق: «النار جبار»[3]. قال الرَّمَاديّ[4]: قال عبد الرزاق: قال معمر: لا أراه إلّا وَهَمَاً.

قال أبو عمر: رويَ عن النبيِّ ﷺ [من] حديث مَعْمَر، عن همَّام بن مُنبِّه، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «النار جُبار»[5] وقال يحيى بن مَعِين: أصلُه: البئر، ولكنَّ معمراً صحَّفه. قال أبو عمر: لم يأتِ ابن مَعِين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا تُردُّ أحاديثُ الثقات. ذكر وكيع، عن عبد العزيز بن حصين، عن يحيى بن يحيى الغسانيِّ

(١) في سننه (٣٣٠٨).

(٢) في مطبوع سنن الدارقطني: لم يكن في الكتب.

(٣) سنن الدارقطني (٣٣٠٩)، وحديث «النار جبار» أخرجه النسائي في الكبرى (٥٧٥٧)، وابن ماجه (٢٦٧٦)، والدارقطني (٣٣٠٧) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبِّه، عن أبي هريرة به. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٤) وابن حزم في المحلى ١١/ ٢٠ ، من طريق عبد الملك الصنعاني، عن معمر به. قال الخطابي في معالم السنن ٤/ ٤٠ : لم أزل أسمع أصحاب الحديث يقولون: غلط فيه عبد الرزاق، إنما هو: البئر، حتى وجدته لأبي داود عن عبد الملك الصنعاني عن معمر، فدلَّ أن الحديث لم ينفرد به عبد الرزاق. اهـ. وقال ابن حزم: هذا خبر صحيح تقوم به الحجة. وتتمة الكلام في هذا الحديث سترد من قول ابن عبد البر رحمه الله.

(٤) هو أحمد بن منصور، وذكر قوله الداقطني إثر الحديث (٣٣٠٧)، وهو الذي رواه عن عبد الرزاق عند الدارقطني.

(٥) في الاستذكار ٢٥/ ٢١٦ - ٢١٧ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

قال: أحرق رجل تبناً[١] في قَرَاحٍ له، فخرجت شررةٌ من نارٍ حتى أحرقت شيئاً لجاره. قال: فكتبت[٢] فيه إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ[٣]، فكتب إليَّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «العجماءُ جُبار» وأرى أنَّ النار جُبَار[٤].

وقد رُوي: «والسائمةُ جُبار»[٥] بدل العجماء. فهذا ما ورد في ألفاظ هذا الحديث، ولكلٍّ معنًى لفظٌ صحيحٌ مذكورٌ في شرح الحديث وكتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ قال وَهْب: كان داودُ يمرُّ بالجبال مسبِّحاً والجبالُ تُجاوِبُه بالتسبيح، وكذلك الطير.

وقيل: كان داود إذا وجد فَترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق؛ ولهذا قال: «وَسَخَّرْنَا» أي: جعلناها بحيث[٦] تطيعه إذا أمرها بالتسبيح.

وقيل: إنَّ سيرها[٧] معه [هو] تسبيحُها، والتسبيحُ مأخوذٌ من السباحة[٨]، دليله قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال قتادة: «يُسَبِّحْنَ»: يُصلِّيْنَ معه إذا صلَّى[٩]، والتسبيحُ: الصلاة. وكلٌّ مُحتمِلٌ. وذلك فِعْلُ الله تعالى بها؛ ذلك لأنَّ الجبال لا تعقِل، فتسبيحُها دلالةٌ على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمُحْدثين.

---

(١) في (م): سافى، وفي (د): ساقى، وفي (ظ): بيتا في، والمثبت من (خ) و(ز) والاستذكار.

(٢) في النسخ: فكتب، والمثبت من الاستذكار.

(٣) بعدها في (د) و(ز) و(م): ابن حصين.

(٤) الاستذكار ٢٥/ ٢١٧، وأخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٩٧ - ٣٩٨، ومن طريقه ذكره ابن حزم في المحلى ١١/ ٢٠. والقراح: الأرض لا ماء فيها ولا شجر، أو المخلَّصة للزرع والغرس. القاموس (قرح).

(٥) أخرجه الدارمي (٢٣٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٨١٠) من حديث جابر ﷺ. وأخرجه الدارقطني (٣٣١٠) من طريق هزيل بن شرحبيل عن النبي ﷺ، مرسلاً.

(٦) قوله: بحيث، ليس في (ظ).

(٧) في (ظ): تسخيرها.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٩) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٢٨.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني اتِّخاذَ الدُّروع بإلانةِ الحديد له. واللَّبوسُ عند العرب: السلاحُ كلُّه؛ درعاً كان أو جَوْشَناً[1]، أو سيفاً أو رمحاً؛ قال الهُذَليُّ يصف رُمحاً:

ومَعِي لَبُوسٌ لِلْبَئيسِ كأنَّهُ رَوْقٌ بجبهةِ ذي نِعَاجٍ مُجْفِلِ[2]

واللَّبوسُ: كلُّ ما يُلبس، وأنشد ابن السِّكِّيت:

الْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها إمَّا نَعيمَها وإمَّا بُوسَها[3]

وأراد الله تعالى هنا الدِّرع، وهو بمعنى الملبوس، نحو الرَّكوب والحَلُوب. قال قتادة: أوّلُ مَن صنع الدروع داود، وإنَّما كانت صفائحَ، فهو أوّلُ من سَرَدَها وحَلَّقها[4].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِيُحصِنَكُم﴾: ليُحْرِزَكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: من حربكم. وقيل: من السيف والسَّهم والرمح، أي: من آلةِ بأسكم، فحذف المضاف. ابن عباس: من سلاحكم. الضحَّاك: من حرب أعدائكم[5]. والمعنى واحدٌ.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفصٌ ورَوْحٌ: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاء ردًّا على

---

(١) الجوشن: اسم الحديد الذي يلبس من السلاح. اللسان (جشن).

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٣٢٩، والهذلي هو أبو كبير عامر بن الحُلَيْس، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٩٨، وقال شارحه: ذي نعاج، يعني ثوراً. والرَّوْق: القَرْن. اهـ. والبئيس: الشجاع. القاموس (بئس).

(٣) الصحاح (لبس)، وإصلاح المنطق ص٣٦٧، والرجز لبيهس الفزاري كما في جمهرة الأمثال ٢/ ٢١٢، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٦٥٩، والخزانة ١١/ ١٠٣.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧، والطبري ١٦/ ٣٢٩.

(٥) ذكر خبر ابن عباس وخبر الضحاك الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٠.

الصَّنْعة[١]، وقيل: على اللَّبوس والمَنَعة التي هي الدروع. وقرأ شيبةُ وأبو بكر والمفضَّل ورُوَيس وابن أبي إسحاق: «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون[٢]؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾. وقرأ الباقون بالياء؛ جعلوا الفعل للَّبوس، أو يكون المعنى: لِيُحْصِنكم الله.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي: على تيسير نعمة الدروع لكم. وقيل: «هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» بأن تطيعوا رسولي.

الثالثة: هذه الآيةُ أصلٌ في اتِّخاذ الصنائع والأسباب، وهو قولُ أهلِ العقول والألباب، لا قولُ الجَهَلَةِ الأغبياء القائلين بأنَّ ذلك إنَّما شُرع للضُّعفاء، فالسببُ سُنَّةُ الله في خَلْقِه، فَمَن طَعَنَ في ذلك فقد طَعَنَ في الكتاب والسُّنة، ونَسَبَ مَن ذَكَرْنا إلى الضَّعْفِ وعَدمِ المِنَّة. وقد أخبر الله تعالى عن نبيِّه داودَ عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضاً يصنع [القفَّةَ من] الخُوْص[٣]، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدمُ حَرَّاثاً، ونوحٌ نجَّاراً، ولقمانُ خيَّاطاً، وطالوتُ دَبَّاغاً، وقيل: سَقَّاءً. فالصنعةُ يكفُّ بها الإنسان نفسَه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس. وفي الحديث: «إنَّ الله يحبُّ المؤمن المُحترِفَ الضعيفَ[٤] المتعفِّفَ، ويبغض السائل الملحِف»[٥]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة الفرقان[٦]. وقد تقدَّم في غيرِ ما آيةٍ[٧]

---

(١) في (د) و(م): الصفة، والمثبت من باقي النسخ وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٥ . والقراءة عن حفص وابن عامر في السبعة ص٤٣٠ ، والتيسير ص١٥٥ ، وعن أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٢٤ .

(٢) السبعة ص٤٣٠ ، والتيسير ص١٥٥ عن أبي بكر، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن رُوَيْس.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٩٣ عن عروة بن الزبير، وما بين حاصرتين منه، وقد سلف بنحوه ٧/ ٢٢٣ . والخوص بالضم: ورق النخل. القاموس (خوص).

(٤) في (ظ): والضعيف.

(٥) أخرجه ابن عدي ١/ ٣٦٩ ، وابن الجوزي في العلل (٩٦٨) مختصراً بلفظ: «إن الله يحب المؤمن المحترف» وقد سلف ٥/ ٢٩١ . وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٠٤٤٢) من حديث أبي مسعود البدري ﷺ، والبزار (٢٠٣١ - كشف) من حديث أبي هريرة ﷺ، والطبري ٥/ ٣١ - ٣٢ عن قتادة عن النبي ﷺ، وهذه كلها أسانيد ضعيفة أو مرسلة. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ١/ ٢٣٩ : ولم يصح لهذا الحديث أصل، ولا عرف له سند.

(٦) عند تفسير الآية (٢٠) منها.

(٧) ينظر ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢ ، و ١٠/ ١٥٨ وما بعدها.

ما فيه كفايةٌ، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخَّرْنا لسليمان الريح عاصفةً، أي: شديدةَ الهُبوب. يقال منه: عَصفت الريحُ، أي: اشتدَّت، فهي ريحٌ عاصِفٌ وعَصُوف. وفي لغةِ بني أسد: أعْصَفت الريحُ فهي مُعْصِفٌ ومُعْصِفة[1]. والعَصْفُ: التِّبن، فسمِّي به شدةُ الرِّيح؛ لأنها تعصفه بشدَّة تطيرها[2].

وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسُّلَميُّ[3] وأبو بكر: «ولِسليمانَ الرِّيحُ»[4] برفع الحاء على القطع ممَّا قبله؛ والمعنى: ولسليمان تسخيرُ الريح؛ ابتداءٌ وخبر.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني الشام. يُروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم تردُّه إلى الشام. وقال وهبٌ: كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجنُّ والإنس حتى يجلس على سريره. وكان امْرَأً غزَّاءً لا يقعد عن الغزو، فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشبٍ، فمدَّتْ ورُفع عليها الناسُ والدَّوَابُّ وآلةُ الحرب، ثم أمر العاصِفَ فأقلَّت ذلك، ثم أمر الرُّخَاءَ فمرَّت به شهراً في رَوَاحِه وشهراً في غُدُوِّه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[5] [ص:٣٦]. والرخاء اللينة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ أي: بكلِّ شيء عملنا عالمين بتدبيره.

---

(١) الصحاح (عصف).

(٢) في (ظ): تطيره، ووقع في النكت والعيون ٣/ ٤٦٠ (والكلام منه): لأنها تعصفه لشدة تكسيرها له.

(٣) قوله: والسلمي، ليس في (ظ).

(٤) القراءات الشاذة ص٩٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٣٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٦ عن عبد الرحمن الأعرج، وهي في البحر ٦/ ٣٣٢، والدر المصون ٨/ ١٨٧ - ١٨٨ عن الأعرج وأبي بكر، ولم نقف عليها عن السلمي، وقراءة أبي بكر ـ وهو شعبة ـ المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٣٣١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخرنا له مَن يغوصون، يريد: تحت الماء. أي: يستخرجون له الجواهرَ من البحر. والغَوْصُ: النزول تحت الماء، وقد غاص في الماء، والهاجِمُ على الشيء غائصٌ. والغوَّاص: الذي يغوص في البحر على اللُّؤلؤ، وفعلُه: الغِياصة[١].

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك من الغَوْص؛ قاله الفرَّاء[٢]. وقيل: يراد بذلك: المحاريبُ والتماثيل وغيرُ ذلك ممَّا يسخِّرهم فيه. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لأعمالهم. وقال الفرَّاء: حافظين لهم مِن أن يُفْسِدوا أعمالهم[٣]، أو يهيجوا أحداً من بني آدم في زمان سليمان. وقيل: حافظين من أن يهربوا أو يمتنعوا. أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. وقد قيل: إن الحمَّام والنُّورةَ[٤] والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: واذكر أيوبَ إذ نادى ربَّه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: نالني في بدني ضرٌّ وفي مالي وأهلي. قال ابن عباس: سمِّي أيوب لأنه آبَ إلى الله تعالى في كلِّ حال. ورُوي أنَّ أيوبَ عليه السلام كان رجلاً من الروم ذا مالٍ عظيم، وكان برًّا تقيًّا رحيماً بالمساكين، يكفُل الأيتام والأرامل، ويكرم

---

(١) الصحاح (غوص).

(٢) عبارة الفراء في معانيه ٢/ ٢٠٩ : ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون الغوص، يريد: سوى الغوص من البناء.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٩ .

(٤) النورة: الهِنَاء، والنُّورة من الحجر: الذي يحرق ويسوى منه الكلس، ويحلق به شعر العانة. ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٤ ، واللسان (نور).

الضيف، ويبلِّغ ابنَ السبيل، شاكراً لأَنْعُم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبَّارٍ عظيمٍ، فخاطبوه في أمر، فجعل أيوبُ يُلينُ له في القول من أجل زرعٍ كان له، فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضرِّ في جسمه حتى تَناثَر لحمه وتدوَّد جسمه، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه[١].

قال الحسن: مكث بذلك سبعَ سنين وستةَ أشهر[٢]. فلما أراد الله أن يفرِّج عنه قال الله تعالى له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فيه شفاؤك، وقد وهبتُ لك أهلك[٣] وولدك ومثلَهم معهم. وسيأتي في «ص»[٤] ما للمفسرين في قصة أيوبَ من تسليط الشيطان عليه، والردّ عليهم إن شاء الله تعالى.

واختلف في قول أيوب: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» على خمسةَ عَشَرَ قولاً:

الأوّل: أنه وثب ليصلِّيَ فلم يقدر على النُّهوض فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ رواه أنسٌ مرفوعاً[٥].

الثاني: أنه إقرارٌ بالعجز، فلم يكن مُنافياً للصبر.

الثالث: أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجةً لأهل البلاء بعدَه في الإفصاح بما ينزل بهم.

الرابع: أنه أجراه على لسانه إلزاماً له في صفة الآدميِّ في الضَّعْف عن تحمُّل البلاء.

---

(١) ما ذكر المصنف عن تناثر لحم النبيِّ أيوب عليه السلام وتدوّد جسمه وإخراجه من القرية، وغير ذلك مما سيذكره المصنف عن مرضه المنفِّر. . . كلُّه من الإسرائيليات، ولا تليق بعصمة الأنبياء عليهم السلام. قال القاسمي في محاسن التأويل ١١/ ٢٨٢ : روى المفسرون هاهنا في بلاء أيوب روايات مختلفة بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن، ولا تُعار من الثقة أدنى نظر.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥٣ .

(٣) بعدها في (م): ومالك.

(٤) عند تفسير الآية (٤١) منها.

(٥) النكْت والعيون ٣/ ٤٦٢ .

الخامس: أنه انقطع الوحيُ عنه أربعين يوماً، فخاف هُجْرانَ ربِّه فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ». وهذا قول جعفر بن محمد[١].

السادس: أنَّ تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لمَّا أفضت حالُه إلى ما انتهت إليه؛ مَحَوْا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قَدْرٌ! فاشتكى الضرَّ في ذهاب الوحي والدِّين من أيدي الناس. وهذا ممَّا لم يصحَّ سنده، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ.

السابع: أنَّ دودةً سقطت من لحمه فأخذها وردَّها في موضعها، فعقرته فصاح: «مَسَّنيَ الضُّرُّ»، فقيل: أعلينا تتصبَّر. قال ابن العربي: وهذا بعيدٌ جدًّا، مع أنه يفتقر إلى نقلٍ صحيح، ولا سبيلَ إلى وجوده.

الثامن: أنَّ الدُّود كان يتناول بدنه، فصبر حتى تناولت دودةٌ قلبه، وأخرى لسانه، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» لاشتغاله عن ذكر الله. قال ابن العربيِّ: وما أحسنَ هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة.

التاسع: أنَّه أُبهم عليه جهةُ أخذِ البلاء له: هل هو تأديبٌ، أو تعذيبٌ، أو تخصيص، أو تمحيص، أو ذُخر، أو طُهْر، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» أي: ضرُّ الإشكال في جهةِ أخذِ البلاء. قال ابن العربي: وهذا غُلوٌّ لا يُحتاج إليه.

العاشر: أنه قيل له: سَل الله العافيةَ، فقال: أقمتُ في النعيم سبعين سنة، فأقيم في البلاء سبعين سنة[٢] وحينئذ أسأله، فقال: «مسَّنيَ الضُّرُّ». قال ابن العربيِّ: وهذا ممكنٌ ولكنه لم يصحَّ في إقامته مدةٌ[٣]، ولا في هذه القصة.

الحادي عشر: أنَّ ضرَّه قولُ إبليس لزوجه: اسجدي لي، فخاف ذهابَ الإيمان عنها، فتهلكُ ويبقى بغير كافل.

الثاني عشر: لمَّا ظهر به البلاء قال قومه: قد أضرَّ بنا كونُه معنا وقَذَرُه، فليخرج

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٦٣.

(٢) في (م): وأقيم في البلاء سبع سنين.

(٣) بعدها في (م): خبر.

عنا، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد، فكانوا إذا خرجوا رَأَوْه وتَطَيَّروا به وتشاءموا برؤيته، فقالوا: ليبعد بحيث لا نراه. فخرج إلى بعدٍ من القرية، فكانت امرأته تقوم عليه وتحمل قُوْتَه إليه. فقالوا: إنها تتناوله[١] وتُخالطنا، فيعود بسببه[٢] ضرُّه إلينا. فأرادوا قَطْعَها عنه، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ».

الثالث عشر: قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان لأيوبَ أخوان، فأتياه فقاما من بعيدٍ لا يقدران أن يدنوا منه من نَتَنِ ريحه، فقال أحدهما: لو علم الله في أيوبَ خيراً ما ابتلاه بهذا البلاء! فلم يسمع شيئاً أشدَّ عليه من هذه الكلمة، فعند ذلك قال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» ثم قال: اللهمَّ إنْ كنتَ تعلم أنِّي لم أَبِتْ شبعانَ قطُّ وأنا أعلم مكانَ جائع فصدِّقني. فنادى منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدي، وهما يسمعان فخرَّا ساجِدَيْن[٣].

الرابع عشر: أنَّ معنى «مَسَّنيَ الضُّرُّ»: من شماتة الأعداء؛ ولهذا قيل له: ما كان أشدَّ عليك في بلائك؟ قال: شماتةُ الأعداء[٤]. قال ابن العربيّ: وهذا ممكنٌ فإنَّ الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

الخامس عشر: أن امرأته كانت ذاتَ ذوائبَ، فعَدِمَتْ[٥] حين مُنعتْ أن تتصرَّف لأحدٍ بسببه ما تَعُودُ به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممَّن يَصِلُها قوتاً وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها في تصرُّفه وتنقُّله، فلما عَدِمَها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر، فقال: «مَسَّني الضُّرُّ».

---

(١) في (د) و(ظ): تناوله.

(٢) في (ظ): بسببها.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٣ وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٧٧ .

(٤) عرائس المجالس ص١٦٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٣ .

(٥) في (م): فعرفت، وفي (د) و(ظ): فقدمت.

وقيل: إنَّها لمَّا اشترت القوتَ بذوائبها، جاءه إبليس في صفة رجل وقال له: إنَّ أهلك بَغَتْ فأُخذتْ وحُلِقَ شعرها. فحلف أيوب أن يجلدها[١]؛ فكانت المحنةُ على قلب المرأة أشدَّ من المحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر: ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب: أنَّ رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوبَ النبيَّ ﷺ وما أصابه من البلاء، الحديث. وفيه: أنَّ بعض إخوانه ممن صابَرَه ولازَمَه قال: يا نبيَّ الله، لقد أعجبني أمرك، وذكرتُ[٢] إلى أخيك وصاحبك: أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسدك منذ ثماني عشرةَ سنةً، حتى بلغتَ ما ترى، لا[٣] يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنبتَ ذنباً ما أظنُّ أحداً بلغه! فقال أيوبُ عليه السلام: ما أدري ما تقولان! غيرَ أنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ يعلم أنِّي كنت أمرُّ على الرجلين يتزاعمان فكلٌّ يحلف بالله ـ أو على النَّفر يتزاعمون ـ فأنقلبُ إلى أهلي فأكفِّر عن أيمانهم؛ إرادةَ ألَّا يأثَمَ أحدٌ ذَكَره، ولا يَذْكُرَه أحدٌ إلَّا بالحقّ، فنادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وإنَّما كان دعاؤه عَرْضاً عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذي بلغه، صابراً لمَا يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث[٤].

وقولٌ سابع عشر، سمعتُه ولم أَقِفْ عليه: أنَّ دودةً سقطت من جسده، فطلبها ليردَّها إلى موضعها فلم يجدها، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» لمَا فَقَدَ من أَجْرِ أَلَمِ تلك

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٦١ بنحوه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وذكرته، والمثبت من (ظ) والزهد لابن المبارك.

(٣) في (ظ) و(م): ألا، والمثبت من باقي النسخ والزهد.

(٤) الزهد لابن المبارك (١٧٩ - زوائد نعيم). قوله: يتزاعمان، أي: يتداعيان شيئاً فيختلفان فيه فيحلفان عليه. النهاية (زعم).

وأخرجه البزار (٢٣٥٧ - كشف)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، وابن حبان (٢٨٩٨)، والطبري ٢٠/ ١٠٩-١١٠، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥ من طريق نافع بن يزيد، عن عقيل (وهو ابن خالد الأيلي) عن ابن شهاب، عن أنس، عن النبي ﷺ. وصححه الحاكم، وقال أبو نعيم: غريب من حديث الزهري، لم يروه عنه إلا عقيل، ورواته متفق على عدالتهم، تفرد به نافع. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٥١١: وهذا رَفْعُه غريب جدًّا، والأشبه أن يكون موقوفاً.

الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفَّراً إلى وقت العافية، وهذا حسنٌ إلَّا أنَّه يحتاج إلى سند.

قال العلماء: ولم يكن قوله: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» جزَعاً؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، بل كان ذلك دعاءً منه، والجزعُ في الشكوى إلى الخَلْق لا إلى الله تعالى، والدعاءُ لا يُنافي الرضا. قال الثعلبي: سمعتُ أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرتُ مجلساً غاصًّا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية، بعد إجماعهم على أنَّ قول أيوب كان شكايةً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾؟ فقلت: ليس هذا شكايةً وإنما كان دعاء، بيانُه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ والإجابةُ تتعقَّب الدعاء لا الاشتكاءَ. فاستَحْسَنوه وارتَضَوْه.

وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال: عرَّفه فاقةَ السؤال لِيَمُنَّ عليه بكرم النَّوال[1].

قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال مجاهد وعكرمة: قيل لأيوبَ ﷺ: قد آتيناك أهلك في الجنة، فإن شئتَ تركناهم لك في الجنة، وإن شئتَ آتيناكهم في الدنيا. قال مجاهد: فتركهم الله عزَّ وجلَّ له في الجنة وأعطاه مثلَهم في الدنيا. قال النحاس[2]: والإسنادُ عنهما بذلك صحيح.

قلت: وحكاه المهدويُّ عن ابن عباس.

وقال الضحاك: قال عبد الله بن مسعود: كان أهل أيوبَ قد ماتوا إلَّا امرأتَه، فأحياهم الله عزَّ وجلَّ في أقلَّ من طرف البصر، وآتاه مثلَهم معهم. وعن ابن عباس أيضاً: كان بنُوه قد ماتوا، فأُحيوا له وولد له مثلُهم معهم[3]. وقاله قتادة وكعب

---

(١) عرائس المجالس ص١٦٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٧٦ ، وما قبله منه، وقول مجاهد أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٣٦٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٦ - ٧٧ ، وأخرج الطبري ١٦/ ٣٦٦ خبر ابن عباس بنحوه، وخبر ابن مسعود مختصراً، وأخرجه أيضاً عن ابن مسعود الطبراني في الكبير (٩٠٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧ : إسناده منقطع. وقال الحافظ في التهذيب ٢/ ٢٢٦ ، عن الضحاك: وقيل: لم يثبت له سماع من أحد من الصحابة.

الأحبار والكلبيُّ وغيرهم. قال ابن مسعود: مات أولاده، وهم سبعةٌ من الذكور، وسبعةٌ من الإناث، فلمَّا عوفي نُشروا له، وولدتْ امرأته سبعةَ بنينَ وسبعَ بنات[١]. الثعلبيّ[٢]: وهذا القول أشبهُ بظاهر الآية.

قلت: لأنهم ماتوا ابتلاءً قبل آجالهم، حسب ما تقدَّم بيانُه في سورة البقرة، في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموت، وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أُحيوا[٣]، وذلك أنَّهم ماتوا قبل آجالهم، وكذلك هنا، والله أعلم.

وعلى قول مجاهد وعكرمةَ يكون المعنى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ في الآخرة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا.

وفي الخبر: إنَّ الله بعث إليه جبريل عليه السلام حتى[٤] ركض برجله على الأرض ركضة[٥] فظهرت عينُ ماء حارّ، وأخذ بيده ونَفَضَه نفضةً فتناثرت عنه الديدان، وغَاص في الماء غوصةً فنبت لحمه، وعاد إلى منزله، وردَّ الله عليه أهلَه ومثلَهم معهم، ونشأت سحابةٌ على قَدْرِ قواعد داره، فأمطرت ثلاثةَ أيام بلياليها جراداً من ذهب. فقال له جبريل: أَشَبِعْتَ؟ فقال: ومَن يشبعُ من فضل الله؟ فأوحى الله إليه: قد أثنيتُ عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده، ولولا أنِّي وضعتُ تحت كلِّ شعرةٍ منكَ صَبْراً ما صبرت[٦].

---

(١) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٧٦ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٤ عن الفراء، وينظر التعليق السابق.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٢٦.

(٣) ليس في ذلك نص صحيح، وينظر ٢/ ١١٥ و ٤/ ٢٠٩.

(٤) في (د) و(ز) و(م): حين.

(٥) قوله: ركضة، ليس في (ظ).

(٦) نقل الشيخ أبو شهبة رحمه الله في «الإسرائيليات» ص٢٨١ عن أبي بكر ابن العربي قوله: لم يصحَّ عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين: الأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ =

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فَعَلْنا ذلك به رحمةً من عندنا. وقيل: ابتليناه ليعظُم ثوابُه غداً. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: وتذكيراً للعباد؛ لأنَّهم إذا ذكروا بلاءَ أيوب، وصبرَه عليه، ومحنته[1] له، وهو أفضلُ أهلِ زمانه، وطَّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نَحْوَ ما فَعَلَ أيوب، فيكونُ هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضَّرر.

واختلف في مدة إقامته في البلاء؛ فقال ابن عباس: كانت مدَّةُ البلاء سبعَ سنين وسبعةَ أشهرٍ وسبعةَ أيامٍ وسبعَ ليال[2]. وهب: ثلاثين سنة[3]. الحسن: سبع سنين وستةَ أشهر[4].

قلت: وأصحُّ من هذا والله أعلم: ثماني عَشْرةَ سنةً؛ رواه ابن شهاب عن النبيِّ ﷺ، ذكره ابن المبارك وقد تقدّم[5].

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدَّم[6] ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي:

= أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ والثانية: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. وأما النبي ﷺ؛ فلم يصحَّ عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينما أيوب يغتسل؛ إذ خرَّ عليه رِجْل من جراد من ذهب.. الحديث. اهـ. وهو في صحيح البخاري (٣٣٩١)، وتتمته: فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا ربّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك». قال: وإذا لم يصحَّ فيه قرآن، ولا سنة إلا ما ذكرنا، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره؟ أم على أيِّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمَّ عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً.

(١) في (د) و(ز): ومحبته.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٢٦١ عن كعب، دون قوله: وسبع ليال.

(٣) كذا في النسخ، والذي أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥٤ عن وهب أنه قال: لبث في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً واحداً، وكذا ذكره الثعلبي في العرائس ص١٦٤ ، والبغوي ٣/ ٢٦١ .

(٤) سلف ص٢٥٧ من هذا الجزء .

(٥) ص٢٦٠ من هذا الجزء، وينظر فتح الباري ٦/ ٤٢١-٤٢٣ .

(٦) ١٣/ ٤٦٦ .

واذكرهم. وخرَّج الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[١] وغيره من حديث ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجلٌ يقال له: ذو الكفل، لا يتورَّع من ذنبٍ عَمِلَه، فاتَّبع امرأة، فأعطاها ستِّين ديناراً [على أن يطأها]. فلمَّا قعد منها مَقْعَدَ الرجل من امرأته ارتعدتْ وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل، واللهِ ما عملته قط، قال: أَكْرهتُك؟ قالت: لا، ولكن حملني عليه الحاجةُ، قال: اذهبي فهو لك، والله لا أعصي الله بعدها أبداً. ثم مات من ليلته، فوجدوا مكتوباً على باب داره: إنَّ الله قد غفر لذي الكفل».

وخرجه أبو عيسى الترمذيُّ أيضاً؛ ولَفْظُه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيَّ ﷺ يحدِّث حديثاً لو لم أسمعه إلَّا مرةً أو مرتين ـ حتى عدَّ سبعَ مرَّاتٍ ـ ولكنِّي سمعته أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل[٢] من بني إسرائيل لا يتورَّع من ذنبٍ عَمِلَه، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستِّين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعدَ الرجل من امرأته ارتعدتْ وبكت، فقال: ما يبكيكِ، أأكرهتُكِ؟ قالت: لا، ولكنه عملٌ ما عملتُه قطُّ، وما حملني عليه إلا الحاجةُ. فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلتِه! اذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إنَّ الله قد غفر للكِفْل»[٣] قال: حديث حسن[٤].

وقيل: إنَّ اليسع لمَّا كبر قال: لو استخلفتُ رجلاً على الناس حتى أنظرَ كيف يعمل. فقال: مَن يتكفَّل لي بثلاث: بصيام النهار، وقيامِ الليل، وألَّا يغضب وهو يقضي؟ فقال رجل من ذرِّية العيص: أنا، فردَّه، ثم قال مثلَها من الغد، فقال الرجل:

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) في النسخ: ذو الكفل، والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): لذي الكفل، والمثبت من (د) و(ز) وسنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٢٤٩٦)، وهو عند أحمد (٤٧٤٧)، وما بين حاصرتين منهما. قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٥١٩ : حديث غريب جداً، وفي إسناده نظر. . . وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل، وإنما لفظ الحديث: الكفل، فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن.

أنا، فاستخلفه فوفَّى، فأثنى الله عليه فسمِّي ذا الكفل؛ لأنه تكفَّل بأمر [فوفَّى به]؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة[١]. وقاله[٢] عبد الله بن الحارث[٣].

وقال أبو موسى عن النبيِّ ﷺ: إنَّ ذا الكفل لم يكن نبيًّا، ولكنه كان عبداً صالحاً، فتكفَّل بعملِ رجلٍ صالحٍ عند موته، وكان يصلِّي لله كلَّ يومٍ مئةَ صلاة، فأحسنَ الله الثناءَ عليه[٤].

وقال كعب: كان في بني إسرائيل ملكٌ كافر، فمرّ ببلاده رجلٌ صالح فقال: والله إن خرجتُ من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام. فعرض عليه، فقال: ما جزائي؟ قال: الجنة ـ ووصفها له ـ قال: مَن يتكفَّل لي بذلك؟ قال: أنا، فأسلم الملك وتخلَّى عن المملكة، وأقبل على طاعة ربِّه حتى مات، فدُفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجةً من القبر وفيها رقعةٌ خضراء مكتوبٌ فيها بنورٍ أبيضَ: إنَّ الله قد غفر لي وأدخلني الجنة ووفَى بكفالة[٥] فلان. فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، و يتكفَّلَ لهم بما تكفَّل به للملك، ففعل ذلك فآمنوا كلُّهم، فسمِّي ذا الكفل.

وقيل: كان رجلاً عفيفاً يتكفَّل بشأن كلِّ إنسانٍ وقع في بلاءٍ أو تهمةٍ أو مطالبةٍ، فينجِّيه الله على يديه.

وقيل: سمِّي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفَّلَ له في سعيه وعمله بضِعْفِ عمل[٦] غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه.

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٣٦٩ - ٣٧٣، وخبر مجاهد فيه مطوَّل، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وقال.

(٣) في النسخ: عمرو بن عبد الله بن الحارث، وهو خطأ، فقد أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٨ من طريق المنهال ابن عمرو عن عبد الله بن الحارث.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٧، والطبري ١٦/ ٣٧٢ من طريق قتادة عن أبي موسى ﷺ موقوفاً. وهو منقطع، وأخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في البداية والنهاية ١/ ٥١٨ ـ من طريق قتادة، عن كنانة بن الأخنس، عن أبي موسى موقوفاً أيضاً.

(٥) في (خ) و(د) و(ز): كفالة، وفي (م): عن كفالة، والمثبت من (ظ).

(٦) في (د) و(ز): على.

والجمهورُ على أنه ليس بنبيٍّ. وقال الحسن: هو نبيٌّ قبل إلياس[١]. وقيل: هو زكريا بكفالة[٢] مريم. ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على أمر الله، والقيامِ بطاعته، واجتنابِ معاصيه. ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي: في الجنة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكر ذا النُّون، وهو لقبٌ ليونس بن متَّى لقِّب به[٣] لابتلاع النون إياه. والنونُ: الحوت. وفي حديث عثمان ﷺ: أنه رأى صبيًّا مَليحاً فقال: دَسِّموا نُونَته كي لا تصيبَه العين[٤]. روى ثعلب عن ابن الأعرابيِّ: النّونةُ: النقبة[٥] التي تكون في ذقن الصبيِّ الصغير، ومعنى دسِّموا: سَوِّدوا.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ قال الحسن والشعبيُّ وسعيد بن جبير: مغاضباً لربِّه عزَّ وجلَّ. واختاره الطبريُّ[٦] والقُتَبيُّ[٧] واستحسنه المهدويُّ، وروي عن ابن مسعود. قال النحاس: وربَّما أنكر هذا مَن لا يعرف اللغةَ، وهو قولٌ صحيح. والمعنى: مغاضباً من أجل ربِّه، كما تقول: غضبتُ لك، أي: من أجلك. والمؤمنُ يغضب لله عزَّ وجلَّ إذا عُصي. وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أنَّ قول النبيِّ ﷺ لعائشة: «اشترطي لهم الولاءَ» من هذا[٨].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٤.

(٢) في (ظ): تكفل، وذكر هذا القول الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٦٤، والبغوي ٣/ ٢٦٥ دون نسبة.

(٣) قوله: لقب به، من (ظ).

(٤) ذكره الخطابي في غريب الحديث ٢/ ١٣٩، والزمخشري في الفائق ١/ ٤٢٤، وابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٣٣٧، وابن الأثير في النهاية (دسم) و(نون).

(٥) وقع في شرح هذه الكلمة في المصادر السابقة: النقرة، بدل: النقبة.

(٦) في التفسير ١٦/ ٣٧٧، وأخرج قول الحسن والشعبي وسعيد بن جبير ١٦/ ٣٧٦ - ٣٧٨.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص٣١٤ - ٣١٥.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٧، والحديث سلف ٣/ ٣١٨.

وبالغ القُتَبيُّ في نصرة هذا القول، وفي الخبر في وصف يونس: إنَّه كان ضيِّق الصدر، فلمَّا حُمِّل أعباء النبوَّة تَفسَّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل، فمضَى على وجهه مُضيَّ الآبِقِ النادّ[١].

وهذه المغاضبةُ كانت صغيرة، ولم يغضب على الله، ولكن غضب لله؛ إذ رَفَع العذاب عنهم. قال ابن مسعود: أبق من ربِّه، أي: من أمرِ ربِّه، حين[٢] أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم. فإنه كان تَوَعَّد[٣] قومَه بنزول العذاب في وقتٍ معلوم، وخرج من عندهم في ذلك الوقت، فأظلَّهم العذاب، فتضرَّعوا، فرُفع عنهم، ولم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضباً، وكان من حقِّه ألَّا يذهبَ إلَّا بإذنٍ محدَّد[٤].

وقال الحسن: أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه، فسأل أن يُنظَر ليتأهَّب، فأعْجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلاً ليلبسها فلم يُنظَر، وقيل له: الأمر أَعْجَلُ من ذلك، وكان في خُلُقه ضِيقٌ، فخرج مغاضباً لربِّه[٥]. فهذا قولٌ، وقول النحاس أحسنُ ما قيل في تأويله. أي: خرج مغاضباً من أَجْلِ ربِّه، أي: غضب على قومه من أجل كفرهم بربِّه.

وقيل: إنه غاضَبَ قومَه حين طال عليه أمرهم وتعنُّتهم، فذهب فارًّا بنفسه ولم يصبر على أذاهم، وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجَه من بينهم من غير إذنٍ من الله. روي معناه عن ابن عباس والضحَّاك، وأنَّ يونس كان شابًّا ولم يحمل أثقال النبوَّة؛ ولهذا قيل للنبيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨][٦].

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٣١٦، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٦ عن وهب بن منبه. والرُّبَع: الفصيل الذي ينتج في الربيع، و تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل: إذا لم يُطِقْه. اللسان (ربع). و(فسخ).

(٢) في (ز) و(م): حتى.

(٣) في النسخ عدا (د): يتوعد، والمثبت من (د).

(٤) ذكره مطولاً البغوي ٢/ ٣٦٩ عن ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب بن منبه، وأخرجه بنحوه عن ابن مسعود ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٧.

(٦) المحْرر الوجيز ٤/ ٩٦، وأخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٦/ ٣٧٤ مختصراً.

وعن الضحاك أيضاً: خرج مغاضباً لقومه؛ لأنَّ قومه لمَّا لم يقبلوا منه وهو رسولٌ من الله عزَّ وجلَّ، كفروا بهذا، فوجَبَ أن يغاضبهم، وعلى كلِّ أحدٍ أن يغاضب مَن عصى الله عزَّ وجلَّ.

وقالت فرقةٌ منهم الأخفش[١]: إنَّما خرج مغاضباً للملك الذي كان على قومه؛ قال ابن عباس: أراد شعيا النبيُّ والملكُ الذي كان في وقته ـ اسمُه حزقيا[٢] ـ أن يبعثا يونسَ إلى ملك نينوى ـ وكان غزا بني إسرائيلَ وسبَى الكثير منهم ـ ليكلِّمه حتى يرسل معه بني إسرائيل، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحَى إليهم، والأمرُ والسياسةُ إلى ملكٍ قد اختاروه، فيعملُ على وَحْيِ ذلك النبيِّ، وكان أوحى الله إلى شعيا: أنْ قل لحزقيا[٣] الملكِ أن يختار نبيًّا قويًّا أميناً من بني إسرائيل، فيبعثه إلى أهل نِينوى، فيأمرهم بالتخلية عن بني إسرائيل، فإنِّي ملقٍ في قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخليةَ عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أَمَرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سمَّاني لك؟ قال: لا. قال: فها هنا أنبياءُ أمناءُ أقوياء! فألَحُّوا عليه، فخرج مغاضباً للنبيِّ والملكِ وقومه، فأتى بحر الروم، وكان من قصته ما كان[٤]. فابتُلي ببطن الحوت لتَرْكه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ والمُليم: مَن فَعَل ما يُلام عليه. وكان ما فَعَله إمَّا صغيرةً، أو تَرْكَ الأَوْلى.

وقيل: خرج ولم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، ولكنْ أَمَره ملكٌ من ملوك بني إسرائيل أن يأتي نِينوى ليدعوَ أهلها بأمر شعيا، فأَنِفَ أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحدٍ غيرِ الله، فخرج مغاضباً للملك، فلما نجا من بطن الحوت بَعَثه الله إلى قومه، فدعاهم وآمنوا به.

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): حزقيل.

(٣) في د) و(ز) و(ظ): لحزقيل.

(٤) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٤١٠ .

وقال القشيريُّ: والأظهَرُ أنَّ هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلَّهم؛ فإنه كره رَفْعَ العذاب عنهم.

قلت: هذا أحسنُ ما قيل فيه، على ما يأتي بيانُه في «والصافات»[(١)] إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتلُ مَن جرَّبوا عليه الكذبَ، فخشيَ أن يُقتَل، فغضب وخرج فارًّا على وجهه حتى ركب في سفينة[(٢)]، فسكنت ولم تَجْر، فقال أهلها: أفيكم آبِقٌ؟ فقال: أنا هو. وكان من قصَّته ما كان، فابتُلي ببطن الحوت تمحيصاً من الصغيرة كما قال في أهل أُحدٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ﴾[(٣)] [آل عمران: ١٥٢-١٥٤]. فمعاصي الأنبياءِ مغفورةٌ، ولكنْ قد يجري تمحيصٌ، ويتضمَّنُ ذلك زجراً عن المعاودة.

وقول رابع: أنَّه لم يغاضب ربَّه، ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم: غضب: إذا أَنِفَ. وفَاعَلَ قد يكون من واحد، فالمعنى: أنه لمَّا وَعَدَ قومه بالعذاب وخرج عنهم، تابوا وكُشفَ عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أَنِفَ من ذلك، فخرج آبقاً[(٤)]، وينشد هذا البيت:

وأغضب أن تُهجى تميمٌ بدارِمِ[(٥)]

---

(١) عند تفسير الآية (١٣٩).

(٢) النكت والعيون ٣/٤٦٦، والمحرر الوجيز ٤/٩٧. وقال ابن عطية: وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاء به، مما لا يتصف به نبي.

(٣) في النسخ: وليمحص الله الذين آمنوا، وهي الآية (١٤١) من «آل عمران».

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣١٤ - ٣١٥، وقال ابن قتيبة: خشي أن ينسب إلى الكذب ويُعيَّر به، لا سيما ولم تكن قرية آمنت عند حضور العذاب فنفعها إيمانها غير قومه، فدخلته الأنفة والحميَّة.

(٥) تأويل مشكل القرآن ص٣١٥ وفيه: وأعبد، بدل: وأغضب، والبيت للفرزدق، كما في إصلاح المنطق ص٥٩، والصحاح (عبد)، والحلل للبطليَوْسي ص١٤٢، وهو عندهم برواية:

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم وأَعْبَدُ أن أهجو كليباً بدارمِ =

أي: آنَفُ. وهذا فيه نظر؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول: إنَّ تلك المغاضبةَ وإن كانت من الأنَفة، فالأنَفةُ لابدَّ أن يخالطها الغضب وإن دقَّ[(١)]، وأنت تقول: لم يغضب على ربِّه ولا على قومه، فذلك الغضبُ الذي يخالطُ الأنفةَ؛ على مَن كان؟![(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قيل: معناه: استزلَّه إبليس، ووقع في ظنِّه إمكانُ ألَّا يقدِرَ الله عليه بمعاقبته[(٣)]. وهذا قولٌ مردودٌ مرغوبٌ عنه؛ لأنه كفر. روي عن سعيد بن جبير، حكاه عنه المهدوي، والثعلبيُّ عن الحسن[(٤)].

وذكر الثعلبيُّ: وقال عطاء[(٥)] وكثيرٌ من العلماء: معناه: فظنَّ أنْ لن نضيِّق عليه الحبسَ[(٦)]، من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد:٢٦] أي: يضيِّق، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧].

قلت: وهذا الأشبهُ بقول سعيد والحسن. وقَدَر وقُدِرَ وقَتَر وقُتِر بمعنى، أي: ضيِّق، وهو قولُ ابن عباس فيما ذكره الماورديّ[(٧)] والمهدويّ.

= ووقع في الحلل: آبائي، بدل: أحلاسي. وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٣٨ ، والعسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٥١٢ برواية:

أولئك قوم إن هجوني هجوتهم وأَعْبَدُ..................

ولم نقف عليه برواية: وأغضب. قال ابن قتيبة: العَبَد أصله: الغضب، ثم قد تسمَّى الأنفة عَبَداً.

(١) بعدها في النسخ: على من كان، ولا معنى لها هنا، وسترد في موضعها، ووقع بعد قوله: يخالطها الغضب في (م): وذلك الغضب.

(٢) قوله: فذلك الغضب الذي يخالط الأنفة على من كان، ليس في (م).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ .

(٤) عرائس المجالس ص٤١٢ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٠ .

(٥) بعدها في النسخ عدا (ظ): وسعيد بن جبير، والمثبت من (ظ)، وعرائس المجالس ص٤١٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٦ .

(٦) وقع في النسخ: قال الحسن، وهو تحريف، والمثبت من عرائس المجالس وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٦ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٧ ، والوسيط ٣/ ٢٤٩ .

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ .

وقيل: هو من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، أي: فظنَّ أنْ لن نقضيَ عليه العقوبةَ؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ والفرَّاء[١]. مأخوذٌ من القَدَر، وهو الحكمُ، دون القدرة والاستطاعة. ورويَ عن أبي العباس أحمدَ بنِ يحيى ثعلب أنه قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: هو من التقدير؛ ليس من القدرة، يقال منه: قدَر الله لك الخير يَقْدِرُه قَدْراً، بمعنى: قدَّر الله لك الخير، وأنشد ثعلب:

فليست عشيّاتُ اللِّوى[٢] برواجعٍ لنا أبداً ما أبرمَ[٣] السَّلَمَ النَّضْرُ
ولا عائداً[٤] ذاك الزمان الذي مضى تبارَكْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ

يعني: ما تقدِّره وتقضي به يقع[٥]. وعلى هذين التأويلين العلماء.

وقرأ عمر بن عبد العزيز والزُّهريُّ: «فظَنَّ أنْ لن نُقَدِّرَ عليه» بضمِّ النون وتشديد الدال[٦] من التقدير. وحكى هذه القراءة الماورديُّ عن ابن عباس[٧].

وقرأ عبيد بن عمير وقتادةُ والأعرج: «أنْ لن يُقَدَّرَ عليه» بضم الياء مشدَّداً على الفعل المجهول[٨].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وأخرج قول مجاهد وقتادة الطبري ١٦/ ٣٧٩ ، وذكره عنهما البغوي ٣/ ٢٦٦ .

(٢) في المصادر الآتية: الحمى.

(٣) في (د) و(ز) و(م): أورق، وكذا وردت في بعض المصادر على ما يأتي.

(٤) في (ظ) و(م): عائد، والمثبت من باقي النسخ والتمهيد ١٨/ ٤٤ ، والكلام منه.

(٥) التمهيد ١٨/ ٤٤ ، وورد كلام ثعلب أيضاً ولكن دون الشعر في ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٦٣-٣٦٤ . والبيتان من قصيدة لأبي صخر الهذلي كما ذكر ابن عبد البر، وذكرهما القالي في أماليه ١/ ١٥٠ دون نسبة، وذكر البيت الأول أبو الفرج في الأغاني ٢٤/ ١٢٤ عن أبي صخر برواية: أورق السلم.

قال ابن عبد البر: السلم، شجر من العضاه يدبغ به، والنضر: النضارة والتنعم، وأبرم السلم: أخرج برمته. اهـ. والبرمة ثمر السلم، والعضاه: كلُّ ذات شوك. معجم متن اللغة (برم) و(عضه).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٦٦ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥ ، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ عن الزهري وحده.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ .

(٨) ذكرها الرازي في التفسير ٢٢/ ٢١٥ عن عبيد بن عمير وحده، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٨١ دون نسبة.

وقرأ يعقوبُ وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن وابن عباس أيضاً: «يُقْدَرَ عليه» بياء مضمومة وفتحِ الدَّال مخفَّفاً على الفعل المجهول[١].

وعن الحسن أيضاً: «فظَنَّ أن لن يَقْدِرَ عليه»[٢]. الباقون «نَقْدِرَ» بفتح النون وكسر الدال، وكلُّه بمعنى التقدير.

قلت: وهذان التأويلان تَأَوَّلهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قطُّ لأهله: «إذا مات فحرِّقوه، فوالله لئن قَدَر الله عليَّ» الحديث. فعلى التأويل الأوّل يكون تقديره: والله لئن ضيَّق الله عليَّ وبالَغ في محاسبتي وجزائي[٣] على ذنوبي ليكوننَّ ذلك، ثم أمر أن يُحرق [بعد موته من] إفراط[٤] خوفه.

وعلى التأويل الثاني: أي: لئن كان سَبَقَ في قدر الله وقضائه أن يعذِّب كلَّ ذي جُرْمٍ على جرمه، ليعذِّبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذِّبه أحداً من العالمين غيري.

وحديثه خرَّجه الأئمة في «الموطأ» وغيره[٥]. والرجلُ كان مؤمناً موحِّداً، وقد جاء في بعض طرقه: «لم يعمل خيراً قطُّ إلا التوحيد»[٦] وقد قال حين قال الله تعالى له: «لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب» والخشيةُ لا تكون إلا لمؤمنٍ مصدِّقٍ

---

(١) النشر ٢/ ٣٢٤ عن يعقوب، وذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ عن ابن أبي ليلى وأبي شرف والكلبي ويعقوب.

(٢) ذكرها عن الحسن النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٩٧، وأبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥.

(٣) في (ز): وجزاني، والمثبت من باقي النسخ والتمهيد ١٨/ ٤٣ والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه. ووقع في الاستذكار ٨/ ٣٦٩: وجازاني.

(٤) في النسخ: بإفراط، والمثبت من التمهيد.

(٥) الموطأ ١/ ٢٤٠، وصحيح البخاري (٣٤٨١) و(٧٥٠٦)، وصحيح مسلم (٥٧٥٦)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه بهذه الرواية أحمد (٨٠٤٠).

[بل ما تكاد تكون إلا لمؤمن عالم] قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨][(١)].

وقد قيل: إنَّ معنى «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» الاستفهام، وتقديره: أفظنَّ، فحذف ألف الاستفهام إيجازاً، وهو قول سليمان أبي المعتمر[(٢)]. وحكى القاضي منذر بنُ سعيد: أنَّ بعضهم قرأ: «أفظنَّ» بالألف[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «فنادى في الظُّلُمات» اختلف العلماء في جمع الظلمات؛ ما المراد به؟ فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة: ظلمةُ الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت[(٤)]. وذكر ابن أبي الدنيا: حدَّثنا يوسف بن موسى، حدَّثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: حدَّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال: لمَّا ابتلع الحوتُ يونسَ عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونسُ تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات، ظلماتٍ ثلاث: بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش[(٥)].

---

(١) التمهيد ١٨/ ٤٠ ، والاستذكار ٨/ ٣٦٥ - ٣٦٦ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وفيه: سليمان بن المعتمر، ونقله عنه المصنف، وهو خطأ، وهو سليمان بن طَرخان التيمي والد المعتمر بن سليمان، وذكر قوله أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٨٣ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨١ عن ابن زيد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وأخرجه عن ابن عباس وقتادة وغيرهما الطبري ١٦/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٥) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا (٣٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢ عن عبيد الله بن موسى بالإسناد المذكور مطولاً.

وقالت فرقةٌ منهم سالم بن أبي الجعد: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأوّل. ويصحُّ أن يعبَّر بالظلمات عن جوف الحوت الأوّل فقط، كما قال: ﴿في غَيَابَات الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] وفي كلِّ جهاته ظلمةٌ، فجمعُها سائغ[١].

وذكر الماوَرْديّ[٢]: أنه يحتمل أن يعبَّر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدّة، وظلمة الوحدة.

وروي: أنَّ الله تعالى أوحى إلى الحوت: لا تؤذِ منه شعرةً، فإنِّي جعلت بطنك سجنه، ولم أجعله طعامك. وروي: أنَّ يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر[٣].

وذكر ابن أبي الدنيا: حدَّثنا العباس بن يزيد العبدي، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا جعفر بن سليمان، عن عوفٍ، عن سعيد بن أبي الحسن قال: لمَّا التقم الحوت يونس عليه السلام ظنَّ أنه قد مات، فطول رجليه فإذا هو لم يمت، فقام إلى عادته[٤] يصلِّي، فقال في دعائه: واتَّخذتُ لك مسجداً حيث لم يتَّخذْه أحد[٥].

قال أبو المعالي: قوله ﷺ «لا تفضِّلوني على يونسَ بنِ متى»[٦] المعنى: فإنِّي لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأخرج قول سالم بن أبي الجعد الطبريُّ ١٦/ ٣٨٣ . والقراءة المذكورة من سورة يوسف هي قراءة نافع وأبي جعفر، وقد سلفت ١١/ ٢٦٢ .

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وهذا الخبر والذي قبله ورد نحوهما في حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه البزار (٢٢٥٤ - كشف) والطبري ١٦/ ٣٨٤ - ٣٨٥ . وسيرد هذا الحديث بتمامه عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الصافات.

(٤) في (ظ): عبادته.

(٥) الفرج بعد الشدة (٣٦)، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٨٥ من طريق سنيد بن داود، عن جعفر بن سليمان، عن عوف الأعرابي، عن الحسن وفيه: ...فحرك رجليه فإذا هي تتحرك فسجد وقال...، وسعيد بن أبي الحسن هو أخو الحسن البصري، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٤ من طريق آخر عن جعفر بن سليمان عن عوف الأعرابي قوله.

(٦) ذكره بهذا اللفظ ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١١٦ ، وأخرجه أحمد (٢١٦٧)، والبخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «لا يقل أحدٌ أنا خير من يونس ابن متَّى» وسلف ٤/ ٢٥٤ .

أكن وأنا في سدرة المنتهى بأقربَ إلى الله منه وهو في قعر البحر في بطن الحوت. وهذا يدلُّ على أنَّ الباريَ سبحانه وتعالى ليس في جهة[١]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة» و«الأعراف»[٢].

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبرِ عليهم.

وقيل: في الخروج من غير أن يؤذَن له. ولم يكن ذلك من الله عقوبة؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، وإنما كان ذلك تمحيصاً. وقد يؤدَّب مَن لا يستحقُّ العقابَ كالصبيان؛ ذكره الماوردي[٣].

وقيل: من الظالمين في دعائي على قومي بالعذاب. وقد دعا نوحٌ على قومه فلم يؤاخَذ. وقال الواسطيُّ[٤] في معناه: نزَّه ربَّه عن الظلم؛ وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً. ومثلُ هذا قولُ آدمَ وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ إذ كانا السَّبَبَ في وضعهما أنفسَهما في غير الموضع الذي أُنزلا فيه.

الثانية: روى أبو داود، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبيِّ ﷺ قال: «دعاء ذي النونِ في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يَدْعُ به رجلٌ مسلم في شيءٍ قطُّ إلَّا استُجيبَ له»[٥].

وقد قيل: إنه اسم الله الأعظم. ورواه سعدٌ عن النبيِّ ﷺ[٦]. وفي الخبر: في هذه

---

(١) ذكر قول أبي المعالي مطولاً ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩ ، وسيرد بتمامه عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الصافات.

(٢) ١/ ٣٨٠ و ٩/ ٢٣٨ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٧ ، ووقع فيه: تأديباً، بدل: تمحيصاً.

(٤) هو أبو بكر محمد بن موسى، وقوله مع ما سبقه ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٧١ .

(٥) لم نقف عليه في سنن أبي داود، ولم ينسبه له المزي في التحفة، وهو في سنن الترمذي (٣٥٠٥)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٤١٧)، وأخرجه أحمد مطولاً (١٤٦٢).

(٦) أخرجه الحاكم ١/ ٥٠٥ - ٥٠٦ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٦ بلفظ: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متَّى» ولم يقل فيه: الأعظم، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧١٤) عن الحسن قوله.

الآية شَرَطَ الله لمن دعاه أن يجيبَه كما أجابه، وينجيَه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] وليس هاهنا صريحُ دعاءٍ، وإنَّما هو مضمونُ قوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاعترف بالظلم؛ فكان تلويحاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نخلِّصهم من همِّهم بما سَبَقَ من عملهم، وذلك قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وهذا حِفْظٌ من الله عزَّ وجلَّ لعبده يونس؛ رعى له حقَّ تعبُّده، وحَفِظَ زِمامَ ما سلف له من الطاعة.

قال الأستاذ أبو إسحاق: صَحِب ذو النون الحوتَ أياماً قلائلَ، فإلى يوم القيامة يقال له: ذو النون، فما ظنُّك بعبدٍ عَبَدَه سبعين سنة، يبطل هذا عنده؟! لا يُظنُّ به ذلك[٢]. «مِن الْغَمِّ» أي: من بطن الحوت.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قراءةُ العامَّة بنونين؛ من أَنْجَى يُنْجِي. وقرأ ابن عامر: «نُجِّي» بنونٍ واحدة وجيمٍ مشدَّدةٍ وتسكينِ الياء[٣] على الفعل الماضي وإضمارِ المصدر، أي: وكذلك نُجِّي النجاءُ المؤمنين، كما تقول: ضُرِب زيداً، بمعنى: ضُرِب الضربُ زيداً، وأنشد:

ولـو وَلَـدتْ قُـفَـيْـرةُ جَـرْوَ كَـلْـبٍ ... لَـسُـبَّ بـذلـك الـجـروِ الـكـلَابَـا[٤]

(١) ورد ضمن حديث سعد ﷺ عند الطبري ١٦/ ٣٨٦ المذكور في التعليق السابق.

(٢) ورد هذا الكلام في لطائف الإشارات ٢/ ٥١٩ للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، وهو تلميذ الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.

(٣) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية شعبة، كما في التيسير ص١٥٥ .

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٩ - ٤٠ ، والبيت لجرير كما في رسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني ص٥٣ ، والخزانة ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وهو بلا نسبة في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٤ ، والخصائص ١/ ٣٩٧ ، وشرح المفصل ٧/ ٧٥ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥١٨ . قال البغدادي: قُفَيْرة اسم أم الفرزدق، والمعنى: أنها لو ولدت جرواً لسُبَّتْ جميع الكلاب بسبب ذلك الجرو. ولم يرد البيت في ديوان جرير.

أراد: لَسُبَّ السَّبُّ بذلك الجرو. وسكنت ياؤه على لغة مَن يقول: بَقِيْ ورَضِيْ فلا يحرِّك الياء. وقرأ الحسن: «وَذَرُوا مَا بَقِيْ مِنَ الرِّبَا»[١] استثقالاً لتحريك ياءٍ قبلَها كسرة. وأنشد:

خَمَّرَ الشَّيبُ لِمَّتي تَخْمِيراً وَحَدَا بي إلى القُبور البَعِيرا

ليتَ شِعْري إذا القيامةُ قامتْ ودُعِيْ بالحسابِ أينَ المصيرا[٢]

سكَّن الياء في دُعِيْ استثقالاً لتحريكها وقَبْلَها كسرةٌ، وفاعلُ حدا: الشيب[٣]، أي: وحدا الشيبُ البعير. ليت شعري المصيرَ أين هو[٤].

هذا تأويلُ الفرَّاء[٥] وأبي عبيد وثعلب في تصويب هذه القراءة. وخطَّأها أبو حاتم والزجَّاج[٦] وقالا: هو لحنٌ؛ لأنه نَصَبَ اسمَ ما لم يسمَّ فاعلُه، وإنَّما يقال: نُجِّيَ المؤمنون. كما يقال: كُرِّمَ الصالحون. ولا يجوز: ضُرِب زيداً، بمعنى: ضُرِب الضَّربُ زيداً؛ لأنه لا فائدةَ [فيه]؛ إذ[٧] كان ضُرِب يدلُّ على الضرب. ولا يجوز أن يُحتجَّ بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى.

ولأبي عبيد قولٌ آخرُ ـ وقاله القتَبيُّ ـ وهو أنه أَدْغَم النون في الجيم. النحاس[٨]:

---

(١) المحتسب ١/ ١٤١.

(٢) الإفصاح للفارقي ص١٨١، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٦، والبيت الثاني في كتاب الشعر لأبي علي الفارسي ١/ ٣١٤، ووقع في الأمالي والشعر: ودعا، بدل: ودُعي. وفي الإفصاح: لحيتي، بدل: لمتي. قال ابن الشجري: قوله: خمر الشيب لمتي، معناه: غطَّى سوادها، وعنى بالبعير عمره.

(٣) في (د) و(خ) و(م): المشيب، في الموضعين، والمثبت من (ز) و(ظ) والإفصاح.

(٤) قال الفارقي: نصب «المصير» بمعنى قوله: ليت شعري؛ لأن معناه: ليتني أشعر. وقال ابن الشجري: «أين» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أين هو، وقد أساء بشيئين؛ بحذف المبتدأ، وبالفصل بين شعري ومعموله بأين، وهو أجنبي، ولو أُعطيَ الكلام حقَّه قيل: ليت شعري، المصيرَ أين هو؟

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢١٠.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٣.

(٧) في (ظ): إذا، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٨، والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٧٨، وما قبله منه، عدا قوله: وقاله القتبي. وذكر قول القتبي البغوي ٣/ ٢٦٧.

وهذا القولُ لا يجوز عند أحدٍ من النَّحْويين؛ لبُعْدِ مخرج النون من مخرج الجيم فلا تُدغَم فيها، ولا يجوز في ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ [القصص:٨٤]: مَجَّاءَ بِالْحَسَنَةِ. قال النحاس: ولم أسمع في هذا أحسن من شيءٍ سمعته من عليِّ بن سليمان؛ قال: الأصلُ: ننجي، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما، كما تُحذف إحدى التاءين لاجتماعهما؛ نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]، والأصل: تتفرقوا.

وقرأ محمد بن السَّمَيفع وأبو العالية: «وكَذَلِكَ نَجَّى المُؤْمِنِينَ»[1]، أي: نَجَّى الله المؤمنين، وهي حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي: واذكر زكريا. وقد تقدَّم في «آل عمران» ذِكْرُه[2]. ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي: منفرداً لا ولدَ لي، وقد تقدَّم[3]. ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أي: خيرُ مَن يَبْقَى بعد كلِّ مَن يموت، وإنما قال: «خير الْوَارِثِينَ» لِمَا تقدَّم من قوله: ﴿يَرِثُنِي﴾ [مريم:٦] أي: أعلمُ أنك لا تُضيع دِينَك، ولكنْ لا تقطعْ هذه الفضيلةَ التي هي القيامُ بأمر الدِّين عن عَقِبي. كما تقدَّم في «مريم» بيانُه[4].

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي: أجبنا دعاءه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ تقدَّم ذكره مستوفى[5]. ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين: إنها

---

(١) لم نقف على هذه القراءة عند غير المصنف.

(٢) ٥/ ١٠٧ . ٥/ ١١٥ وما بعدها.

(٣) ١٣/ ٥٠٩ .

(٤) ١٣/ ٤١٥ .

(٥) ٥/ ١١٥ وما بعدها.

كانت عاقراً فجُعلت وَلوداً[١]. وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئةَ الخُلُق، طويلةَ اللسان، فأصلحها الله فجعلها حسنةَ الخُلُق[٢].

قلت: ويحتمل أن تكون جمعت المعنيينِ، فجُعِلَتْ حسنةَ الخُلُق ولوداً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني الأنبياء المسمَّيْنَ في هذه السورة ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾. وقيل: الكناية راجعةٌ إلى زكريَّا وامرأتِه ويحيى.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحالِ الشدة. وقيل: المعنى: يدعون وقتَ تعبُّدهم وهم بحالِ رغبةٍ ورجاءٍ، ورهبةٍ وخوف؛ لأنَّ الرَّغبة والرَّهبة متلازمان.

وقيل: الرَّغَب: رَفْعُ بطون الأكُفِّ إلى السماء، والرَّهَبُ: رَفْعُ ظهورها؛ قاله خُصَيْف. قال ابن عطية[٣]: وتلخيصُ هذا أنَّ عادة كلِّ داعٍ من البشر أن يستعين بيديه، فالرَّغَبُ من حيث هو طلبٌ يَحْسُنُ منه أن يوجِّه باطنَ الراحِ نحو المطلوب منه؛ إذ هي موضع إعطاء، أو بها يتملَّك[٤]، والرَّهَبُ من حيث هو دَفْعُ مَضَرَّةٍ يَحْسُنُ معه طَرْحُ ذلك، والإشارةُ إلى ذهابه وتَوَقِّيه بنفض اليد ونحوه.

الثانية: روى الترمذيُّ[٥] عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يَحُطَّهما حتى يمسح بهما وجهه. وقد مضى في «الأعراف»[٦]

---

(١) أخرج قول قتادة وسعيد بن جبير الطبري ١٦/ ٣٨٨ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٨ عن عطاء وابن كامل، وذكره ابن الجوزي ٥/ ٣٨٤ عن عطاء والسدي ومحمد بن كعب. ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٩٨ ، وما قبله منه.

(٤) في (ظ): إذ بها يتملك، وفي المحرر الوجيز: الإعطاء وبها يتملك.

(٥) في سننه (٣٣٨٦)، وسلف ٩/ ٢٤٦ .

(٦) ٩/ ٢٤٥ - ٢٤٧ .

الاختلافُ في رفع الأيدي، وذكرنا هذا الحديثَ وغيرَه هناك.

وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته، وإلى أين؟ فكان بعضُهم يختار أن يبسط كفَّيه رافعهما حَذْوَ صدرِه وبطونُهما إلى وجهه؛ روي عن ابن عمر وابن عباس. وكان عليٌّ يدعو بباطن كفَّيه، وعن أنسٍ مثلُه، وهو ظاهرُ حديث الترمذيِّ، وقولِه ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أَكُفِّكُم، ولا تسألوه بظهورها، وامسحوا بها وجوهكم»[١].

وروي عن ابن عمر وابن الزبير: برفعهما[٢] إلى وجهه، واحتجُّوا بحديث أبي سعيد الخدري؛ قال: وقف رسول الله ﷺ بعرفةَ فجعل يدعو، وجعل ظَهْرَ كفَّيْه ممَّا يلي وجهه، ورَفَعهما فوق ثدييه وأسفلَ من منكبيه[٣].

وقيل: يحاذي بهما وجهَه، وظهورُهما ممَّا يلي وجهه.

قال أبو جعفر الطبريُّ: والصوابُ أن يقال: إنَّ كلَّ هذه الآثارِ المرويَّةِ عن النبيِّ ﷺ متفقةٌ غيرُ مختلفة المعاني، وجائزٌ أن يكون ذلك من[٤] النبيِّ ﷺ لاختلافِ أحوالِ الدعاء، كما قال ابن عباس: إذا أشار أحدُكم بإصبعٍ واحدٍ فهو الإخلاص، وإذا رفع يديه حَذْوَ صدره فهو الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرُهما ممَّا يلي وجهه فهو الابتهال[٥]. قال الطبري: وقد روى قتادة عن أنس قال: رأيت النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٥) من طريق محمد بن كعب، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. قال أبو داود: روي هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب كلها واهية، وهذا الطريق أمثلها، وهو ضعيف أيضاً.

(٢) في (ز): يرفعهما.

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٩٣) و(١١٨٠٦)، وفيه: ثَنْدُوَتيه، بدل: ثدييه، قال السندي كما في حاشية الحديث (١١٠٩٣) من المسند: الثندوة للرجل كالثدي للمرأة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦٨ : فيه بشر بن حرب وهو ضعيف.

(٤) في (م): عن.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٣٢٤٧)، وأبو داود (١٤٨٩) و(١٤٩٠) و(١٤٩١).

يدعو بظهر كفَّيْهِ وباطِنِهما[١].

و«رَغَباً وَرَهَباً» منصوبان على المصدر، أي: يرغبون رَغَباً ويرهبون رَهَباً. أو على المفعول من أجله، أي: للرَّغَبِ والرَّهَب. أو على الحال.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «وَيَدْعُونَا» بنون واحدة[٢].

وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء[٣]، مثل: السُّقْم والبُخْل، والعُدْم والضُّر لغتان.

وابن وثاب والأعمش أيضاً: «رَغْباً وَرَهْباً» بالفتح في الراء والتخفيفِ في الغين والهاء، وهما لغتان مثل: نَهْر ونَهَر وصَخَر وصَخْر. ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو[٤]. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: متواضعين خاضعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: واذكر مريمَ التي أحصنت فرجها. وإنَّما ذَكَرها ـ وليست من الأنبياء ـ لتتميم[٥] ذِكْرِ عيسى عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل آيتين؛ لأنَّ معنى الكلام: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتَهما آيةً للعالمين.

وقال الزجَّاج[٦]: إنَّ الآية فيهما واحدة؛ لأنها ولدته من غير فحل. وعلى مذهب

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٧)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٩٠ . قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٢/ ١٤٤ : في إسناده عمر بن نبهان، ولا يحتج بحديثه.

(٢) ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٨٥ عن ابن مسعود وابن محيصن، وذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٦ دون نسبة، وذكر عن طلحة أنه قرأ بنون مشددة؛ أدغم نون الرفع في «نا» ضمير النصب.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٣٩٠ .

(٤) القراءات الشاذة ص٩٢ ، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٥) في (د): ليتمم، وفي (م): ليتم.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٨ .

سيبويه التقديرُ: وجعلناها آيةً للعالمين وجعلنا ابنها آيةً للعالمين، ثم حذف. وعلى مذهب محمد بن يزيد: وجعلناها آية للعالمين وابنَها، مثل قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢][(١)].

وقيل: إنَّ من آياتها أنها أولُ امرأة قُبلت في النذر في التعبُّد[(٢)]. ومنها: أنَّ الله عزَّ وجلَّ غذَاها برزقٍ مِن عندِه لم يُجْرِه على يد عبدٍ من عبيده. وقيل: إنها لم تَلْقَم ثدياً قط[(٣)].

«وَأَحْصَنَتْ» معناه: عَفَّتْ فامتنعت من الفاحشة. وقيل: إنَّ المراد بالفرج فرجُ القميص، أي: لم تعلَّق بثوبها ريبةً، أي: إنَّها طاهرةُ الأثواب. وفُروجُ القميص أربعةٌ: الكمَّان والأعلى والأسفل. قال السُّهَيليُّ[(٤)]: فلا يذهبنَّ وهمُك إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية؛ لأنَّ القرآن أنْزه معنًى، وأوْزَنُ[(٥)] لفظاً، وألطفُ إشارةً، وأحسنُ عبارةً من أن يريد ما يذهب إليه وهمُ الجاهل، لا سيَّما والنفخُ من روح القُدُس بأمر القدُّوس، فأضف القُدُسَ إلى القدُّوس، ونزِّه المقدَّسَةَ المطهَّرة عن الظنِّ الكاذب والحدس.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يعني أَمَرْنا جبريل حتى نفخ في دِرْعها، فأَحْدَثْنا بذلك النفخِ المسيحَ في بطنها. وقد مضى هذا في «النساء»[(٦)] و«مريم»[(٧)] فلا معنى

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٨ ، ووقع في النسخ: الفراء، بدل: محمد بن يزيد، والمثبت من إعراب القرآن، وقد سلف هذا المذهب عن محمد بن يزيد، وكذلك مذهب سيبويه ١٠/ ٢٨٤ - ٢٨٥ . أما قول الفراء الذي في معاني القرآن له ٢/ ٢١٠ فهو: ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد، ولو قيل آيتين لكان صواباً؛ لأنها ولدت وهي بكر، وتكلم عيسى في المهد.

(٢) في (خ) و(د) و(م): المتعبد.

(٣) ذكر هذا القول الرازي في التفسير ٢٢/ ٢١٨ عن الحسن، وفيه: تلتقم، بدل: تلقم.

(٤) في التعريف والإعلام ص١١٥ ، وما قبله منه.

(٥) في (خ) و(ظ): وأرزن.

(٦) ٧/ ٢٣٢ .

(٧) ١٣/ ٤٢٩ .

للإعادة. ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً وأعجوبةً للخَلْق، وعَلَماً لنبوَّة عيسى، ودلالةً على نفوذ قدرتنا فيما نشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لمَّا ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلُّهم مجتمعون على التوحيد، فالأمةُ هنا بمعنى الدِّين الذي هو الإسلام؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما(١). فأمَّا المشركون فقد خالفوا الكلّ. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أي: إلهكم وحدي ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾(٢) أي: أَفْرِدوني بالعبادة.

وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إنَّ هذه أمَّتُكم أُمَّةٌ واحدةٌ»، ورواها حسين عن أبي عمرو(٣).

الباقون: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على القطع؛ لمجيء(٤) النكرة بعد تمام الكلام؛ قاله الفراء(٥). الزجَّاج: انتصب «أُمَّةً» على الحال، أي: في حال اجتماعها على الحقّ، أي: هذه أمتكم ما دامت أمةً واحدةً واجتمعتم على التوحيد، فإذا تفرَّقتم وخالفتم فليس مَن خالَفَ الحقَّ من جملة أهل الدِّين الحقّ(٦)، وهو كما تقول: فلانٌ صديقي عفيفاً، أي: ما دام عفيفاً، فإذا خالف العفَّة لم يكن صديقي.

وأمَّا الرفعُ فيجوز أن يكون على البدل من «أمتكم». أو على إضمارِ مبتدأ، أي: إنَّ هذه أمتكُم، هذه أمةٌ واحدة. أو يكون خبراً بعد خبر(٧). ولو نصبت «أمتكم» على

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد الطبري ١٦/ ٣٩٢.

(٢) في (م): فاعبدوني، وهي قراءة يعقوب بالياء وصلاً ووقفاً.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، وحسين هو الجعفي، كما في البحر ٦/ ٣٣٧، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٤) في (م): بمجيء.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢١٠. ويعني بالقطع أنه قُطع عن نعت ما قبله وصار حالاً.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، دون قوله: أي: إن هذه أمتكم هذه أمة واحدة.

البدل من «هذه» لجاز، وتكون «أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» خبر «إن»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرَّقوا في الدِّين؛ قاله الكلبيّ. الأخفش: اختلفوا فيه[(٢)]. والمرادُ المشركون، ذمَّهم لمخالفة الحقِّ، واتِّخاذهم آلهةً من دون الله.

قال الأزهريُّ: أي: تفرَّقوا في أمرهم، فنصب «أَمْرَهُمْ» بحذف «في». فالمتقطِّع[(٣)] على هذا لازمٌ، وعلى الأوّل متعدّ[(٤)]. والمرادُ جميعُ الخلق، أي: جعلوا أمرهم في أديانهم قِطَعاً وتقسَّموه بينهم، فمِن موحِّدٍ، ومن يهوديٍّ، ومن نصرانيٍّ، ومن عابدِ ملكٍ أو صنم. ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: إلى حكمنا فنجازيهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «مِن» للتَّبعيض لا للجنس؛ إذ لا قدرةَ للمكلَّف أن يأتيَ بجميع الطاعات فَرْضِها ونَفْلِها، فالمعنى: مَن يعمل شيئاً من الطاعات فرضاً أو نفلاً وهو موحِّدٌ مسلم. قال ابن عباس: مصدِّقاً[(٥)] بمحمدٍ ﷺ[(٦)].

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا جحودَ لعمله، أي: لا يضيع جزاؤه ولا يغطَّى. والكفر ضدُّ[(٧)] الإيمان. والكفرُ أيضاً: جحودُ النعمة، وهو ضدُّ الشكر. وقد كَفَره

---

(١) المحتسب ٢/ ٦٥.

(٢) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٠.

(٣) في (ظ): فالتقطع.

(٤) عبارة الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٨٨: هو كقولك: قطعوا أمرهم. قال أبو البقاء في الإملاء ٤/ ١٤: تقطَّعوا أمرهم، أي: تقطَّعوا في أمرهم، أي: تفرَّقوا، وقيل: عدِّي تقطَّعوا بنفسه؛ لأنه بمعنى: قطَّعوا، أي: فرقوا.

(٥) في (ظ): مصدق.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥١ دون نسبة.

(٧) في (م): ضده.

كفوراً وكُفْراناً. وفي حرف ابن مسعود: «فلا كُفْرَ لِسَعْيه»(١).

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ لعمله حافظون، نظيره: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أي: كلُّ ذلك محفوظٌ لنجازيَ به.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قراءةُ زيد بن ثابت وأهل المدينة: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ وهي اختيارُ أبي عبيدٍ وأبي حاتم. وأهل الكوفة ﴿وَحِرْمٌ﴾(٢) ورويت عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس ﷺ. وهما لغتان مثلُ: حِلّ وحَلال.

وقد روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير(٣): «وحَرِمَ» بفتح الحاء والميم وكسر الراء. وعن ابن عباس أيضاً وعكرمةَ وأبي العالية: «وحَرُمَ» بضم الراء وفتح الحاء والميم. وعن ابن عباس أيضاً: «وحَرَمَ»، وعنه أيضاً: «وحَرَّمَ»، و«حُرِّمَ». وعن عكرمةَ أيضاً: «وحَرِمٌ». وعن قتادةَ ومطر الوراق: «وحَرْمٌ»؛ تسعُ قراءات. وقرأ السُّلَميُّ: «على قريةٍ أهلكتُها»(٤).

واختلف في «لا» في قوله: «لَا يَرْجِعُونَ»، فقيل: هي صلة؛ رويَ ذلك عن ابن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩.

(٢) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «وحِرْم» بكسر الحاء وإسكان الراء، والباقون: «وحرام» بفتحهما وألف بعد الراء. السبعة ص٤٣١، والتيسير ص١٥٥. وذكر قراءة زيد ﷺ النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٩.

(٣) كذا في النسخ، والذي في المحتسب ٢/ ٦٥، والبحر ٦/ ٣٣٨: وسعيد بن المسيب.

(٤) ذكرت هذه القراءات في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، والقراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٩، والبحر ٦/ ٣٣٨.

عباس، واختاره أبو عبيد، أي: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك. وقيل: ليست بصلة، وإنَّما هي ثابتةٌ، ويكون الحرام بمعنى الواجب، أي: وَجَب على قرية[1]، كما قالت الخنساء:

وإنَّ حَـرَامـاً لَا أَرَى الـدَّهْـرَ بَـاكِـيـاً على شَجْوِهِ إلَّا بكيتُ على صَخْرِ[2]

تريد أخاها. فـ «لا» ثابتةٌ على هذا القول.

قال النحاس[3]: والآيةُ مُشْكِلةٌ، ومن أحسن ما قيل فيها وأَجَلِّه ما رواه ابن عيينةَ وابن عُلَيَّةَ وهُشيم وابن إدريس ومحمد بن فُضيل وسليمان بن حيَّان ومعلّى، عن داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ قال: وَجَب أنهم لا يرجعون، قال: لا يتوبون. قال أبو جعفر[4]: واشتقاقُ هذا بيِّنٌ في اللغة، وشَرْحُه: أنَّ معنى حُرِّم الشيء: حُظِر ومُنع منه، كما أنَّ معنى أُحِلَّ: أُبيح ولم يمنع منه، فإذا كان «حَرامٌ» و«حِرْمٌ» بمعنى واجب، فمعناه أنه قد ضيّق الخروج منه ومنع، فقد دخل في باب المحظور بهذا. فأمَّا قولُ أبي عبيد: إنَّ «لا» زائدة، فقد ردَّه عليه جماعة؛ لأنها لا تُزاد في مثل هذا الموضع، ولا فيما يقع فيه إشكال، ولو كانت زائدةً لكان التأويل بعيداً أيضاً؛ لأنه إن أراد: وحرامٌ على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا، فهذا ما لا فائدةَ فيه، وإن أراد التوبة فالتوبةُ لا تُحرَّم.

وقيل: في الكلام إضمارٌ، أي: وحرامٌ على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالخَتْم

---

(١) ذكر هذين القولين دون نسبة الطبري ١٦/ ٣٩٧ ، وذكر قول أبي عبيد النحاسُ في إعراب القرآن ٣/ ٨٠ ، وسيأتي، ولم نقف عليه عن ابن عباس، والذي يذكر عنه القول بأن «لا» ثابتة وليست بصلة كما سيرد، وكما ذكر صاحب اللسان (حرم).

(٢) ذكره عن الخنساء أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٩ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ١٩٩ . ونسبه صاحب اللسان (حرم) لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي برواية: على عمرو، بدل: على صخر، وقد سلف بهذه الرواية ٧/ ١٧٦ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٧٩ .

(٤) هو النحاس.

على قلوبها، أن يُتقبَّل منهم عملٌ لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون؛ قاله الزَّجَّاج وأبو علي: و«لا» غير زائدة[١]. وهذا هو معنى قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ تقدَّم القول فيهم[٢]. وفي الكلام حذف، أي: حتى إذا فُتح سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قال ابن عباس: من كلِّ شَرَفٍ يُقْبِلون[٣]، أي: لكثرتهم يَنْسِلون من كلِّ ناحية. والحَدَب: ما ارتفع من الأرض، والجمع: الحِداب[٤]؛ مأخوذ من حدبة الظَّهْر؛ قال عَنْتَرة:

فما رعِشت يداي ولا ازدهاني تَواتُرهم إليَّ من الحِدَاب[٥]

وقيل: «يَنْسِلُونَ»: يخرجون، ومنه قولُ امرئ القيس:

فَسُلِّي ثيابي من ثِيابِك تَنْسِلِ[٦]

وقيل: يسرعون، ومنه قول النَّابغة:

عَسَلَانَ الذئبِ أَمْسَى قَارِباً بَرِدَ الليلُ عليهِ فَنَسَلْ[٧]

يقال: عَسَلَ الذئبُ يَعسِلُ عَسَلاً وعَسَلاناً: إذا أَعْنقَ وأسرع. وفي الحديث:

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٥، والحجة للفارسي ٥/ ٢٦١.

(٢) ١٣/ ٣٧٨ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠، وأخرج قول ابن عباس الطبري ١٦/ ٤٠٧.

(٤) الصحاح (حدب).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٧١، ولم نقف عليه في ديوان عنترة.

(٦) وصدره: وإن كنت قد ساءتك مني خليقة، وهو من معلقته، وهو في ديوانه ص١٣، والنكت والعيون ٣/ ٤٧١، والكلام منه. وسلف ٣/ ٣٨٦..

(٧) الصحاح (عسل) ومجاز القرآن ٢/ ٤٢، وهو في ديوان النابغة الجعدي ص٩٠، ونسب للبيد كما في الكامل للمبرد ١/ ٤٧٤، والجمهرة ١/ ٢٥٢. وذكره القالي في أماليه ١/ ١٥٥ وقال: العَسَلانُ: عدوٌ فيه اضطراب، والنَّسَلان قريب منه. اهـ. والقارب: طالب الماء ليلاً. اللسان (قرب).

«كَذبَ عليك العَسَلَ» أي: عليك بسرعة المشي[١]. وقال الزجَّاج: والنَّسَلان مِشيةُ الذئب إذا أسرع[٢]؛ يقال: نَسَلَ فلانٌ في العَدْوِ يَنْسِل ـ بالكسر والضم ـ نَسْلاً ونُسولاً ونَسَلاناً، أي: أسرع.

ثم قيل في الذين يَنْسِلُون من كلِّ حَدَب: إنهم يأجوج ومأجوج، وهو الأظهر، وهو قولُ ابن مسعود وابن عباس[٣].

وقيل: جميع الخَلْق، فإنهم يُحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلِّ صَوْب[٤].

وقرئ في الشواذ: «وهم من كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُون»[٥] أخذاً من قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. وحَكَى هذه القراءة المَهْدويُّ عن ابن مسعود، والثعلبيُّ عن مجاهدٍ وأبي الصهباء.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القيامة. قال الفرَّاء[٦] والكسائيُّ وغيرهما: الواو زائدةٌ مُقْحَمة؛ والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعدُ الحقُّ، فـ«اقترب» جوابُ «إذا». وأنشد الفرَّاء:

---

(١) الصحاح (عسل)، والحديث ذكره أيضاً الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٣٧٠، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ١٦٦، والزمخشري في الفائق ٣/ ٢٥٠، وابن الأثير في النهاية (كذب): أن عمرو بن معديكرب شكا إلى عمر ﷺ المعَص فقال: «كذب عليك العَسَل». قال ابن الأثير: والمَعَص بالعين المهملة: اِلْتواءٌ في عصب الرجل.

(٢) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٤٢٨ عن الليث، ولم نقف عليه عن الزجاج.

(٣) أخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٦/ ٤٠٥ - ٤٠٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٢، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) أخرج هذا القول الطبري ١١/ ٤٠٥ عن مجاهد.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣ عن ابن عباس والكلبي والضحاك، والمحتسب ٢/ ٦٦ عن ابن مسعود، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٨ عن مجاهد.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢١١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٠.

فلمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَى[١]

أي: انتحى، والواوُ زائدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: للجبين ناديناه.

وأجاز الكسائيُّ أن يكون جواب «إذا»: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ويكون قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ معطوفاً على الفعل الذي هو شرط. وقال البَصْريُّون: الجواب محذوف، والتقدير: قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ وهو قولُ الزجَّاج[٢]، وهو قولٌ حسن. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. المعنى: قالوا: «ما نعبدهم»، وحَذْفُ القول كثير[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ﴾ «هي» ضميرُ الأبصار، والأبصار المذكورة بعدها تفسيرٌ لها، كأنه قال: فإذا أبصارُ الذين كفروا شَخَصَتْ عند مجيء الوعد؛ وقال الشاعر:

لَعَمْرُ أبيها لا تقول ظَعينتي ... ألا فرَّ عنِّي مالكُ بن أبي كعبِ[٤]

فكنَى عن الظعينة في «أبيها» ثم أَظْهَرها.

وقال الفرَّاء: «هي» عماد، مثل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠، والبيت لامرئ القيس وهو من معلقته، وهو في ديوانه ص١٥، وعجزه: بنا بطنُ حِقْفٍ ذي ركام عَقَنْقَلِ، وسلف ٢/ ٨٥. قال شارح الديوان: أجزنا: قطعنا، والساحة: الفناء. والحِقف من الرمل: المعوجّ. ومعنى ركام: بعضه على بعض. والعقنقل: المنعقِد المتداخِل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٥، والمعنى: حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق قالوا يا ويلنا.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠ - ٨١.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٠، والبيت في معجم الشعراء للمرزباني ص٢٥٦، ونقد الشعر لأبي الفرج بن قدامة ص٢٢١، والأغاني ١٦/ ٢٣٨ برواية: حليلتي، بدل: ظعينتي. ومالك بن أبي كعب الخزرجي جاهلي، وهو والد كعب بن مالك الصحابي، ولمالك في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهم قبل الإسلام آثار وذكر. الأغاني ١٦/ ٢٢٦.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٠، وقوله: عماد، أي: ضمير فصل.

وقيل: إنَّ الكلام تمَّ عند قوله: «هي»، التقدير: فإذا هي ـ يعني القيامة ـ بارزةٌ واقعة، أي: مِن قُربها كأنها آتيةٌ حاضرة، ثم ابتدأ فقال: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء، أي: أبصار الذين كفروا شاخصةٌ من هذا اليوم[١]، أي: من هَوْله لا تكاد تَطْرُف، يقولون: يا ويلنا إنَّا كنَّا ظالمين بمعصيتنا، ووَضْعِنا العبادةَ في غير مَوْضِعها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ قال ابن عباس: آيةٌ لا يسألني الناس عنها، لا أدري؛ أعَرَفوها فلم يسألوا عنها، أم جهلوها فلا يسألون عنها؟! قيل: وما هي؟ قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ لمَّا أُنزلت شقَّ على كفار قريش، وقالوا: شَتَم آلهتنا، وأتوا ابن الزِّبَعْرَى وأخبروه، فقال: لو حضرتُه لرددْتُ عليه. قالوا: وما كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقول له: هذا المسيحُ تعبده النصارى، واليهودُ تعبد عُزيراً، أفهُما من حصب جهنَّم؟! فعَجِبتْ قريش من مقالته، ورأوا أنَّ محمداً قد خُصم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١][٢] وفيه نزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ يعني ابن الزِّبَعْرَى ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بكسر الصاد، أي: يضجُّون، وسيأتي.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٦٩ ، وذكر هذا القول الآلوسي في روح المعاني ١٧/ ٩٣ عن الثعلبي وقال: وهو وجه متكلَّف متنافر التركيب.

(٢) أخرجه مطولاً الواحدي في أسباب النزول ص٣١٥ ، وبنحوه الطبراني في الكبير (١٢٧٣٩)، ومختصراً الطبري ١٦/ ٤١٨ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٩١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وليس فيه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾.

الثانية: هذه الآية أصلٌ في القول بالعموم، وأنَّ له صِيَغاً مخصوصة، خلافاً لمن قال: ليست له صيغةٌ موضوعةٌ للدلالة عليه. وهو باطلٌ بما دلَّت عليه هذه الآيةُ وغيرها، فهذا عبد الله بن الزّبعرى قد فَهِم من «ما» في جاهليته جميعَ مَن عُبِد، ووافَقَه على ذلك قريش وهم العربُ الفصحاء، واللُّسْنُ البلغاء، ولو لم تكن للعموم لَمَا صحَّ أن يُستثنى منها، وقد وُجد ذلك، فهي للعموم[١]، وهذا واضح.

الثالثة: قراءةُ العامة بالصاد المهملة، أي: إنكم يا معشر الكفار والأوثانَ التي تعبدونها من دون الله وقودُ جهنم؛ قاله ابن عباس[٢].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حَطَبها[٣]. وقرأ علي بن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما: «حَطَبُ جَهَنَّمَ» بالطاء[٤].

وقرأ ابن عباس: «حَضَبُ» بالضَّاد المعجَمة[٥]؛ قال الفراء[٦]: يريد الحَصَب. قال: وذُكر لنا أنَّ الحَضَب[٧] في لغة أهل اليمن الحطب، وكلُّ ما هيَّجْتَ به النارَ وأوقدْتَها به فهو حَضَب؛ ذكره الجوهري[٨]. والموقد مِحْضَب[٩].

---

(١) ينظر إحكام الفصول للباجي ص٢٣٤، والمستصفى للغزالي ٢/ ١١٧، والمحصول للرازي ٣/ ١٩٩ - ٢٠٢، والإحكام للآمدي ١/ ٤١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤١١، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٢ .

(٣) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٤١١ - ٤١٢، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٠، وعلقه البخاري عن عكرمة إثر الحديث (٤٧٣٩) بلفظ: ﴿حَصَبُ﴾: حطب بالحبشية.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٦ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢١٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (حضب).

(٧) في (د) و(ز) و(م) والصحاح: الحضب، والمثبت من باقي النسخ ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٣ .

(٨) في الصحاح (حضب).

(٩) في (خ) و(د) و(ز): حضب، وفي (ظ): حصب، والمثبت من (م)، وفي اللسان (حضب): المحضب: المسعر، وهو عود تحرك به النار عند الإيقاد، وحكى ابن دريد عن أبي حاتم أنه قال: يسمى المِقْلَى: المِحْضَب.

وقال أبو عبيدة[١] في قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: كلُّ ما ألقيته في النار فقد حَصَبْتَها به.

ويظهر من هذه الآية أنَّ الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطبٌ لجهنم، ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. وقيل: إنَّ المراد بالحجارة حجارةُ الكبريت، على ما تقدَّم في «البقرة»[٢]، وإنَّ النار لا تكون على الأصنام عذاباً ولا عقوبة؛ لأنها لم تُذْنِبْ، ولكن تكون عذاباً على مَن عبدها: أول شيء بالحسرة[٣]، ثم تجمع على النار فتكون نارها أشدَّ من كلِّ نار، ثم يعذَّبُون بها. وقيل: تُحمى فتلصَقُ بهم زيادةً في تعذيبهم. وقيل: إنما جُعلت في النار تبكيتاً لعبادتهم[٤].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: فيها داخلون. والخطابُ للمشركين عبدةِ الأصنام، أي: أنتم واردوها مع الأصنام. ويجوز أن يقال: الخطابُ للأصنام وعَبَدَتِها؛ لأن الأصنام وإن كانت جماداتٍ فقد يخبَر عنها بكنايات الآدميِّين. وقال العلماء: ولا يدخل في هذا عيسى ولا عزيرٌ ولا الملائكةُ صلواتُ الله عليهم؛ لأن «ما» لغير الآدميين[٥]، فلو أراد ذلك لقال: «ومَن». قال الزجَّاج: ولأنَّ المخاطَبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: لو كانت الأصنامُ آلهةً

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٤٢.

(٢) ١/ ٣٥٤.

(٣) في (ظ): لما فيها من الحسرة، بدل: أول شيء بالحسرة.

(٤) في (ظ): لعابديها. والتبكيت: التقريع والتوبيخ. اللسان (بكت).

(٥) تفسيرْ الطبري ١٦/ ٤٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨١.

لَمَا ورد عابِدُوها النار. وقيل: «ما وردوها» أي: العابدون والمعبودون؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهؤلاء الذين وَرَدوا النار من الكفار والشياطين، فأمَّا الأصنام فعلى الخلاف فيها؛ هل يحييها الله تعالى ويعذِّبها حتى يكون لها[(١)] زفير، أو لا؟ قولان. والزَّفير: صوتُ نَفَس المغموم يخرج من القلب. وقد تقدَّم في «هود»[(٢)].

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: في الكلام حذف، والمعنى: وهم فيها لا يسمعون شيئاً؛ لأنَّهم يُحشرون صُمًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧]. وفي سماع الأشياء رَوْحٌ وأُنْس، فمنَعَ الله الكفارَ ذلك في النار.

وقيل: لا يسمعون ما يسرُّهم، بل يسمعون صوت مَن يتولَّى تعذيبهم من الزَّبانية.

وقيل: إذا قيل لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] يصيرون حينئذٍ صُمًّا بُكْماً، كما قال ابن مسعود: إذا بقي مَن يخلد في النار في جهنم، جُعلوا في توابيتَ من نار، ثم جُعلت التوابيت في توابيتَ أخرى فيها مساميرُ من نار، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحدٌ منهم أنَّ في النار مَن يُعذَّب غيره[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أي: الجنة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾

---

(١) في النسخ الخطية: لهم.

(٢) ١١/ ٢١١.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤١٥، والبيهقي في البعث والنشور (٦٥٦) من طريق يونس بن خباب عن ابن مسعود، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٠٨٧) من طريق يونس بن خباب، عمن حدثه، عن ابن مسعود.

أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «إنَّ» هاهنا بمعنى «إلا»[١]، وليس في القرآن غيره.

وقال محمد بن حاطب: سمعت علي بنَ أبي طالب ﷺ يقرأ هذه الآيةَ على المنبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ فقال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ عثمانَ منهم»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حِسَّ النار وحركةَ لهبها. والحَسِيسُ والحِسُّ: الحركة. وروى ابنُ جُريج عن عطاء قال: قال أبو راشد الحَرُوريُّ لابن عباس: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ فقال ابن عباس: أمجنونٌ أنت؟ فأين قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨] وقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]. ولقد كان من دعاء مَن مضى: اللهمَّ أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنةَ فائزاً[٣].

وقال أبو عثمان النَّهْديُّ: على الصِّراط حيَّاتٌ تلسعُ أهل النار فيقولون: حسّ حسّ[٤].

وقيل: إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ لم يسمعوا حسَّ النار[٥]، وقبل ذلك يسمعون، فالله أعلم.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٠، ويعني أنه استثناءٌ من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وذكر الطبري ١٦/ ٤١٩ أن هذا الاستثناء لا معنى له؛ لأن الاستثناء إنما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه، ولا شك أن الذين سبقت لهم من الله الحسنى إنما هم ملائكة، وإما إنس، أو جان، وكل هؤلاء إذا ذكرتها العرب فإن أكثر ما تذكرها بـ «مَنْ»، لا بـ «ما».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٥١ - ٥٢، وأحمد في فضائل الصحابة (٧٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢١٦)، والطبري ١٦/ ٤١٥، كلُّهم روَوْه موقوفاً، ولم نقف عليه مرفوعاً.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩١، وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧١) من سورة مريم، وأبو راشد الحروري هو نافع بن الأزرق.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٢.

(٥) في (م): أهل النار.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أي: دائمون، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعين؛ وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن: ﴿لَا يُحْزِنُهُم﴾ بضمِّ الياء وكَسْرِ الزاي(١). الباقون بفتح الياء وضمِّ الزاي. قال اليزيديُّ: حَزَنه لغةُ قريش، وأحزنه لغةُ تميم، وقد قُرِئ بهما.

والفزعُ الأكبر: أهوالُ يوم القيامة والبعث؛ عن ابن عباس(٢).

وقال الحسن: هو وقتُ يؤمر بالعباد إلى النار(٣).

وقال ابنُ جُريج وسعيد بن جبير والضحَّاك: هو إذا أطبقت النار على أهلها، وذُبح الموت بين الجنة والنار(٤).

وقال ذو النُّون المِصْريُّ: هو القطيعةُ والفراق(٥).

وعن النبيِّ ﷺ: «ثلاثةٌ يومَ القيامة في كَثيبٍ من المِسْك الأذْفَر، لا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبر: رجلٌ أمَّ قوماً محتسباً وهم له راضون، ورجلٌ أذَّن لقومٍ محتسباً، ورجلٌ ابتُلِيَ برِقٍّ في الدنيا فلم يَشْغَلْه عن طاعة ربِّه»(٦).

وقال أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن: مررت برجلٍ يضرب غلاماً له، فأشار إليَّ

---

(١) النشر ٢/ ٢٤٤ عن أبي جعفر، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ عن ابن محيصن.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٢ بلفظ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ يعني النفخة الآخرة.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢١ - ٤٢٢ عن سعيد بن جبير وابن جريج.

(٥) ذكره أبو الليث في التفسير ٢/ ٣٨٠.

(٦) أخرجه بنحوه أحمد (٤٧٩٩)، والترمذي (١٩٨٦) و(٢٥٦٦)، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٤)، وفي الأوسط (١١١٦). قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الغلام، فكلَّمتُ مولاه حتى عفا عنه، فلقيت أبا سعيد الخدريَّ فأخبرته، فقال: يا ابن أخي، مَن أغاث[١] مكروباً أعتقه الله من النار يومَ الفزع الأكبر» سمعت ذلك من رسول الله ﷺ[٢].

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تستقبلُهم الملائكة على أبواب الجنة؛ يهنِّئونهم ويقولون لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقيل: تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور؛ عن ابن عباس[٣].

﴿هَذَا يَوْمُكُمُ﴾ أي: ويقولون لهم، فحذف. ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الكرامة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بنُ نِصَاح والأعرج والزُّهريُّ: «تُطْوَى» بتاء مضمومة، «السَّمَاءُ» رفعاً على ما لم يسمَّ فاعله[٤]. مجاهد: «يَطْوِي»[٥]، على معنى: يطوي الله السماء. الباقون: ﴿نَطْوِي﴾ بنون العظمة.

وانتصابُ «يوم» على البدل من الهاء المحذوفة في الصلة، التقدير: الذي كنتم توعدونه يومَ نطوي السماء. أو يكون منصوباً بـ«نعيد» من قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾. أو بقوله: «لا يحزنهم» أي: لا يحزنهم الفزع الأكبر في اليوم الذي

---

(١) في (خ) ود): أعان.

(٢) لم نقف عليه. وقد ورد هذا المعنى في الصحيح ضمن حديث لأبي هريرة فيما أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عنه، وفيه: «من نفَّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا؛ نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة».

(٣) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٨٠ عن مقاتل، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) النشر ٢/ ٣٢٤ عن أبي جعفر.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٤٣ عن شيبة بن نِصاح، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٢ دون نسبة.

نطوي فيه السماء. أو على إضمارِ: واذكر، وأراد بالسماء الجنس، دليله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: كَطيِّ الصحيفة على ما فيها[١]. فاللام بمعنى «على».

وعن ابن عباس أيضاً: هو اسم كاتبِ رسول الله ﷺ[٢]. وليس بالقويِّ؛ لأن كُتَّاب رسول الله ﷺ معروفون وليس هذا منهم، ولا في أصحابه مَن اسمُه السِّجِلّ[٣].

وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسُّدِّيّ: «السِّجلّ» ملَك[٤]، وهو الذي يطوي كتبَ بني آدم إذا رُفعت إليه.

ويقال: إنه في السماء الثالثة، تُرفع إليه أعمال العباد، يرفعها إليه الحفظةُ الموكَّلون بالخَلْق في كلِّ خميس واثنين، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروتُ وماروت[٥].

والسِّجلُّ: الصَّكُّ، وهو اسمٌ مشتقٌّ من المساجلة[٦]، وهي المكاتبة[٧]، وأصلُها من السَّجْل: وهو الدَّلْو؛ تقول: ساجَلْتُ الرجلَ: إذا نزعتَ دلواً ونزع دلواً، ثم

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٥)، والطبري ١٦/ ٤٢٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٢٥ ، والتعريف والإعلام ص١١٥ ، وردَّه أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: لا يصح، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان في سنن أبي داود وغيره ـ منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث وردَّه أتم ردّ... وأمَّا مَن ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٣ عن ابن عمر والسدي، وذكره الرازي ٢٢/ ٢٢٨ عن ابن عباس.

(٥) التعريف والإعلام ص١١٥ .

(٦) في النسخ عدا (ز): السجالة، والمثبت من (ز) وهو الصواب. وينظر مجمل اللغة ٢/ ٤٨٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٧١ ، والمفهم ٧/ ٣٩٣ .

(٧) في (ظ) و(م): الكتابة.

استُعيرت، فسميت المكاتبةُ والمراجعة مساجلةً. وقد سَجَّل الحاكمُ تسجيلاً. وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَن يُسَاجِلْني يُساجِلْ ماجداً يَملأ الدَّلوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ[١]

ثم بني هذا الاسم على فِعِلّ، مثل: حِمِرّ وطِمِرّ وبِلِيّ.

وقرأ أبو زرعةَ بن عمرو بن جرير: «كَطَيِّ السُّجُلِّ» بضمِّ السين والجيم وتشديد اللام[٢]. وقرأ الأعمش وطلحة: «كَطَيِّ السَّجْلِ» بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام[٣]. قال النحاس: والمعنى واحدٌ إن شاء الله تعالى، والتمام عند قوله: «لِلْكِتَابِ»[٤].

والطَّيُّ في هذه الآية يَحتمِلُ معنيين: أحدهما: الدَّرْج الذي هو ضدُّ النَّشْر، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. والثاني: الإخفاء والتعمية والمحو؛ لأنَّ الله تعالى يمحو ويطمسُ رُسومَها ويكدرُ نجومها.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١و٢و١١].

«لِلْكِتَابِ» وتمَّ الكلام ـ وقراءة الأعمش وحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ ويحيى وخَلَف: ﴿لِلْكُتُبِۚ﴾ جمعاً[٥] ـ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: نحشرهم حُفاةً عراةً غُرْلاً كما بُدئوا في البطون.

---

(١) الصحاح (سجل)، والبيت في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٧٩٥ ، والكامل للمبرد ١/ ٢٥٠ ، والحماسة البصرية ١/ ١٨٥ . والكَرَب: هو الحبل يشد في وسط خشبة الدلو فوق الرشاء ليقويه. المعجم الوسيط (كرب). والفضل بن العباس هو أحد شعراء بني هاشم وفصائحهم، وأمه بنت العباس ابن عبد المطلب. الأغاني ١٦/ ١٧٥ .

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣ ، والمحتسب ٢/ ٦٧ .

(٣) المحتسب ٢/ ٦٧ عن أبي السَّمَّال.

(٤) في (د) و(ز): للكتب، وهما قراءتان على ما يأتي.

(٥) السبعة ص٤٣١ ، والتيسير ص١٥٥ عن حمزة والكسائي وحفص، والنشر ٢/ ٣٢٥ عنهم وعن خلف، والباقون: «للكتاب» على الإفراد.

وروى النَّسائيُّ[١] عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُحشر الناس يومَ القيامة عُراةً غُرْلاً، وأوّلُ الخَلْقِ يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾».

أخرجه مسلم[٢] أيضاً عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «يا أيها الناس، إنَّكم تُحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ألا وإنَّ أوَّل الخلائق يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام» وذكر الحديث. وقد ذكرنا هذا الباب في كتاب «التذكرة»[٣] مستوفًى.

وذكر سفيان الثوريُّ، عن سَلَمةَ بن كُهَيْل، عن أبي الزَّعْراء، عن عبد الله بن مسعود قال: يُرْسِلُ الله عزَّ وجلَّ ماءً[٤] من تحت العرش كمنيِّ الرجال، فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الأرضُ بالثرى، وقرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[٥].

وقال ابن عباس: المعنى: نُهلك كلَّ شيء ونُفْنيه كما كان أولَ مرة[٦]، وعلى هذا فالكلامُ متَّصلٌ بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفَناء، فلا تكون شيئاً.

وقيل: نُفني السماء ثم نعيدُها مرةً أخرى بعد طَيِّها وزوالها، كقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

---

(١) في المجتبى ٤/ ١١٤ .

(٢) في صحيحه (٢٨٦٠)، وهو عند أحمد (١٩١٣) و(٢٠٩٦)، والبخاري (٣٣٤٩).

(٣) ص٢٠٧ .

(٤) قبلها في (ظ): يوم القيامة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ ، وأخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٥/ ١٩١ - ١٩٥ ، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٣١٤ - ٣١٦ ، والحاكم ٤/ ٤٩٦ - ٤٩٨ . وأبو الزعراء الكندي هو عبد الله بن هانئ، قال فيه البخاري كما ذكر العقيلي: لا يتابع على حديثه.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٣١ .

والقول الأوّل أصحُّ، وهو نظيرُ قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَعْدًا﴾ نصب على المصدر، أي: وَعَدْنا وعداً ﴿عَلَيْنَا﴾ إنجازُه والوفاءُ به، أي: من البعث والإعادة، ففي الكلام حذف. ثم أكَّد ذلك بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال الزجّاج[1]: معنى «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»: إنَّا كنَّا قادرين على [فِعْل] ما نشاء.

وقيل: «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» أي: ما وَعَدْناكم، وهو كما قال: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨].

وقيل: «كان» للإخبار بما سبق من قضائه. وقيل: صلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ الزبورُ والكتاب واحدٌ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل: زبور؛ [من] زَبَرْت، أي: كتبتُ، وجمعه: زُبُر[2]. قال سعيد ابن جبير: «الزَّبور»: التوراة والإنجيل والقرآن ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ الذي في السماء ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير[3].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٢، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ - ٨٣، وما بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٦٠)، والطبري ١٦/ ٤٣٢ و ٤٣٥ من طريق الأعمش به. وقوله عن الذكر إنه الذي في السماء، يعني به أمَّ الكتاب، كما في تفسير الطبري ١٦/ ٤٣١، والوسيط ٢/ ٢٥٤، وزاد المسير ٥/ ٣٩٧، وسيأتي هذا القول عن مجاهد وابن زيد.

الشعبيُّ: «الزَّبور»: زبور داود، و«الذكر»: توراةُ موسى عليه السلام[١].

مجاهد وابن زيد: «الزَّبور»: كتب الأنبياء عليهم السلام، و«الذِّكر»: أمُّ الكتاب الذي عند الله في السماء[٢].

وقال ابن عباس: «الزَّبور»: الكتب التي أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه، و«الذِّكر»: التوراة المنزلة على موسى[٣].

وقرأ حمزة: «في الزُّبُورِ» بضم الزاي جمع زِبْرٍ[٤].

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ أحسنُ ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة ـ كما قال سعيد بن جبير ـ لأنَّ الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم[٥]. وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٦]؛ قال مجاهد وأبو العالية: ودليلُ هذا التأويل قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وعن ابن عباس: أنها الأرض المقدَّسة[٧]. وعنه أيضاً: أنَّها أرض الأمم الكافرة تَرِثُها أمةُ محمدٍ ﷺ بالفتوح[٨].

وقيل: إن المراد بذلك بنو إسرائيل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وأكثرُ المفسرين على أنَّ المراد بالعباد الصالحين أمةُ محمدٍ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٥، والطبري ١٦/ ٤٣٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ عن مجاهد، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٣٢، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٢٥٤، وابن الجوزي ٥/ ٣٩٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٣٣ مختصراً.

(٤) السبعة ص٤٣١، والتيسير ص٩٨، قال الرازي ٢٢/ ٢٢٩: ومعنى القراءتين واحد.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٣.

(٦) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما الطبري ١٦/ ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٩٧ عن الكلبي.

(٨) أورده الطبري ١٦/ ٤٣٧.

وقرأ حمزة: ﴿عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ بتسكين الياء[١].

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه. وقيل: إنَّ في القرآن ﴿لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثوريُّ: هم أهلُ الصلوات الخمس[٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «عابدين»: مطيعين[٣]. والعابد: المتذلِّل الخاضع. قال القشيريُّ: ولا يَبْعُد أن يدخل فيه كلُّ عاقل؛ لأنه من حيث الفطرةُ متذلِّلٌ للخالق، وهو بحيث لو تأمَّل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة.

وقال ابن عباس أيضاً: هم أمةُ محمدٍ ﷺ، الذين يصلُّون الصلواتِ الخمسَ، ويصومون شهرَ رمضان[٤]. وهذا هو القول الأوّل بعينه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان محمدٌ ﷺ رحمةً لجميع الناس، فَمَن آمن به وصدَّق به سَعِد، ومَن لم يؤمن به سلِم ممَّا لَحِقَ الأممَ من الخَسْفِ والغرق[٥]. وقال ابن زيد: أراد بالعالَمين

---

(١) السبعة ص٤٣٢، والتيسير ص١٥٦.

(٢) أخرجه عن أبي هريرة سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤١، وذكره عن سفيان النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٣.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ دون نسبة، وأخرج الطبري ١٦/ ٤٣٩ عن ابن عباس قوله: «عابدين»: عالِمين.

(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٢٩١٢). وأخرجه بلفظ المصنف الطبري ١٦/ ٤٣٨ عن كعب الأحبار.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٣، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٠، والطبراني في الكبير (١٢٣٥٨)، وأبو الشيخ في تاريخ المحدثين بأصبهان (٥٧٢).

المؤمنين خاصة[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلا يجوز الإشراك به. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لتوحيد الله تعالى، أي: فأسلموا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: إن أعرضوا عن الإسلام ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتُكم على بيانٍ أنَّا وإيَّاكم حربٌ لا صُلْحَ بيننا، كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: أعْلِمْهم أنك نقضتَ العهد نقضاً استويت به[٢] أنت وهم، فليس لفريقٍ عهدٌ ملتزَمٌ في حقِّ الفريق الآخر.

وقال الزَّجَّاج: المعنى: أعلمتُكم بما يوحَى إليَّ على استواءٍ في العلم به، ولم أُظهِر لأحدٍ شيئاً كتمتُه عن غيره[٣].

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ «إن» نافيةٌ بمعنى «ما»، أي: وما أدري. ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني أجل يوم القيامة لا يدريه أحدٌ، لا نبيٌّ مرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مقرَّب؛ قاله ابن عباس. وقيل: آذنتكم بالحرب ولكنِّي لا أدري متى يؤذَن لي في محاربتكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: من الشِّرك، وهو المُجازِي عليه. ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعلَّ الإمهال ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: اختبارٌ ليرى كيف صنيعكم، وهو أعلم. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى انقضاء المدَّة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) قوله: به، من (ظ)، ووقع في (د) و(م): أي: استويت.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٨ ، ولفظه فيه: أعلمتكم بما يوحَى إلي لتستووا في الإيمان به.

ورويَ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى بني أمية في منامه يَلُون الناس، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بني أمية بذلك، فقالوا له: ارجع فسَلْه متى يكون ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: قل لهم ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾[٢] ختم السورة بأنْ أمر النبيَّ ﷺ بتفويض الأمر إليه، وتوقُّعِ الفَرَجِ مِن عنده، أي: احكُم بيني وبين هؤلاء المكذِّبين وانصرني عليهم. روى سعيد عن قتادة قال: كانت الأنبياء تقول: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأُمر النبيُّ ﷺ أن يقول: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فكان إذا لقيَ العدوَّ يقول وهو يعلم أنه على الحقِّ وعدوّه على الباطل: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اقضِ به[٣].

وقال أبو عبيدة: الصفةُ هاهنا أقيمت مقامَ الموصوف، والتقدير: ربِّ احكم بحكمك الحقّ[٤].

و«ربِّ» في موضع نصب؛ لأنه نداءٌ مضاف.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن: «قُلْ رَبُّ احْكُمْ بالحقِّ» بضم الباء[٥]؛ قال النحاس[٦]: وهذا لحنٌ عند النحويين؛ لا يجوز عندهم: رجلُ أَقْبِلْ، حتى تقول: يا رجلُ أقبلْ، أو ما أشبهه.

وقرأ الضحَّاك وطلحةُ ويعقوب: «قال ربِّي أَحْكَمُ بالحقِّ» بقطع الألف مفتوحةَ

---

(١) لم نقف عليه، والضعف فيه ظاهر.

(٢) قرأ حفص عن عاصم: «قال» بالألف، والباقون: «قل» بغير ألف. السبعة ص٤٣١ - ٤٣٢ والتيسير ص١٥٦ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ .

(٤) ذكر هذا القول الطبري ١٦/ ٤٤٥ دون نسبة.

(٥) النشر ٢/ ٣٢٥ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٨٤ .

الكاف، والميمُ مضمومة[١]. أي: قال محمدٌ: ربِّي أحكَمُ بالحقِّ من كلِّ حاكم.

وقرأ الجحدريُّ: «قُلْ ربِّي أحْكَمَ»[٢] على معنى: أحْكَمَ الأمورَ بالحقّ.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: تصفونه من الكفر والتكذيب. وقرأ المفضَّل والسُّلَميُّ: «علَى ما يَصِفون» بالياء على الخبر[٣]. الباقون بالتاء على الخطاب.

(١) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٧١. والقراءة المتواترة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ: ربُّ احْكُمْ، كقراءة الجماعة.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣.

(٣) رواية لابن ذكوان عن ابن عامر؛ كما في السبعة ص٤٣٢، ورواية المفضل عن عاصم، كما في النشر ٢/ ٣٢٥.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحج

وهي مكِّيةٌ، سوى ثلاثِ آيات: قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية: ١٩] إلى تمام ثلاثِ آيات؛ قاله ابن عباس ومجاهد[١]. وعن ابن عباس أيضاً أنهنَّ أربعُ آيات، إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الآية: ٢٢]. وقال الضحاك وابن عباس أيضاً: هي مدنية[٢]. وقال قتادة[٣]: [مدنية] إلَّا أربعَ آيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الآيات: ٥٢-٥٥]، فهنَّ مكِّيات.

وعَدَّ النقَّاش ما نزل بالمدينة عَشْرَ آيات. وقال الجمهور: السورةُ مختلِطَة؛ منها مكِّيٌّ ومنها مَدَنيّ. وهذا هو الأصحُّ؛ لأنَّ الآيات تقتضي ذلك[٤]؛ لأنَّ «يا أيها الناس» مكيّ، و«يا أيها الذين آمنوا» مَدَنيّ[٥].

الغَزْنَويُّ: وهي من أعاجيب السُّوَر، نزلت ليلاً ونهاراً، سَفراً وحَضَراً، مكيًّا ومدنيًّا، سِلْمِيًّا وحَرْبِيًّا، ناسخاً ومنسوخاً، مُحْكَماً ومتشابهاً؛ مختلف العدد.

قلت: وجاء في فضلها ما رواه الترمذيُّ وأبو داود والدارَقُطْنيُّ عن عقبة بن عامر

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، وأخرجه عن ابن عباس مطولاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩ .

(٢) ذكر الخبرين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، ولم يذكر ابنَ عباس في الخبر الثاني، وقد أخرجه عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ .

(٣) في النسخ: قاله قتادة، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، والكلام منه. وأخرجه ابن المنذر عنه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥ عن ابن عباس.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٩ . وذكر المصنف ٦/ ٥ أن القول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: مكي حيث وقع؛ ليس بصحيح. وينظر ١/ ٣٢٩ .

قال: قلت: يا رسول الله، فُضِّلت سورة الحجّ بأنَّ فيها سجدتين؟ قال: «نعم، ومَن لم يَسْجُدْهما فلا يقرأْهما». لفظُ الترمذيّ. وقال: هذا حديث[١] ليس إسناده بالقويّ، واختلف أهل العلم في هذا؛ فروي عن عمر بن الخطاب - ﷺ - وابنِ عمر أنهما قالا: فُضِّلت سورةُ الحج بأنَّ فيها سجدتين. وبه يقول ابن المبارك والشافعيُّ وأحمد وإسحاق. ورأى بعضهم أنَّ فيها سجدةً واحدة، وهو قولُ سفيان الثَّوْري[٢]. وروى الدارَقُطْنيّ عن عبد الله بن ثعلبةَ قال: رأيت عمر بن الخطاب سَجَدَ في الحج سجدتين، قلت: في الصبح؟ قال: في الصبح[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾

روى الترمذِيّ[٤] عن عِمْران بنِ حُصين أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: أنزلت عليه هذه الآيةُ وهو في سفر، فقال: «أتَدرون أيُّ يومٍ ذلك»؟ فقالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله لآدمَ: ابْعَثْ بَعْثَ النار، قال: يا ربِّ، وما بَعْثُ النار؟ قال: تِسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة». فأنشأ

(١) بعدها في النسخ: حسن، والمثبت من سنن الترمذي، والتحفة ٧/ ٣٢٢.

(٢) سنن الترمذي (٥٧٨)، والحديث عند أبي داود (١٤٠٢)، والدارقطني (١٥٢١)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٣٦٤).

وأخرجه دون قوله: «فمن لم يسجدهما...» أبو داود في المراسيل (٧٨) من طريق خالد بن معدان عن النبي ﷺ. وابنُ أبي شيبة ٢/ ١١ عن عمر ﷺ موقوفاً.

(٣) سنن الدارقطني (١٥٢٣)، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٣٩٠، ووقع في (د) و(ز) و(ظ): الصحيح، بدل: الصبح، في الموضعين، والمثبت من باقي النسخ والمصادر. والسائل لعبد الله بن ثعلبة هو سعد ابن إبراهيم الراوي عنه.

(٤) في سننه (٣١٦٨).

المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قارِبُوا وسَدِّدوا، فإنه لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلَّا كان بين يديها جاهليةٌ». قال: «فيؤخذ العددُ من الجاهلية، فإن تَمَّت، وإلَّا كَمُلت من المنافقين، وما مَثَلُكم والأُمَم إلَّا كَمَثل الرَّقْمة[١] في ذراع الدابة، أو كالشامَة في جَنْب البعير». ثم قال: «إنِّي لَأرجو أن تكونوا ربعَ أهل الجنة». فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأرجو أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة». فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأرجو أن تكونوا نصفَ أهل الجنة». فكبَّروا. قال: لا أدري قال: الثلثين أم لا. قال: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غيرِ وجهٍ عن الحسن عن عِمران بن حُصين. وفيه: فيئِس القوم حتى ما أَبْدَوْا بضاحكةٍ، فلما رأى رسول الله ﷺ [الذي بأصحابه] قال: «اعملوا وأبشروا، فَوَالَّذي نفسي بيده إنَّكم لَمَعَ خلِيقتين ما كانتا مع شيء إلَّا كَثَرَتاه[٢]: يأجوج ومأجوج، ومَن مات من بني آدم وبني إبليس» قال: فَسُرِّيَ عن القوم بعضُ الذي يجدون، فقال: «اعملوا وأبشروا، فَوَالَّذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّامَة في جَنْبِ البعير، أو كالرَّقْمة في ذراع الدابة». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[٣].

وفي «صحيح» مسلم[٤]، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لَبَّيْكَ وسَعْدَيك، والخيرُ في يديك» قال: «يقول: أَخرِج بَعْثَ النار، قال: وما بَعْثُ النار؟ قال: من كلِّ ألفٍ تِسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعين»[٥] قال: «فذاك حين يَشيبُ الصغيرُ، وتَضَع كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وترى الناس سُكارَى وما هم بسكارَى ولكنَّ عذابَ الله شديد» قال: فاشتدَّ ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله،

(١) الرقمة: هي الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها. النهاية (رقم).

(٢) قال السندي ـ كما في حاشية المسند (١٩٩٠١) ـ: كَثَرَتاه، بالتخفيف، أي: غلبتاه بالكثرة. وقوله: بضاحكة، هي واحدة الضواحك، وهي أربعة، وسميت ضواحك؛ لأنها تظهر عند الضحك.

(٣) سنن الترمذي (٣١٦٩) وما سلف بين حاصرتين منه، وهو بهذه الرواية عند أحمد (١٩٩٠١).

(٤) برقم (٢٢٢)، وهو عند أحمد (١١٢٨٤)، والبخاري (٣٣٤٨).

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): وتسعون.

أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال: «أبشِروا، فإنَّ من يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكم رجل». وذَكَر الحديث بنَحْوِ ما تقدَّم في حديث عِمران بن حصين.

وذكر أبو جعفر النحاس قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال: حدَّثنا سلمة، قال: حدَّثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: نزلت على النبي ﷺ وهو في مَسِيرٍ له، فرفع بها صوته حتى ثابَ إليه أصحابه، فقال: «أتدرون أيُّ يوم هذا؟ هذا يومَ يقول الله عزَّ وجلَّ لآدم: يا آدمُ، قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ أهل النار: من كلِّ ألفٍ تِسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة». فكَبُر ذلك على المسلمين، فقال النبيُّ ﷺ: «سَدِّدُوا وقارِبوا وأَبْشِروا، فوالَّذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّامَة في جَنْبِ البعير، أو كالرَّقْمة في ذراع الحمار، وإنَّ معكم خليقتين ما كانتا مع شيءٍ إلَّا كَثَرتاه: يأجوج ومأجوج، ومَن هَلَكَ من كَفَرةِ الجنِّ والإنس»(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ المرادُ بهذا النداء المكلَّفون، أي: اخشَوْه في أوامره أن تتركوها، ونَواهِيه أن تُقدِموا عليها. والاتِّقاء: الاحتراسُ من المكروه، وقد تقدَّم في أوّل البقرة القولُ فيه مستوفًى(٢)، فلا معنى لإعادته. والمعنى: احترِسوا بطاعته عن(٣) عقوبته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلةُ: شدَّة الحركة، ومنه: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وأصلُ الكلمة من زَلَّ عن الموضع، أي: زال عنه وتحرَّك. وزلزل الله قَدَمه، أي: حرَّكها. وهذه اللفظةُ تُستعمل في تهويل الشيء.

---

(١) هو عند عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣١ ، وأخرجه من طريقه أبو يعلى (٣١٢٢)، وابن حبان (٧٣٥٤)، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٢ - ٤٥٣ من طريق معمر به.

(٢) ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٣) في (ظ): من.

وقيل: هي الزلزلةُ المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قول الجمهور. وقد قيل: إن هذه الزلزلة تكون في النصف من شهر رمضان، ومِن بعدها طلوعُ الشمس من مغربها؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ الهاءُ في «تَرَوْنَهَا» عائدةٌ عند الجمهور على الزلزلة، ويقوّي هذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾. والرضاعُ والحملُ إنَّما هو في الدنيا[١].

وقالت فرقة: الزلزلةُ في يوم القيامة، واحتجُّوا بحديث عِمران بن حُصين الذي ذكرناه، وفيه: «أتدرون أيَّ يومٍ ذلك...» الحديث. وهو الذي يقتضيه سياقُ مُسْلم في حديث أبي سعيد الخُدْريّ.

قوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تشتغل؛ قاله قُطْرُب، وأنشد:

ضَرْباً يُزيل الهامَ عن مَقِيلِهِ ... ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ[٢]

وقيل: تنسَى. وقيل: تلهو. وقيل: تَسْلو[٣]، والمعنى متقارب.

﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ قال المبرِّد: «ما» بمعنى المصدر، أي: تَذْهَل عن الإرضاع. قال: وهذا يدلُّ على أنَّ هذه الزلزلةَ في الدنيا؛ إذ ليس بعد البعث حَمْلٌ وإرضاع، إلَّا

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٦ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٦ ، والرجز نسبه ابن إسحاق لعبد الله بن رواحة، كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧١ ، إلا أن ابن هشام نسبه لعمار بن ياسر. ونسبه لعبد الله أيضاً ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٤ . وقد اقتبس هذا الرجز الحجاج في خطبته بعد دير الجماجم، وهي في البيان والتبيين ٢/ ١٣٩ ، والعقد الفريد ٤/ ١١٦ . وفيهما: بضرب، بدل: ضرباً، وكذلك وقع في (خ) و(د): بضرب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦ ، الأول عن اليزيدي، والثاني عن الكلبي، والثالث عن الأخفش.

أن يقال: مَنْ ماتت حاملاً تُبعث حاملاً فتضع حَمْلَها للهَوْل، ومَن ماتت مُرضعةً بُعثت كذلك.

ويقال: هذا كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

وقيل: تكون مع النفخة الأولى. وقيل: تكون مع قيام الساعة، حين[١] يتحرَّك الناس من قبورهم في النفخة الثانية.

ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١]، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ اهزمهم وزلزلهم»[٢].

وفائدةُ ذِكْرِ هَوْل ذلك اليومِ التحريضُ على التأهُّب له والاستعدادِ بالعمل الصالح. وتسميةُ الزلزلة بـ «شيء» إمَّا لأنَّها حاصلةٌ متيقَّنٌ وقوعُها، فيُسْتَسْهل لذلك أن تسمَّى شيئاً وهي معدومة؛ إذ اليقينُ يشبِهِ الموجودات. وإمَّا على المآل، أي: هي إذا وقعت شيءٌ عظيم. وكأنه لم يطلق الاسمَ الآن، بل المعنى: أنها إذا كانت فهي إذاً شيء عظيم[٣]، ولذلك تَذْهَلُ المراضعُ ويَسْكَرُ الناسُ، كما قال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ أي: من هَوْلها ومما يُدركهم من الخوف والفزع. ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ من الخمر.

وقال أهل المعاني: وترى الناس كأنَّهم سُكارى. يدلُّ عليه قراءةُ أبي زُرْعة هَرِم ابن عمرو بن جرير بن عبد الله[٤]: «وتُرَى الناسَ» بضمِّ التاء؛ أي: تظنُّ ويخيَّل إليك.

---

(١) في (د) و(م): حتى.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩١٠٧)، والبخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله ابن أبي أوفى ﷺ في دعائه ﷺ على الأحزاب.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥.

(٤) البجلي الكوفي، وقيل اسمه عبد الله، وقيل: عمرو، وقيل: جرير، وذكر ابن حبان في الثقات أبا زرعة بن عمرو بن جرير فيمن اسمه هرم، ثم قال: ويقال: اسمه كنيته. روى عن جده وأبي هريرة ومعاوية وغيرهم. التهذيب ٤/ ٥٢٤. وقراءته في القراءات الشاذة ص٩٤، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٥٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٦.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «سَكْرَى» بغير ألف[١]. الباقون: «سُكارى»، وهما لغتان لجمع سكران، مثلُ: كَسْلى وكُسالى.

والزلزلة: التحريك العنيف. والذُّهول: الغَفْلَة عن الشيء بِطَرَيَان[٢] ما يشغَل عنه من همٍّ أو وجعٍ أو غيره. قال ابن زيد: المعنى: تَتْرُكُ ولدها للكَرْبِ الذي نزل بها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قيل: المراد النضر بنُ الحارث؛ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ غيرُ قادر على إحياءِ مَن قد بَلِيَ وعاد تراباً[٤]. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: في قوله ذلك ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: متمرِّد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ قال قتادة ومجاهد: أي: مَن تَوَلَّى الشيطان[٥] ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إلى قوله: ﴿مُّسَمًّى﴾

---

(١) وكذلك: «وما هم بسَكْرى». السبعة ص٤٣٤، والتيسير ص١٥٦.

(٢) كذا في النسخ، والمحرر الوجيز ٤/١٠٦، والكلام منه.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/٤٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/٢٧٤، وأخرجه الطبري ١٦/٤٥٩ عن ابن جريج. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٦ عن ابن عباس.

(٥) أخرج قولهما الطبري ١٦/٤٥٩ - ٤٦٠، وخبر قتادة أيضاً أخرجه عبد الرزاق ٢/٣٢.

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ هذا احتجاجٌ على العالَم بالبداءة الأولى. وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ فِي ريبٍ» [شرطٌ] متضَمَّنُه التوقيف. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «البَعَث» بفتح العين، وهي لغةٌ في «البَعْث» عند البصريين. وهي عند الكوفيين تخفيفُ «بَعَث»[1].

والمعنى: يا أيها الناس، إن كنتم في شكٍّ من الإعادة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ أي: خلقنا أباكم الذي هو أصلُ البشر، يعني آدمَ عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ خلقنا ذرِّيته ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: وهو المنيُّ؛ سُمِّيَ نطفةً لقلَّته، وهو القليلُ من الماء، وقد يقع على الكثير منه، ومنه الحديث: «حتى يسير الراكبُ بين النُّطفتين لا يخشى جَوْراً». أراد بحر المشرق وبحر المغرب[2]. والنَّطْف: القَطْر. نَطَف يَنْطِفُ وينطُف. وليلةٌ نَطوفة: دائمة القَطْر[3].

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: وهو الدَّم الجامد. والعَلَق: الدَّم العَبِيط، أي: الطَّرِيّ. وقيل: الشديدُ الحُمْرة.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾: وهي لَحمةٌ قليلةٌ قَدْرُ ما يُمضغ، ومنه الحديث: «أَلَا وإنَّ في الجسد مُضْغةً»[4]. وهذه الأطوارُ أربعةُ أشهر. قال ابن عباس: وفي العشر بعدَ الأشهرِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وذكر القراءة عن الحسن أيضاً الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥ . قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٤١١ : ذكر جميع الكوفيين أن كلَّ ما كان ثانيه حرفاً من حروف الحلق، وكان مسكَّناً مفتوحَ الأول، جاز فيه فتح المسكَّن، نحو: شَعْر وشَعَر، ونَهْر ونَهَر.

(٢) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٦ ، وفيه: لا يخشى إلا جوراً، وهي رواية، ومعناها: لا يخاف في طريقه غير الضلال والجورِ عن الطريق، وعلى الرواية الأخرى ـ يعني بحذف «إلا» ـ يكون الجور بمعنى الظلم. النهاية (جور) و(نطف)، وذكره أيضاً الزمخشري في الفائق ٣/ ٤٤٢ ، ولفظه: «لا يزال الإسلام يزيد وأهله، وينقص الشرك وأهله، حتى يسير الراكب...».

(٣) أي: تمطر حتى الصباح. تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٥ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير ﷺ.

الأربعة يُنفخ فيه الروح[١]. فذلك عِدَّةُ المتوفَّى عنها زوجُها، أربعةُ أشهرٍ وعشر.

الثانية: روى يحيى بن زكريَّا بن أبي زائدة: حدَّثنا داودُ، عن عامر، عن علقمةَ، عن ابن مسعود - وعن ابن عمر - أنَّ النطفة إذا استقرَّت في الرَّحم؛ أخذها مَلَكٌ بكفِّه فقال: يا ربِّ، ذكرٌ أم أنثى، شقيٌّ أم سعيد، ما الأجلُ والأثَر، بأيِّ أرضٍ تموت؟ فيقال له: انطلِقْ إلى أمِّ الكتاب، فإنَّك تجدُ فيها قصةَ هذه النطفة، فينطلقُ فيجدُ قصَّتها في أمِّ الكتاب، فتُخلَقُ، فتأكل رزقَها وتطأُ أثرها، فإذا جاء أجلها؛ قُبضت فدُفنت في المكان الذي قُدِّر لها، ثم قرأ عامر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾[٢].

وفي الصحيح عن أنس بن مالك[٣] - ورفع الحديث - قال: «إنَّ الله قد وَكَّل بالرَّحِم مَلَكاً، فيقول: أيْ ربِّ نطفةٌ. أيْ رَبِّ عَلَقة. أيْ رَبِّ مُضْغَة. فإذا أراد الله أن يقضيَ خَلْقاً قال، قال المَلَك: أيْ رَبِّ! ذَكَرٌ أو أنثى؟ شقيٌّ أو سعيد؟ فما الرزقُ؟ فما الأجل؟ فيُكتب كذلك في بطن أمِّه».

وفي الصحيح أيضاً عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفاريِّ[٤] قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا مَرَّ بالنطفة ثِنْتانِ وأربعون ليلةً بعث الله إليها مَلَكاً، فصوَّرها، وخَلَق سمعها وبصرها، وجِلْدَها ولحمها وعظامها، ثم يقول: أيْ ربِّ أذَكَر أم أنثى...». وذكر الحديث.

---

(١) قطعة من خبر ابن عباس، أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٦٠)، وفي إسناده محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ١٦٢: في إسناده نظر.

(٢) الكلام في المفهم ٦/ ٦٥١، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٠، وأخرج الحديث عن ابن مسعود بهذا الإسناد الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٩، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٦١، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية من طريق داود بن أبي هند به. وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٧١. وعلقمة هو ابن قيس، وعامر هو الشعبي. أما خبر ابن عمر فأخرجه البزار (٢١٤٩ - كشف)، وأبو يعلى (٥٧٧٥) مرفوعاً إلى النبي ﷺ بنحو خبر ابن مسعود.

(٣) صحيح البخاري (٣١٨)، وصحيح مسلم (٢٦٤٦) واللفظ له، وهو عند أحمد (١٢١٥٧).

(٤) صحيح مسلم (٢٦٤٥)، وهو عند أحمد (١٦١٤٢).

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود[١] قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقُه في بطن أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك عَلَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون [في ذلك] مُضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَل المَلَك فينفخُ فيه الروحَ، ويُؤمر بأربع كلماتٍ: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد...» الحديث. فهذا الحديثُ مفسِّرٌ للأحاديث الأُوَل؛ فإنَّ فيه: «يُجمع خَلْقُ أحدِكم في بطن أمِّه أربعين يوماً نطفةً، ثم أربعين يوماً علقةً، ثم أربعين يوماً مضغةً، ثم يُبعث الملك، فينفخ فيه الروح» فهذه أربعةُ أشهرٍ، وفي العشر يَنْفُخُ الملك الروح، وهذه عِدَّة المتوفَّى [عنها زوجها] كما قال ابن عباس[٢].

وقولُه: «إنَّ أحدَكم يُجمع خلقه في بطن أمِّه» قد فسَّره ابن مسعود؛ سئل الأعمش: ما يُجمع في بطن أمِّه؟ فقال: حدَّثنا خَيْثمة، قال: قال عبد الله: إذا وقعت النطفةُ في الرَّحِم فأراد الله أن يخلق منها بشراً، طارت في بشرة المرأة تحت كلِّ ظفرٍ وشعرٍ، ثم تمكث أربعين يوماً، ثم تصير دماً في الرَّحِم، فذلك جَمْعُها، وهذا وقتُ كونها علقةً[٣].

الثالثة: نسبةُ الخَلْقِ والتَّصوير للمَلَك نسبةٌ مَجازيَّةٌ لا حقيقية، وإنَّما صَدَر عنه فِعْل ما في المضغة ـ كأنَّ عنه[٤] التصوير والتشكيل ـ بقدرة الله وخَلْقِه واختراعه؛ ألَا تراه سبحانه قد أضاف إليه الخَلقةَ الحقيقية، وقَطَع عنها نسبَ جميع الخليقة فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٨)، وصحيح مسلم (٢٦٤٣)، واللفظ له وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٣٦٢٤).

(٢) سلف في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٦٨٢ ، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية (١٤) من سورة المؤمنون، وذكره القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ١٢٦ ، وأبو العباس في المفهم ٦/ ٦٥٠ .

(٤) في (ظ) و(م): كان عند، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ٦٥٦ ، والكلام منه.

طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. ثم قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات، [هذا] مع ما دلَّت عليه قاطعاتُ البراهين أنْ لا خالقَ لشيءٍ من المخلوقات إلا ربُّ العالمين(١).

وهكذا القولُ في قوله: «ثم يُرسَل الملك فينفخُ فيه الروحَ» أي أنَّ النفخ سببُ خَلْقِ الله فيها الروحَ والحياة. وكذلك القولُ في سائر الأسباب المعتادة، فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره. فتأمَّلْ هذا الأصلَ وتمسَّكْ به، فبِهِ النجاةُ من مذاهب أهل الضلال [من أهل] الطبائع وغيرهم(٢).

الرابعة: لم يختلف العلماء أنَّ نفخ الروح فيه يكون بعد مئة وعشرين يوماً، وذلك تمامُ أربعةِ أشهرٍ ودخوله في الخامس؛ كما بينَّاه بالأحاديث. وعليه يعوَّل فيما يُحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حَمْلِ المطلَّقات؛ وذلك لتيقُّنِه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل: إنه الحكمةُ في عِدَّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهرٍ وعَشْرٍ، وهذا الدخول في الخامس يحقِّق براءةَ الرَّحِم ببلوغ هذه المدَّة إذا لم يَظْهَرْ حَمْل(٣).

الخامسة: النطفةُ ليست بشيء يقيناً، ولا يتعلَّق بها حكم إذا ألقتها المرأة؛ إذ لم تجتمع في الرحم، فهي كما لو كانت في صُلْبِ الرجل، فإذا طَرَحَتْه علقةً تحقَّقنا أنَّ النطفة قد استقرَّت واجتمعت واستحالت إلى أوّل أحوال ما يُتحقَّق به أنه ولد. وعلى هذا فيكون وضعُ العلقة فما فوقَها من المضغة وَضْعَ حملٍ تَبْرَأ به الرَّحم،

(١) المفهم ٦/ ٦٥٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) المفهم ٦/ ٦٥١ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) إكمال المعلم ٨/ ١٢٣ - ١٢٤ ، والمفهم ٦/ ٦٥١ .

وتنقضي به العِدَّة، ويَثْبُت به لها حكمُ أمِّ الولد. وهذا مذهبُ مالك ﷺ وأصحابِه. وقال الشافعيُّ ﷺ: لا اعتبارَ بإسقاط العَلَقة، وإنما الاعتبارُ بظهور الصورة والتخطيط، فإن خَفِيَ التخطيطُ وكان لحماً، فقولان بالنقل والتخريج[١]، والمنصوصُ أنه تنقضي به العدَّة، ولا تكونُ أمَّ ولد. قالوا: لأنَّ العدَّة تنقضي بالدَّمِ الجاري، فبغيرِه أَوْلى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال الفرَّاء[٢]: «مخلَّقة»: تامَّةُ الخَلْق، «وغيرِ مخلَّقة»: السَّقْط. وقال ابن الأعرابيّ: «مخلَّقة»: قد بدا خَلْقُها، «وغير مخلَّقة»: لم تصوَّر بعد[٣].

ابن زيد: المخلَّقة التي خَلَقَ الله فيها الرأسَ واليدين والرجلين، وغير مخلَّقة: التي لم يُخلق فيها شيء. قال ابن العربيّ[٤]: إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإنَّ النطفة والعلقة والمضغة مخلَّقةٌ؛ لأنَّ الكلَّ خَلْقُ الله تعالى، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقةِ كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فذلك ما قال ابن زيد.

قلت: التخليقُ من الخَلْق، وفيه معنى الكَثْرة، فما تتابع عليه الأطوارُ فقد خُلق خلقاً بعد خَلْقٍ، وإذا كان نطفةً فهو مخلوق؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ والله أعلم.

وقد قيل: إنَّ قوله: «مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ» يرجع إلى الولد بعينه[٥] لا إلى السَّقْط،

---

(١) المفهم ٦/ ٦٥٢ . والتخريج: هو نقلُ حكمِ مسألة إلى ما يشبهها، والتسويةُ بينهما فيه. الإنصاف للمرداوي ١/ ٩ . وقال ابن بدران في المدخل ص٦٠ : اعلم أن بين التخريج والنقل فرقاً من حيث إن الأول أعم من الثاني؛ لأن التخريج يكون من القواعد الكلية للإمام أو الشرع أو العقل؛ لأن حاصل معناه بناءُ فرعٍ على أصلٍ بجامعٍ مشترك... وأمَّا النقل فهو أن ينقل النصَّ عن الإمام، ثم يخرِّج عليه فروعاً، فيجعلَ كلام الإمام أصلاً وما يخرجه فرعاً، وذلك الأصل مختصٌّ بنصوص الإمام.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢١٥ .

(٣) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١ ، وما قبله منه.

(٥) في (ع) و(ظ): نفسه.

أي: منهم مَن يُتمُّ الربُّ سبحانه مضغته، فيخلق له الأعضاء أجْمعَ، ومنهم مَن يكون خَدِيجاً ناقصاً غير تام[١].

وقيل: المخلَّقةُ أنْ تلدَ المرأة لتمام الوقت. ابن عباس: المخلَّقةُ ما كان حيًّا، وغيرُ المخلقة السَّقْط[٢]؛ قال:

أفي غير المخلَّقة البكاءُ فأين الحزمُ ويحك والحياءُ[٣]

السابعة: أجمع العلماء على أنَّ الأمَة تكون أمَّ ولدٍ بما تُسْقِطُه من ولدٍ تامِّ الخَلْق. وعند مالكٍ والأوزاعيِّ وغيرِهما: بالمضغة، كانت مخلَّقةً أو غيرَ مخلقة. قال مالك: إذا عُلم أنها مضغةُ [الولد][٤]. وقال الشافعيُّ وأبو حنيفة: إن كان قد تبيَّن له شيءٌ من خَلْقِ بني آدم؛ أصبعٌ أو عينٌ أو غيرُ ذلك؛ فهي أمُّ ولد[٥].

وأجمعوا على أنَّ المولود إذا استهلَّ صارخاً يُصلَّى عليه[٦]؛ فإن لم يَستَهِلَّ صارخاً لم يُصَلَّ عليه عند مالكٍ وأبي حنيفة والشافعيِّ وغيرهم. وروي عن ابن عمر: أنه يصلَّى عليه، وقاله ابن المسيِّب وابنُ سِيرين وغيرهما[٧].

وروي عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السَّقْط، ويقول: سمُّوهم واغسلوهم وكفِّنوهم وحنِّطوهم؛ فإنَّ الله أكرمَ بالإسلام كبيرَكم وصغيركم، ويتلو هذه الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ قال ابن العربيّ[٨]:

---

(١) في (م): تمام.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٩.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨، وما بين حاصرتين منه.

(٥) الإشراف لابن المنذر ٤/ ٣٠٩، ووقع في (خ) و(م): فهي له أم ولد.

(٦) الإجماع لابن المنذر ص٣٠.

(٧) الاستذكار ٨/ ٢٥٩ - ٢٦٠، وقول ابن عمر وابن سيرين وابن المسيب أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣١٧ - ٣١٨.

(٨) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١، وما قبله منه. وخبر المغيرة أخرجه عبد الرزاق (٦٦٠٢) وأبو داود =

لعلَّ المغيرة بن شعبة أراد بالسَّقْطِ ما تبيَّن خَلْقُه، فهو الذي يسمَّى، وما لم يَتَبيَّن خَلْقُه فلا وجودَ له.

وقال بعض السَّلَف: يصلَّى عليه متى نُفخ فيه الروحُ وتمتْ له أربعةُ أشهر. وروى أبو داود[(١)] عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا استهَلَّ المولود وَرِث». الاستهلال: رفعُ الصوت، فكلُّ مولودٍ كان ذلك منه، أو حركةٌ أو عطاسٌ أو تنفُّسٌ، فإنه يورَّث لوجود ما فيه من دلالة الحياة. وإلى هذا ذهب سفيان الثوريُّ والأوزاعيُّ والشافعيُّ. قال الخطابيُّ[(٢)]: وأحسبُه قولَ أصحاب الرأي. وقال مالك: لا ميراثَ له وإن تحرَّك أو عَطَس ما لم يستهِلَّ. وروي عن محمد بن سيرين والشَّعْبيِّ والزهريِّ وقتادة.

الثامنة: قال مالك ﷺ: ما طرحته المرأة ـ من مضغةٍ أو علقةٍ أو ما يُعلم أنه ولدٌ ـ إذا ضُرب بطنُها ففيه الغُرّة. وقال الشافعيُّ: لا شيء فيه حتى يتبيَّن من خَلْقِه شيءٌ. قال مالك: إذا سقط الجنين فلم يستهِلَّ صارخاً ففيه الغُرَّة، وسواءٌ تحرَّك أو عطس؛ فيه الغُرَّةُ أبداً، حتى يستهِلَّ، فإذا استهلَّ[(٣)] صارخاً ففيه الديةُ كاملةً. وقال الشافعيُّ ﷺ وسائرُ فقهاءِ الأمصار: إذا عُلمت حياتُه بحركةٍ أو بعطاسٍ أو باستهلالٍ، أو بغير ذلك مما تُسْتَيقَنُ به حياتُه، ففيه الديةُ [كاملةً][(٤)].

التاسعة: ذكر القاضي إسماعيلُ أنَّ عِدَّة المرأة تنقضي بالسَّقْطِ الموضوع، واحتجَّ عليه بأنه حَمْلٌ، وقال: قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

= (٣١٨٠) مختصراً بلفظ: السقط يصلَّى عليه، ويدعى لأبويه بالعافية والرحمة. وأخرجه مرفوعاً بنحوه أحمد (١٨١٦٢)، والترمذي (١٠٣١) وصححه. قال الحافظ في التلخيص الحبير ٢/ ١١٤ : ورجح الدارقطني في العلل الموقوفَ. وينظر علل الدارقطني ٧/ ١٣٤ .

(١) في سننه (٢٩٢٠).

(٢) في معالم السنن ٤/ ١٠٥ ، وما قبله منه.

(٣) قوله: فإذا استهل من (ظ).

(٤) التمهيد ٦/ ٤٨٣ ، وما بين حاصرتين منه، وسلف الكلام في هذه المسألة ٧/ ٢١ - ٢٣ .

[الطلاق: ٤]. قال القاضي إسماعيل: والدليلُ على ذلك أنه يرث أباه، فدلَّ على وجوده خَلْقاً وكونه ولداً وحملاً. قال ابن العربي[(١)]: [وكذلك قال: لا تكون به أمَّ ولد]، ولا يرتبط به شيءٌ من هذه الأحكام إلَّا أن يكون مخلَّقاً.

قلت: ما ذكرناه من الاشتقاق، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقُه في بطنِ أمِّه»، يدلُّ على صحة ما قلناه، وبأنَّ[(٢)] مُسْقطةَ العلقةِ والمضغة يَصْدُقُ على المرأة إذا ألقته أنها[(٣)] كانت حاملاً وضعتْ ما استقرَّ في رَحِمها، فيشملُها قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. ولأنَّها وضعت مَبْدأ الولد عن نطفةٍ متجسِّداً كالمخطَّط، وهذا بيِّن.

العاشرة: روى ابن ماجه: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا خالد بن مَخْلَد، حدَّثنا يزيد بن عبد الملك النَّوفليُّ، عن يزيد بن رُومان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَسَقْطٌ أقدِّمه بين يديَّ أَحَبُّ إليَّ من فارسٍ أُخلِّفه خلفي»[(٤)]. وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث له، عن سهيل بن أبي صالحٍ، عن أبيه، عن أبي هريرة فقال: «أحبُّ إلي من ألفِ فارسٍ أخلِّفه ورائي»[(٥)].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١ - ١٢٦٢، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في (م): ولأن.

(٣) في (ظ): إذا ألقتها يصدق عليها أنها، بدل: يصدق على المرأة إذا ألقته أنها، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ٦٥٢ - ٦٥٣، والكلام منه.

(٤) سنن ابن ماجه (١٦٠٧) وفيه: أخلِّفُه خلفي. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٠٣، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٨٥، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٧١٥ - ١٧١٦، وابن الجوزي في العلل ٢/ ٩٠٦ من طريق يزيد من عبد الملك، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، والحَمْل فيه على يزيد النوفلي؛ قال أحمد: عنده مناكير، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال العقيلي: لا يتابع على هذا الحديث إلا من جهة لا تصح.

(٥) معرفة علوم الحديث ص١٨٦ من طريق خالد بن يزيد العمري، عن أبي مودود عبد العزيز بن أبي سليمان، عن سهيل بن أبي صالح به. قال البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٨٤: خالد بن يزيد العمري مكي ذاهب الحديث. وقال ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٥: لا يُشتغل بذكره لأنه يروي الموضوعات عن الأثبات.

الحادية عشرة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ﴾ يريد: كمالَ قدرتنا بتصريفنا أطوارَ خَلْقِكم ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ قرئ بنصب «نُقِرّ» و«نخرج»، رواه أبو حاتم، عن أبي زيد، عن المفضَّل، عن عاصم. قال أبو حاتم: النصبُ على العطف. وقال الزجَّاج: «نقرّ» بالرفع لا غير؛ لأنه ليس المعنى: فعلنا ذلك لنقرَّ في الأرحام ما نشاء، وإنَّما خَلَقهم عزَّ وجلَّ ليدلَّهم على الرُّشْدِ والصَّلاح[1].

وقيل: المعنى: لنبيِّن[2] أمرَ البعث، فهو اعتراضٌ بين الكلامين. وقرأت هذه الفرقة بالرفع: «ونقرُّ»، المعنى: ونحن نقرُّ. وهي قراءة الجمهور.

وقرئ: «ويقر» و«يخرجكم» بالياء، والرفعُ على هذا سائغ. وقرأ ابن وَثّاب: «ما نِشاء» بكسر النون. والأجلُ المسمَّى يختلف بحسَبِ جَنِينٍ جنين، فثَمَّ مَن يسقط، وثَمَّ مَن يَكْمُلُ أمرُه ويخرج حَيًّا[3].

وقال: «ما نشاء»، ولم يقل: مَن نشاء؛ لأنه يرجع إلى الحمل؛ أي: نقرُّ في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة، وهي جماد، فكَنَى عنها بلفظِ «ما».

الثانية عشرة: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً، فهو اسمُ جنسٍ. وأيضاً فإنَّ العرب قد تسمِّي الجمع باسم الواحد؛ قال الشاعر:

يَلْحَيْنَنِي في حبِّها ويَلُمْنَنِي ... إنَّ العواذلَ ليس لي بأميرِ[4]

ولم يقل: أمراء. وقال المبرِّد: هو اسمٌ يُستعمل مصدراً؛ كالرضا والعَدْل، فيقع

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٧ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤١٢ ، وقراءة المفضل عن عاصم ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨ ثم قال: وحكى أبو عمرو الداني أن رواية المفضل هذه هي بالياء في «يقرّ» وفي «يخرجكم». وسيذكر المصنف القراءة بالياء دون نسبة، وينظر القراءات الشاذة ص٩٤ ، وجامع البيان للداني ٢/ ٢٩٥ .

(٢) بعدها في (م): لهم، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٨ ، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٤٤ - ٤٥ ، وهو في تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٤ ، واللسان (ظهر) برواية:

يا عاذلاتي لا تزدن مودَّتي ... إن العواذل لَسْنَ لي بأميرِ

على الواحد والجمع؛ قال الله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١]. وقاله الطبري[١]. وهو نصبٌ على التمييز، كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤][٢].

وقيل: المعنى: ثم نخرج كلَّ واحدٍ منكم طفلاً[٣].

والطفلُ يطلَق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ. وولَدُ كُلِّ وَحْشِيَّةٍ أيضاً طفلٌ. ويقال: جارِيةٌ طِفْلٌ، وجاريتان طِفْل، وجَوارٍ طِفْلٌ، وغلامٌ طِفْلٌ، وغلمانٌ طِفْل. ويقال أيضاً: طِفْلٌ وطِفْلة، وطِفْلان وطِفْلتان وأطفال، ولا يقال: طِفْلات[٤]. وأَطْفَلت المرأة: صارت ذاتَ طِفْلٍ. والمُطْفِل[٥]: الظبيةُ معها طِفْلُها، وهي قريبةُ عهدٍ بالنِّتاج. وكذلك الناقة، [والجمع] مَطَافِلُ ومَطَافيل. والطَّفْلُ؛ بالفتح في الطاء: الناعم؛ يقال: جاريةٌ طَفْلة، أي: ناعمة، وبَنانٌ طَفْل. وقد طَفَّل الليل: إذا أقبل ظلامُه. والطَّفَل بالتحريك: بعد العصر إذا طَفَلت الشمس للغروب. والطَّفَل أيضاً: مطر؛ قال:

لِوَهْدٍ جادهُ طَفَلُ الثُّرَيّا[٦]

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ قيل: إنَّ «ثم» زائدةٌ، كالواو في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأنَّ «ثم» من حروف النَّسَق، كالواو. و«أَشُدَّكم»: كمال

---

(١) في (د) و(ز) و(م): وقال الطبري، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو في تفسيره ١٦/ ٤٦٥ .

(٢) المقتضب للمبرد ٢/ ١٧٣-١٧٤ ، وقال فيه: هو كقولك: زيد أحسن الناس ثوباً. . . وإنه ليحسن ثوباً، ويكثُر أمةً وعبداً.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٢ .

(٤) كذا قال المصنف رحمه الله، وفي تهذيب اللغة ١٣/ ٣٤٨ واللسان (طفل): وطفلات في القياس.

(٥) في النسخ: والمطفلة، والمثبت من الصحاح (طفل)، وما بعده وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في مجمل اللغة ٢/ ٥٨٣ ، واللسان (طفل)، والقاموس (طفل).

(٦) الصحاح (طفل)، ومجمل اللغة ٢/ ٥٨٣ ، وأساس البلاغة (طفل)، واللسان (طفل)، ولم يذكروا الشطرْ الآخر، وقوله: وَهْد، جمع وَهْدَة، وهو المكان المطمئن، أي: المنخفض من الأرض.

عقولكم ونهاية قُواكم. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه[١].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أخسِّه وأدْوَنِه، وهو الهَرَمُ والخَرَف حتى لا يعقِل؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، كما قال في سورة يس: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [الآية: ٦٨]. وكان النبيُّ ﷺ يدعو فيقول: «اللهُمّ إنِّي أعوذُ بك من البُخْل، وأعوذُ بك من الجُبْن، وأعوذُ بك من أنْ أُرَدَّ إلى أرْذَلِ العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر»[٢]. أخرجه النَّسائيُّ عن سعد، وقال: كان يعلِّمهنَّ بَنِيهِ كما يعلِّم المُكْتِبُ الغلمان[٣]. وقد مضى في «النحل» هذا المعنى[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ذَكَر دلالةً أخرى[٥] على البعث، فقال في الأوّل: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فخاطب جَمْعاً. وقال في الثاني: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ فخاطب واحداً، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكنَّ المعنى متَّصلٌ من حيث الاحتجاجُ على مُنْكِري البعث.

﴿هَامِدَةً﴾: يابسةً لا تُنبت شيئاً؛ قاله ابن جُريج[٦]. وقيل: دراسةً. والهُمودُ: الدروس، قال الأعشى:

قالت قُتيلَةُ ما لجسمك شاحِباً ... وأرى ثيابَك بالياتٍ هُمَّدَا[٧]

---

(١) ٩/١١١ - ١١٢ .

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٥)، والبخاري (٢٨٢٢) و(٦٣٦٥) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ. وسلف ١٢/٣٧٥ .

(٣) المجتبى ٨/٢٦٦ ، وقائل هذا الكلام مصعب بن سعد وعمرو بن ميمون الأودي، ومن طريقهما أخرجه النسائي عن سعد. وذكر هذا الكلام أيضاً عن عمرو بن ميمون البخاري في الرواية (٢٨٢٢) وفيه: المعلِّم، بدل: المكتب.

(٤) ١٢/٣٧٤ .

(٥) في (م): أقوى.

(٦) النكت والعيون ٤/٨ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/٤٦٦ .

(٧) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٢٧٧ ، وفيه سايئاً، بدل: شاحباً، وهو براوية المصنف في النكت والعيون ٤/٨ .

الهَرَوِيُّ: «هامدة»، أي: جافَّةٌ ذاتَ تراب. وقال شَمِر[١]: يقال: هَمَد شجر الأرض: إذا بَلِيَ وذهب. وهَمَدَتْ أصواتهم: إذا سَكَنَتْ. وهُمودُ الأرض ألَّا يكون فيها حياةٌ ولا نَبْتٌ ولا عودٌ، ولم يُصِبْها مطر. وفي الحديث: «حتى كاد يَهْمُد من الجوع»[٢] أي: يهلك. يقال: هَمَد الثوبُ يَهْمُد: إذا بَلِيَ. وهَمَدت النار تَهْمُد.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّكت. والاهتزاز: شدَّة الحركة؛ يقال: هَزَزْتُ الشيءَ فاهتزَّ، أي: حركتُه فتحرَّك. وهَزَّ الحادِي الإبلَ هزيزاً فاهتزَّتْ هي: إذا تحرَّكت في سيرها لحُدائه[٣]. واهتزَّ الكوكب في انقضاضه، وكوكبٌ هازّ.

فالأرضُ تهتزُّ بالنبات؛ لأنَّ النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضَها من بعضٍ إزالةً خفيفة[٤]، فسمَّاه اهتزازاً مَجازاً.

وقيل: اهتزَّ نباتها، فحذف المضاف؛ قاله المبرِّد[٥]. واهتزازُه: شدَّة حركته، كما قال الشاعر:

تَثَنَّى إذا قامت وتهتزُّ إن مَشَتْ كما اهتزَّ غصنُ البان في ورقٍ خُضْرِ[٦]

والاهتزازُ في النبات أَظْهَرُ منه في الأرض.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت. وقيل: انتفخت، والمعنى واحد، وأصلُه الزيادة.

---

(١) هو ابن حمدويه، وكلامه في تهذيب اللغة ٦/ ٢٢٨ .

(٢) ذكره الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٢٩١ ، والزمخشري في الفائق ٢/ ٢٠ و ٣٧٩ ، وابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٥٠٠ ، وابن الأثير في النهاية (همد)، وهو من حديث عامر بن ربيعة ﷺ في وصف مصعب بن عمير ﷺ.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بحدائه، والمثبت من (ظ) والصحاح (هزز) والكلام منه.

(٤) في (خ) و(م): خفية، وفي (د): حقيقة.

(٥) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٦٠ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٩ .

رَبَا الشيء يَرْبُو رُبُوًّا، أي: زاد، ومنه الرِّبا والرَّبوة.

وقرأ يزيد بن القَعْقاع وخالد بن إلياس: «وَرَبَأَتْ»، أي: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة، وهو الذي يحفظ القوم على شيءٍ مُشْرِف، فهو رابئٌ، ورَبِيئة على المبالغة[١]، قال امرؤ القيس:

بَعَثْنَا رَبِيئاً قبل ذلك مُخْمَلاً[٢] كذئب الغَضَا يمشي الضَّرَاءَ ويتَّقي[٣]

﴿وَأَنۢبَتَتۡ﴾ أي: أخرجت ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ أي: لون ﴿بَهِيجٖ﴾ أي: حسن؛ عن قتادة[٤]. أي: يُبهج مَن يراه. والبَهجة: الحُسْن؛ يقال: رجلٌ ذو بَهجة. وقد بَهُج ـ بالضمّ ـ بَهاجةً وبَهْجة، فهو بَهيج[٥]. وأَبْهجني: أعجبني بحسنه. ولمَّا وصف الأرض بالإنبات دلَّ على أنَّ قوله: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ يرجع إلى الأرض لا إلى النبات. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ لمَّا ذكر افتقارَ الموجوداتِ إليه وتسخيرَها على وَفْقِ اقتداره واختياره في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ إلى قوله: ﴿بَهِيجٖ﴾، قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٨١ ، وقراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٥ . وخالد بن إلياس ـ ويقال: إياس ـ هو أبو الهيثم العدوي المدني، من رجال التهذيب.

(٢) في النسخ الخطية: قبل ذلك مخمصاً، وفي (م): قبل ذاك مخملاً. والمثبت من الديوان على ما يأتي.

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٧٢ ، وقال شارحه: الربيء والربيئة: الذي يربأ للقوم، أي: ينظر الصيد من مكان مرتفع. ومُخمَلاً يعني: يُخمل نفسه، أي: يسترها ويخفيها. والغضا: شجر، وأخبثُ الذئاب ما كان منشؤه ومأواه الغضا. اهـ. ويمشي الضَّرَاء، أي: مستخفياً فيما يواري من الشجر. الصحاح (ضرا).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢ ، والطبري ١٦/ ٤٦٧ .

(٥) الصحاح (بهج).

قَدِيرٌ . وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فنبَّه سبحانه وتعالى بهذا على أنَّ كلَّ ما سواه، وإنْ كان موجوداً حقًّا، فإنَّه لا حقيقةَ له من نفسه؛ لأنه مسخَّرٌ مصرَّف، والحقُّ الحقيقيُّ: هو الموجودُ المطلَقُ الغنيُّ المطلَق. وأنَّ وجودَ كلِّ ذي وجودٍ عن وجوبِ وجوده؛ ولهذا قال في آخر السورة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الآية:٦٢][1] والحقُّ: الموجودُ الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يزول، وهو الله تعالى.

وقيل: ذو الحقِّ على عباده. وقيل: «الحقّ» بمعنى: في أفعاله.

وقال الزجَّاج: «ذلك» في موضعِ رفعٍ، [المعنى: الأمر ذلك] أي: الأمرُ ما وُصف لكم وبُيِّن. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: لأنَّ الله هو الحقّ. قال: ويجوز أن يكون «ذلك» نصباً؛ أي: فَعَلَ الله ذلك بأنه هو الحق[2].

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بأنه ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وبأنه قادرٌ على ما أراد. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ من حيث اللفظُ، وليس عطفاً في المعنى؛ إذ لا يقال: فَعَل الله ما ذُكر بأنَّ الساعةَ آتيةٌ، بل لابدَّ من إضمارِ فعلٍ يتضمَّنه، أي: وليعلموا أنَّ الساعة آتيةٌ ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: لا شكَّ. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يريد للثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: نَيِّرٍ بيِّنِ الحُجَّة. نزلت في النَّضر بن الحارث[3]. وقيل: في أبي جهل بن هشام؛ قاله

---

(١) ذكر المصنف هذا الكلام أيضاً في كتاب الأسنى ص١٤٨ نقلاً عن ابن الحصار.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٩ عن الكلبي.

ابن عباس[١]. والمُعْظَم على أنَّها نزلت في النضر بن الحارث كالآية الأولى[٢]، فهما في فريقٍ واحد، والتكرير للمبالغة في الذمّ، كما تقول للرجل تذمُّه وتوبِّخه: أنت فعلت هذا! أنت فعلت هذا! ويجوز أن يكون التكرير لأنه وصفَه في كلِّ آيةٍ بزيادة، فكأنه قال: إنَّ النضر بن الحارث يجادل في الله بغير علمٍ، ويتَّبع كلَّ شيطانٍ مَريد، والنضر بن الحارث يجادل في الله من غير علمٍ ومن غير هُدًى وكتابٍ منير؛ ليُضِلَّ عن سبيل الله، وهو كقولك: زيدٌ يشتمني وزيدٌ يضربني، وهو تكرارٌ مفيدٌ؛ قاله القشيريّ.

وقد قيل: نزلت فيه بضعَ عَشْرَةَ آيةً. فالمرادُ بالآية الأولى: إنكارُه البعثَ، وبالثانية: إنكارُه النبوّةَ وأنَّ القرآن منزلٌ من جهة الله. وقد قيل: كان من قول النضر ابن الحارث: إنَّ الملائكة بناتُ الله[٣]، وهذا جِدالٌ في الله تعالى.

«مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ في قوله: «ومِنَ الناسِ». ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ نصب على الحال، ويتأوَّل على معنيين: أحدهما: روي عن ابن عباس أنه قال: هو النضر بن الحارث، لَوَى عنقه مَرَحاً وتعظُّماً. والمعنى الآخر ـ وهو قولُ الفرَّاء ـ أنَّ التقدير: ومِن الناس مَن يجادلُ في الله بغير علمٍ ثانيَ عِطْفِه، أي: مُعْرِضاً عن الذِّكر؛ ذكره النحاس[٤].

وقال مجاهد وقتادة: لاوِياً عنقَه كفراً. ابن عباس: مُعْرِضاً عمَّا يُدْعَى إليه كفراً[٥]. والمعنى واحد.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٦ .

(٢) يعني الآية (٣) من هذه السورة، وينظر ما سلف ص٣١٢ من هذا الجزء .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٠٥ عن مقاتل.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٨٨ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٦ ، وفيه: ثانياً عطفَه، بدل: ثاني عطفه.

(٥) أخرج هذه الأخبار بنحوها الطبري ١٦/ ٤٦٩ - ٤٧٠ .

وروى الأوزاعيُّ، عن مَخْلد بن حسين، عن هشام بن حسان، عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ قال: هو صاحبُ البدعة. المبرِّد: العِطْفُ: ما انثنى من العنق[١].

وقال المفضَّل: والعِطْفُ: الجانب، ومنه قولُهم: فلانٌ ينظر في أعطافه، أي: في جوانبه[٢]. وعِطْفَا الرجل: [جانباه] من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكَيْه، وكذلك عِطْفَا كلِّ شيءٍ جانباه. ويقال: ثَنَى فلانٌ عنِّي عِطْفَه: إذا أعرض عنك[٣].

فالمعنى: أي: هو مُعْرِضٌ عن الحقِّ في جِدَاله، ومُوَلٍّ عن النظر في كلامه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان:٧]، وقولِه تعالى: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون:٥]، وقولِه: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٣]، وقولِه: ﴿ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة:٣٣].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: عن طاعة الله تعالى. وقرئ: «لِيَضِل» بفتح الياء[٤]؛ واللامُ لامُ العاقبة، أي: يجادلُ فيَضِلُّ، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص:٨] أي: فكان لهم كذلك. ونظيرُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا۟﴾ [النحل:٥٤].

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ﴾ أي: هوانٌ وذُلٌّ بما يجري له من الذِّكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ الآية [القلم:١٠]، وقولِه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وقيل: الخزيُ هاهنا: القتل؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قتل النضر بن الحارث يومَ بدرٍ صَبْراً،

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٢ ، ولم نقف على خبر ابن عباس.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٩ .

(٣) الصحاح (عطف)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. السبعة ص٢٦٧ ، والتيسير ص١٣٤ .

كما تقدَّم في آخر الأنفال[١].

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: نار جهنم. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له في الآخرة إذا دخل النار: ذلك العذابُ بما قدَّمتْ يداك من المعاصي والكفر. وعبَّر باليد عن الجملة؛ لأنَّ اليد التي تفعلُ وتبطِشُ للجملة. و«ذلك» بمعنى هذا، كما تقدَّم في أوّل «البقرة»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ «مَن» في موضعِ رفعٍ بالابتداء. والتمامُ: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ على قراءة الجمهور «خَسِر»[٣]. وهذه الآيةُ خبرٌ عن المنافقين. قال ابن عباس: يريد شيبة بنَ ربيعة؛ كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله ﷺ، فلمَّا أُوحي إليه ارتدَّ شيبة بنُ ربيعة[٤].

وقال أبو سعيد الخُدْرِيُّ: أسلم رجلٌ من اليهود، فذهب بصره وماله [وولده] فتشاءم بالإسلام، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: أَقِلْني! فقال: «إنَّ الإسلام لا يُقال» فقال: إنِّي لم أُصِبْ في ديني هذا خيراً؛ ذهب بصري ومالي وولدي! فقال: «يا يهوديّ إنَّ الإسلام يَسْبِكُ الرجال كما تَسْبِكُ النارُ خَبَث الحديد والفضة والذهب». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾[٥].

---

(١) ١٠/ ٢٣ و ٨٩ - ٩٠.

(٢) ١/ ٢٤٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٣١٧ وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه ابن مردويه كما في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١١٢، قال ابن حجر: إسناده ضعيف.
وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٦٨ من حديث جابر ﷺ، ولم يذكر فيه نزول الآية، وفي إسناده عنبسة ابن سعيد، قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: وعنبسة ضعيف جدًّا.

وروى إسرائيل عن أبي حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» قال: كان الرجل يَقْدَم المدينة، فإن وَلَدَتْ امرأته غلاماً ونُتِجت خيلُه قال: هذا دِينٌ صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنْتَج خيلُه قال: هذا دِين سُوء[١].

وقال المفسرون: نزلت في أعرابٍ كانوا يَقْدَمون على النبيِّ ﷺ فيُسلِمون، فإن نالوا رخاءً أقاموا، وإن نالتهم شدَّةٌ ارتدُّوا[٢].

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث. وقال ابن زيد وغيره: نزلت في المنافقين[٣].

ومعنى ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شكٍّ؛ قاله مجاهد وغيره[٤]. وحقيقتُه: أنه على ضعفٍ في عبادته، كضعفِ القائم على حرفٍ مضطربٍ فيه. وحرفُ كلِّ شيءٍ: طَرَفُه وشَفِيرُه وحدُّه، ومنه حرفُ الجبل، وهو أعلاه المحدَّد.

وقيل: «على حرف» أي: على وجهٍ واحد، وهو أن يعبدَه على السرَّاء دون الضرَّاء، ولو عبدوا الله على الشكر في السَّراء، والصبرِ على الضراء، لَمَا عبدوا الله على حرف.

وقيل: «على حرف»: على شرط، وذلك أنَّ شيبة بن ربيعةَ قال للنبيِّ ﷺ قبل أن يظهر أمره: ادعُ لي ربَّك أن يرزقني مالاً وإبلاً وخيلاً وولداً حتى أُومِنَ بك وأعدِلَ إلى دينك، فدعا له، فرزقه الله عزَّ وجلَّ ما تمنَّى، ثم أراد الله عزَّ وجلَّ فتنته واختباره وهو أعلم به، فأخذ منه ما كان رَزَقه بعد أن أسلم، فارتدَّ عن الإسلام، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ يريد: على شرط.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤٢).

(٢) ينظر هذا القول وما ورد فيه من أخبار في تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٢ - ٤٧٤ .

(٣) أخرجه عن ابن زيد الطبري ١٦/ ٤٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٧٣ و ٤٧٤ عن مجاهد وقتادة.

وقال الحسن: هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه[١].

وبالجملة؛ فهذا الذي يعبد الله على حَرْفٍ ليس داخلاً بكلِّيَّته، وبيَّن هذا بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾: صحةُ جسمٍ ورَخاءُ معيشةٍ، رضيَ وأقام على دينه. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: خلافُ ذلك مما يُختبر به ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتدَّ، فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ قرأ مجاهد وحميد بن قيس الأعرج[٢] والزُّهرِيُّ وابن أبي إسحاق، وروي عن يعقوب: «خاسِرَ الدنيا» ـ بألفٍ[٣] ـ نصباً على الحال، وعليه فلا يوقَف على: «وجهه». وخسْرانُه الدنيا بأنْ لا حظَّ له في غنيمةٍ ولا ثناء، والآخرةَ بأن لا ثوابَ له فيها.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ قال الفرَّاء[٤]: الطويل.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي: هذا الذي انقلب على وجهه يعبد[٥] مَن ضرُّه أدنى من نَفْعِه، أي: في الآخرة؛ لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه

(١) ذكره البغوي ٣/ ٢٧٧.

(٢) في النسخ: والأعرج، بالواو، والصواب ما أثبتناه. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٧٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٤، والمحتسب ٢/ ٧٥ عن مجاهد وحميد بن قيس، وتفسير البغوي ٣/ ٢٧٧ عن يعقوب، والقراءة المشهورة عنه ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨.

(٥) في (م): يدعو.

نفعاً أصلاً، ولكنه قال: «ضرُّه أقربُ من نفعه» ترفيعاً للكلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقيل: يعبدونهم تَوَهُّمَ أنهم يشفعون لهم غداً، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقال الفرَّاء والكسائيُّ والزجَّاج: معنى الكلام القسمُ والتأخير، أي: يدعو واللهِ مَن لَضَرُّه[١] أقربُ من نفعه. فاللامُ مقدَّمةٌ في غير موضعها. و«مَن» في موضع نصبٍ بـ«يدعو»، واللامُ جوابُ القَسَم. و«ضَرُّه» مبتدأ. و«أقْرَبُ» خبره[٢]. وضعَّف النحاس[٣] تأخيرَ اللام وقال: وليس لِلَّامِ من التصرُّف ما يوجب أن يكون فيها تقديمٌ ولا تأخير.

قلت: حقُّ اللام التقديم، وقد تؤخَّر؛ قال الشاعر:

خالي لأنتَ ومَن جَريرٌ خالُه ... ينلِ العَلَاءَ ويُكرِمِ الأخوالا

أي: لخالي أنت، وقد تقدم[٤].

النحاس: وحكى لنا عليّ بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذفٌ، والمعنى: يدعو لمَن ضرُّه أقرب من نَفْعِه إلهاً؛ قال النحَّاس: وأحسِبُ هذا القولَ غلطاً على محمد بن يزيد؛ لأنه لا معنى له، لأنَّ ما بعد اللام مبتدأٌ، فلا يجوز نصبُ إله، وما أحسِب مذهبَ محمد بن يزيد إلَّا قولَ الأخفش، وهو أحسنُ ما قيل في الآية عندي، والله أعلم؛ قال: «يدعو» بمعنى يقول، و«مَن» مبتدأٌ وخبرُه محذوف،

---

(١) في (د) و(م): لمن ضره، وهو خطأ.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وللزجاج ٣/ ٤١٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٨٧.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٨٩.

(٤) ص٩٤ من هذا الجزء.

والمعنى: يقول: لمَن ضرُّه أقرب من نفعه إلهُه[١].

قلت: وذكر هذا القول القُشَيْريُّ - رحمه الله - عن الزجَّاج[٢]، والمهدوِيُّ عن الأخفش، وكمَّل إعرابه فقال: «يدعو» بمعنى يقول، و«مَن» مبتدأ، و«ضرُّه» مبتدأٌ ثانٍ، و«أقربُ» خبرُه، والجملةُ صلةُ «مَن»، وخبرُ «مَن» محذوفٌ، والتقدير: يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهُه، ومِثْلُه قول عنترة:

يدعون عَنْتَرَ والرِّماحُ كأنها أشْطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ[٣]

قال القشيريُّ: والكافر الذي يقول: الصنم معبودي، لا يقول: ضَرُّه أقربُ من نفعه، ولكن المعنى: يقول الكافر: لمَن ضرُّه أقربُ من نَفْعِه - في قول المسلمين - معبودي وإلهي. وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩]؛ أي: يا أيها الساحرُ عند أولئك الذي يدعونك ساحراً.

وقال الزجَّاج: يجوز أن يكون «يدعو» في موضع الحال، وفيه هاءٌ محذوفة، أي: ذلك هو الضلالُ البعيد يدعوه، أي: في حال دعائه إياه، ففي «يدعو» هاءٌ مضمَرةٌ، ويوقف على هذا على «يدعو»، وقولُه: «لَمَن ضَرُّه أقربُ من نفعِه» كلامٌ مستأنَفٌ مرفوع بالابتداء، وخبرُه: «لَبِئسَ الْمَولَى»[٤]، وهذا لأنَّ اللام لليَمين والتوكيدِ، فجعلها أوّلَ الكلام.

قال الزجاج[٥]: ويجوز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، ويكون في محلِّ النصب

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩، وقول الأخفش سعيد بن مسعدة في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ - ٦٣٦.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٤١٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٦، والبيت من معلقة عنترة، وهو في ديوانه ص٢٩. قوله: يدعون عنتر، قال النحاس في شرح المعلقات ٢/ ٤٣: الأجود فيه فتح الراء، والأشطان جمع شَطَن: وهو حبل البئر، واللبان: الصدر.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٥ - ٤١٦، وذكر هذا القول أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٤١٧.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤١٦.

بوقوع «يدعو» عليه، أي: الذي هو الضلالُ البعيد يدعو، كما قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧] أي: ما الذي[١]، ثم قولُه: «لَمَن ضرُّه» كلامٌ مبتدأ، و«لبئس المولى» خبرُ المبتدأ، وتقديرُ الآية على هذا: يدعو الذي هو الضلال البعيد، قدَّم المفعولَ وهو الذي، كما تقول: زيداً يَضرِبُ، واستحسنه أبو عليٍّ[٢]. وزعم الزجَّاجُ أنَّ النَّحويين أغفلوا هذا القول، وأنشد:

عَدَسْ ما لعبَّادٍ عليك إمارةٌ نَجَوْتِ وهذا تَحْمِلِين طَلِيقُ[٣]

أي: والذي.

وقال الزجَّاج أيضاً والفرَّاء: يجوز أن يكون «يدعو» مكررةً على ما قَبْلَها، على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء، ولا تُعدِّيه إذ قد عدَّيتَه أوَّلاً، أي: يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضرُّه يدعو، مثل: ضربتُ زيداً ضربت[٤].

[وقيل: معناه: يدعو لَمَن ضرُّه أقرب من نفعه يدعو] ثم حذفت يدعو الآخرة اكتفاءً بالأولى[٥].

قال الفرَّاء: ويجوز: «لِمَنْ ضَرُّه» بكسر اللام، أي: يدعو إلى مَن ضَرُّه أقربُ مِن نَفعِه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥] أي: إليها[٦].

وقال الفرَّاء أيضاً والقفَّال: اللامُ صلة، أي: يدعو مَن ضرُّه أقربُ من نفعه، أي:

---

(١) كذا في النسخ، وفي معاني القرآن للزجاج: ما التي.

(٢) ذكر كلامه مطولاً الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٨٣ - ٨٥.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٧، والبيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو في ديوانه ص١١٥، وسلف ٢/ ١٤٩.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨ بنحوه، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٨٤ عن أبي علي. ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩. ولا يقرأ بهذا الوجه كما ذكر الفراء.

يعبده. وكذلك هو في قراءة عبد الله بن مسعود[١].

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي: في التناصُر[٢] ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي: المُعاشِر والصاحب والخليل. مجاهد: يعني الوثن[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ لمَّا ذكر حالَ المشركين وحالَ المنافقين والشياطين؛ ذَكَر حال المؤمنين في الآخرة أيضاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يُثيب مَن يشاء ويعذِّب مَن يشاء، فللمؤمنين الجنةُ بحكم وَعْدِه الصِّدْقِ وبفضله، وللكافرين النارُ بما سبق من عدله، لا أنَّ فِعْلَ الربِّ معلَّلٌ بفعلِ العبيد.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال أبو جعفر النحاس: مِن أحسَن ما قيل فيها: إنَّ المعنى: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصر الله محمداً ﷺ[٤]، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أُوتيه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فليطلُبْ حيلةً يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليقطع النصر إن تهيَّأ له ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ وحيلتُه ما يَغيظُه من نصر النبيِّ ﷺ. والفائدةُ في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيدُ والحيلة بأن يفعل مثلَ هذا لم يَصِلْ إلى قطع النصر[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، والقراءة عند ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ دون نسبة.

(٢) في (ظ): أي الناصر.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٧٧.

(٤) بعدها في (ظ): في الدنيا.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٠.

وكذا قال ابن عباس: إنَّ الكناية في «ينصره الله» ترجع إلى محمدٍ ﷺ[١]. وهو وإن لم يَجْرِ ذِكْرُه فجميعُ الكلام دالٌّ عليه؛ لأنَّ الإيمان هو الإيمانُ بالله وبمحمدٍ ﷺ[٢]، والانقلابُ عن الدِّين انقلابٌ عن الدِّين الذي أتى به محمدٌ ﷺ، أي: مَن كان يظنُّ ممن يعادي محمداً ﷺ ومَن يعبد الله على حَرْف أنَّا لا ننصر محمداً، فلْيفعَلْ كذا وكذا.

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ الهاء تعود على «مَن»، والمعنى: مَن كان يظنُّ أنَّ الله لا يرزقه فليختنقْ، فليقتل نفسه[٣]؛ إذ لا خيرَ في حياةٍ تخلو من عَوْن الله. والنصرُ على هذا القول الرزقُ؛ تقول العرب: مَن ينصرني نصره الله، أي: مَن أعطاني أعطاه الله. ومِن ذلك قولُ العرب: أرضٌ منصورة، أي: ممطورة؛ قال الفَقْعسيُّ[٤]:

وإنَّك لا تعطي امْرَأً فوقَ حقِّه ... ولا تملك الشِّقَّ[٥] الذي الغيثُ ناصِرُه

وكذا روى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهدٍ قال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لن يرزقه[٦]. وهو قولُ أبي عبيدة[٧].

وقيل: إنَّ الهاء تعود على الدِّين، والمعنى: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصر الله دينه.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل، والسببُ: ما يُتوصَّل به إلى الشيء. ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: إلى سقف البيت. ابن زيد: هي السماء المعروفة[٨].

وقرأ الكوفيون: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ بإسكان اللام[٩]. قال النحاس[١٠]: وهذا بعيدٌ في

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٠ .

(٢) في (ظ): لأن الإيمان بالله إيمان بمحمد ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨١ - ٤٨٢ ، والسماء على هذا القول هي سقف البيت، كما جاء في خبر ابن عباس.

(٤) اضطرب الاسم في النسخ، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/ ٤٨٠ ، والبيت دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ٤٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١١١ .

(٥) في النسخ الخطية: الشيء، والمثبت من (م) والمصادر.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٢ .

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٤٦ - ٤٧ .

(٨) أخرجه الطبري مطولاً ١٦/ ٤٧٩ .

(٩) قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام، والباقون بإسكانها. السبعة ص٤٣٤ ، والتيسير ص١٥٦ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٩٠ .

العربية؛ لأن «ثم» ليست مثلَ الواو والفاء؛ لأنها يُوقف عليها وتنفرد.

وفي قراءة عبد الله: «فليقطعه ثم لينظر هل يُذهبنَّ كيدُه ما يغيظ»(١).

قيل: «ما» بمعنى الذي، أي: هل يُذهبنَّ كيدُه الذي يغيظُه، فحذف الهاء ليكون أخفَّ. وقيل: بمعنى المصدر، أي: هل يذهبنَّ كيدُه غيظَه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وكذلك أنَّ الله ﴿يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾، علَّق وجودَ الهداية بإرادته، فهو الهادي لا هادِيَ سواه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالله وبمحمدٍ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: اليهود، وهم المنتسبون إلى ملَّةِ موسى عليه السلام. ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: هم قومٌ يعبدون النجوم. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: هم المنتسبون إلى ملَّة عيسى. ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾: هم عَبدَةُ النيران القائلون إنَّ للعالَم أصلين: نوراً وظلمةً. قال قتادة: الأديانُ خمسة، أربعةٌ للشيطان، وواحدٌ للرحمن(٢). وقيل: المجوس في الأصل: النّجوس؛ لتدَيُّنهم باستعمال النجاسات، والميم والنونُ يتعاقبان، كالغيم والغين، والأيْم والأين. وقد مضى في «البقرة» هذا كلُّه مستوفًى(٣). ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾: هم العربُ عَبدَةُ الأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقضي ويَحكم، فللكافرين النار،

---

(١) لم نقف على هذه القراءة عن ابن مسعود ﷺ، وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١١ أن قراءة ابن مسعود هي: «ثم ليقطعه».

(٢) أخرجه مطولاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٩، والطبري ١٦/ ٤٨٥، ونسبه السيوطي في الدر المنثور لعبد بن حميد وابن أبي حاتم، إلا أن لفظه عندهم: والأديان ستة، خمسة للشيطان، وواحد للرحمن.

(٣) ينظر ٢/ ١٥٨ وما بعدها، وينظر أيضاً في الكلام عن المجوس ٨/ ٤٨٠، و ١٠/ ١٦٤.

وللمؤمنين الجنة. وقيل: هذا الفصلُ بأنْ يعرِّفهم المحقَّ من المُبْطِل بمعرفةٍ ضرورية، واليومَ يتميَّز المحقُّ عن المبطل بالنظر والاستدلال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: من أعمال خَلْقِه وحركاتهم وأقوالهم، فلا يَعْزُب عنه شيءٌ منها؛ سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ خبرُ «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كما تقول: إنَّ زيداً إنَّ الخيرَ عنده. وقال الفرَّاء[1]: ولا يجوز في الكلام: إنَّ زيداً إنَّ أخاه منطلقٌ، وزعم أنه إنما جاز في الآية؛ لأنَّ في الكلام معنى المجازاة، أي: مَن آمن ومَن تهوَّد أو تنصَّر أو صبأ، يفصلُ[2] بَيْنِهم وحسابُهم على الله عزَّ وجلَّ.

وردَّ أبو إسحاقَ[3] على الفرَّاء هذا القولَ، واستقبح قولَه: لا يجوز: إنَّ زيداً إنَّ أخاه منطلقٌ؛ قال: لأنه لا فرقٌ بين زيد وبين الذين، و«إنَّ» تدخل على كلِّ مبتدأ، فتقول: إنَّ زيداً هو منطلقٌ، ثم تأتي بإنَّ فتقول: إنَّ زيداً إنه منطلقٌ؛ وقال الشاعر:

إنَّ الخليفةَ إنَّ الله سَرْبَلَهُ ... سِربالَ عِزٍّ به تُرْجَى الخواتيمُ[4]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذه رؤيةُ القلب، أي: ألم تَرَ بقلبك وعقلك. وتقدَّم معنى السجودِ في «البقرة»[5]، وسجود

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٠.

(٢) في معاني القرآن للفراء، وإعراب القرآن للنحاس: ففصل.

(٣) هو الزجاج، والكلام في معاني القرآن له ٣/ ٤١٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٠، وعنه نقل المصنف.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨، وللزجاج ٣/ ٤١٨، وأمالي الزجاجي ص٦٢، والخزانة ١٠/ ٣٦٤، والبيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٦٧٢ برواية:

يكفي الخليفةَ أن الله سربله ... سربال مُلْك به تُرْجى الخواتيم

(٥) ١/ ٤٣٤.

الجماد في «النحل»[١]. ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ معطوفةٌ على «مَن»، وكذا ﴿وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهذا مُشْكِلٌ من الإعراب، كيف لم ينصب ليعطفَ ما عَمِلَ فيه الفعلُ على ما عَمِلَ فيه الفعل، مثل: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١]؟ فزعم الكسائيُّ والفرَّاء أنه لو نصب لكان حسناً، ولكن اختِير الرفعُ لأنَّ المعنى: وكثيرٌ أبَى السجود، فيكون ابتداءً وخبراً، وتمَّ الكلام عند قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. ويجوز أن يكون معطوفاً، على أنْ يكون السجود: التذلُّلَ والانقيادَ لتدبير الله عزَّ وجلَّ من ضَعْفٍ وقوّةٍ وصحةٍ وسقمٍ وحسنٍ وقُبْح، وهذا يدخل فيه كلُّ شيء[٢].

ويجوز أن ينتصب على تقدير: وأهان كثيراً حقَّ عليه العذاب، ونحوه.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «والدَّوابُّ»، ثم ابتدأ فقال: «وكثيرٌ من الناس» في الجنةِ «وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب»، وكذا روي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: وكثيرٌ من الناس في الجنة وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب؛ ذكره ابن الأنباري[٣].

وقال أبو العالية: ما في السماوات نجمٌ ولا قمرٌ ولا شمسٌ إلَّا يقع ساجداً لله حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه[٤]. قال القُشَيريُّ: وورد هذا في خبرٍ مسنَد في حقِّ الشمس، فهذا سجودٌ حقيقيٌّ، ومن ضرورته تركيبُ الحياة والعقل في هذا الساجد.

قلت: الحديث المسند الذي أشار إليه خرَّجه مسلم[٥]، وسيأتي في سورة «يس»

---

(١) ١٢/ ٣٣٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٩.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٨٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٧.

(٥) في صحيحه (١٥٩) من حديث أبي ذر ﷺ مطولاً، وأخرجه البخاري مختصراً (٤٨٠٢).

عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [الآية:٣٨]. وقد تقدَّم في «البقرة» معنى السجودِ لغةً ومعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي: مَن أهانه بالشَّقاء والكفرِ لا يَقْدِرُ أحدٌ على دفع الهوان عنه. وقال ابن عباس: إنَّ مَن تَهاوَنَ بعبادة الله صار إلى النار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يريد أنَّ مصيرهم إلى النار، فلا اعتراضَ لأحدٍ عليه. وحكى الأخفش والكسائيُّ والفرَّاء: «ومَنْ يُهِن اللهُ فما له من مُكْرَمٍ» أي: إكرام[١].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ خرَّج مسلم[٢] عن قيس بن عُبَادٍ قال: سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قَسماً: إنَّ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إنها نزلت في الذين بَرَزُوا يومَ بدرٍ: حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بن الحارث ﷺ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ والوليدُ بن عتبة. وبهذا الحديث ختم مسلمٌ رحمه الله كتابه.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآياتُ الثلاثُ على النبيِّ ﷺ بالمدينة في ثلاثةِ نفرٍ من المؤمنين وثلاثةِ نفرٍ كافرين؛ وسمَّاهم كما ذكر أبو ذرّ[٣].

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: إني لأوّلُ مَن يجثو للخصومة بين يدي الله يومَ القيامة. يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه؛ ذكره البخاري[٤]. وإلى هذا القول ذهب

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢١٩ ، والقراءة بفتح الراء ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ وقال: ذكره أبو معاذ. وهي في المحرر الوجيز ٤/ ١١٣ عن ابن أبي عبلة.

(٢) في صحيحه (٣٠٣٣)، وهو عند البخاري (٣٩٦٩) و(٤٧٤٣).

(٣) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩ .

(٤) في صحيحه (٣٩٦٥) و(٣٩٦٧).

هلال بنُ يِساف وعطاء بن يَسار وغيرهما[١].

وقال عكرمة: المراد بالخصمين: الجنةُ والنار؛ اختصمتا، فقالت النار: خلقني لعقوبته. وقالت الجنة: خلقني لرحمته[٢].

قلت: وقد ورد بتخاصُمِ الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّت الجنةُ والنار، فقالت هذه: يَدْخلُني الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاءُ والمساكين، فقال الله تعالى لهذه: أنتِ عذابي أعذِّبُ بكِ مَن أشاء، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أَرْحَم بكِ مَن أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلؤها». خرَّجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

وقال ابن عباس أيضاً: هم أهلُ الكتاب؛ قالوا للمؤمنين: نحن أَوْلَى بالله منكم، وأقدمُ منكم كتاباً، ونبيُّنا قبل نبيِّكم. وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله[٤]، آمنَّا بمحمدٍ وآمنَّا بنبيِّكم وبما أُنزل إليه من كتاب[٥]، وأنتم تعرفون نبيَّنا وتركتموه وكفرتم به حَسَداً. فكانت هذه خصومتَهم، وأُنزلت فيهم هذه الآية. وهذا قولُ قتادة[٦].

والقول الأوّل أصحُّ، رواه البخاريُّ عن حَجَّاج بن مِنْهالٍ، عن هُشَيْمٍ، عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد، عن أبي ذر، ومسلمٌ عن عمرو بن زُرَارة، عن هُشيم[٧]. ورواه سليمان التيميُّ عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد، عن عليٍّ قال:

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٩٠ – ٤٩١ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٩٣ .

(٣) صحيح البخاري (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦)، وسنن الترمذي (٢٥٦١)، وهو في مسند أحمد (٧٧١٨).

(٤) بعدها في (د) و(ز) و(م): منكم، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما تفسير الطبري ١٦/ ٤٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٠ .

(٥) في تفسير الطبري وتفسير البغوي: وبما أنزل الله من كتاب.

(٦) ذكره البغوي ٣/ ٢٨٠ .

(٧) صحيح البخاري (٤٧٤٣) وصحيح مسلم (٣٠٣٣)، وسلف في بداية تفسير الآية.

فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يومَ بدرٍ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1].

وقرأ ابن كثير: ﴿هذانِّ خصمان﴾ بتشديد النون من «هذان»[2].

وتَأَوَّلَ الفرَّاء[3] الخصْمَين على أنهما فريقان أهلُ دينَيْن، وزعم أنَّ الخصم الواحدَ المسلمون، والآخَرَ اليهودُ والنصارى، اختصموا في دين ربِّهم؛ قال: فقال: «اختصموا» لأنهم جَمْعٌ، قال: ولو قال: «اختصما» لجاز. قال النحاس[4]: وهذا تأويلُ مَن لا دُرْبَةَ[5] له بالحديث ولا بكُتُبِ أهل التفسير؛ لأنَّ الحديث في هذه الآية مشهورٌ، رواه سفيان الثَّوْريُّ وغيره عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد قال: سمعتُ أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَماً: إنَّ هذه الآية نزلت في حمزةَ وعليٍّ وعبيدة بنِ الحارث بن عبد المطلب، وعتبةَ وشيبةَ ابني ربيعةَ والوليد بن عتبة. وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس[6].

وفيه قولٌ رابعٌ: أنهم المؤمنون كلُّهم، والكافرون كلُّهم من أيِّ ملةٍ كانوا؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رَبَاح وعاصم بن أبي النَّجُود والكلبيّ[7]. وهذا القولُ بالعموم يجمع المنزَلَ فيهم وغيرَهم.

وقيل: نزلت في الخصومة في البعث والجزاء؛ إذ قال به قومٌ وأنكره قوم[8].

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٦٥) و(٣٩٦٧)، وسلف في بداية تفسير الآية.

(٢) السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص٩٥ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢١٩ - ٢٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩١ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٩١ .

(٥) في (د) و(م): دراية.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١ ، وسلف تخريج خبر ابن عباس في بداية تفسير هذه الآية.

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٤٩٢ .

(٨) أخوجه الطبري ١٦/ ٤٩٢ بنحوه عن مجاهد.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني من الفِرق الذين تقدَّم ذكرهم ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: خِيطَتْ وسُوِّيت، وشبِّهت النار بالثياب لأنها لباسٌ لهم كالثياب.

وقوله: ﴿قُطِّعَتْ﴾ أي: تُقطَّع لهم في الآخرة ثيابٌ من نار؛ وذُكر بلَفْظِ الماضي لأنَّ ما كان من أخبار الآخرة فالموعودُ منه كالواقع المحقَّق؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦] أي: يقول الله تعالى. ويحتمل أن يقال: قد أُعِدَّت الآنَ تلك الثيابُ لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار.

وقال سعيد بن جبير: «من نار»: من نحاس، فتلك الثياب من نحاسٍ قد أذيبت، وهي السرابيلُ المذكورة في «قِطْرٍ آنٍ»[١]، وليس في الآنية شيءٌ إذا حَمِيَ يكون أشدَّ حرًّا منه[٢].

وقيل: المعنى: أنَّ النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم، فصارت من هذا الوجه ثياباً لأنها بالإحاطة كالثياب، مثلُ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ:١٠].

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي: الماء الحارُّ المُغلَّى بنار جهنَّم. وروى الترمذيّ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الحميم لَيُصَبُّ على رؤوسهم، فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه، فيَسْلِتُ ما في جوفه حتى يَمْرُق من قدميه، وهو الصَّهْر، ثم يعاد كما كان». قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٣].

﴿يُصْهَرُ﴾: يذاب ﴿بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ والصَّهر: إذابةُ الشَّحْم. والصُّهارة: ما

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] والقراءة أعلاه في القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وسلفت ١٢/ ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٦٤ دون قوله: فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهي السرابيل المذكورة في قطر آن. وأورده دون هذه العبارة أيضاً البغوي ٣/ ٢٨٠.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٨٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٨٦٤)، والطبري ١٦/ ٤٩٥، وفيهما: فينفذ الجمجمة، بدل: فينفذ الحميم.

ذاب منه؛ يقال: صَهَرْت الشيء فانصهر، أي: أذبتُه فذاب، فهو صهير. قال ابن أحمر يصف فرخَ قَطاةٍ:

تَرْوي لَقًى أُلقيَ في صَفْصفٍ تَصْهرُه الشمسُ فما يَنْصَهِرْ[1]

أي: تُذيبه الشمس فيصبر على ذلك.

﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي: وتُحرَق الجلود، أو تُشوَى الجلود؛ فإنَّ الجلود لا تذاب، ولكن يُضَمُّ[2] في كلِّ شيء ما يَليقُ به، فهو كما تقول: أتيته فأطعمني ثريداً، إي والله ولبناً قارِصاً[3]؛ أي: وسقاني لبناً؛ قال الشاعر:

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً[4]

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي: يُضربون بها ويُدفعون، الواحدة مِقْمَعة، ومِقْمَع أيضاً كالمِحْجَن، يُضرب به على رأس الفيل. وقد قَمَعتُه: إذا ضربتَه بها. وقَمعته وأَقْمعته بمعنًى، أي: قهرتُه وأذْللتُه فانقمع. قال ابن السِّكِّيت: أقمعتُ الرجلَ عنِّي إقماعاً: إذا طَلَع عليك فردَدْتَه عنك[5].

وقيل: المَقَامع: المَطارِقُ، وهي المَرازب أيضاً. وفي الحديث: «بِيَدِ كلِّ مَلَكٍ من خَزَنةِ جهنَّم مِرْزَبَةٌ لها شُعبتان، فيضربُ الضربةَ، فيهوي بها سبعين ألفاً»[6]. وقيل: المقامع: سِياطٌ من نار. وسُمِّيت بذلك لأنها تَقْمَعُ المضروب، أي: تذلِّله.

---

(١) الصحاح (صهر)، والبيت في تهذيب اللغة ١٥/ ٣١٤ ، وأساس البلاغة (روي)، واللسان (روي) و(صهر) و(لقا) وفيه: اللقى: الشيء الملقى لهوانه، وجمعه ألقاء. وتروي: تسوق إليه الماء، أي: تصير كالراوية. اهـ. والصفصف: الذي لا نبات فيه، تاج العروس (صفف).

(٢) في (خ): يذم.

(٣) هو الحامض من ألبان الإبل خاصة، وقيل: القارص: اللبن الذي يَحْذي اللسان، فأطلق ولم يخصص الإبل. اللسان (قرص).

(٤) وعجزه: حتى شَتَتْ همَّالةً عيناها، وسلف ١/ ٢٩١ ، و٧/ ٣٤٩ .

(٥) الصحاح (قمع).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٤٠ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ٣/ ١٧٣ - ١٧٤ من طريق رجل من بني تميم، عن أبي العوام من قوله مطولاً.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي: من النار ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالضرب بالمَقامع؛ قال أبو ظَبيان: ذُكر لنا أنَّهم يحاولون الخروج من النار حين تَجيشُ بهم وتفورُ، فتُلْقي مَن فيها إلى أعلى أبوابها، فيريدون الخروجَ، فتعيدُهم الخُزَّانُ إليها بالمَقامع[1].

وقيل: إذا اشتدَّ غمُّهم فيها فرُّوا، فَمَن خَلَص منهم إلى شَفِيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمَقامع، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: المُحْرِق؛ مثلُ الأليمُ والوَجِيعُ. وقيل: الحريقُ: الاسم من الاحتراق، تحرَّق الشيءُ بالنار واحترق، والاسم: الحُرْقة والحريق[2]. والذَّوْق: مماسَّةٌ يحصل معها إدراكُ الطعم، وهو هنا توسُّعٌ، والمراد به إدراكُهم الألم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لمَّا ذكر أحد الخصمين، وهو الكافر؛ ذكر حال الخصم الآخر، وهو المؤمن. ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ «مِن» صِلة[3]. والأساور جمع

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٤٩٨ .

(٢) الصحاح (حرق).

(٣) وهذا على مذهب مَن أجاز زيادة «من» في الإيجاب، ينظر أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص٢٣٤ ، والدرّ المصون ٨/ ٢٥٢ ، وروح المعاني ١٧/ ١٣٥ . وقيل: هي للتبعيض، أي: بعض أساور. وقيل: لبيان الجنس، ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ٢٥٢ .

أَسوِرة، وأسورة واحدها سِوار، وفيه ثلاثُ لغاتٍ: ضمُّ السين، وكَسْرُها، وإسوار[١].

قال المفسِّرون: لمَّا كانت الملوك تلبَس في الدنيا الأساور والتِّيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحدٌ من أهل الجنة إلَّا وفي يده ثلاثةُ أسورة: سِوارٌ من ذهب، وسوارٌ من فضة، وسوارٌ من لؤلؤ؛ قال هنا وفي «فاطر»: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣]، وقال في سورة الإنسان: ﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الآية: ٢١].

وفي صحيح مسلمٍ من حديث أبي هريرة: سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تَبْلغُ الحِلْيةُ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٢].

وقيل: تُحَلَّى النساءُ بالذهب والرجالُ بالفضة. وفيه نظر، والقرآن يردُّه.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ نافع وابن القَعْقاع وشيبةُ وعاصمٌ هنا وفي سورة الملائكة: «لؤلؤاً» بالنصب[٣]، على معنى: ويُحَلَّون لؤلؤاً، واستدلُّوا بأنها مكتوبةٌ في جميع المصاحف هنا بألف[٤]. وكذلك قرأ يعقوبُ والجَحْدَرِيُّ وعيسى بنُ عمر بالنصب هنا، والخفضِ في «فاطر»[٥]؛ اتِّباعاً للمصحف، ولأنها كُتبت هاهنا بألفٍ وهناك بغير ألف[٦]. الباقون بالخفض في الموضعين. وكان أبو بكر لا يهمز «اللؤلؤ» في كلِّ القرآن[٧]. وهو

---

(١) ينظر الصحاح (سور)، وتهذيب اللغة ١٣/ ٥١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٥٠)، وسلف ٧/ ٣٣٤ .

(٣) السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٦ عن عاصم ونافع، وأما ابن القعقاع - وهو يزيد أبو جعفر - فقد قرأ: لُولؤاً؛ بإبدال الهمزة الأولى واواً ساكنة مدّيّة، وكذلك قرأها أبو بكر شعبة عن عاصم، كما سيذكر المصنف. النشر ٢/ ٣٢٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٤٩٩ ، والمقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار للداني ص٤٠ .

(٥) النشر ٢/ ٣٢٦ عن يعقوب.

(٦) المقنع للداني ص٤٠ ، وقد وقع في مصاحفنا بألف في الموضعين، فليحرر.

(٧) أي: لُولُؤاً؛ بإبدال الهمزة الأولى فقط واواً ساكنة مدّيّة. وكذلك أبدلها أبو عمرو في رواية السوسي، غير أنه قرأ بالخفض. السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٦ ، والكشف ٢/ ١١٨ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ عن أبي علي الفارسي قوله: هَمْزُهما وتخفيفُهما، وهَمْزُ إحداهما دون الأخرى جائز كلُّه. وينظر الحجة للفارسي ٥/ ٢٦٧ - ٢٦٨ .

ما يُستخرج من البحر من جَوْفِ الصَّدَف.

قال القُشيرِيُّ: والمرادُ ترصيع السوار باللؤلؤ، ولا يبعدُ أن يكون في الجنة سوارٌ من لؤلؤٍ مُصْمَتٍ[1].

قلت: وهو ظاهِرُ القرآن، بل نصُّه.

وقال ابن الأنباريّ[2]: مَن قرأ: «ولؤلؤٍ» بالخفض، وَقَفَ عليه، ولم يقف على الذهب. وقال السِّجِسْتانيُّ: مَن نَصَبَ «اللؤلؤ» فالوقفُ الكافي: «من ذهب»؛ لأن المعنى: ويُحلَّوْن لؤلؤاً. قال ابن الأنباريّ: وليس كما قال؛ لأنَّا إذا خَفَضْنا «اللؤلؤ» نَسَقْناه على لفظِ الأساور، وإذا نصبناه نَسَقْناه على تأويل الأساور، وكأنَّا قلنا: يحلَّون فيها أساور ولؤلؤاً، فهو في النَّصب بمنزلته في الخفض، فلا معنى لقَطْعِه من الأوّل.

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: وجميع ما يلبَسونه من فُرُشهم ولباسهم وسُتورهم حريرٌ، وهو أعلى ممَّا في الدنيا بكثير.

وروى النَّسائيُّ عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن لَبِسَ الحريرَ في الدنيا لم يَلْبَسْه في الآخرة، ومَن شَرِبَ الخمر في الدنيا لم يَشْرَبْه في الآخرة، ومَن شرب في آنيةِ الذَّهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة». ثم قال رسول الله ﷺ: «لباسُ أهلِ الجنةِ، وشرابُ أهلِ الجنة، وآنيةُ أهل الجنة»[3].

فإن قيل: قد سوَّى النبيُّ ﷺ بين هذه الأشياء الثلاثة، وأنه يُحْرَمُها في الآخرة؛ فهل يحرمُها إذا دخل الجنة؟ قلنا: نعم! إذا لم يتب منها؛ حُرِمها في الآخرة، وإنْ

(١) الحلي المصمت: هو الذي لا يخالطه غيره. اللسان (صمت).

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٨٣.

(٣) سنن النسائي الكبرى (٦٨٤٠). وقوله منه: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» أخرجه أحمد (٢٥١) (١١٩٨٥) (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٤) (٥٨٣٢) (٥٨٣٣) عن عمر وأنس وعبد الله بن الزبير ﷺ، وأخرجه مسلم (٢٠٦٩): (١١) و(٢٠٧٣) و(٢٠٧٤) عن عمر وأنس وأبي أمامة ﷺ.

دخل الجنة؛ لاستعجاله ما حرَّم الله عليه في الدنيا.

لا يقال: إنما يُحْرَم ذلك في الوقت الذي يعذَّب في النار، أو بطول مُقامِه في الموقف، فأمَّا إذا دخل الجنةَ فلا؛ لأنَّ حِرْمانَ شيءٍ من لذَّات الجنة لمن كان في الجنة نوعُ عقوبةٍ ومؤاخذةٍ، والجنةُ ليست بدارِ عقوبة، ولا مؤاخذةَ فيها بوجه.

فإنَّا نقول: ما ذكرتموه محتملٌ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردُّه من ظاهر الحديث الذي ذكرناه، وما رواه الأئمةُ من حديث ابن عمر عن النبيِّ ﷺ: «مَن شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها، حُرِمها في الآخرة»(١). والأصلُ التمسُّكُ بالظاهر حتى يَرِدَ نصٌّ يدفعه، بل قد ورد نصٌّ على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطَّيَالسيُّ في «مسنده»: حدَّثنا هشام، عن قتادةَ، عن داود السرَّاج، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لبس الحريرَ في الدنيا لم يَلْبَسْه في الآخرة، وإن دَخَلَ الجنة لَبِسَه أهلُ الجنة ولم يَلْبَسْه هو»(٢). وهذا نصٌّ صريح وإسنادٌ صحيح(٣). فإن كان: «وإن دخل الجنة لبسه أهلُ الجنة ولم يلبسه هو» من قول النبيِّ ﷺ فهو الغايةُ في البيان، وإن كان من كلام الراوي على ما ذُكِر [أنه موقوف](٤) فهو أعلمُ بالمقال وأَقْعَدُ بالحال، ومثلُه لا يقال بالرأي، والله أعلم.

وكذلك: «مَن شرب الخمر ولم يَتُبْ» و«مَن استعمل آنيةَ الذَّهبِ والفضَّة» وكما لا

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

(٢) مسند الطيالسي (٢٢١٧)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٩٥٣٨)، وابن حبان (٥٤٣٧). وهو عند أحمد (١١١٧٩) دون قوله: «وإن دخل الجنة...»، وذكر الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٨٩ أن قوله: «وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» يحتمل أن يكون مُدْرَجاً.

(٣) في (خ) و(م): وإسناده صحيح. والحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف في إسناده داود السراج، وهو لم يرو عنه إلا قتادة، كما ذكر الذهبي في الميزان ٢/ ٢٢. وقال ابن المديني: مجهول لا أعرفه، وذكره ابن حبان في الثقات. التهذيب ١/ ٥٧٣. أما أول الحديث فصحيح كما سلف.

(٤) أخرجه موقوفاً النسائي في الكبرى (٩٥٣٦) دون قوله: وإن دخل الجنة . . .، وأخرجه بتمامه موقوفاً الخطيب البغدادي في الفصل للوصل ١/ ٥٧٣.

يشتهي منزلةَ مَن هو أرْفَعُ منه، وليس ذلك بعقوبةٍ، كذلك لا يشتهي خمرَ الجنة ولا حريرَها، ولا يكون ذلك عقوبةً. وقد ذكرنا هذا كلَّه في كتاب «التذكرة»[١]، والحمد لله، وذكرنا فيها أنَّ شجر الجنة وثمارَها يَتفتَّق عن ثياب الجنة[٢]، وقد ذكرناه في سورة الكهف[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: أُرشِدوا إلى ذلك. قال ابن عباس: يريد: لا إله إلا الله والحمد لله[٤]. وقيل: القرآن. ثم قيل: هذا في الدنيا، هُدُوا إلى الشهادة وقراءة القرآن. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى صراط الله. وصراطُ الله: دِينُه، وهو الإسلام.

وقيل: هُدُوا في الآخرة إلى الطيِّب من القول، وهو: الحمدُ لله؛ لأنهم يقولون غداً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فليس في الجنة لَغْوٌ ولا كَذِبٌ، فما يقولونه فهو طيِّبُ القول. وقد هُدُوا في الجنة إلى صراط الله؛ إذ ليس في الجنة شيءٌ من مخالفة أمر الله.

وقيل: الطيِّبُ من القول: ما يأتيهم من الله من البِشارات الحسنة. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى طريق الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

فيه سبع مسائل:

(١) ص٤٤٨ - ٤٤٩، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) التذكرة ص٤٥٤.

(٣) ١٣/ ٢٦٧، وينظر أيضاً ما ورد ١٢/ ٦٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ أعاد الكلام إلى مشركي العرب حين صَدُّوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة، وذلك أنه لم يُعلم لهم صَدٌّ قبل ذلك الجمع، إلَّا أنْ يريدَ صدَّهم لأفرادٍ من الناس، فقد وقع ذلك في صَدْرِ المَبْعَث. والصَّدُّ: المنع. أي: وهم يصدُّون، وبهذا حَسُنَ عَطْفُ المستقبل على الماضي.

وقيل: الواوُ زائدة، و«يصدون» خبرُ «إنَّ». وهذا مُفْسِدٌ للمعنى المقصود، وإنَّما الخبرُ محذوفٌ مقدَّرٌ عند قوله: ﴿وَٱلْبَادِۚ﴾، تقديره: خسروا، أو[1] هلكوا.

وجاء «ويصدُّون» مستقبَلاً؛ إذ هو فعلٌ يُديمُونه، كما جاء قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:٢٨]. فكأنه قال: إنَّ الذين كفروا من شأنهم الصدُّ. ولو قال: إنَّ الذين كفروا وصدُّوا، لجَاز.

قال النحَّاس[2]: وفي كتابي عن أبي إسحاق[3] قال: وجائز أن يكون ـ وهو الوجهُ ـ الخبر: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال أبو جعفر: وهذا غلط! ولستُ أعرف ما الوجهُ فيه؛ لأنه جاء بخبرِ «إنَّ» جَزْماً، وأيضاً فإنه جوابُ الشرط، ولو كان خبرَ «إنَّ» لبقي الشرطُ بلا جواب، ولا سيما والفعلُ الذي في الشرط مستقبلٌ، فلابُدَّ له من جواب.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: إنه المسجدُ نفسه، وهو ظاهرُ القرآن؛ لأنه لم يذكر غيره. وقيل: الحرمُ كلُّه؛ لأنَّ المشركين صدُّوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه عنه عامَ الحديبية، فنزل خارجاً عنه؛ قال الله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح:٢٥]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): إذ، وفي (ظ): إذا، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ ، والكلام من بداية هذه المسألة منه.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٩٣ .

(٣) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٠ .

[الإسراء: ١]. وهذا صحيحٌ، لكنه قَصَدَ هنا بالذِّكر المهمَّ المقصودَ من ذلك[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: للصَّلاة والطَّواف والعبادة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦].

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ العاكفُ: المقيم المُلازِمُ. والبادي: أهلُ البادية ومَن يَقْدَم عليهم. يقول: سواءٌ في تعظيم حُرمته وقضاءِ النُّسك فيه الحاضرُ والذي يأتيه من البلاد، فليس أهلُ مكةَ أحقَّ من النازِعِ[٢] إليه.

وقيل: إنَّ المساواة إنَّما هي في دُوره ومنازله، ليس المقيم فيها أَوْلَى من الطارئ عليها. وهذا على أنَّ المسجدَ الحرامَ الحَرَمُ كلُّه؛ وهذا قولُ مجاهدٍ ومالكٍ؛ رواه عنه ابن القاسم[٣].

ورُوِيَ عن عمر وابن عباس وجماعةٍ: إلى أنَّ القادم له النزولُ حيث وُجِد، وعلى ربِّ المنزل أن يؤوِيَه شاء أو أبى. وقال ذلك سفيان الثوريُّ وغيره. وكذلك كان الأمر في الصدر الأوّل، [قال ابن سابط:] كانت دُورُهم بغير أبوابٍ حتى كَثُرت السرقة، فاتَّخذ رجلٌ باباً، فأنكر عليه عمر وقال: أتغلقُ باباً في وجه حاجِّ بيتِ الله؟ فقال: إنَّما أردتُ حِفْظَ متاعِهم من السرقة. فتركه فاتَّخذ الناس الأبواب[٤].

ورويَ عن عمر بن الخطاب ﷺ أيضاً: أنه كان يأمر في الموسم بقَلْع أبواب دُور مكة، حتى يدخلها الذي يَقْدَم فينزل حيث شاء، وكانت الفساطيطُ تُضرب في الدُّور[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٥.

(٢) في (م): النازح.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣، وأخرجه عن مجاهد ابن أبي شيبة ٤/ ٧٩، والطبري ١٦/ ٥٠٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦، وما سلف بين حاصرتين منه، وخبر ابن سابط أخرجه الطبري ١٦/ ٥٠١، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق (٩٢١٠) عن عطاء، وفيه أن أول مَن بوَّب داره هو سهيل بن عمرو.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣، وأخرج الخبر بنحوه عبد الرزاق (٩٢١١).

ورويَ عن مالك أنَّ الدور ليست كالمسجد، ولأهلها الامتناعُ بها[١] والاستبداد؛ وهذا هو العملُ اليوم. وقال بهذا جمهورٌ من الأمة.

وهذا الخلاف يُبْنَى على أصلين: أحدُهما: أنَّ دُورَ مكةَ؛ هل هي مِلكٌ لأربابها أم للناس؟[٢].

وللخلاف سببان: أحدهما: هل فَتْحُ مكة كان عَنْوَةً فتكونَ مغنومةً، لكن النبيّ ﷺ لم يقسمها وأقرَّها لأهلها ولمن جاء بعدهم، كما فعل عمر ﷺ بأرضِ السَّواد، وعفا لهم عن الخَراج كما عفا عن سَبْيِهم واسترقاقهم إحساناً إليهم دون سائر الكفار، فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكرَى، ومَن سَبَقَ إلى موضعٍ كان أولى به. وبهذا قال مالكٌ وأبو حنيفةَ والأوزاعيُّ.

أو كان فتحُها صُلْحاً ـ وإليه ذهب الشافعيُّ ـ فتبقى ديارهم بأيديهم، وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاؤوا. ورويَ عن عمر أنه اشترى دار صَفْوان بنِ أميةَ بأربعة آلافٍ وجعلها سجناً[٣]، وهو أوّلُ مَن حَبَس في السجن في الإسلام، على ما تقدَّم بيانُه في آية المحاربين من سورة المائدة[٤]. وقد رويَ أنَّ النبيَّ ﷺ حَبَس في تُهمة[٥]. وكان طاوسٌ يكره السجن بمكةَ ويقول: لا ينبغي لبيتِ عذابٍ أن يكون في بيت رحمة[٦].

قلت: الصحيح ما قاله مالك، وعليه تدلُّ ظواهرُ الأخبار الثابتة: بأنَّها فُتحت

---

(١) في النسخ: منها، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ ، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣ ، وقال بعده: الثاني ينبني عليه هذا الأصل، وهو أن مكة هل افتتحت عنوة أو صلحاً؟.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٣٠٦ ، والفاكهي في أخبار مكة (٢٠٧٦). وعلقه البخاري قبل الحديث (٢٤٢٣) دون ذكر الثَّمن.

(٤) ٧/ ٤٣٩ .

(٥) سلف ٨/ ٢٦٥ من حديث معاوية بن حَيْدة ﷺ.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ١١٥ .

عَنوة. قال أبو عبيد[١]: ولا نعلم مكةَ يشبهها شيءٌ من البلاد. وروى الدّارقُطْنيُّ[٢] عن علقمة بن نَضْلة قال: توفِّيَ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تُدْعَى رِباعُ مكة إلَّا السوائب؛ مَن احتاج سَكَن، ومَن استغنى أَسْكَن. وزاد في رواية: وعثمان[٣].

ورَوَى أيضاً عن علقمة بن نَضْلة الكنانيِّ قال: كانت تُدعَى بيوتُ مكةَ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوائب، لا تباع؛ مَن احتاج سَكَن، ومَن استغنى أَسْكَن[٤].

ورَوَى أيضاً عن عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى حرَّم مكةَ، فحرامٌ بيعُ رِبَاعِها وأكلُ ثمنها». وقال: «مَن أكلَ من أجرِ بيوت مكة شيئاً فإنما يأكلُ ناراً». قال الدارقطنيُّ: كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً ووَهَم فيه، ووهَم أيضاً في قوله: عبيد الله بن أبي يزيد، وإنما هو ابنُ أبي زياد القدَّاح، والصحيحُ أنه موقوف[٥].

وأسند الدارقطنيُّ أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مكةُ مُناخٌ، لا تُباعُ رِباعُها، ولا تؤاجَر بيوتها»[٦].

---

(١) في الأموال ص٨٢، وسلف قوله ١٠/٩.

(٢) في سننه (٣٠١٩)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣١٠٧). قال الحافظ في الفتح ٣/ ٤٥٠: في إسناده انقطاع وإرسال.

(٣) سنن الدارقطني (٣٠٢٠).

(٤) سنن الدارقطني (٣٠٢١).

(٥) سنن الدارقطني (٣٠١٥)، والحديث عنده من طريق محمد بن الحسن، عن أبي حنيفة، عن عبيد الله ابن أبي يزيد، عن ابن نجيح، عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ. قال ابن القطان في بيان الوهم ٣/ ٥١٩: وقد رواه القاسم بن الحكم عن أبي حنيفة على الصواب، فقال فيه: ابن أبي زياد، فلعل الوهم من صاحبه محمد بن الحسن. اهـ. قلنا: وهو في كتاب الآثار لمحمد بن الحسن (٣٧١) و(٣٧٢)، وفيه: ابن أبي زياد، على الصواب أيضاً. والموقوف أخرجه الدارقطني (٣٠١٦) و(٣٠١٧).

(٦) سنن الدارقطني (٣٠١٩). وفي إسناده إسماعيل بن إبراهيم، قال الدارقطني بإثر الحديث: إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ضعيف، ولم يروه غيره.

وروى أبو داودَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ يا رسول الله: ألَا أبني لك بمنًى بيتاً أو بناءً يُظِلُّك من الشمس؟ فقال: «لا، إنما هو مُناخُ مَن سَبَقَ إليه»[١].

وتمسَّك الشافعيُّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠]، فأضافها إليهم، وقال عليه الصلاة والسلام يومَ الفتح: «مَن أغلق بابه فهو آمنٌ، ومَن دَخَلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن»[٢].

الرابعة: قرأ جمهور الناس: ﴿سواءٌ﴾ بالرفع، وهو على الابتداء، و«العاكفُ» خبرُه. وقيل: الخبر «سواءٌ» وهو مقدَّم؛ أي: العاكفُ فيه والبادي سواءٌ؛ وهو قولُ أبي علي، والمعنى: الذي جعلناه للناس قِبلةً أو متعبَّداً؛ العاكفُ فيه والبادي سواءٌ[٣].

وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب، وهي قراءةُ الأعمش. وذلك يحتمِلُ أيضاً وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً ثانياً لجعل، ويرتفعُ «العاكف» به لأنه مصدر، فأُعمِل عَمَلَ اسمِ الفاعل؛ لأنه في معنى مُسْتوٍ. والوجه الثاني: أن يكون حالاً من الضمير في «جعلناه»[٤].

وقرأت فرقة: «سواءً» بالنصب «العاكفِ» بالخفض عطفاً على الناس[٥]، التقدير:

---

(١) سنن أبي داود (٢٠١٩)، وهو عند أحمد (٢٥٥٤١)، والترمذي (٨٨١)، وابن ماجه (٣٠٠٦). ووقع في مطبوع الترمذي: حسن صحيح، وفي التحفة ١٢/ ٤٣٤ ، ومختصر سنن أبي داود للمنذري ٢/ ٤٣٨ : حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٢٢)، ومسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال ابن سيد الناس في عيون الأثر ٢/ ١٧٠ : فكان هذا أماناً منه لكلِّ مَن لم يقاتل من أهل مكة، ولهذا قال جماعة من أهل العلم - منهم الإمام الشافعي رحمه الله -: إن مكة مؤمنة وليست عنوة، والأمان كالصلح.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ ، وقول أبي علي الفارسي في الحجة ٥/ ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ ، وقراءة حفص عن عاصم في السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٥) وقع في النسخ: العاكف بالخفض والبادي عطفاً على الناس، بزيادة لفظ: «والبادي»، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ (والكلام منه): ويعني بالعطف هنا عطف البيان، كما ذكر السمين في الدر المصون ٨/ ٢٥٩ وقال: وهذا الذي أراد ابن عطية بقوله: عطفاً على الناس.

الذي جعلناه للناس العاكفِ والبادي.

وقراءةُ ابنِ كَثير في الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياء وَوَصَل بالياء. وقرأ نافعٌ بغير ياءٍ في الوصل والوقف.[1] وأجمعَ الناس على الاستواء في نفس المسجد الحرام، واختلفوا في مكةَ، وقد ذكرناه[2].

الخامسة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ شرطٌ، وجوابُه: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. والإلحادُ في اللغة: الميل، إلّا أنَّ الله تعالى بيَّن أنَّ الميل بالظلم هو المراد. واختُلف في الظلم؛ فروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: الشِّرك. وقال عطاء: الشرك والقتل[3].

وقيل: معناه: صَيْدُ حمامِه، وقطعُ شجرِه، ودخولُه غيرَ محرِمٍ[4].

وقال ابن عمر: كنا نتحدَّث أنَّ الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله، وبلى والله، وكلّا والله. ولذلك كان له فسطاطان؛ أحدُهما في الحِلّ، والآخَرُ في الحَرَم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاطَ الحَرَم، وإذا أراد بعضَ شأنه دخل فسطاط الحِلّ، صيانةً للحَرَم عن قولهم: كلّا والله، وبلى والله، حين عظَّم الله الذنبَ فيه[5].

وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان؛ أحدهما في الحِلِّ، والآخَرُ في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهلَه عاتبهم في الحِلّ، وإذا أراد أن يصلِّي صلَّى في الحرم، فقيل له في ذلك، فقال: إن كنَّا لنتحدَّث[6] أنَّ من الإلحاد في الحرم

---

(١) وذلك في رواية قالون عنه، وكذلك قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. وأما قراءة نافع في رواية ورش عنه فهي بحذف الياء وقفاً وإثباتها وصلاً، كقراءة أبي عمرو. السبعة ص٤٣٦ ، والتيسير ص١٥٨ .

(٢) في المسألة الثانية.

(٣) ذكر القولين النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٤ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٦/ ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٤) وهذا قول عطاء، كما ذكر البغوي ٣/ ٢٨٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٤ ، وينظر التعليق التالي.

(٦) في (خ) و(ز): لنحدث، وهو موافق لبعض مصادر التخريج.

أن يقول: كلَّا والله، وبلى والله[١].

والمعاصي تُضاعَفُ بمكةَ كما تُضاعَفُ الحسنات، فتكون المعصيةُ معصيتين؛ إحداهما بنفس المخالفة، والثانية بإسقاط حُرمة البلد الحرام، وهكذا الأشهرُ الحُرُم سواء[٢]. وقد تقدَّم.

وروى أبو داود عن يَعْلَى بن أميةَ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «احتكارُ الطعام في الحَرم إلحادٌ فيه»[٣]. وهو قولُ عمر بن الخطاب[٤]. والعمومُ يأتي على هذا كلِّه.

السادسة: ذهب قومٌ من أهل التأويل ـ منهم الضحاكُ وابنُ زيدٍ ـ إلى أنَّ هذه الآيَةَ تَدلُّ على أنَّ الإنسان يعاقَبُ على ما ينوِيه من المعاصي بمكةَ وإنْ لم يعمله. وقد رُويَ نحوُ ذلك عن ابن مسعود وابن عمر، قالوا: لو همَّ رجلٌ بقتلِ رجلٍ بهذا البيتِ وهو بِعَدَنِ أَبْيَن؛ لَعَذَّبه الله[٥].

---

(١) كذا ذكر المصنف هذين الخبرين عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، والصواب أنه خبر واحد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، فقد قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١١٢ : ما في نسخ الكشاف: ابن عمر، تصحيف، وإنما هو ابن عمرو. وكذلك أخرجه عن ابن عمرو ابن أبي شيبة ٤/ ٢٨٥ (نشرة العمروي)، والأزرقي في تاريخ مكة ٢/ ١٣١ ، والطبري ١٧/ ١٤١ (طبعة الحلبي)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، وذكره ابن كثير مختصراً عند تفسير هذه الآية، جميعهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٥ .

(٣) سنن أبي داود (٢٠٢٠). وينظر التعليق التالي.

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٥٥ من طريق يعلى بن مُنْية عن عمر ﷺ، ويعلى بن منية هو يعلى بن أمية، ومنية أمه، كما ذكر الحافظ في التقريب، وقال: صحابي مشهور، مات سنة بضع وأربعين. وأخرجه أيضاً عن عمر بإسناد آخر الفاكهي في أخبار مكة (١٧٧٧). قال المنذري في مختصر السنن ٢/ ٤٣٨ : يشبه أن يكون البخاري علل المسند بهذا.

(٥) أخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٦/ ٥٠٨ ، وروي عنه مرفوعاً كما في مسند أحمد (٤٠٧١). وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: وَقْفُه أشبهُ من رَفْعِه. وقال الدارقطني في العلل ٥/ ٢٦٩ : يرويه السدي، وقد اختلف عنه، فرفعه شعبة عن السدي، ووقفه الثوري، والقول قول شعبة. اهـ وعدن =

قلت: هذا صحيحٌ، وقد جاء هذا المعنى في سورة «ن والقلمِ» مبيَّناً، على ما يأتي بيانُه هناك إن شاء الله تعالى[١].

السابعة: الباءُ في «بإلحادٍ» زائدةٌ كزيادتها في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وعليه حَمَلوا قولَ الشاعر:

نحن بنو جَعْدةَ أصحابُ[٢] الفَلَجْ نَضربُ بالسيف ونرجو بالفَرَجْ[٣]

أراد: نرجو الفرج. وقال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزقِ عيالِنا أَرْماحُنا[٤]

أي: رِزْقَ. وقال آخر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمي بما لاقَتْ لَبُونُ بني زيادِ[٥]

أي: ما لاقت، والباء زائدة، وهو كثير. وقال الفراء[٦]: سمعتُ أعرابيًا، وسألتُه عن شيء، فقال: أرجو بذاك، أي: أرجو ذاك. وقال الشاعر:

= أبين: مدينة معروفة باليمن، أضيفت إلى أَبْيَنَ، وهو رجل من حِمير عدن بها، أي: أقام. ولم نقف عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) عند تفسير الآيات (١٧ - ١٩) منها.

(٢) في (ظ): أبناء.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦ ، والرجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ برواية: نضرب بالبِيض. وذكره البغدادي في الخزانة ٩/ ٥٢٠ - ٥٢١ وقال: البيض السيوف، وقال ياقوت: الفَلَج مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة وقشير. وينظر معجم البلدان ٤/ ٢٧١ .

(٤) وعجزه: ملءَ المراجل والصريحَ الأجردا، كما في مجاز القرآن ٢/ ٤٩ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥ ، وفيه: بين، بدل: ملء. وذكر صدره ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٥٢٢ ، وهو في ديوان الأعشى ص٢٨١ براوية:

ضَمِنَتْ لنا أعجازُهنَّ قدورَنا وضروعُهنَّ لنا الصريحَ الأجردا

وينظر الاقتضاب ص٤٥٧ .

(٥) البيت لقيس بن زهير، وسلف ١١/ ٤٤٣ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٣ .

بـوادٍ يَـمـانٍ يُـنْـبِـتُ الـشَّـثَّ صَـدْرُه وأسـفـلُـه بـالـمَـرْخِ والـشَّـبَـهـانِ[1]

أي: المَرخ: وهو قول الأخفش؛ والمعنى عنده: ومَن يُرِدْ فيه إلحاداً بظلم[2].

وقال الكوفيون: دخلت الباء لأنَّ المعنى: بأن يلحد، والباء مع «أن» تدخلُ وتُحذف[3]. ويجوز أن يكون التقدير: ومَن يُرِد الناسَ فيه بإلحاد.

وهذا الإلحادُ والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فَلِعِظَمِ حُرمةِ المكان توعَّد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومَن نوى سيئةً ولم يعملها لم يحاسَب عليها إلّا في مكة[4]. هذا قولُ ابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة وغيرِهم، وقد ذكرناه آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: واذكر إذ بوَّأنا لإبراهيم؛ يقال: بوَّأته منزلاً وبوَّأْتُ له، كما يقال: مكَّنتكَ ومكنتُ لك، فاللامُ في قوله: «لإبراهيم» صلةٌ للتأكيد، كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، وهذا قولُ الفراء[5].

وقيل: «بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت» أي: أَرَيْناه أَصْلَه ليَبْنِيَه، وكان قد دَرَس

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٤٩ ، وأدب الكاتب ص٥٢١ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥ ، وجمهرة اللغة ١/ ٤٥ ، و٤/ ٤١٤ ، ونسبه أبو الفرج في الأغاني ٢٢/ ١٤٩ ، والبغدادي في الخزانة ٥/ ٢٧٦ ليعلى الأحول الأزدي، وهو عندهما برواية: ينبت السِّدْر. ونسبه ابن منظور في اللسان (شبه) لرجل من عبد القيس. والشَّثُّ: ضرب من الشجر، والشَّبَهان: ضرب من النَّبْت. قاله ابن دريد. وقال البغدادي: المَرخ: شجر سريع الوَرْي.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٦ .

(٣) الكلام في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٢ بنحوه مطولاً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٣ .

بالطُّوفان وغيره، فلمَّا جاءت مدَّةُ إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنائه، فجاء إلى موضعه، وجعل يطلب أثراً، فبعث الله ريحاً، فكشفت عن أساس آدمَ عليه السلام، فرتَّب قواعده عليه[١]، حَسْبَما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[٢].

وقيل: «بوَّأنا» نازلةٌ منزلةَ فِعْلٍ يتعدَّى باللام؛ كنحو: جعلنا، أي: جعلنا لإبراهيم مكانَ البيت مُبَوَّأً[٣]. وقال الشاعر:

كم من أخٍ لي ماجدٍ بوَّأتُه بيديَّ لَحْداً[٤]

الثانية: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ هي مخاطَبةٌ لإبراهيمَ عليه السلام في قول الجمهور. وقرأ عكرمة: «أنْ لا يُشْرِكَ» بالياء، على نقلِ معنى القولِ الذي قيل له. قال أبو حاتم: ولابدَّ من نصبِ الكاف على هذه القراءة، بمعنى: لأنْ لا يشركَ[٥].

وقيل: إنَّ «أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة. وقيل: مُفَسِّرة. وقيل: زائدة؛ مثل: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف:٩٦].

وفي الآية طعنٌ على مَن أشْرَكَ من قُطَّانِ البيت؛ أي: هذا كان الشرطُ على أبيكم فمَن بَعْدَه، وأنتم لم[٦] تَفُوا، بل أشركتم. وقالت فرقة: الخطابُ من قوله: «أن لا تشرك» لمحمدٍ ﷺ؛ وأُمِر بتطهير البيت والأذانِ بالحجّ. والجمهورُ على أنَّ ذلك لإبراهيم، وهو الأصحّ.

وتطهيرُ البيت عامٌ في الكفر والبِدَع وجميعِ الأنجاس والدماء[٧]. وقيل: عنى به

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

(٢) ٢/ ٣٨٦ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٤، والمحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

(٤) قائله عمرو بن معدي كَرِب، كما في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٧٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٧٩، والخزانة ١١/ ٢١٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، والقراءة في القراءات الشاذة ص٩٥ عن عكرمة وأبي نهيك.

(٦) في النسخ: فلم، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، والكلام منه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

التطهير عن الأوثان، كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]؛ وذلك أنَّ جُرْهُماً والعمالقةَ كانت لهم أصنامٌ في محلِّ البيت وحولَه قبل أن يبنيَه إبراهيم عليه السلام. وقيل: المعنى: نزِّه بيتي عن أن يُعبد فيه صنم، وهذا أمرٌ بإظهار التوحيد فيه. وقد مضى ما للعلماء في تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفايةٌ في «براءة»[1].

والقائمون: هم المصلُّون. وذَكَر تعالى من أركان الصلاة أَعْظَمَها، وهو القيامُ والركوع والسجود.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿وَأَذِّن﴾ بتشديد الذال. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابنُ مُحَيْصِن: «وآذِنْ» بتخفيف الذَّال ومدِّ الألف. ابن عطية: وتصحَّف هذا علَى ابنِ جِنِّي، فإنه حكى عنهما: «وأَذِنَ» على أنه فعلٌ ماضٍ، وأَغْرَبَ على ذلك بأنْ جعله عطفاً على: «بوَّأنا»[2]. والأذانُ: الإعلام، وقد تقدَّم في «براءة»[3].

الثانية: لـمَّا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له: أَذِّنْ في الناس بالحجّ، قال: يا ربِّ! وما يبلغ صوتي؟ قال: أَذِّنْ، وعليَّ الإبلاغُ، فصعِد إبراهيم

---

(١) ١٠/ ١٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ وما قبله منه. وتعقبه السمين في الدر المصون ٨/ ٢٦٤ فقال: ولم يتصحف فعله، بل حكى تلك القراءة أبو الفضل الرازي في اللوامح له عنهما، وذكرها أيضاً ابن خالويه، ولكنه لم يطلع عليها، فنسب مَن اطَّلع إلى التصحيف. قلنا: قراءة «أذن» بالقصر وتخفيف الذَّال هي في المحتسب ٢/ ٧٨، والقراءات الشاذة ص٩٥.

(٣) ١٠/ ١٠٤.

خليلُ الله جبلَ أبي قُبيس وصاح: يا أيها الناس، إنَّ الله قد أمركم بحجِّ هذا البيتِ ليُثِيبَكم به الجنةَ ويُجيركم من عذاب النار، فحُجُّوا، فأجابه مَن كان في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء: لَبَّيْكَ اللَّهُمَ لَبَّيْك. فَمَن أجاب يومئذٍ حجَّ على قَدْرِ الإجابة، إنْ أجاب مرَّةً فمرة، وإن أجاب مرتين فمرتين، وجرت التلبيةُ على ذلك؛ قاله ابن عباس وابن جبير[١].

ورُوي عن أبي الطُّفيل قال: قال لي ابنُ عباس: أتدري ما كان أصلُ التلبية؟ قلت: لا! قال: لمَّا أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن في الناس بالحجّ، خَفَضَت الجبال رؤوسها ورُفعت له القرى، فنادى في الناس بالحجّ، فأجابه كلُّ شيء: لَبَّيْكَ اللَّهُمّ لَبَّيْك[٢].

وقيل: إنَّ الخطاب لإبراهيمَ عليه السلام تمَّ عند قوله: «السجود»، ثم خاطب الله عزَّ وجلَّ محمداً عليه الصلاة والسلام فقال: «وأذِّن في الناس بالحجّ»، أي: أَعْلِمْهم أنَّ عليهم الحجّ.

وقول ثالث: إنَّ الخطاب من قوله: «أن لا تشرك» مخاطبةٌ للنبيِّ. وهذا قولُ أهل النظر؛ لأنَّ القرآن أُنزل على النبيِّ ﷺ، فكلُّ ما فيه من المخاطبة فهي له، إلَّا أنْ يَدلَّ دليلٌ قاطعٌ على غير ذلك، وهاهنا دليلٌ آخَرُ يدلُّ على أنَّ المخاطبة للنبيِّ ﷺ، وهو: «أنْ لا تُشْرِكْ» بالتاء، وهذا مخاطَبةٌ لمشاهِدٍ، وإبراهيم عليه السلام غائبٌ، فالمعنى على هذا: وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيت، فجعلنا لك الدلائلَ على توحيد الله تعالى، وعلى أنَّ إبراهيم كان يعبد الله وحدَه[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ ، دون قوله: فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة ـ إلى قوله ـ فمرتين. وهذه العبارة أخرجها الديلمي بسند واهٍ عن علي رَفَعه، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٤ ، وأخرجها الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٦٦ ضمن خبر مطوَّل عن ابن إسحاق. وينظر خبر ابن عباس ومجاهد وغيرهما في تفسير الطبري ١٦/ ٥١٤ - ٥١٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥ ، وهذه قطعة من خبر مطول أخرجه أحمد (٢٧٠٧).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥ .

وقرأ جمهور الناس: «بالحجّ» بفتح الحاء. وقرأ ابن أبي إسحاقَ في كلِّ القرآن بكسرها[١].

وقيل: إنَّ نداء إبراهيم من جملة ما أُمِر به من شرائع الدين. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وَعَدَه إجابةَ الناس إلى حجّ البيت ما بين راجلٍ وراكب، وإنَّما قال: «يأتوك» وإنْ كانوا يأتون الكعبة؛ لأنَّ المناديَ إبراهيم، فَمَن أتَى الكعبة حاجًّا فكأنه أتَى إبراهيم؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريفُ إبراهيم. ابن عطية: «رجالاً» جمعُ راجلٍ، مثل: تاجِرٍ وتِجَار[٢]، وصاحبٍ وصِحاب. وقيل: الرجال جمع رَجْل، والرَّجْل جمع راجل؛ مثل: تِجَارٍ وتَجْرٍ وتاجِر، وصِحَابٍ وصَحْبٍ وصاحِب. وقد يقال في الجمع: رُجَّال، بالتشديد، مثل: كافِر وكفَّار[٣]. وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة: «رُجَالاً» بضمِّ الراء وتخفيف الجيم، وهو قليلٌ في أبنية الجمع، ورويت عن مجاهد. وقرأ مجاهد: «رُجَالَى» على وزن: فُعَالَى، فهو مثلُ: كسالى[٤].

قال النحاس[٥]: في جَمْعِ راجِلٍ خمسةُ أوْجُهٍ: رُجَّال مثل رُكَّاب، وهو الذي روي عن عكرمة، ورِجَال مثل قِيَام، ورَجْلة، ورَجْل، ورَجَّالة. والذي روي عن مجاهد رُجَالاً غير معروف، والأشبهُ به أن يكون غيرَ منوَّنٍ، مثل كُسالى وسُكارى، ولو نُوِّن لكان على فُعالٍ، وفُعَالٌ في الجمع قليل. وقدَّم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادةِ تعبهم في المشي.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٣) ينظر ما سلف ٤/ ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ - ١١٨ ، والقراءتان في المحتسب ٢/ ٧٩ . والثانية في القراءات الشاذة ص٩٥ عن ابن عباس وعطاء وابن جبير.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨ .

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ لأنَّ معنى «ضامر» معنى ضوامر، قال الفرَّاء: ويجوز: «يأتي» على اللفظ[1]. والضامر: البعير المهزولُ الذي أتعبه السفر؛ يقال: ضَمُرَ يَضْمُر ضُموراً، فوصفها الله تعالى بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة. وذَكَر سبب الضُّمور فقال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: أثَّر فيها طولُ السفر. ورَدَّ الضمير إلى الإبل تكرمةً لها لقصدها الحجّ مع أربابها، كما قال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] في خيلِ الجهاد تكرمةً لها حين سَعَتْ في سبيل الله[2].

الرابعة: قال بعضهم: إنَّما قال: «رجالاً»؛ لأنَّ الغالب خروج الرجال إلى الحجّ دون الإناث، فقوله: «رجالاً» من قولك: هذا رجلٌ. وهذا فيه بعدٌ؛ لقوله: «وعلى كلِّ ضامر» يعني الرُّكْبانَ، فدخل فيه الرجالُ والنساء.

ولمَّا قال تعالى: «رجالاً» وبدأ بهم دلَّ ذلك على أنَّ حجَّ الراجل أفضلُ من حجِّ الراكب. قال ابن عباس: ما آسَى على شيءٍ فاتني إلَّا أنْ لا أكون حججتُ ماشياً، فإنِّي سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾. وقال ابن أبي نجِيح: حجَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيَيْن. وقرأ أصحاب ابن مسعود: «يأتون»، وهي قراءة ابن أبي عَبْلَةَ والضحَّاك، والضميرُ للناس[3].

الخامسة: لا خلافَ في جواز الركوب والمشي، واختلفوا في الأفضل منهما؛ فذهب مالك والشافعيُّ في آخرين إلى أنَّ الركوب أفضل، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ولكثرة النفقة، ولتعظيم شعائر الحج بأُبَّهة[4] الركوب. وذهب غيرهم إلى أنَّ المشيَ أفضلُ؛ لِما فيه من المشقَّة على النفس[5]، ولحديث أبي سعيد قال: حجَّ النبيُّ ﷺ وأصحابُه

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص٩٥ . وأخرج قولي ابن عباس وابن أبي نجيح الطبري ١٦/ ٥١٨ .

(٤) في (م): بأهبة.

(٥) المفهم ٣/ ٣٢٣ .

مشاةً من المدينة إلى مكة، وقال: «ارْبطوا أوساطكم بأُزُرِكم» ومشَى خِلْطَ الهَرْولة. خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[١]. ولا خلافَ في أنَّ الركوبَ في الوقوف بعرفة أفضلُ، واختُلف في الطواف والسعي، والركوبُ[٢] عند مالكٍ في المناسك كلِّها أفضل؛ للاقتداء بالنبيِّ ﷺ.

السادسة: استدلَّ بعضُ العلماء بسقوط ذِكر البحر من هذه الآية على أنَّ فرض الحجّ بالبحر ساقط. قال مالك في «المَوَّازِيَّة»: لا أسمع للبحر ذكراً. وهذا تَأَنُّسٌ، لا أنه يلزم من سقوط ذِكْرِه سقوطُ الفَرْضِ فيه؛ وذلك أنَّ مكة ليست في ضِفَّةِ بحرٍ فيأتيَها الناس في السفن، ولابدَّ لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة[٣] إمَّا راجلاً وإمَّا على ضامر، فإنما ذُكرت حالتا الوصول. وإسقاطُ فرضِ الحج بمجرَّدِ البحر[٤] ليس بالكثير ولا بالقويّ، فأمَّا إذا اقترن به عدوٌّ وخوفٌ، أو هَوْل شديد، أو مرضٌ يَلْحَق شخصاً، فمالكٌ والشافعيُّ وجمهورُ الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار، وأنه ليس بسبيلٍ يستطاع. قال ابن عطية: وذَكَر صاحب «الاستظهار» في هذا المعنى كلاماً، ظاهرُهُ أنَّ الوجوبَ لا يسقط بشيءٍ من هذه الأعذار، وهذا ضعيف.

قلت: وأضعفُ من ضعيفٍ، وقد مضى في «البقرة» بيانه[٥].

والفَجُّ: الطريق الواسعة، والجمع فِجاج. وقد مضى في «الأنبياء»[٦]. والعميقُ معناه: البعيد. وقراءة الجماعة: «يأتِين». وقرأ أصحاب عبد الله: «يأتون»، وهذا

---

(١) برقم (٣١١٩)، وأخرجه أيضاً ابن عدي ٢/ ٨٤٣ . قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ١٥٣ : هذا إسناد ضعيف. وفي شرح السندي لابن ماجه ٢/ ٢٧٠ : وقال الدميري: وهو ضعيف منكر مردود بالأحاديث الصحيحة التي تقدمت أن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا مشاة من المدينة إلى مكة. وقوله: خِلْط الهرولة (بالكسر) قال السندي: أي شيئاً مخلوطاً بالهرولة، بأن يمشي حيناً ويهرول حيناً أو معتدلاً.

(٢) من قوله: في الوقوف بعرفة، إلى هذا الموضع، سقط من (د) و(م)، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٣/ ٣٢٣ ، والكلام منه.

(٣) في (ظ): أن يصير إلى مكة، والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، والكلام منه.

(٤) في (ظ): بمجرد إسقاط ذكر البحر، والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز.

(٥) لم نقف عليه في سورة البقرة، وينظر ٥/ ٢٢١ وما بعدها.

(٦) ص١٩٨ من هذا الجزء .

للركبان، و«يأتِين» للجمال؛ كأنه قال: وعلى إبلٍ ضامرةٍ يأتين ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد؛ ومنه: بئرٌ عميقة، أي: بعيدةُ القعر؛ ومنه:

وقاتِمِ الأعْماقِ خاوِي المُخْتَرقْ[١]

السابعة: واختلفوا في الواصل إلى البيت؛ هل يرفعُ يديه عند رؤيته أم لا؟ فروى أبو داود قال: سُئل جابر بن عبد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقال: ما كنتُ أرى أحداً يفعل هذا إلّا اليهود، وقد حَجَجْنا مع رسول الله ﷺ، فلم نكن نفعله[٢].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تُرفع الأيدي في سبعِ مَوَاطِنَ: افتتاح الصلاة، واستقبال البيت، والصَّفَا والْمَرْوة، والموقفين، والجمرتين»[٣]. وإلى حديث ابن عباس هذا ذهب الثوريُّ وابن المبارك وأحمدُ وإسحاقُ، وضعَّفوا حديث جابر؛ لأنَّ مهاجراً المكيَّ راويه مجهولٌ. وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت. وعن ابن عباس مثلُه[٤].

قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٢، والرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص١٠٤، وبعده: مُشْتَبِهِ الأعلام لَمَّاعِ الخَفَقْ.

(٢) سنن أبي داود (١٨٧٠)، وأخرجه أيضاً النسائي في المجتبى ٥/ ٢١٢ وهو من طريق المهاجر المكي، عن جابر به. والمهاجر المكي هو ابن عكرمة المخزومي، كما ذكر ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/ ٢٨٦، وقال: ولا يعرف حاله، وهناك رجل آخر يقال له مهاجر المكي، وهو ابن القبطية، وهو ثقة.

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٠٧٢). وأخرجه أيضاً البزار (٥١٩) عن ابن عباس وابن عمر. وأخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٩٦ عن ابن عباس موقوفاً. قال ابن القيم في المنار المنيف ص١٣٨: لا يصح رَفْعُه، والصحيح وَقْفُه على ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما. وينظر السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٧٢ - ٧٣، ونصب الراية ١/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٤) معالم السنن ٢/ ١٩١.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ﴾ أي: أذِّن بالحجّ يأتوك رجالاً وركباناً ليشهدوا، أي: ليَحْضُروا. والشُّهود: الحُضور. ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: المناسك، كعرفات والمَشْعَر الحرام. وقيل: المغفرة. وقيل: التجارة. وقيل: هو عموم، أي: ليحضروا منافعَ لهم، أي: ما يُرضي اللهَ تعالى من أمر الدنيا والآخرة؛ قاله مجاهد وعطاء، واختاره ابن العربي[١]؛ فإنه يجمع ذلك كلَّه من نسكٍ وتجارةٍ ومغفرةٍ ومنفعةِ دنيا وأخرى[٢]. ولا خلافَ في أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] التجارة.

الثانية: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ قد مضى في «البقرة» الكلامُ في الأيام المعلومات والمعدودات[٣]. والمرادُ بذكر اسم الله ذِكْرُ التسمية عند الذبح والنحر، مثل قولك: باسم الله والله أكبر، اللهمَّ منك ولك[٤]. ومثل قولك عند الذبح: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢]. وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبيَّن الربُّ أنَّ الواجب الذبحُ على اسم الله، وقد مضى في «الأنعام»[٥].

الثالثة: واختلف العلماء في وقت الذبح يومَ النحر؛ فقال مالك ﷺ: بعد صلاة الإمام وذَبْحِه، إلَّا أن يؤخِّر تأخيراً يتعدَّى فيه، فيسقط الاقتداء به. وراعَى أبو حنيفةَ الفراغَ من الصلاة دون مراعاةِ ذبحِ الإمام[٦]. والشافعيُّ دخولَ وقتِ الصلاة ومقدارَ ما تُوقَع فيه مع الخطبتين، فاعتَبر الوقتَ دون الصلاة. هذه روايةُ المُزَنيِّ عنه، وهو قول

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦٨ وما سيأتي منه، وأخرجه عن مجاهد عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٦، والطبري ١٦/ ٥٢١.

(٢) في أحكام القرآن: وآخرة.

(٣) ٣/ ٣٢٠ و ٣٦٢.

(٤) في (ظ): وإليك.

(٥) ٩/ ١٢ وما بعدها.

(٦) وقع في النسخ: دون ذبح، بدل قوله: دون مراعاة ذبح الإمام، والمثبت من المفهم ٥/ ٣٥٣، والكلام منه.

الطبريّ. وذكر الربيع عن البُوَيْطيِّ قال: قال الشافعيُّ: ولا يَذبح أحدٌ حتى يذبح الإمامُ إلَّا أن يكون ممن لا يذبح، فإذا صلَّى وفرغ من الخطبة حلَّ الذَّبْح. وهذا كقول مالك. وقال أحمد: إذا انصرف الإمام فاذبح. وهو قولُ إبراهيم[١].

وأصحُّ هذه الأقوال قولُ مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ يومَ النحر بالمدينة، فتقدَّم رجالٌ فنحروا، وظنُّوا أنَّ النبيَّ ﷺ قد نحر، فأمر النبيُّ ﷺ مَن كان نحر أن يعيد بنحرٍ آخَر، ولا ينحروا حتى ينحر النبيُّ ﷺ. خرَّجه مسلم[٢]، والترمذيُّ وقال: وفي الباب عن جابرٍ وجُنْدَب وأنس وعُوَيْمر بن أشقر وابن عمر وأبي زيد الأنصاريِّ، وهذا حديثٌ حسنٌ صحيح، والعمل على هذا عند [أكثر] أهل العلم: ألَّا يضحَّى بالمصر حتى يصلِّيَ الإمام[٣].

وقد احتجَّ أبو حنيفة بحديث البَرَاء، وفيه: «ومَن ذبح بعد الصلاة فقد تَمَّ نُسُكُه وأصاب سنَّةَ المسلمين». خرجه مسلم أيضاً. فعلَّق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح [للإمام][٤]، وحديثُ جابر يقيِّده. وكذلك حديثُ البراء أيضاً؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلِّيَ، ثم نرجع فننحر، فَمَن فَعَلَ ذلك فقد أصاب سُنَّتنا» الحديث[٥].

---

(١) التمهيد ٢٣/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) في صحيحه (١٩٦٤)، وهو عند أحمد (١٤١٣٠).

(٣) الحديث الذي أشار إليه المصنف عند الترمذي هو برقم (١٥٠٨)، وهو من حديث البراء، وقال بإثره: وفي الباب عن جابر. . . الخ ولفظ حديث البراء عنده: خطبنا رسول الله ﷺ في يوم نحر فقال: «لا يذبحنَّ أحدكم حتى نصلي» قال: فقام خالي فقال: يا رسول الله، هذا يومٌ اللحمُ فيه مكروه، وإنِّي عجَّلت نسكي لأطعم أهلي وأهل داري أو جيراني، قال: «فأعِدْ ذبحاً آخر»...، ولفظ الحديث، وكلام الترمذي بعده لا يفيد مراد المصنف: في إيراده شاهداً على إيقاف الأمر على ذبح الإمام، وينظر عارضة الأحوذي ٦/ ٣٠٧ . وحديث البراء هذا في الصحيحين، وسترد بعض رواياته.

(٤) المفهم ٥/ ٣٥٣ ، وما بين حاصرتين منه، وحديث البراء عند مسلم (١٩٦١): (٤)، وأخرجه أيضاً البخاري (٥٥٤٦).

(٥) أخرجه أحمد (١٨٤٨١)، والبخاري (٩٥١)، ومسلم (١٩٦١): (٧).

وقال أبو عمر بن عبد البرِّ: لا أعلم خلافاً بين العلماء أنَّ مَن ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحٍّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن ذَبَح قبل الصلاةِ فتلك شاةُ لحمٍ»[(١)].

الرابعة: وأمَّا أهلُ البوادي ومَن لا إمامَ له، فمشهورُ مذهبِ مالكٍ: يتحرَّى وقتَ ذبحِ الإمام، أو أقربِ الأئمة إليه. وقال ربيعةُ وعطاءٌ فيمَن لا إمامَ له: إنْ ذَبَح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويجزيه إنْ ذَبَح بعده. وقال أهلُ الرأي: يجزيهم من بعد الفجر. وهو قولُ ابن المبارك؛ ذكره عنه الترمذيُّ. وتمسَّكوا بقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، فأضاف النَّحر إلى اليوم. وهل اليومُ من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس؟[(٢)] قولان. ولا خلافَ أنه لا يجزي ذبحُ الأضحيَّة قبل طلوع الفجر من يوم النحر.

الخامسة: واختلفوا كم أيامُ النحر؟ فقال مالك: ثلاثة، يومُ النَّحْر ويومان بعده. وبه قال أبو حنيفة والثوريُّ وأحمد بن حنبل، ورويَ ذلك عن أبي هريرة وأنس بن مالك من غير اختلافٍ عنهما. وقال الشافعيُّ: أربعة، يومُ النحر وثلاثةٌ بعده. وبه قال الأوزاعيُّ، ورُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ، وابنِ عباس وابنِ عمر ﷺ، ورُويَ عنهم أيضاً مثلُ قولِ مالكٍ وأحمد. وقيل: هو يومُ النحر خاصةً، وهو العاشرُ من ذي الحجة، ورُوي عن ابن سِيرين. وعن سعيد بن جبير وجابر بن زيد أنَّهما قالا: النحرُ في الأمصار يومٌ واحدٌ، وفي منًى ثلاثةُ أيام. وعن الحسن البصريِّ في ذلك ثلاثُ رواياتٍ: إحداها كما قال مالك، والثانية كما قال الشافعيُّ. والثالثة: إلى آخِرِ يوم من ذي الحجة، فإذا أهلَّ هلالُ المحرَّم فلا أَضْحَى[(٣)].

---

(١) التمهيد ٢٣/ ١٨٢ ، وهذه قطعة من حديث البراء المتقدم، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١): (٤).

(٢) المفهم ٥/ ٣٥٣ ، وقول ابن المبارك في سنن الترمذي إثر الحديث (١٥٠٨).

(٣) الاستذكار ١٥/ ٢٠٠ - ٢٠٢ .

قلت: وهو قولُ سليمانَ بنِ يسار وأبي سلمةَ بنِ عبد الرحمن، ورويا حديثاً مرسَلاً مرفوعاً خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ: الضحايا إلى هلالِ المحرَّم. ولم يصح[١]، ودليلُنا قولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ الآية، وهذا جمعُ قِلَّة، لكن المتيقَّن منه الثلاثة، وما بعد الثلاثةِ غيرُ متيقَّنٍ، فلا يُعمل به[٢].

قال أبو عمر بن عبد البرّ[٣]: أجمع العلماء على أنَّ يومَ النحر يومُ الأضْحَى، وأجمعوا أنْ لا أضحى بعد انسلاخ ذي الحجة، ولا يصح عندي في هذه إلَّا قولان: أحدهما: قولُ مالكٍ والكوفيين، والآخَر: قولُ الشافعيِّ والشاميين؛ وهذان القولان مَرْوِيَّان عن الصحابة، فلا معنى للاشتغال بما خالفهما؛ لأنَّ ما خالفهما لا أصلَ له في السنَّة ولا في قول الصحابة، وما خَرَج عن هذين فمتروكٌ لهما.

وقد رُوي عن قتادةَ قولٌ سادس، وهو أنَّ الأضحى يومُ النحر وستةُ أيامٍ بعده[٤]، وهذا أيضاً خارجٌ عن قول الصحابة، فلا معنى له.

السادسة: واختلفوا في ليالي النَّحْرِ؛ هل تدخلُ مع الأيام فيجوز فيها الذبح، أوْ لا؟ فرويَ عن مالكٍ في المشهور: أنَّها لا تدخل، فلا يجوز الذبح بالليل. وعليه جمهورُ أصحابه[٥] وأصحابِ الرأي[٦]؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ﴾

---

(١) سنن الدارقطني (٤٧٤٢) وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٣٧٧) كلاهما عن أبي سلمة وسليمان بن يسار أنه بلغهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الضحايا إلى آخر الشهر لمن أراد أن يستأني ذلك» لفظ الدارقطني. ووقع في النسخ عدا (ظ): ذي الحجة، بدل: المحرم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لرواية الحديث في مراسيل أبي داود (٣٧٧).

(٢) المفهم ٥/ ٣٥٤.

(٣) في الاستذكار ١٥/ ٢٠٥.

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٩٦، والاستذكار ١٥/ ٢٠٣.

(٥) إكمال المعلم ٦/ ٤٠٢، والمفهم ٥/ ٣٥٤.

(٦) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٨، والذي في تحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندي ٣/ ٨٣، وبدائع الصنائع ٦/ ٣١٢، وحاشية ابن عابدين ٦/ ٣١٦ عن الأحناف جواز الذبح بالليل مع الكراهة. وهذه الكراهة تنزيهية كما في حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٢٠. وسيذكر المصنف القول بالجواز عن أبي حنيفة فيما يأتي نقلاً عن إكمال المعلم والمفهم.

فذَكرَ الأيامَ، وذِكرُ الأيامِ دليلٌ على أنَّ الذبح في الليل لا يجوز.

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ وأبو ثور: الليالي داخلةٌ في الأيام ويجزي الذبحُ فيها. وروي عن مالكٍ وأشهبَ نحوُه، ولأشهبَ تفريقٌ بين الهَدْي والضحِيَّة، فأجاز الهَدْيَ ليلاً، ولم يُجز الضحيَّةَ ليلاً[١].

السابعة: قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ أي: على ذَبْحِ ما رَزَقَهم. ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ والأنعامُ هنا: الإبلُ والبقر والغنم. وبهيمةُ الأنعام هي الأنعام، فهو كقولك: صلاةُ الأولى، ومسجدُ الجامع.

الثامنة: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه الندب عند الجمهور. ويستحبُّ للرجل أن يأكل من هَدْيه وأضحِيَّته وأن يتصدَّق بالأكثر، مع تجويزهم الصدقةَ بالكلِّ وأكلَ الكلِّ[٢]. وشذَّتْ طائفةٌ فأوجبت الأكلَ والإطعام بظاهر الأمر[٣]، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «فكلوا وادَّخروا وتصدَّقوا»[٤]. قال الكِيَا[٥]: قولُه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟﴾ يدلُّ على أنه لا يجوز بيعُ جميعِه، ولا التَّصَدُّقُ بجميعه.

التاسعة: دماءُ الكفارات لا يأكل منها أصحابها. ومشهورُ مذهب مالك ﷺ أنه لا يأكل من ثلاث: جزاء الصيد، ونذر المساكين، وفِدْية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ مَحِلَّه، واجباً كان أو تطوُّعاً. ووافقه على ذلك جماعةٌ من السلف وفقهاءِ الأمصار[٦].

العاشرة: فإنْ أكَل مما مُنع منه؛ فهل يَغْرَمُ قَدْرَ ما أكَلَ، أو يغرمُ هَدْياً كاملاً؟

---

(١) إكمال المعلم ٦/ ٤٠٢، والمفهم ٥/ ٣٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩.

(٣) في (د) و(م): بظاهر الآية، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٥/ ٣٨٠، والكلام منه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٢٤٩)، ومسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ٢٨١.

(٦) المفهم ٣/ ٤٢٦.

قولان في مذهبنا[١]. وبالأول قال ابن الماجِشون[٢]؛ قال ابن العربيّ: وهو الحقُّ، لا شيءَ عليه غيره. وكذلك لو نَذَر هَدْياً للمساكين فيأكل منه بعد أن بلغ مَحِلَّه، لا يَغْرَم إلَّا ما أكل ـ خلافاً للمدوَّنة ـ لأنَّ النحر قد وقع، والتعدِّي إنما هو على اللحم، فيغرم قَدْرَ ما تعدَّى فيه[٣]. وقوله[٤] تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ يدلُّ على وجوب إخراج النذر وإن كان دَماً أو هَدْياً أو غيره، ويدلُّ ذلك على أنَّ النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاءً بالنذر[٥]، وكذلك جزاءُ الصيد وفِديةُ الأذى؛ لأنَّ المطلوب أن يأتيَ به كاملاً من غير نقصِ لحمٍ ولا غيرِه، فإن أكل من ذلك كان عليه هَدْيٌ كامل. والله أعلم.

الحادية عشرة: هل يَغْرَم قيمةَ اللحم، أو يغرمُ طعاماً؟ ففي كتاب محمد عن عبد الملك: أنه يغرم طعاماً. والأولُ أصح؛ لأن الطعام إنما هو في مقابلة الهَدْي كلِّه عند تعذُّره عبادة، وليس حكم التعدِّي حكمَ العبادة[٦].

الثانية عشرة: فإن عَطِب من هذا الهَدْي المضمونِ الذي هو جزاءُ الصيدِ وفِديةُ الأَذَى ونذرُ المساكين شيءٌ قبلَ مَحِلِّه، أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنياء والفقراء ومَن أَحَبّ، ولا يبيع من لحمه ولا جلده ولا من قلائده شيئاً. قال إسماعيل بن إسحاق: لأن الهديَ المضمونَ إذا عَطِب قبل أن يبلغ مَحِلَّه كان عليه بدلُه، ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويُطعم. فإذا عطِب الهدي التطوُّعُ قبل أن يبلغ مَحِلَّه لم يَجُزْ أن يأكل منه ولا يُطعِم؛ لأنه لمَّا لم يكن عليه بدلُه خِيفَ أن يفعل ذلك بالهَدْي وينحر من غير أن يعطَب، فاحتيط على الناس، وبذلك مضى العمل [في هدي التطوُّع إذا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٤٥٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٠ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): قوله، والمثبت من (ظ).

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٨١ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ١٢٨٠ .

عطب في الطريق نَحره صاحبُه وخلَّى بينه وبين الناس][1].

وروى أبو داود عن ناجيةَ الأسلميِّ: أن رسول الله ﷺ بعث معه بهَدْيٍ وقال: «إنْ عَطِبَ منها شيءٌ فانْحره، ثم اصبغ نعلَه في دمه، ثم خلِّ بينه وبين الناس»[2]. وبهذا الحديث قال مالك والشافعيُّ في أحد قوليه، وأحمد وإسحاق وأبو ثَوْر وأصحاب الرأي ومن اتَّبعهم في الهدي التطوع: لا يأكل منها سائقُها شيئاً، ويخلِّي بينها وبين الناس يأكلونها[3].

وفي صحيح مسلم: «ولا تأكل منها أنت ولا أحدٌ من أهل رفقتك»[4]. وبظاهِرِ هذا النهي قال ابن عباس والشافعيُّ في قوله الآخر، واختاره ابن المنذر، فقالا: لا يأكل منها [سائقها] ولا أحد من أهل رفقته[5].

وقال أبو عمر[6]: قولُه عليه الصلاة والسلام: «ولا[7] أحدٌ من أهل رفقتك» لا يوجد إلَّا في حديثِ ابنِ عباس. وليس ذلك في حديث هشام بنِ عروة، عن أبيه، عن

(١) التمهيد ٢٢/٢٦٦ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سنن أبي داود (١٧٦٢)، وهو عند أحمد (١٨٩٤٣)، والترمذي (٩١٠)، وابن ماجه (٣١٠٦). قال الترمذي: حديث ناجية حديث حسن صحيح. وقوله: «ثم اصبغ نعله في دمه» يعني به النعل الذي قلَّدها به، والتقليد أن يعلَّق في عنق البُدْن نعلٌ ليُعرف أنه هدي. التمهيد ٢٢/ ٢٦٤ .

(٣) المفهم ٣/ ٤٢٦ ، دون قوله عن الشافعي: في أحد قوليه.

(٤) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند مسلم (١٣٢٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨٦٩).

(٥) المفهم ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٦ ، وما بين حاصرتين منه، وليس فيه: والشافعي في قوله الآخر. قال النووي في المجموع ٨/ ٢٨٣ : وهل يجوز للفقراء من رفقة صاحب الهدي الأكل منه؟ فيه وجهان مشهوران أصحهما: لا يجوز، وهو المنصوص للشافعي، وصححه الأصحاب للحديث. ثم ذكر في الرفقة وجهين؛ أحدهما: أنهم الذين يخالطونه في الأكل وغيره دون القافلة. والثاني: جميع القافلة؛ قال: وهو أصحهما، وهو الذي يقتضيه ظاهر الأحاديث.

(٦) في التمهيد ٢٢/ ٢٧٦ ، وبنحوه في الاستذكار ١٢/ ٢٨٠ .

(٧) قبلها في (ز) و(م): ولا تأكل منها، وفي (خ): ولا يأكل منها أحد، وسقط هذا الموضع من (د) و(ظ)، والمثبت من التمهيد والاستذكار.

ناجيةَ. وهو عندنا أصحُّ من حديث ابن عباس، وعليه العملُ عند الفقهاء. ويدخل في قوله عليه الصلاة والسلام: «خلِّ بينها وبين الناس» أهلُ رفقته وغيرُهم.

وقال الشافعيُّ وأبو ثور: ما كان من الهَدْي أصلُه واجباً فلا يأكل منه، وما كان تطوُّعاً ونسكاً أَكَلَ منه وأهدى وادَّخر وتصدَّق. والمتعةُ والقِران عنده نسكٌ. ونحوُه مذهبُ الأوزاعيّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يأكل من هَدْي المتعة والتطوُّع، ولا يأكل ممَّا سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام. وحُكي عن مالك: لا يأكل من دم الفساد. وعلى قياسِ هذا: لا يأكل من دم الجبر، كقول الشافعيِّ والأوزاعيّ[(١)].

تمسَّك مالك بأنَّ جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال في فِدْية الأذى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وقال ﷺ لكعب بن عُجْرةَ: «أَطْعِمْ ستةَ مساكين مُدَّيْن لكلِّ مسكينٍ، أو صُمْ ثلاثةَ أيامٍ، أو انْسُكْ شاة»[(٢)]. ونَذْرُ المساكين مصرَّحٌ به، وأمَّا غيرُ ذلك من الهدايا فهو باقٍ على أصلِ قوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ [الحج: ٣٦]. وقد أكل النبيُّ ﷺ وعليٌّ ﷺ من الهدي الذي جاء به، وشَرِبا من مَرَقِه، وكان عليه الصلاة والسلام قارِناً في أصح الأقوال والروايات، فكان هَدْيُه على هذا واجباً، فما تعلَّق به أبو حنيفةَ غيرُ صحيح[(٣)]. والله أعلم.

وإنَّما أَذِنَ الله سبحانه في الأكل من الهدايا لأجْلِ أنَّ العرب كانت لا ترى أنْ تأكلَ من نُسكها، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ بمخالفتهم؛ فلا جَرَم كذلك شَرَع وبلَّغ، وكذلك فَعَلَ حين أَهدى وأَحْرَمَ ﷺ[(٤)].

---

(١) المفهم ٣/ ٤٢٦ ، وقوله: دم الجَبْر (أو الجُبْران، كما وقع في ظ): هو ما يَجْبُرُ الخلل الواقع في الحج.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ ، وسلف حديث كعب بن عجرة ٣/ ٢٩٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ ، والحديث أخرجه مطولاً أحمد (١٤٤٤٠)، ومسلم (١٢١٨) من حديث جابر ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ .

الثالثة عشرة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ناسخٌ لفِعْلِهم؛ لأنهم كانوا يحرِّمون لحومَ الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها ـ كما قلناه في الهدايا ـ فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾، وبقول النبيِّ ﷺ: «مَن ضحَّى فلْيأكل من أضحيَّته» ولأنه عليه الصلاة والسلام أكل من أضحيَّته وهَدْيِه. وقال الزُّهريُّ: من السُّنة أن تأكل أوّلاً من الكبِد[1].

الرابعة عشرة: ذهب أكثر العلماء إلى أنه يُستحبُّ أن يتصدَّق بالثلث، ويُطعِم الثلث، ويأكل هو وأهلُه الثلث[2]. وقال ابن القاسم عن مالك: ليس عندنا في الضحايا قَسْمٌ معلومٌ موصوف. قال مالك في حديثه: وبلغني عن ابن مسعود [شيءٌ]، وليس عليه العمل [عندنا]. رَوى الصحيح وأبو داود قال: ضحَّى رسول الله ﷺ بشاةٍ ثم قال: «يا ثَوْبانُ، أَصْلِحْ لحمَ هذه الشاة» قال: فما زلت أُطعمه منها حتى قَدِمَ المدينة. وهذا نصٌّ في الغَرَض[3]. واختلف قول الشافعيِّ؛ فمرةً قال: يأكل النصفَ ويتصدَّق بالنصف؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فذكر شخصين. وقال مرةً: يأكل ثلثاً، ويُهدي ثلثاً، ويُطعم ثُلُثاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فذكَر ثلاثة[4].

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١١ - ٥١٢ ، وقوله ﷺ: «من ضحى فليأكل من أضحيته» أخرجه أحمد (٩٠٧٨) من طريق عطاء عن أبي هريرة ـ ﷺ ـ مرفوعاً، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال الحافظ في التقريب: صدوق سيئ الحفظ جدًّا. وذكره ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٤٢ من طريق عطاء عن النبي ﷺ مرسلاً، وقال: قال أبي: هذا الصحيح.

وأخرجه الطبراني (١٢٧١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥ : وفيه عبد الله بن خراش، وثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ، وضعَّفه الجمهور.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، ووقع فيه: في المسألة، بدل: في الغرض. وحديث ثوبان عند مسلم (١٩٧٥)، وأبي داود (٢٨١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٢٣٩١).

(٤) التنبيه للشيرازي ص٨١ ، والمجموع للنووي ٨/ ٣٢٩ ، والأول هو قول الشافعي في القديم، والثاني قوله في الجديد.

الخامسة عشرة: المسافرُ مُخاطَبٌ بالأضحيَّة كما يخاطب بها الحاضر؛ إذ الأصلُ عمومُ الخطاب بها، وهو قولُ كافَّةِ العلماء. وخالف في ذلك أبو حنيفة والنَّخَعيُّ، وروي عن عليٍّ؛ والحديث حجة عليهم. واستثنى مالكٌ من المسافرين الحاجَّ بمنًى، فلم ير عليه أضحيةً، وبه قال النَّخَعيُّ. وروي ذلك عن الخليفتين أبي بكر وعمر وجماعةٍ من السَّلَف ﷺ؛ لأنَّ الحاجَّ إنما هو مخاطبٌ في الأصل بالهَدْي، فإذا أراد أن يضحِّي جعله هدياً، والناسُ غيرُ الحاجِّ إنما أُمروا بالأضحية ليتشبَّهوا بأهل منًى، فيحصل لهم حظٌّ من أجرهم[1].

السادسة عشرة: اختلف العلماء في الإدِّخار على أربعة أقوال. رُوي عن عليٍّ وابنِ عمر رضي الله عنهما من وجهٍ صحيح أنه لا يُدَّخر من الضحايا بعد ثلاثٍ. وروياه عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي[2].

وقالت جماعة: ما رُوي من النهي عن الادِّخار منسوخٌ، فيدَّخر إلى أيِّ وقتٍ أحبَّ. وبه قال أبو سعيد الخُدْريُّ و بُريدةُ الأَسْلميُّ[3].

وقالت فرقةٌ: يجوز الأكلُ منها مطلقاً.

وقالت طائفة: إن كانت بالناس حاجةٌ إليها فلا يدَّخر؛ لأنَّ النهي إنَّما كان لعلةٍ، وهي قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّما نهيتُكم من أجل الدَّافَّة التي دفَّت». ولمَّا ارتفعَتْ ارتفع المنعُ المتقدِّمُ لارتفاع مُوجِبه، لا لأنه منسوخ[4]. وتنشأ هنا مسألةٌ أصوليةٌ، وهي:

(١) المفهم ٥/ ٣٨١.

(٢) في المسألة الثامنة عشرة.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٤ - ٥١٥.

(٤) المفهم ٥/ ٣٧٨، والحديث أخرجه أحمد (٢٤٢٤٩)، ومسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الثامنة. وقوله «الدافَّة»: هم قوم قدموا المدينة في ذلك الوقت مساكينُ أراد رسول الله ﷺ أن يحسن إليهم أهل المدينة ويتصدقوا عليهم. الاستذكار ١٥/ ١٧٠.

السابعة عشرة: وهي الفرقُ بين رَفْعِ الحُكْمِ بالنَّسْخِ، ورَفْعِه لارتفاع علَّتِه. اعلم أنَّ المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبداً، والمرفوع لارتفاع علَّته يعود الحكم لعَوْدِ العلة؛ فلو قَدِمَ على أهل بلدةٍ ناسٌ محتاجون في زمانِ الأَضْحى؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سَعةٌ يسدُّون بها فاقتهم إلَّا الضحايا، لَتَعيَّن عليهم ألَّا يدَّخروها فوق ثلاثٍ، كما فعل النبيُّ ﷺ[1].

الثامنة عشرة: الأحاديثُ الواردةُ في هذا الباب بالمنع والإباحة صِحاحٌ ثابتة. وقد جاء المنعُ والإباحةُ معاً، كما هو منصوصٌ في حديث عائشةَ وسَلَمةَ بنِ الأكْوَع وأبي سعيد الخُدْريِّ، رواها الصحيح[2].

ورَوَى الصحيح عن أبي عبيدٍ مَوْلَى ابنِ أَزْهَرَ أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب، قال: ثم صلَّيتُ العيد مع عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: فصلَّى لنا قبل الخطبة، ثم خطب الناس فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد نهاكم أن تأكلوا لحومَ نُسُككم فوق ثلاثِ ليالٍ فلا تأكلوها[3].

ورَوَى عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ نَهى أن تؤكل لحومُ الأضاحي بعد[4] ثلاث. قال سالم: فكان ابن عمر لا يأكل لحومَ الأضاحي فوق ثلاث[5].

وروى أبو داود عن نُبيشةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاثٍ لكي تَسَعَكم، جاء الله بالسَّعة، فكُلوا وادَّخروا وائتجروا، ألا إنَّ هذه

---

(١) المفهم ٥/ ٣٧٩.

(٢) حديث عائشة في صحيح البخاري (٥٤٢٣)، وصحيح مسلم (١٩٧١)، وهو عند أحمد (٢٤٢٤٩) و(٢٤٩٦٢)، وسلف في المسألة الثامنة، والمسألة السادسة عشرة. وحديث سلمة في صحيح البخاري (٥٥٦٩)، وصحيح مسلم (١٩٧٤). وحديث أبي سعيد الخدري في صحيح البخاري (٣٩٩٧)، وصحيح مسلم (١٩٧٣)، وهو عند أحمد (١١١٧٦) و(١١٨١١).

(٣) صحيح البخاري (٥٥٧٣)، وصحيح مسلم (١٩٦٩): (٢٥)، وهو عند أحمد (٥٨٧).

(٤) في (ظ) و(م): فوق.

(٥) صحيح مسلم (١٩٧٠): (٢٧).

الأيامَ أيامُ أكلٍ وشرب وذكرٍ لِله عزَّ وجلَّ»[١].

قال أبو جعفر النحاس: وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في هذا، حتى تتَّفق الأحاديثُ ولا تتضادَّ، ويكون قولُ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ وعثمانُ محصورٌ ـ لأنَّ الناس كانوا في شدَّةٍ محتاجين، ففعل كما فعل رسول الله ﷺ حين قدمت الدافَّة. والدليلُ على هذا ما حدَّثنا إبراهيم بن شريك قال: حدَّثنا أحمد قال: حدَّثنا ليث قال: حدَّثني الحارث بن يعقوب، عن يزيد بن أبي يزيد، عن امرأته؛ أنها سألت عائشةَ رضي الله عنها عن لحوم الأضاحي فقالت: قَدِمَ علينا عليّ بنُ أبي طالب من سفرٍ فقدَّمنا إليه منه، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله ﷺ، فسأله، فقال: «كُلْ من ذي الحجة إلى ذي الحجة»[٢].

وقال الشافعيُّ: مَن قال بالنهي عن الادِّخار بعد ثلاثٍ لم يسمع الرخصةَ. ومَن قال بالرخصةِ مطلقاً لم يسمع النهيَ عن الادِّخار. ومَن قال بالنهي والرخصة سمعهما جميعاً، فعمِل بمقتضاهما. والله أعلم. وسيأتي في سورة الكوثر الاختلافُ في وجوب الأضحيَّة وندبيَّتها، وأنها ناسخةٌ لكلِّ ذبحٍ تقدَّم[٣]، إن شاء الله تعالى.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ «الفقير» من صفة البائس، وهو الذي ناله البؤسُ وشدَّةُ الفقر؛ يقال: بَئِس يَبْأس بأساً: إذا افْتقَر، فهو بائس. وقد يُستعمل فيمَن نزلت به نازلةُ دهرٍ وإن لم تكن فَقْراً[٤]؛ ومنه قوله عليه

(١) سنن أبي داود (٢٨١٣)، وهو عند أحمد (٢٠٧٢٣). قوله: وائتجروا ـ بهمزة قطع ـ قال ابن الأثير في النهاية (أجر): أي: تصدَّقوا طالبين الأجر بذلك، ولا يجوز فيه «اتَّجروا» بالإدغام؛ لأن الهمزة لا تدغم في التاء، وإنما هو من الأجر لا من التجارة.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٦، وهو عند أحمد (٢٥٢١٨) و(٢٦٤١٥).

(٣) لم يذكر المصنف في سورة الكوثر شيئاً عن الأضحية، وإنما أعاد الكلام فيها إلى سورة الحج، وسورة الصافات، وقد تكلم عنها بشكل مفصل في الآية (١٠٧) من «الصافات». وسلف ذكر نسخ الأضحية لكل ذبح تقدم ٦/ ٢١٥.

(٤) في (د) و(ز) و(م): وإن لم يكن فقيراً، والمثبت من (خ) و(ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١١٩، والكلام منه.

الصلاة والسلام: «لكنِ البائسُ سعد بنُ خَوْلة»[١]. ويقال: رجل بَئيسٌ، أي: شديد. وقد بَؤُسَ يبْؤس بأساً: إذا اشتدَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥] أي: شديد.

وكلَّما كان التصدُّقُ بلحم الأضحيَّة أكثرَ؛ كان الأجر أوْفرَ. وفي القَدْر الذي يجوز أكلُه خلافٌ قد ذكرناه[٢]؛ فقيل: النصف؛ لقوله: ﴿فَكُلُوا۟﴾ ﴿وَأَطْعِمُوا۟﴾. وقيل: الثلثان؛ لقوله: «فكُلُوا وادَّخِروا وائتجروا»[٣] أي: اطلبوا الأجر بالإطعام.

واختلف في الأكل والإطعام؛ فقيل: واجبان. وقيل: مُسْتحبَّان. وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام؛ فالأكلُ مستحبٌّ والإطعامُ واجبٌ، وهو قولُ الشافعيِّ[٤].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج، كالحَلْق ورَمْي الجمار وإزالةِ شَعَثٍ ونحوِه. قال ابن عرفة: أي: ليزيلوا عنهم أدرانهم. وقال الأزهريّ[٥]: التَّفَثُ: الأخذُ من الشارب، وقصُّ الأظفار، ونَتْفُ الإبِطِ، وحَلْقُ العانة، وهذا عند الخروج من الإحرام.

وقال النَّضر بن شُميل: التَّفَثُ في كلام العرب: إذهابُ الشَّعَث[٦].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٥٢٤)، والبخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، وقد رثى رسول الله ﷺ لسعد بن خولة أن مات بمكة كما جاء في تتمة الحديث، وينظر ما سلف ٤/ ١٢٨ .

(٢) في المسألة الرابعة عشرة.

(٣) سلف في المسألة السابقة من حديث نبيشة ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ .

(٥) في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٦ ، وقد ذكره الأزهري عن الزجاج، وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤ .

(٦) الشعث: أن يغبرَّ الشعر وينتتف لبعد عهده بالتعهُّد من المشط والدهن. الفائق ٣/ ٢٨ . وقال الأزهري: لم يفسر أحد من اللغويين التفث كما فسره ابن شميل؛ جعل التفث التشعُّثَ وجعل قضاءه إذهاب الشعث بالحلق والتقليم وما أشبهه.

وسمعتُ الأزهريَّ يقول: التفثُ في كلام العرب لا يُعرف إلَّا من قولِ ابن عباسٍ وأهلِ التفسير[١].

وقال الحسن: هو إزالةُ قَشَفِ الإحرام. وقيل: التَّفَثُ مناسكُ الحجِّ كلُّها؛ رواه ابن عمر وابن عباس. قال ابن العربيِّ[٢]: لو صحَّ عنهما لكان حجةً؛ لشرف الصُّحبة والإحاطةِ باللغة، قال: وهذه اللفظةُ غريبةٌ [عَرَبيةٌ] لم يجد أهل العربية[٣] فيها شعراً ولا أحاطوا بها خبراً، لكنِّي تَتبَّعْتُ التَّفَثَ لغةً فرأيتُ أبا عبيدةَ مَعْمر بنَ المُثَنَّى قال: إنه قصُّ الأظفار، وأخذُ الشارب، وكلُّ ما يَحْرُم على المحرِمِ إلَّا النكاح. قال[٤]: ولم يَجِئ فيه بشعرٍ[٥] يُحتجُّ به. وقال صاحب العين: التفثُ: هو الرميُ، والحَلْقُ، والتقصيرُ، والذبحُ، وقصُّ الأظفار والشارب، ونتفُ الإبط. وذكر الزجَّاج والفرَّاء[٦] نحوه، ولا أراه أخذوه إلَّا من قول العلماء. وقال قُطْرُب: تفثَ الرجلُ: إذا كَثُر وَسَخُه. قال أميّة بن أبي الصَّلْت:

حَفُّوا رؤوسَهمُ لم يحلِقوا تَفَثاً ... ولم يَسُلُّوا لهم قَمْلاً وصِئبانا

وما أشار إليه قُطْرب هو الذي قاله ابن وهب عن مالك[٧]، وهو الصحيحُ في

---

(١) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٦، وقد نقله الأزهري عن الزجاج. ولعل القائل: سمعت الأزهري، هو أبو عبيد الهروي صاحب الغريبين.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٧٠ - ١٢٧١، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه، وقول ابن عباس وابن عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٨٤ - ٨٥، والطبري ١٦/ ٥٢٦ وقوله: القشف، أي: قذر الجلد، ورثاثة الهيئة. القاموس (قشف).

(٣) في أحكام القرآن: أهل المعرفة.

(٤) هو ابن العربي، وكلام أبي عبيدة بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٥٠.

(٥) في النسخ عدا (خ): شعر، والمثبت من (خ) وأحكام القرآن لابن العربي.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤، وللفراء ٢/ ٢٢٤.

(٧) وقول ابن وهب عن مالك كما ذكره ابن العربي: التفث: حلق الشعر، ولبس الثياب، وما أتبع ذلك مما يحل به المحرم.

التَّفَث. وهذه صورةُ قضاء[١] التفثِ لغةً، وأمَّا حقيقتُه الشرعيةُ، فإذا نحر الحاجُّ أو المُعْتَمِر هَدْيَه، وحلق رأسه، وأزال وسخه، وتطهَّر وتنقَّى ولبس، فقد أزال تَفَثه ووفَّى نَذْرَه، والنذرُ ما لزم الإنسان والتزمه.

قلت: ما حكاه عن قُطْرب وذكر من الشعر قد ذكره في تفسيره الماورديُّ، وذكر بيتاً آخر فقال:

قَضَوْا تَفَثاً ونَحْباً ثم ساروا إلى نَجْدٍ وما انتظروا عليّا[٢]

وقال الثعلبيُّ: وأصلُ التَّفَث في اللغة: الوسخ؛ تقول العرب للرجل تستقذرُه: ما أتفثك! أي: ما أَوْسخك وأقذرك! قال أميةُ بن أبي الصلت:

شاحين[٣] آباطهم لم يقذفوا تَفَثاً وينزعوا عنهم قَمْلاً وصِئبانا[٤]

الماورديّ[٥]: قيل لبعض الصلحاء: ما المعْنيُّ في شَعَث المُحْرِم؟ قال: ليشهدَ الله تعالى منك الإعراضَ عن العناية بنفسك، فيعلم صِدْقَكَ في بَذْلها لطاعته.

الحادية والعشرون: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أمرٌ[٦] بوفاء النذر مطلقاً، إلَّا ما كان معصيةً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا وفاءَ لنذرٍ في معصية الله»[٧]، وقولِه: «مَن نذر أن يطيع الله فليُطِعْه، ومَن نذر أن يَعْصِيَه فلا يَعْصِه»[٨].

---

(١) في (خ): إلغاء، وفي (م): إلقاء، ولم تجود في (د)، وليست في (ز) و(ظ)، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): ساحين، وفي (ظ) و(م): ساخين، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) ذكره الجاحظ في الحيوان ٥/ ٣٧٦ برواية:

شاحين آباطهم لم ينزعوا تفثاً ولم يسلُّوا لهم قملاً وصئبانا

وكذا ذكره الزمخشري في الفائق ٣/ ٢٨، إلا أنه قال: لم يقربوا تفثاً، وهما روايتان كما ذكر الجاحظ.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٢٠.

(٦) في (د) و(م): أُمروا.

(٧) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٨٦٣)، ومسلم (١٦٤١) عن عمران بن حصين ﷺ.

(٨) أخرجه أحمد (٢٤٠٧٥)، والبخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الطَّوافُ المذكور في هذه الآية هو طوافُ الإفاضة الذي هو من واجبات الحج. قال الطبريُّ[1]: لا خلافَ بين المتأوِّلين في ذلك.

الثانية والعشرون: للحجِّ ثلاثةُ أطوافٍ: طوافُ القُدوم، وطوافُ الإفاضة، وطوافُ الوَداع. قال إسماعيل بن إسحاق: طوافُ القدوم سُنَّةٌ، وهو ساقطٌ عن المراهق وعن المكيِّ وعن كلِّ مَن يُحرِم بالحجِّ من مكة. قال: والطوافُ الواجبُ الذي لا يسقط بوجهٍ من الوجوه، هو طوافُ الإفاضة الذي يكون بعد عَرَفة؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. قال: فهذا هو الطوافُ المفترض في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي يَحِلُّ به الحاجُّ من إحرامه كلِّه.

قال الحافظ أبو عمر[2]: ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قولُ مالكٍ عند أهل المدينة، وهي روايةُ ابن وهبٍ وابنِ نافع وأشهبَ عنه. وهو قولُ جمهور أهل العلم من فقهاء أهل الحجاز والعراق. وقد روى ابن القاسم وابن عبد الحكم عن مالك: أنَّ طوافَ القدوم واجبٌ [وطوافَ الإفاضة واجبٌ]. وقال ابن القاسم في غير موضعٍ من «المدوَّنة» ورواه أيضاً عن مالك: الطوافُ الواجبُ طوافُ القادم مكة. وقال: مَن نَسِيَ الطَّوافَ في حين دخوله مكةَ، أو نَسِيَ شوطاً منه، أو نَسِيَ السَّعْي أو شوطاً منه، حتى رجع إلى بلده ثم ذكره، فإنْ لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوفَ بالبيت ويركعَ ويسعى بين الصفا والمروة، ثم يُهْدِي. وإن أصاب النساء رجع فطاف وسَعَى، ثم اعتمر وأهدى. وهذا كقوله فيمَن نَسِيَ طواف الإفاضة سواء. فعلى هذه الرواية الطوافان جميعاً واجبان، والسَّعْيُ أيضاً.

وأمّا طواف الصَّدَر؛ وهو المسمَّى بطواف الوداع: فروى ابن القاسم وغيره عن

---

(١) في التفسير ١٦/ ٥٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٩، وما قبله منه.

(٢) في الكافي ١/ ٣٦٠، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

مالك فيمَن طاف طوافَ الإفاضةِ على غير وضوء: أنه يرجع من بلده فيُفيضُ، إلَّا أن يكون تطوَّعَ بعد ذلك. وهذا مما أجمعَ عليه مالكٌ وأصحابه، وأنه يَجزيه تطوُّعُه عن الواجب المفترَضِ عليه من طوافه[١]. وكذلك أجمعوا أنَّ مَن فَعَل في حجه شيئاً تطوَّع به من عمل الحجّ، وذلك الشي واجبٌ في الحج قد جاز وقته، فإنَّ تطوُّعَه ذلك يصير للواجب لا للتطوُّع، بخلاف الصلاة. فإذا كان التطوُّع ينوب عن الفرض في الحجّ، كان الطوافُ لدخول مكة أحْرَى أن ينوب عن طواف الإفاضة، إلا أنَّ إسماعيل وغيره ـ وهو مذهبُ ابن القاسم ـ لا ينوبُ عندهم عن طواف الإفاضة[٢] إلَّا ما كان من الطواف بعد رَمْي جمرة العَقَبة يومَ النحر أو بعده للوداع. وروايةُ ابن عبد الحكم عن مالكٍ بخلاف ذلك؛ لأن فيها أنَّ طواف الدخول مع السَّعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهَدْي، كما ينوب طوافُ الإفاضة مع السَّعي لمن لم يَطُف ولم يَسْعَ حين دخوله مكة ـ مع الهدي أيضاً ـ عن طواف القدوم. ومَن قال هذا قال: إنما قيل لطواف الدخول: واجبٌ، ولطواف الإفاضة: واجب؛ لأنَّ بعضهما ينوب عن بعض، ولأنه قد رُويَ عن مالك أنه يرجع مَن نَسِيَ أحدهما من بلده على ما ذكرنا، ولأن الله عزَّ وجلَّ لم يفترض على الحاجِّ إلا طوافاً واحداً بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾، وقال في سياق الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ والواوُ عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبةً إلَّا بتوقيف.

وأسند الطبريُّ عن عمرو بن أبي سلمة قال: سألت زهيراً عن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طوافُ الوداع[٣]. وهذا يدلُّ على أنه واجب، وهو أحدُ قولي الشافعيّ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام رخَّص للحائض أن تَنْفِر دون أن

(١) يعني أن من نَسِيَ طواف الإفاضة، أو طافَه على غير وضوء، ثم تطوعَ بعده بطواف طافَه قبل خروجه من مكة، فإنه ـ عند مالك وأصحابه ـ يجزيه تطوعُه عن الواجب المفترض عليه من طوافه. الكافي ٢/ ٣٦٢ .

(٢) من قوله: إلا أن إسماعيل وغيره، إلى هذا الموضع سقط من (م).

(٣) في تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٢ ، وزهير هو ابن محمد التميمي.

تطوفه، ولا يرخَّص إلَّا في الواجب.

الثالثة والعشرون: اختلف المتأوِّلون في وجه صفة البيت بالعتيق، فقال مجاهد والحسن: العتيق: القديم. يقال: سيفٌ عتيق، وقد عَتُق، أي: قَدُم؛ وهذا قولٌ يَعْضُده النظر[1]؛ وفي الصحيح: «أنه أوّلُ مسجدٍ وُضع في الأرض»[2].

وقيل: سمي عتيقاً لأنَّ الله أعتقه من أن يتسلَّط عليه جبَّارٌ بالهوان إلى انقضاء الزمان؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد[3]. وفي الترمذيِّ عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما سُمِّيَ البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبَّار». قال: هذا حديثٌ حسن غريب، وقد رويَ عن النبيِّ ﷺ مرسلاً[4].

فإن ذكر ذاكرٌ الحجَّاجَ بن يوسف ونَصْبَه المَنْجَنِيق على الكعبة حتى كسرها. قيل له: إنَّما أعتقها عن كفارِ الجبابرة؛ لأنهم إذا أتَوْا بأنفسهم[5] متمردين، ولحرمة البيت غيرَ معتقدين، وقصدوا الكعبة بالسوء، فعُصِمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالةً على أنَّ الله عزَّ وجلَّ صرفهم عنها قسراً. فأمَّا المسلمون الذين اعتقدوا حُرمتها فإنهم إن كُفُّوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كفِّ الأعداء، فقَصَر الله تعالى هذه الطائفة على[6] الكفِّ بالنَّهي والوعيد، ولم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ .

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٦)، وصحيح مسلم (٥٢٠)، وأخرجه أحمد (٢١٣٣٣)، وهو من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٢٩ - ٥٣٠ ، وقول ابن الزبير أخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٧ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٧٠) وأخرجه أيضاً البزار في مسنده (٢٢١٥)، وقد أخرج الترمذي المرسل من طريق الزهري عن النبي ﷺ ولم يذكر لفظه.

ووقع في (م) ومطبوع الترمذي: حسن صحيح، والمثبت من النسخ الخطية، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية، وتحفة الأحوذي، وذكر المزي في تحفة الأشراف ٤/ ٣٢٩ المرفوع والمرسل عن الترمذي، ولم يذكر شيئاً من كلام الترمذي. وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا عن ابن الزبير عنه، ولا نعلم له طريقاً عن ابن الزبير إلا هذا الطريق. وقال المناوي في فيض القدير ٢/ ٥٧٥ : فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ضعفه الأئمة، وبقية رجاله ثقات.

(٥) في (ظ): إذا أتوا الكعبة.

(٦) في (ز) و(م): عن.

يتجاوزه إلى الصَّرْفِ بالإلجاء والاضطرار، وجعل الساعةَ موعدَهم، والساعةُ أدْهَى وأَمَرّ.

وقالت طائفة: سُمِّيَ عتيقاً لأنه لم يُمْلَك موضعُه قطُّ. وقالت فرقة: سمِّي عتيقاً لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعتقُ فيه رقابَ المذنبين من العذاب[١].

وقيل: سمي عتيقاً لأنه أُعتِق من غرق الطوفان؛ قاله ابن جُبير[٢].

وقيل: العتيق: الكريم. والعِتْق: الكرم. قال طَرفَة يصف أذن الفرس:

مُـؤَلَّـلَـتـانِ تَـعْـرِفُ الـعِـتْـقَ فـيـهـمـا كـسـامِـعَـتَـيْ مـذعـورةٍ وَسْـطَ رَبْـرَبِ[٣]

وعِتْقُ الرقيقِ: الخروج من ذُلِّ الرِّقِّ إلى كرم الحرية.

ويحتمل أن يكون العتيق صفةَ مدحٍ تقتضي جودةَ الشيء، كما قال عمر: حملتُ على فرسٍ عتيق، الحديث[٤].

والقولُ الأول أصحّ؛ للنظرِ والحديثِ الصحيح. قال مجاهد: خَلَق الله البيتَ قبل الأرض بألفي عام[٥]، وسمي عتيقاً لهذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩، وقال ابن عطية: وهذا قول يردُّه التصريف.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩.

(٣) ديوان طرفة ص٢٨، ورواية العجز فيه: كسامعتي شاة بحومَل مُفْرَد، وقد سلف بهذه الرواية ١٠/ ١١٩، أما الرواية التي ذكرها المصنف هنا فهي في ديوان امرئ القيس ص٤٨ وفيه: له أذنان، بدل: مؤللتان. وهي أيضاً في ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ص٨٩ برواية: له حُرَّتان، ويعني بذلك أذنيه، قال الأعلم: والرَّبْرَب: جماعةُ بقرِ الوحش.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ - ١٢٠، والحديث بهذه الرواية أخرجه مسلم (١٦٢٠)، وقد سلف تخريجه ١٠/ ٦٠.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٩٠٩٧) والأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٢، والطبري ٢/ ٥٥٥.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفعٍ بتقدير: فَرْضُكم ذلك، أو: الواجبُ ذلك. ويحتمل أن يكون في موضع نصبٍ بتقدير: امتثلوا ذلك، ونحوُ هذه الإشارةِ البليغةِ قولُ زهير:

هـذا ولـيـس كـمـن يَـعْـيَـا بـخُـطَّـتِـهِ وَسْـطَ الـنَّـدِيِّ إذا مـا قـائـلٌ نـطـقـا[1]

والحرماتُ المقصودةُ هنا: هي أفعالُ الحج المشارُ إليها في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، ويدخل في ذلك تعظيمُ المواضع؛ قاله ابن زيد وغيره[2]. ويجمع ذلك أن تقول: الحرماتُ امتثالُ الأمر من فرائضه وسننه. وقولُه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: التعظيم خيرٌ له عند ربِّه من التهاوُن بشيء منها. وقيل: ذلك التعظيم خيرٌ من خيراته يُنتفع به، وليست للتفضيل، وإنما هي عِدَةٌ بخير.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: بهيمة الأنعام، أن تأكلوها، وهي الإبلُ والبقر والغنم. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الكتاب من المحرَّمات، وهي المَيْتةُ والمَوْقُوذة وأخواتها. ولهذا اتصالٌ بأمر الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذبح، فبيَّن ما يَحِلُّ ذبحه وأكلُ لحمه. وقيل: «إلا ما يتلى عليكم» غيرَ مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ الرِّجس: الشيء القَذِر. والوَثَن: التمثالُ من خشبٍ أو حديدٍ أو ذهبٍ أو فضةٍ ونحوها، وكانت العربُ تنصِبها وتعبدها. والنصارى تنصِب الصليب وتعبده وتعظِّمه، فهو كالتمثال أيضاً؛ قال عَدِيّ ابن حاتم: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب، فقال: «ألقِ هذا الوثَنَ عنك»[3] أي: الصليب؛ وأصلُه من وَثَن الشيء، أي: أقام في مقامه. وسمِّي الصنم وَثَناً لأنه يُنصَب ويُركَز في مكانٍ فلا يبرح عنه. يريد: اجتنبوا عبادة الأوثان؛ روي عن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠، والبيت في ديوان زهير ص٥٥ برواية: وسط الرجال. وذكره قدامة بن جعفر في نقد الشعر ص٧٢، وابن رشيق في العمدة ٢/ ١٣٤ برواية: بخطبته، بدل: بخطته.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠، وخبر ابن زيد أخرجه الطبري ١٦/ ٥٣٤ بلفظ: الحرمات: المشعر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، هؤلاء الحرمات.

(٣) سلف ١٠/ ١٧٧ - ١٧٨.

ابن عباس وابن جُريج[١]. وسمَّاها رجساً لأنها سببُ الرِّجز، وهو العذاب.

وقيل: وَصَفَها بالرجس، والرجسُ النَّجَس، فهي نجسةٌ حكماً. وليست النجاسةُ وصفاً ذاتيًّا للأعيان، وإنما هي وصفٌ شرعيٌّ من أحكام الإيمان، فلا تُزال إلَّا بالإيمان؛ كما لا تجوز الطهارة إلَّا بالماء[٢].

الرابعة: ﴿مِنَ﴾ في قوله: «مِن الأوثانِ» قيل: إنَّها لبيان الجنس، فيقع نَهْيُه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نَهْيُها في غير هذا الموضع. ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية، فكأنه نهاهم عن الرجس عاماً، ثم عيَّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادةُ الوثن جامعةٌ لكلِّ فسادٍ ورجس. ومَن قال: إنَّ «مِن» للتبعيض، قَلَبَ معنى الآيةِ وأفْسَده[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ الزُّور: الباطلُ والكذب. وسمِّيَ زوراً لأنه أميل[٤] عن الحقّ، ومنه: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧]، ومدينةٌ زَوْراء، أي: مائلة. وكلُّ ما عدا الحقِّ فهو كذبٌ وباطلٌ وزُور. وفي الخبر: أنه عليه الصلاة والسلام قام خطيباً فقال: «عُدلتْ شهادةُ الزور بالشِّرك[٥] بالله». قالها مرتين أو ثلاثاً[٦]. يعني أنها قد جُمعت مع عبادة الوثن في النهي عنها.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٣٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ .

(٤) في (ظ): ميل.

(٥) في (م): الشرك.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٦٠٣)، والترمذي (٢٢٩٩) من طريق سفيان بن زياد العصفري، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم عن النبي ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد، واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ. قلنا: وفاتك بن فضالة مجهول الحال، كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه أحمد (١٨٨٩٨)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢) من طريق سفيان بن زياد العصفري، عن أبيه، عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك مرفوعاً. قال الترمذي: هذا عندي أصحّ، وخريم بن فاتك له صحبة. اهـ وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٥٤٨/٤ : وهو لا يصح، وحبيب لا يعرف بغير هذا، ولا تعرف حاله، وزياد العصفري مجهول.

السادسة: هذه الآيةُ تضمَّنت الوعيدَ على الشهادة بالزُّور، وينبغي للحاكم إذا عَثَر على الشاهد بالزور أن يعزِّره وينادِيَ عليه ليُعرف؛ لئلَّا يَغتَرَّ بشهادته أحدٌ. ويختلف الحكم في شهادته إذا تاب، فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرِّز فيها لم تُقبل؛ لأنه لا سبيلَ إلى علم حاله في التوبة؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القُرُبات أكثرَ ممَّا هو عليه. وإن كان دون ذلك فشمَّر في العبادة وزادت حالُه في التُّقَى قُبلت شهادتُه.

وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ من أكبر الكبائر الإشراكَ بالله، وعقوقَ الوالدين، وشهادةَ الزور ـ أو: قولَ الزور». وكان رسول الله ﷺ متَّكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: لَيْتَه سكت[1].

السابعة: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ معناه: مستقيمين، أو مسلمين مائلين إلى الحقّ. ولفظةُ «حنفاء» من الأضداد؛ تقع على الاستقامة وتقع على الميل. و«حنفاء» نصبٌ على الحال. وقيل: «حنفاء»: حُجَّاجاً، وهذا تخصيصٌ لا حجةَ معه[2].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: هو يومَ القيامة بمنزلةِ مَن لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عن نفسه ضرًّا ولا عذاباً، فهو بمنزلة مَن خَرَّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه. ومعنى ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه بمخالبها.

وقيل: هذا عند خروج روحِه وصعودِ الملائكة بها إلى سماء الدنيا، فلا يُفتح لها، فيرمى بها إلى الأرض، كما في حديث البَرَاء، وقد ذكرناه في «التذكرة»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٥٤)، وصحيح مسلم (٨٧)، وهو عند أحمد (٢٠٣٨٥)، وهو من حديث أبي بكرة ﷺ، ولفظُه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله. . . . ووقع بلفظ: «إن من أكبر الكبائر. . .» عند أحمد (١٦٠٤٣)، والترمذي (٣٠٢٠)، وابن حبان (٥٥٦٣) من حديث عبد الله بن أنيس ﷺ، وفيه اليمين الغموس، بدل: شهادة الزور، ودون قوله: وكان متكئاً فجلس. . . وفي الباب عن أنس ﷺ عند أحمد (١٢٣٣٦)، والبخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٨).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ .

(٣) ص١١٩ ، وأخرجه مطولاً أحمد (١٨٥٣٤).

والسحيق: البعيد، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «سُحْقاً سحقاً»[١].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ؛ قيل: يكون في موضع رفعٍ بالابتداء، أي: ذلك أمر الله. ويجوز أن يكون في موضع رفعٍ على خبرِ ابتداءٍ محذوف. ويجوز أن يكون في موضع نصب، أي: اتَّبعوا ذلك[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الشعائرُ جمعُ شَعيرة، وهو كلُّ شيء لله تعالى فيه أمرٌ أشعَرَ به وأعْلَم[٣]؛ ومنه شِعارُ القوم في الحرب، أي: علامتهم التي يتعارفون بها. ومنه إشعارُ البَدَنة، وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيلَ الدمُ فيكون علامة، فهي تسمَّى شَعِيرة بمعنى المشعورة. فشعائر الله: أعلامُ دينه لا سيما ما يتعلَّق بالمناسك.

وقال قوم: المرادُ هنا: تسمينُ البُدْن، والاهتبالُ[٤] بأمرها، والمغالاة بها؛ قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة[٥]. وفيه إشارةٌ لطيفةٌ، وذلك أنَّ أصل شراء البُدْن ربَّما يُحمل على فعلِ ما لابدَّ منه، فلا يدلُّ على الإخلاص، فإذا عظَّمها مع حصول

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٧٩٩٣)، ومسلم (٢٤٩).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٧، وسلف نحوه في الآية (٣٠).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١.

(٤) في (ز) و(م): والاهتمام بأمرها والمثبت من باقي النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢١، والكلام منه، يعني الإسراع بأمرها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١، وأخرجه عن ابن عباس ومجاهد ابنُ أبي شيبة ٤/ ٢٩٤ و ٢٩٥ (نشرة العمروي)، و الطبري ١٦/ ٥٤٠.

الإجزاء بما دونه فلا يظهر له مَحْمَلٌ[١] إلَّا تعظيمُ الشرع، وهو من تقوى القلوب. والله أعلم.

الثالثة: الضمير في «إنها» عائدٌ على الفَعلة التي يتضمَّنها الكلام، ولو قال: فإنه؛ لجاز. وقيل: إنها راجعةٌ إلى الشعائر، أي: فإنَّ تعظيم الشعائر، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه، فرجعت الكنايةُ إلى الشعائر.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ قرئ: «القلوبُ» بالرفع على أنها فاعلةٌ بالمصدر الذي هو «تَقْوَى»[٢]. وأضاف إلى القلب لأنَّ حقيقةَ التقوى في القلب؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث: «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ يعني البُدْنَ، من الركوب والدَّرِّ والنَّسل والصوف وغير ذلك، إذا لم يبعثها ربُّها هَدْياً، فإذا بعثها فهو الأجل المسمَّى؛ قاله ابن عباس[٤]. فإذا صارت بُدْناً هَدْياً، فالمنافعُ فيها أيضاً: ركوبُها عند الحاجة، وشربُ لبنها بعد رِيِّ فَصِيلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بَدَنةً فقال: «ارْكَبْها» فقال: إنها بدنةٌ! فقال: «ارْكَبْها» قال: إنها بدنة! قال: «اركبها وَيْلَكَ» في الثانية أو في الثالثة[٥].

وروي عن جابر بن عبد الله وسُئل عن ركوب الهَدْي فقال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «اركبها بالمعروف إذا أُلْجِئْتَ إليها حتى تَجِدَ ظَهْراً»[٦]. والأجلُ المسمَّى على

---

(١) في (خ) و(م): عمل، والمثبت من باقي النسخ وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٨٢ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١ .

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٧٢٧)، ومسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٢ .

(٥) صحيح البخاري (١٦٨٩)، وصحيح مسلم (١٣٢٢)، وهو عند أحمد (٧٣٥٠).

(٦) أخرجه أحمد (١٤٤١٣)، ومسلم (١٣٢٤).

هذا القولِ نحرُها؛ قاله عطاء بن أبي رَباح[١].

السادسة: ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «اركبها». ومِمَّن أَخَذ بظاهِرِه أحمد وإسحاقُ وأهلُ الظاهر[٢]. وروى ابن نافع عن مالك: لا بأس بركوب البَدَنة ركوباً غيرَ فادحٍ. والمشهورُ أنه لا يركبها إلَّا إن اضطُرَّ إليها؛ لحديث جابرٍ؛ فإنه مقيَّد، والمقيَّد يقضي على المطلَق. وبنحو ذلك قال الشافعيُّ وأبو حنيفة. ثم إذا ركبها عند الحاجة [فاستراح] نزل، قال[٣] إسماعيل القاضي: وهو الذي يدلُّ عليه مذهبُ مالك، وهو خلافُ ما ذكره ابن القاسم: أنه لا يلزمه النزول، وحجته إباحةُ النبيِّ ﷺ له الركوب، فجاز له استصحابه.

وقوله: «إذا أُلجئتَ إليها حتى تجد ظَهْراً» يدلُّ على صحة ما قاله الإمام الشافعيُّ وأبو حنيفة رضي الله عنهما، وما حكاه إسماعيلُ عن مذهب مالك. وقد جاء صريحاً أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلاً يسوق بدَنةً وقد جُهد، فقال: «اركبها». وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: إن نَقَصها الركوبُ المباحُ فعليه قيمةُ ذلك ويتصدَّق به[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف. فقوله: «مَحِلُّها» مأخوذٌ من إحلال المحرِم. والمعنى: أنَّ شعائر الحجِّ كلَّها من الوقوف بعرفة ورمي الجِمار والسَّعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيتُ على هذا التأويلِ مرادٌ بنفسه؛ قاله مالك في «الموطأ»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٥ .

(٢) المفهم ٣/ ٤٢٢ ، وقوله: وممن أخذ بظاهره، يعني بجواز الركوب، كما جاء مصرحاً به في إكمال المعلم ٤/ ٤١٠ ، والكلام فيه بنحوه.

(٣) في النسخ عدا (ظ): قاله، والمثبت من (ظ) والمفهم ٣/ ٤٢٢ ، وإكمال المعلم ٤/ ٤١٠ ، والكلام وما بين حاصرتين منهما.

(٤) المفهم ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤ ، والحديث الأخير أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ١٦١ عن أنس ﷺ.

(٥) ١/ ٣٧٠ .

وقال عطاء: ينتهي إلى مكة[1]. وقال الشافعيُّ: إلى الحرم. وهذا بناءً على أنَّ الشعائر هي البُدْن، ولا وجهَ لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاءِ خصوصيةِ ذكرِ البيت[2]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ الآية، لمَّا ذكر تعالى الذبائح بيَّن أنه لم يُخلِ منها أمَّةً، والأمةُ: القومُ المجتمعون على مذهبٍ واحد، أي: ولكلٍّ جماعةٍ مؤمنةٍ جعلنا مَنْسَكاً.

والمنسك: الذَّبْح وإراقة الدم؛ قاله مجاهد[3]. يقال: نَسَك: إذا ذَبَح، يَنْسُك نَسْكاً. والذبيحةُ نسيكة، وجمعُها نُسُك، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]. والنُّسُك أيضاً: الطاعة.

وقال الأزهريُّ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسِكاً﴾: إنه يدلُّ على موضع النحر في هذا الموضع، أراد: مكانَ نَسْك[4]. ويقال: مَنْسَك ومَنْسِك، لغتان. وقرئ بهما؛ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً بكَسْرِ السين، الباقون بفتحها[5].

وقال الفراء[6]: المَنْسَك في كلام العرب: الموضعُ المعتادُ في خير أو شر، وقيل: مناسك الحج؛ لتَرْداد الناس إليها، من الوقوف بعرفةَ ورمي الجمار والسعي.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٧.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٥٠.

(٤) تهذيب اللغة ١٠/ ٧٤ نقلاً عن الزجاج، وهو في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٧، إلا أنه ذكره في معنى منسِكاً بكسر السين، وقال: هو مثل مجلِس: مكان جلوس، ومن قال منسَك، فهو بمعنى المصدر.

(٥) السبعة ص٤٣٦، والتيسير ص١٥٧.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٣٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٨.

وقال ابن عرفة في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مذهباً من طاعة الله تعالى؛ يقال: نَسَك نَسْكَ قومه: إذا سلك مذهبهم.

وقيل: منسكاً: عيداً؛ قاله الفرّاء. وقيل: حجًّا؛ قاله قتادة(١).

والقولُ الأول أظهرُ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على ذبح ما رزقهم. فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازقُ ذلك.

ثم رجع اللفظُ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحدٌ لجميعكم، فكذلك الأمرُ في الذبيحة إنَّما ينبغي أن تخلصَ له.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ معناه: لحقِّه ولوجهه وإنعامه آمِنوا وأسلِموا. ويحتمل أن يريد الاستسلام، أي: له أطيعوا وانقادوا.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ المخبِت: المتواضِعُ الخاشع من المؤمنين. والخَبْت: ما انخفض من الأرض، أي: بشِّرْهم بالثواب الجزيل. قال عمرو بن أوس: المخبِتون: الذين لا يَظْلِمون، وإذا ظُلموا لم يَنْتصِروا. وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نجيح: المخبتون: المطمئنُّون بأمر الله عزَّ وجلَّ(٢).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت وَحذِرت مخالفتَه. فَوَصَفَهم بالخوف والوَجَل عند ذكره، وذلك لقوَّة يقينهم ومراعاتهم لربِّهم وكأنهم بين يديه،

---

(١) ذكر قول قتادة والفراء ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٧٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وقول مجاهد وقول عمرو بن أوس أخرجهما الطبري ١٦/ ٥٥١ ، وأخرج قول مجاهد أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٨ ، وقول عمرو بن أوس أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٨ .

ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها. وروي أنَّ هذه الآيةَ قولَه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ نزلت في أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ رضوانُ الله عليهم[1].

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالخفض على الإضافة، وقرأ أبو عمرو: «الصلاةَ» بالنصب على توهُّم النون، وأنَّ حَذْفَها للتخفيف لطول الاسم[2]، وأنشد سيبويه:

الحافِظو عَوْرةَ العَشِيرة[3] . . .

الثانية: هذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. هذه حالةُ العارفين بالله، الخائفين من سَطْوته وعقوبته، لا كما يفعله جُهَّال العوامّ والمبتدِعةُ الطَّغامُ، من الزَّعيق والزئير، ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير، فيقال لمن تَعاطَى ذلك وزعم أنَّ ذلك وَجْدٌ وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساويَ حالَ رسول الله ﷺ ولا حالَ أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعظ الفهمَ عن الله، والبكاءَ خوفاً من الله. وكذلك وَصَفَ الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوةِ كتابه، ومَن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ .

(٢) المحتسب ٢/ ٨٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وهي في القراءات الشاذة ص٩٥ عن ابن أبي إسحاق، والقراءةُ المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٣) الكتاب ١/ ١٨٦ و ٢٠٢ ، وعزاه لرجل من الأنصار، وتمامه:

الحافظو عورةَ العشيرة لا يأتيهم من ورائنا نَطَفُ

وهو في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٧٥ ضمن قصيدة لعمرو بن امرئ القيس، وهذا ما رجحه البغدادي في الخزانة ٤/ ٢٨٣ ، ونسبه البَطَلْيَوْسي في الحلل ص١٢٢ لقيس بن الخطيم، وهو في الجمهرة والحلل برواية وَكَف، بدل: نطف. قال البطليوسي: الوَكَف هنا: العيب، ويروى: نَطَف، وهو نحو الوكف. اهـ وروي: عورةِ، بالجر كما ذكر صاحب الخزانة ٤/ ٢٧٣ .

طريقتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣]. فهذا وصفُ حالهم وحكايةُ مَقَالِهم، فَمَن كان مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنّ، ومَن تَعاطَى أحوالَ المجانين والجنونِ فهو مِن أخسِّهم حالاً، والجنونُ فنون[١].

روى الصحيح عن أنس بن مالك: أنَّ الناس سألوا النبيَّ ﷺ حتى أحْفَوْه في المسألة، فخرج ذاتَ يومٍ فصَعِد المِنبر فقال: «سَلُوني، لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنْتُه لكم ما دمتُ في مَقَامي هذا». فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا، ورَهِبُوا أن يكون بين [يدي] أمرٍ قد حَضَر. قال أنس: فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشِمالاً فإذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث[٢]. وقد مضى القول في هذه المسألة بأشبعَ من هذا في سورة الأنفال[٣] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

فيها عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق: «والبُدُن»[٤]؛ لغتان، واحدتُها بَدَنة. كما يقال: ثمرة وثُمُر وثُمْر، وخشبة وخُشُب وخُشْب، وفي التنزيل:

---

(١) المفهم ٦/ ١٦٠ . وكان من الأَولى الاكتفاءُ في الردّ بما ورد من الكتاب والسنة. فالتقريع لا يزيد المسلمين إلا فُرقة وضغناً.

(٢) صحيح مسلم (٢٣٥٩): (١٣٧)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أحمد (١٢٨٢٠)، والبخاري (٦٣٦٢). وقد سلف ٩/ ٤٥٠ . وقوله: أحفوه، أي: ألَحُّوا عليه. وأرمُّوا: سكتوا. وقوله: ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر، أي: خافوا أن تقع بهم عقوبة عند غضبه. المفهم ٦/ ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) ٩/ ٤٥٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٨ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٥ عن الحسن وعيسى، وذكر عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «والبُدُنّ» بضمتين وتشديد النون.

﴿وكان له ثُمُر﴾ [الكهف: ٣٤]، وقرئ: ﴿ثُمْر﴾[1] لغتان. وسمِّيت بَدَنة لأنها تَبْدُن، والبَدانةُ: السِّمَن. وقيل: إن هذا الاسم خاصٌّ بالإبل. وقيل: البُدْن جمعُ «بَدَن» بفتح الباء والدال. ويقال: بَدُن الرجل؛ بضم الدَّال: إذا سَمِن. وبدَّن؛ بتشديدها: إذا كَبِرَ وأَسَنَّ؛ وفي الحديث «إنِّي قد بدَّنْتُ»[2] أي: كَبِرتُ وأَسْنَنْتُ. وروي «بَدُنْت» وليس له معنى؛ لأنه خلافُ صفته ﷺ، ومعناه: كثرةُ اللحم[3]. يقال: بَدُنَ الرجل يبدُن بَدْناً وبَدانة فهو بادِنٌ، أي: ضخم.

الثانية: اختلف العلماء في البُدْن؛ هل تُطلَقُ على غير الإبل من البقر أم لا؟ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعيُّ: لا. وقال مالك وأبو حنيفة: نعم. وفائدةُ الخلاف فيمَن نذر بَدَنةً فلم يجد البَدَنةَ، أو لم يَقْدِرْ عليها وقَدَر على البقرة؛ فهل تَجزيه أم لا؟ فعلى مذهبِ الشافعيِّ وعطاء لا تَجزيه. وعلى مذهب مالك تَجزيه[4].

والصحيح ما ذهب إليه الشافعيُّ وعطاء؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة: «مَن راحَ في الساعةِ الأولى فكأنَّما قَرَّبَ بَدَنةً، ومَن راحَ في الساعةِ الثانيةِ فكأنَّما قرَّبَ بقرة» الحديث[5]. فتفريقُه عليه الصلاة والسلام بين البقرة والبَدَنة يدلُّ على أنَّ البقر لا يقال عليها بُدن، والله أعلم. وأيضاً قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يدلُّ على ذلك، فإن الوصف خاصٌّ بالإبل. والبقرُ يُضْجَع ويذبح كالغنم؛ على ما يأتي[6].

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي: «ثُمُر» بضم الثاء والميم، وقرأ أبو عمرو: «ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وقرأ عاصم: «ثَمَر» بفتح الثاء والميم. السبعة ص٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٨٣٨)، وأبو داود (٦١٩)، وابن ماجه (٩٦٣)، وابن حبان (٢٢٢٩) عن معاوية رضي الله عنه، وأخرجه ابن حبان أيضاً (٢٢٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٥٢ - ١٥٣ ، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٤٤ ، وما بعده منه.

(٤) المفهم ٢/ ٤٨٨ .

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٩٩٢٦)، والبخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في المسألة السادسة.

ودليلُنا أنَّ البَدَنة مأخوذةٌ من البَدانة، وهو الضخامة، والضخامةُ توجد فيهما جميعاً. وأيضاً فإنَّ البقرة في التقرُّب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل، حتى تجوزُ البقرة في الضحايا عن سبعةٍ كالإبل. وهذا حجةٌ لأبي حنيفةَ حيث وافقه الشافعيُّ على ذلك، وليس ذلك في مذهبنا.

وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم: بدنة، وهو قولٌ شاذّ. والبُدْنُ هي الإبل التي تُهْدَى إلى الكعبة. والهَدْيُ عامٌّ في الإبل والبقر والغنم[1].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ نصٌّ في أنَّها بعضُ الشعائر. وقوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ يريد به المنافعَ التي تقدَّم ذكرها. والصوابُ عمومُه في خير الدنيا والآخرة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ أي: انحروها على اسم الله، و«صوافَّ» أي: قد صَفَّتْ قوائمها[2]. والإبل تُنحر قياماً معقولة. وأصلُ هذا الوصف في الخيل؛ يقال: صَفَنَ الفرس فهو صافنٌ: إذا قام على ثلاثِ قوائمَ وثَنَى سُنْبُك الرابعة؛ والسُّنبكُ: طَرَفُ الحافر. والبعير إذا أرادوا نحره تُعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم.

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهدٌ وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعريُّ: «صَوافِيَ»[3] أي: خَوَالِصَ لله عزَّ وجلَّ لا يشركون به في التسمية على نحرها أحداً.

وعن الحسن أيضاً: «صَوَافٍ» بكسر الفاء وتنوينها مخفَّفةً، وهي بمعنى التي قبلها لكنْ حُذفت الياء تخفيفاً على غير قياس[4].

و«صوافَّ» قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدِّها؛ من صفَّ يَصُفُّ. وواحدُ صوافّ:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٨، وقال الزجاج: أي: فاذكروا اسم الله عليها في حال نحرها، والبعير ينحر قائماً، وهذه الآية تدلُّ على ذلك.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٥، والمحتسب ٢/ ٨١، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٥ دون نسبة.

صافَّة، وواحدُ صَوَافي: صافية.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن علي: «صَوَافِنَ» بالنون[١] جمع صافنة. ولا يكون واحدُها صافناً[٢]؛ لأنَّ فاعلاً لا يجمع على فَوَاعِلَ إلَّا في حروفٍ مختصَّةٍ لا يقاسُ عليها؛ وهي: فارسٌ وفوارس، وهالكٌ وهوالك، وخالفٌ وخوالف[٣]. والصافنة: هي التي قد رُفعت إحدى يديها بالعَقْل لئلَّا تضطرب. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، وقال عمرو بن كُلْثوم:

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه مقلَّدةً أعنَّتها صُفُونا[٤]

ويروى:

تظلُّ جيادُه نَوْحاً عليه مقلَّدةً أعنَّتها صفونا[٥]

وقال آخر:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يزال كأنه ممَّا يقوم على الثلاثِ كَسِيرا[٦]

وقال أبو عُمر الجَرْمِيُّ: الصافنُ: عِرْقٌ في مقدَّم الرجل، فإذا ضُرب على الفرس رفع رجله[٧]. وقال الأعشى:

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٥ ، والمحتسب ٢/ ٨١ .

(٢) لكن الأزهري نقل في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٠٦ عن أبي زيد قوله: العرب تقول لجميع الصافن: صَوافن، وصافنات، وصُفون.

(٣) وكذا ناكس ونواكس، وغائب وغوائب، وغافل وغوافل، وباسل وبواسل... وهو ما شذَّ من وصف المذكر العاقل في جمع فاعل على فواعل. والأصل في هذا الجمع أن يكون وصفاً لمؤنث عاقل كحائض وحوائض، وطالق وطوالق، وقاعد وقواعد، أو وصفاً لمذكر غير عاقل، كصاهل وصواهل. وقد نقل المصنف ١٠/ ٣٢٧ عن النحاس قوله: قد يقال للرجل: خالفه وخالف أيضاً.

(٤) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٩٩ ، وشرح المعلقات للتبريزي ص٢٦٣ . قال النحاس: والصُّفُون جمع صافن، وهو القائم، وقيل: هو الذي رفع إحدى قوائمه من التعب.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٧ ، وأساس البلاغة واللسان (صفن).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٩ .

وكلَّ كُمَيْتٍ كجِذْع السَّحوق يَزينُ الفِناء إذا ما صَفَنْ[١]

الخامسة: قال ابن وَهْب: أخبرني ابن أبي ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصواف فقال: يقيِّدها ثم يصفُّها. وقال لي مالك بن أنس مثلَه[٢]. وكافَّةُ العلماء على استحباب ذلك، إلَّا أبا حنيفة والثَّوريَّ؛ فإنهما أجازا أن تُنحر باركةً وقياماً. وشذَّ عطاء فخالف واستَحَبَّ نَحْرَها باركة[٣]. والصحيحُ ما عليه الجمهورُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ معناه: سقطت بعد نَحْرِها، ومنه: وَجَبت الشمس. وفي «صحيح» مسلم[٤] عن زياد بن جُبير: أنَّ ابن عمر أتى على رجلٍ وهو ينحر بَدَنتَه باركةً فقال: ابعثْها قائمةً مقيَّدةً سنَّة نبيِّكم ﷺ.

وروى أبو داود[٥] عن أبي الزبير عن جابر: وأخبرني عبد الرحمن بنُ سابطٍ أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا ينحرون البَدَنةَ معقولةَ اليسرى قائمةً على ما بقي من قوائمها.

السادسة: قال مالك: فإن ضَعُف إنسانٌ أو تخوَّف أن تَنْفلتَ بَدَنتُه فلا أرى بأساً أن ينحرها معقولةً. والاختيارُ أن تُنحر الإبلُ قائمةً غيرَ معقولةٍ، إلَّا أن يتعذَّر ذلك فتُعقَل، ولا تُعَرقَب إلَّا أن يخاف أن يضعفَ عنها ولا يَقْوَى عليها. ونحرُها باركةً أفضلُ من أن تُعرقَبَ. وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنفوانِ أَيْدِه[٦]، فينحرها في صدرها ويُخْرِجها على سنامها، فلما أسنَّ كان ينحرها باركةً لضعفه، ويُمسك معه الحربةَ رجلٌ آخرُ، وآخَرُ بخِطامها[٧].

---

(١) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٧١ برواية: الخصاب، بدل: السحوق. وقال شارحه: المعنى: والفرس الأسود كأنه الجذع في طول متنه، يزين فناء البيت إذا ما صفن.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٧ .

(٣) المفهم ٣/ ٤٢٠ .

(٤) برقم (١٣٢٠)، وهو في صحيح البخاري (١٧١٣).

(٥) في سننه (١٧٦٧).

(٦) الأَيْد: القوة، ووقع في (ظ): شبابه.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٧ - ١٢٧٨ .

السابعة: وتُضْجَع البقر والغنم[1]. ولا يجوز النحرُ قبل الفجر من يوم النحر بإجماع، وكذلك الأضحيَّةُ لا تجوز قبل الفجر، فإذا طلع الفجر حلَّ النحر بمِنًى، وليس عليهم انتظارُ نحرِ إمامهم، بخلاف الأضحيَّة في سائر البلاد. والمَنْحَرُ مِنًى لكلِّ حاجٍّ، ومكةُ لكلِّ معتمِر. ولو نحر الحاجُّ بمكةَ والمعتمرُ بمنًى؛ لم يَحْرَج واحدٌ منهما إن شاء الله تعالى[2].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يقال: وَجَبت الشمس: إذا سقطت، ووَجَبَ الحائط: إذا سقط؛ قال قيس بن الخَطِيم:

أطاعت بنو عوفٍ أميراً نهاهُمُ ... عن السِّلْم حتى كان أوّلَ واجِبِ[3]

وقال أوْس بن حَجَر:

ألم تُكْسَفِ الشمسُ والبدرُ والـ ... كواكبُ للجبل الواجبِ[4]

فقوله تعالى: «فإذا وجَبَتْ جُنُوبُها» يريد: إذا سقطت على جنوبها ميتةً. كنَى عن الموت بالسقوط على الجنب، كما كنَى عن النحر والذبح بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾. والكناياتُ في أكثر المواضع أبلغُ من التصريح[5]؛ قال الشاعر:

---

(١) قوله: وتضجع البقر والغنم، وقع في (خ) و(م) قبل قوله: السابعة.

(٢) الكافي ١/ ٤٠٥، وقد سلف الاختلاف في وقت الذبح للأضحية، وهل هو قبل ذبح الإمام أو بعده ص٣٦٦ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٩٦٩، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٥٢، ومنتهى الطلب في أشعار العرب ٦/ ٣٥١. قال ابن قتيبة: واجب: ميت.

(٤) ديوان أوس بن حجر ص١٠، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٦٠، ووقع في النسخ عدا (ظ) والنكت والعيون ٤/ ٢٧:

ألم تكسف الشمس ضوء النهار ... والبدر للجبل الواجب

وذكره ياقوت في معجم الأدباء ١٨/ ١٦٩ برواية:

ألم تُكسَفِ الشمسُ شمسُ النها ... رِ والبدرُ للقمر الواجب

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٨.

فتركتُه جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَهُ ما بين قُلَّةِ رأسِه والمِعْصَمِ[١]

وقال عنترة:

وضربتُ قَرْنَيْ كَبْشِها فتَجدَّلا[٢]

أي: سقط مقتولاً إلى الجَدالة، وهي الأرض؛ ومثلُه كثير.

والوُجوبُ للجَنْب بعد النحر علامةُ نزفِ الدَّمِ وخروجِ الروح منها، وهو وقتُ الأكل، أي: وقتُ قُرْبِ الأكل؛ لأنه أول ما[٣] يبتدأ بالسلخ وقطعِ شيءٍ من الذبيحة ثم يُطبخ. ولا تُسلخ حتى تَبْرُد؛ لأنَّ ذلك من باب التعذيب؛ ولهذا قال عمر ﷺ: لا تَعْجَلوا الأنفس أنْ تَزْهَق[٤].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه النَّدْبُ. وكلُّ العلماء يستحبُّ أن يأكل الإنسان من هَدْيه، وفيه أجرٌ وامتثال؛ إذْ كان أهلُ الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم كما تقدَّم[٥].

وقال أبو العباس بن سُريج: الأكلُ والإطعامُ مستحبَّان، وله الاقتصارُ على أيِّهما شاء. وقال الشافعيُّ: الأكلُ مستَحَبٌّ والإطعامُ واجب[٦]، فإن أَطْعَمَ جميعَها أجزأه، وإن أكل جميعَها لم يُجزه، وهذا فيما كان تطوُّعاً، فأمَّا واجباتُ الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئاً حَسْبَما تقدَّم بيانه[٧].

---

(١) البيت من معلقة عنترة، وهو في ديوانه ص٢٦، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ٣٣، وللتبريزي ص٢٣٩ قال التبريزي: الجَزَر جمع جزرة، والجزرة: الشاة والناقة تذبح وتنحر، وينُشْنَه: يتناوَلْنَه بالأكل، وقُلَّةُ كلِّ شيء أعلاه. اهـ. وقال الجوهري: في الصحاح (جزر): جَزَر السِّباع: اللحم الذي تأكله، يقال: تركوهم جَزَراً، بالتحريك: إذا قتلوهم.

(٢) وعجزه: وحملتُ مُهْري وَسْطَها فمَضَاها، وهو في ديوانه ص٧٥.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: إنما، بدل: أول ما.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٨٦١٤)، وابن أبي شيبة ٥/ ٣٩٢ - ٣٩٣، والبيهقي ٩/ ٢٧٨ واللفظ له.

(٥) ص٣٧٤ من هذا الجزء، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩، وينظر تفصيل هذين القولين في المجموع ٨/ ٣٢٩ وما بعدها.

(٧) ص٣٧٣ من هذا الجزء.

العاشرة: قولُه تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ قال مجاهدٌ وإبراهيم والطبريُّ: قوله: «وأطعِموا» أمرُ إباحةٍ[1]. و«القانِع»: السائل. يقال: قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعاً: إذا سأل، بفتح النون في الماضي[2]، وقَنِع يقنَع قناعةً فهو قَنِعٌ: إذا تعفَّف واستغنى ببُلْغته ولم يسأل، مثل: حمِد يحمَد، قَناعةً وقَنَعاً وقَنَعاناً؛ قاله الخليل[3]. ومن الأوّل قول الشمَّاخ:

لَـمَالُ الـمرءِ يُـصلِحُـه فـيُـغْـنـي مَـفـاقِـرَه أعـفُّ مـن الـقُـنُـوعِ[4]

وقال ابن السِّكِّيت[5]: مِن العرب مَن ذَكَر القُنوعَ بمعنى القناعة، وهي الرِّضا والتعفُّفُ وتركُ المسألة. ورويَ عن أبي رجاءٍ أنه قرأ: «وأطعِموا القَنِعَ». ومعنى هذا مخالفٌ للأوّل؛ يقال: قَنِعَ الرجل فهو قَنِعٌ: إذا رضي[6].

وأمَّا المعترُّ فهو الذي يُطيف بك يطلب ما عندك، سائلاً كان أو ساكتاً. وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ ومجاهدٌ وإبراهيم والكلبيُّ والحسن بن أبي الحسن: المعترُّ: المتعرض من غير سؤال[7]، قال زهير:

علـى مُكْثِرِيـهـمْ رِزْقُ مَـن يـعـتـريـهـمُ وعـنـد الـمُقِلِّـينَ الـسـمـاحـةُ والـبَـذْلُ[8]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، وقول الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٢٣ ، وفيه تخريج خبر مجاهد وإبراهيم.

(٢) بعدها في النسخ: وكسرها في المستقبل، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ والكلام منه. وليس في كتب اللغة «يقنِع» بكسر النون. ينظر العين ١/ ١٧٠ ، وتهذيب اللغة ١/ ٢٥٩ ، ومقاييس اللغة ٥/ ٣٣ ، والصحاح ومفردات الراغب واللسان (قنع).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، دون قوله: قناعة وقنعاً وقنعاناً، ولم ترد أيضاً هذه المصادر في كتاب العين ١/ ١٧٠ ، وذكرها الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٦٩ .

(٤) ديوان الشمَّاخ ص٢٢١ . وقوله: مفاقر، أي: وجوه الفقر، يقال: سدَّ الله مفاقره، أي: أغناه، وسدَّ وجوه فقره. الصحاح (فقر).

(٥) قوله في تهذيب اللغة ١/ ٢٥٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١٣ ، والقراءة ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٨٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، وأخرج هذا القول عن مجاهد ومحمد بن كعب والحسن الطبريُّ ١٦/ ٥٦٣ و ٥٦٥ – ٥٦٦ . ووقع في النسخ: المعترض، بدل المتعرض، والمثبت من المصادر.

(٨) ديوان زهير ص١١٤ (بشرح ثعلب).

وقال مالك: أحسنُ ما سمعت: أنَّ القانع: الفقيرُ، والمعترّ: الزائر. وروي عن الحسن أنه قرأ: «والمعترِيَ»، ومعناه كمعنى المعترّ. يقال: اعترَّه واعتراه، وعرَّه وعرَاه: إذا تعرَّض لمَا عنده أو طلبه؛ ذكره النحاس[١].

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يضرِّجون البيت بدماء البُدْن، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فنزلت الآية[٢].

والنَّيْلُ لا يتعلَّق بالبارئ تعالى، ولكنه عبَّر به[٣] تعبيراً مجازيًّا عن القبول، المعنى: لن يَصِلَ إليه. وقال ابن عباس: لن يصعد إليه. ابن عيسى: لن يَقْبَلَ لحومَها ولا دماءها، ولكنْ يصلُ إليه التقوى منكم[٤]، أي: ما أريد به وجهُه؛ فذلك الذي يقبله ويُرفع إليه ويسمعه ويُثِيب عليه؛ ومنه الحديث: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات».

والقراءة: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ و﴿يَنَالُهُ﴾ بالياء فيهما. وعن يعقوب بالتاء فيهما[٥]، نظراً إلى اللحوم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ مَنَّ سبحانه علينا بتَذْليلها وتمكيننا من

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤١٣ - ٤١٤، والقراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٨٢ عن أبي رجاء وعمرو بن عبيد.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٣. ونسبه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٢ للكلبي.

(٣) في النسخ: عنه، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣، والكلام منه.

(٤) ذكر القولين عن ابن عباس وابن عيسى الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٢٨، وخبر ابن عباس فيه مطول.

(٥) النشر ٢/ ٣٢٦.

تصريفها، وهي أعظمُ مِنَّا أبداناً وأقوى منَّا أعضاءً، ذلك ليَعْلَمَ العبدُ أنَّ الأمور ليست على ما تَظْهرُ إلى العبد من التدبير، وإنما هي بحسَب ما يريدها العزيز القدير، فيغلِبُ الصغيرُ الكبيرَ؛ ليعلم الخلقُ أنَّ الغالب هو الله الواحدُ القهار[1] فوقَ عباده.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ذكر سبحانه ذِكْرَ اسمِه عليها في الآية قَبْلَها، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، وذكرَ هنا التكبير. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا نَحَر هَدْيَه فيقول: باسم الله والله أكبر؛ وهذا من فِقْهِه ﷺ[2].

وفي الصحيح عن أنس قال: ضَحَّى رسول الله ﷺ بكَبْشَيْنِ أمْلَحَيْن أقْرَنَيْن. قال: ورأيتُه يذبحهما بيده، ورأيتُه واضعاً قدمَه على صِفاحهما، وسَمَّى وكبَّر[3].

وقد اختلف العلماء في هذا؛ فقال أبو ثور: التسميةُ متعيِّنةٌ؛ كالتكبير في الصلاة، وكافَّةُ العلماء على استحباب ذلك. فلو قال ذِكْراً آخَرَ فيه اسمٌ من أسماء الله تعالى وأراد به التسميةَ جاز. وكذلك لو قال: الله أكبر، فقط، أو: لا إله إلا الله؛ قاله ابن حبيب. فلو لم يُرد التسميةَ لم يُجزِ عن التسمية ولا تؤكل؛ قاله الشافعيُّ ومحمد ابن الحسن. وكره كافةُ العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عند التسمية في الذبح أو ذِكرَه، وقالوا: لا يُذكر هنا إلَّا اللهُ وحدَه. وأجاز الشافعيُّ الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عند الذبح[4].

الرابعة: ذهب الجمهور إلى أنَّ قول المضحِّي: اللَّهُمَّ تقبَّلْ منِّي، جائز. وكره ذلك أبو حنيفةَ، والحجةُ عليه ما رواه الصحيح عن عائشةَ رضي الله عنها، وفيه: ثم

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ (والكلام منه): القاهر.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ .

(٣) صحيح البخاري (٥٥٦٥)، وصحيح مسلم (١٩٦٦): (١٨)، وهو عند أحمد (١١٩٦٠). قوله: أملحين، قيل: الأملح هو الأبيض، وقيل: الملحة من الألوان: بياض يخالطه سواد. ينظر المفهم ٥/ ٣٦١ .

(٤) المفهم ٥/ ٣٦٣ .

قال: «باسم الله، اللَّهُمَّ تقبَّل من محمدٍ وآلِ محمد ومن أمَّة محمد». ثم ضحَّى به. واستحبَّ بعضُهم أن يقول ذلك بنصِّ الآية: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧][1].

وكره مالكٌ قولَهم: اللهمَّ منك وإليك، وقال: هذه بدعةٌ. وأجاز ذلك ابنُ حبيب من أصحابنا والحسن، والحجةُ لهما ما رواه أبو داود[2] عن جابر بن عبد الله قال: ذبح النبيُّ ﷺ يومَ الذَّبح كَبْشَين أقْرَنين مَوْجُوءين[3] أمْلَحين، فلمَّا وجَّهَهما قال: «﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ وقرأ إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ اللَّهُمَّ منك وإليك[4]، عن محمدٍ وأمتِه، باسم الله والله أكبر». ثم ذبح. فلعلَّ مالكاً لم يبلغه هذا الخبر، أوْ لم يصحَّ عنده، أو رأى العملَ يخالفُه. وعلى هذا يدلُّ قولُه: إنه بدعة[5]. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ رُوي أنَّها نزلت في الخلفاء الأربعة؛ حَسْبَما تقدَّم في الآية التي قبلها. فأمَّا ظاهِرُ اللفظ فيقتضي العمومَ في كلِّ مُحْسِن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

رُوي أنَّها نزلت بسبب المؤمنين؛ لمَّا كثروا بمكةَ وآذاهم الكفارُ وهاجر مَن هاجر

---

(١) المفهم ٥/ ٣٦٣، والحديث في صحيح مسلم (١٩٦٧)، وهو عند أحمد (٢٤٤٩١).

(٢) في سننه (٢٧٩٥)، وهو في سنن ابن ماجه (٣١٢١) بنحوه.

(٣) أي: خَصِيَّيْن. النهاية (وجأ). ووقع في (خ): موجيين، وفي مطبوع سنن أبي داود: مُوْجَئَين، وفي بعض نسخه: مَوْجِيَّيْن، ينظر سنن أبي داود بتحقيق محمد عوامة (٢٧٨٨). قال ابن الأثير: منهم مَن يرويه: مُوْجَأين، على وزن: مُكْرَمين، وهو خطأ، ومنهم مَن يرويه: مَوْجِيَّيْن بغير همز على التخفيف، ويكون من وَجَيْتُه وَجْياً فهو مَوْجِيّ.

(٤) في (م): ولك، وهو موافق لما في سنن أبي داود وسنن ابن ماجه، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٥/ ٣٦٣، والكلام منه.

(٥) المفهم ٥/ ٣٦٤.

إلى أرض الحبشة؛ أراد بعضُ مؤمني مكةَ أن يقتل مَن أَمْكَنَه من الكفار، ويغتالَ ويَغْدِر ويحتال، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿كَفُورٍ﴾. فوعد فيها سبحانه بالمدافعة، ونَهَى أفصحَ نهيٍ عن الخيانة والغدر[١]. وقد مضى في «الأنفال» التشديدُ في الغدر؛ وأنه: «يُنصب للغادر لواءٌ عند استِه[٢] بقَدْرِ غَدْرته يقال: هذه غَدْرةُ فلان»[٣].

وقيل: المعنى: يَدْفَع عن المؤمنين بأن يُديم توفيقَهم حتى يتمكَّن الإيمان من[٤] قلوبهم، فلا يقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم، وإن جرى إكراهٌ فيعصمهم حتى لا يرتدُّوا بقلوبهم.

وقيل: يدفعُ عن المؤمنين بإعلائهم بالحُجَّة. وإن قتلَ كافرٌ مؤمناً؛ فقد دفعَ اللهُ[٥] عن ذلك المؤمنِ بأنْ قَبَضَه إلى رحمته.

وقرأ نافع: «يُدافِعُ»، «ولولا دِفاعُ». وقرأ أبو عمرو وابن كَثير: «يَدْفَعُ»، «ولولا دَفْعُ». وقرأ [ابن عامر و] عاصم وحمزة والكسائيُّ: «يُدافِعُ»، «ولولا دَفْعُ الله»[٦]. ويُدافع بمعنى يَدْفعُ، مثل: عاقَبْتُ اللصَّ، وعافاه الله، والمصدرُ دفعاً. وحكى الزَّهراويُّ: أنَّ «دِفاعاً» مصدرُ دَفَع، كحسَب حِساباً[٧].

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٢) في (ظ): عند بعثه.

(٣) ينظر ١٠/ ٥٢ - ٥٣ .

(٤) في (ظ): في.

(٥) في (م): ثم قتل كافر مؤمناً نادر وإن فيدفع الله.

(٦) السبعة ص٤٣٧ ، والتيسير ص٨٢ و ١٥٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ قيل: هذا بيانُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يدفع عنهم غوائلَ الكفار بأن يُبيحَ لهم القتالَ وينصرَهم، وفيه إضمارٌ، أي: أُذن للَّذين يَصْلُحون للقتال في القتال، فحذف لدلالة الكلام على المحذوف. وقال الضحَّاك: استأذن أصحابُ رسول الله ﷺ في قتال الكفَّار إذ آذَوْهم بمكة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فلمَّا هاجر نزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾. وهذا ناسخٌ لكلِّ ما في القرآن من إعراضٍ وتركِ صَفْحٍ[١]. وهي أوَّلُ آيةٍ نزلت في القتال[٢].

قال ابن عباس وابن جبير: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة[٣]؛ وروى النَّسائيُّ والترمذيُّ عن ابن عباس قال: لمَّا أُخرج النبيُّ ﷺ من مكةَ قال أبو بكر: أَخْرَجوا نبيَّهم، لَيَهْلِكُنّ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. فقال أبو بكر: لقد علمتُ أنه سيكون قتال. قال: هذا حديثٌ حسن. وقد روى غيرُ واحدٍ عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد ابن جُبير مرسلاً، ليس فيه: عن ابن عباس[٤].

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الإباحة من الشَّرْع، خلافاً للمعتزلة؛ لأنَّ قوله: «أُذِن»، معناه: أُبيح؛ وهو لفظٌ موضوعٌ في اللغة لإباحة كلِّ ممنوع[٥]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[٦] وغيرِ موضع.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٤ ، وذكر خبر الضحاك بنحوه الطبري ٦/ ٥٧٦ وقال: وهذا قول ذُكر عن الضحاك بن مزاحم من وجه غير ثبت.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٢٥ ، وقد أخرج النحاس هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٧١)، وسنن النسائي ٦/ ٢ ، وهو عند أحمد (١٨٦٥)، وزاد أحمد والنسائي عن ابن عباس قوله: وهي أول آية نزلت في القتال. وأخرج المرسل عن سعيد بن جبير الترمذي إثر الحديث (٣١٧١)، و(٣١٧٢).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٤ ، دون قوله: خلافاً للمعتزلة.

(٦) ينظر ١/ ٣٧٧ .

وقرئ: «أذن» بفتح الهمزة، أي: أَذِنَ الله، «يقاتِلون» بكسر التاء، أي: يقاتلون عدوَّهم. وقرئ: «يقاتَلون» بفتح التاء[1]، أي: يقاتلهم المشركون، وهم المؤمنون. ولهذا قال: «بأنهم ظُلِموا» أي: أُخرجوا من ديارهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ هذا أحدُ[2] ما ظُلِموا به، وإنَّما أُخرجوا لقولهم: ربُّنا اللهُ وحدَه. فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لكنْ لقولهم: ربُّنا الله؛ قاله سيبويه. وقال الفرَّاء: يجوز أن يكون [أن] في موضع خَفْضٍ؛ يقدِّرها مردودةً على الباء، وهو قولُ أبي إسحاقَ الزجَّاجِ، والمعنى عنده: الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلَّا بأن يقولوا: ربُّنا الله، أي: أُخرجوا بتوحيدهم، أخرجهم أهلُ الأوثان. و«الذِين أُخرِجوا» في موضع خفضٍ بدلاً من قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾[3].

الثانية: قال ابن العربيّ[4]: قال علماؤنا: كان رسول الله ﷺ قبل بَيْعة العَقَبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تَحِلَّ له الدماء، إنَّما أمر[5] بالدعاء إلى الله والصبرِ على

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم: «أُذن» بضم الهمزة، والباقون بفتحها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «يقاتَلون» بفتح التاء، والباقون بكسرها. السبعة ص٤٣٧ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٢) في (د): آخر.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠١ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٧ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤٣٠ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٨٤ - ١٢٨٦ .

(٥) في (د) و(م) وأحكام القرآن: يؤمر.

الأذى والصفحِ عن الجاهل مدَّةَ عشرة أعوام؛ لإقامة حجةِ الله تعالى عليهم، ووفاءً بوعده الذي امتنَّ به بفضله في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فاستمرَّ الناس في الطغيان، وما استدلُّوا بواضح البرهان، وكانت قريشٌ قد اضطهدت مَن اتَّبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنُوهم عن دينهم، ونفَوْهم عن بلادهم؛ فمنهم مَن فرَّ إلى أرض الحبشة، ومنهم مَن خرج إلى المدينة، ومنهم مَن صَبَر على الأذى. فلمَّا عَتَتْ قريش على الله تعالى، وردُّوا أمره وكذَّبوا نبيَّه عليه الصلاة والسلام، وعذَّبوا مَن آمن به ووحَّده وعبده، وصدَّق نبيَّه عليه الصلاة والسلام، واعتصم بدينه، أَذِن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾.

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ[١] الفعلَ الموجودَ من المُلْجَأ المُكْرَهِ منسوبٌ إلى الذي أَلْجأه وأَكْرَهه؛ لأنَّ الله تعالى نَسَبَ الإخراج إلى الكفار؛ لأنَّ الكلام في معنى تقديرِ الذَّنب وإلزامه. وهذه الآيةُ مِثْلُ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٤٠] والكلامُ فيهما واحدٌ، وقد تقدّم في «براءة»[٢] والحمد لله.

الرابعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا ما شَرَعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء؛ لاستَوْلَى أهل الشِّرك وعطَّلوا ما بَنَتْه[٣] أربابُ الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دَفَع بأنْ أَوْجَبَ القتال ليتفرَّغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدِّم في الأمم، وبه صَلَحت الشرائع واجتمعت المتعبَّدات، فكأنه قال: أُذِنَ في القتال، فلْيقاتِلِ المؤمنون. ثم قوَّى هذا الأمر في القتال بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، أي: لولا القتالُ والجهاد لتُغُلِّب على الحقِّ في كلِّ

---

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): نسبة، والمثبت من (ظ).

(٢) ١٠/٢١١ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٨٦ .

(٣) في (د) و(ظ): بينه.

أمة[١]. فَمَن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقضٌ لمذهبه؛ إذ لولا القتالُ لَمَا بقي الدِّين الذي يذبُّ عنه.

وأيضاً هذه المواضع التي اتُّخِذت قبل تحريفهم وتبديلهم، وقبل نَسْخِ تلك الملل بالإسلام، إنما ذُكرت لهذا المعنى، أي: لولا هذا الدفعُ لهُدمَ في زمن موسى الكنائسُ، وفي زمن عيسى الصوامعُ والبِيَعُ، وفي زمن محمدٍ عليه الصلاة والسلام المساجد[٢]. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ من هدمتُ البناء، أي: نقضته فانهدم.

قال ابن عطية[٣]: هذا أصوبُ ما قيل في تأويل الآية. وروي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال: ولولا دفعُ الله بأصحاب محمدٍ ﷺ الكفارَ عن التابعين فَمَن بعدهم. وهذا وإن كان فيه دفعُ قومٍ بقومٍ إلَّا أنَّ معنى القتال أَلْيَقُ، كما تقدّم[٤].

وقال مجاهد: لولا دَفْعُ اللهِ ظلمَ قومٍ بشهادةِ العدول. وقالت فرقة: ولولا دفعُ الله ظلمَ الظَّلَمة بعَدْلِ الولاة[٥].

وقال أبو الدَّرْداء: لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يدفع بمن في المساجد عمَّن ليس في المساجد، وبمن يغزو عمَّن لا يغزو، لأتاهم العذاب[٦].

وقالت فرقةٌ: ولولا دفعُ الله العذابَ بدعاء الفُضَلاء والأخيار. إلى غير ذلك من التفصيل المُفْسِد[٧] لمعنى الآية؛ وذلك أنَّ الآية ولابدَّ تقتضي مدفوعاً من الناس

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣١ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ ، وقد قاله ابن عطية إثر ما تقدم من قوله: أي لولا القتال والجهاد لتُغلب على الحق في كل أمة.

(٤) يعني بما تقدم من الآية، كما في المحرر الوجيز. وخبر علي ﷺ أخرجه الطبري ١٦/ ٥٧٨ - ٥٧٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ ، وقول مجاهد أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٥٧٩ .

(٦) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠١ .

(٧) في (م): المفسر، والمثبت من النسخ الخطية، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، والكلام منه.

ومدفوعاً عنه، فتأمَّلْه.

الخامسة: قال ابن خُوَيْزمَنْداد: تضمَّنت هذه الآيةُ المَنْعَ من هَدْم كنائس أهل الذِّمَّة وبِيَعِهم وبيوت نيرانهم، ولا يُتركون أن يُحْدِثوا ما لم يكن، ولا يزيدون في البنيان لا سَعةً ولا ارتفاعاً، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلُّوا فيها، ومتى أَحْدَثوا زيادةً وَجَبَ نَقْضُها. ويُنقض ما وُجد في بلاد الحرب من البِيَع والكنائس. وإنما لم يُنْقَضْ ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة؛ لأنها جرت مَجْرَى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة. ولا يجوز أن يُمَكَّنوا من الزيادة؛ لأنَّ في ذلك إظهارَ أسباب الكفر. وجائزٌ أن يُنقض المسجد ليعاد بنيانه؛ وقد فعل ذلك عثمانُ ﷺ بمسجد النبيِّ ﷺ[1].

السادسة: قرئ: «لهدمت» بتخفيف الدَّال وتشديدها[2]. ﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمعُ صوْمعة، وزنها فَوْعلة، وهي بناءٌ مرتفعٌ حديدُ الأعلى؛ يقال: صمَّع الثريدة، أي: رفَّع رَأْسَها وحَدَّدَه. ورجلٌ أَصْمعُ القلب، أي: حادُّ الفِطْنة. والأصمعُ من الرجال: الحديدُ القول. وقيل: هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم. وكانت قبل الإسلام مختصَّةً برهبان النصارى، وبعُبَّاد الصابئين؛ قاله قتادة. ثم استُعمل في مئذنة المسلمين[3].

والبِيَعُ جمع بِيعة، وهي كنيسةُ النصارى. وقال الطبريُّ: وقيل: هي كنائس اليهود. ثم أَدْخَل عن مجاهدٍ ما لا يقتضي ذلك[4].

---

(١) ينظر ما ورد في توسيع عثمان لمسجد النبي ﷺ تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٧ .

(٢) قرأ ابن كثير ونافع: «لَهُدِمَت» بتخفيف الدال، والباقون بتشديدها. السبعة ص٤٣٨ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩ ، والطبري ١٦/ ٥٨١ بلفظ: هي للصابئين.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وقول الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٨٣ ، وخبر مجاهد الذي أخرجه الطبري في هذا الموضع هو قوله: ﴿وَبِيَعٌ﴾ قال: وكنائس. ولم يذكر اليهود فيه.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قال الزجّاج والحسن: هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية: صَلُوتا[١]. وقال أبو عبيدة: الصلوات بيوتٌ تُبنى للنصارى في البراري يصلُّون فيها في أسفارهم، تسمَّى صلوتا، فعرِّبت فقيل: صلوات.

وفي «صلوات» تسعُ قراءات ذكرها ابن عطية[٢]: صَلْوات، صِلْوات، صُلْوات[٣]، صُلُوت على وزن فُعول[٤]، صُلُوب بالباء بواحدةٍ جمع صليب[٥]، صُلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول، صُلُوات بضمِّ الصاد واللام وألفٍ بعد الواو، صُلُوثا بضمِّ الصاد واللام وقَصْر الألف بعد الثاء المثلَّثة، صِلْوِيثَا بكسر الصاد والثَّاء المثلَّثة[٦].

وذكر النحاس[٧]: وروي عن عاصم الجَحْدَرِيِّ أنه قرأ: «وصُلوت» [بضم الصاد والتاء المُعْجَمة بنقطتين]. وروي عن الضحاك: «وصلُوث» بالثاء معجَمة بثلاث، ولا أدري أَفتَحَ الصَّادَ أم ضمَّها؟

قلت: فعلَى هذا تجيءُ هنا عَشْرُ قراءات.

وقال ابن عباس: الصلواتُ الكنائس. أبو العالية: الصلواتُ مساجدُ الصابئين. ابن زيد: هي صلوات المسلمين، تنقطع إذا دخل عليهم العدوُّ وتُهدَم المساجد[٨]؛ فعلى هذا استُعير الهدْمُ للصلوات من حيث تُعَطَّل، أو أراد: موضعَ صلوات، فحذف

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ١٦/ ٥٨٤ عن الضحاك، وخبر الحسن ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٩، وفيه: صلوثا، بالثاء.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٦ عن جعفر بن محمد.

(٤) في (د) و(م): صلولى على وزن فعولى، وهو تصحيف.

(٥) قال أبو حيان في البحر ٦/ ٣٧٥: وهو جمع شاذ، أعني جمع فَعيل على فُعُول.

(٦) في المحرر الوجيز: صِلْويثا بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٤١٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٨) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٦/ ٥٨٣ - ٥٨٥.

المضاف. وعلى قول ابن عباس والزجّاج وغيرِهم يكون الهدم حقيقةً. وقال الحسن: هَدْمُ الصلواتِ تَرْكُها[١]. قُطْرُب: هي الصوامع الصغار، ولم يُسمع لها واحد.

وذهب خَصِيف إلى أنَّ القَصْدَ بهذه الأسماء تقسيمُ مُتَعبَّدات الأمم. فالصوامعُ للرُّهبان، والبِيَع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجدُ للمسلمين. قال ابن عطية[٢]: والأَظْهَرُ أنها قُصِد بها المبالغةُ في ذكر المتعبَّدات. وهذه الأسماءُ تشترك الأمم في مسمَّياتها؛ إلَّا البِيعةَ، فإنها مختصَّةٌ بالنصارى في لغة العرب. ومعاني هذه الأسماءِ هي في الأمم التي لها كتابٌ على قديم الدهر. ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته، ولا يوجد ذكرُ الله إلَّا عند أهل الشرائع.

وقال النحاس[٣]: «يُذْكَرُ فيها اسمُ الله»: الذي يجبُ في كلامِ العرب على حقيقةِ النظر أن يكون «يُذْكَرُ فيها اسمُ الله» عائداً على المساجد لا على غيرها؛ لأنَّ الضمير يليها. ويجوز أن يعود على «صوامع» وما بعدها، ويكون المعنى: وقتَ شرائعهم وإقامَتِهم الحقَّ.

السابعة: فإن قيل: لِمَ قدِّمت مساجدُ أهل الذمّة ومصلَّياتُهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدمُ بناءً. وقيل: لقُرْبها من الهَدْم وقُرْبِ المساجد من الذِّكر، كما أخَّر السابقَ في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قوله[٤] تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: مَن ينصُرُ دينَه ونبيَّه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ أي: قادر. قال الخطابيُّ: القَوِيُّ يكون بمعنى القادر، ومَن قَوِيَ على شيء

---

(١) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/٤١٨.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/١٢٥، وما قبله منه، وقول خصيف أخرجه النحاس في معاني القرآن ٤/٤١٧-٤١٨.

(٣) في إعراب القرآن ٣/١٠١.

(٤) قبلها في النسخ عدا (ظ): الثامنة.

فقد قَدر عليه. ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: جليل شريف؛ قاله الزجاج[١]. وقيل: الممتنع الذي لا يُرام. وقد بيَّنَّاهما في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

قال الزجَّاج: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ نصبٍ رَدًّا على «مَن»، يعني في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقال غيره: «الذين» في موضع خفضٍ ردًّا على قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، ويكون «الذين إن مكَّناهم في الأرض» أربعةً من أصحاب رسول الله ﷺ لم يمكَّن في الأرض غيرهم[٣].

وقال ابن عباس: المرادُ المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان. وقال قتادة: هم أصحاب محمدٍ ﷺ. وقال عِكرمةُ: هم أهلُ الصلوات الخمس[٤]. وقال الحسن وأبو العالية: هم هذه الأمة، إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة. وقال ابن أبي نجِيح: يعني الولاة[٥].

وقال الضحَّاك: هو شَرْطٌ شَرَطَه الله عزَّ وجلَّ على مَن آتاه المُلْك[٦]، وهذا حسن.

قال سهل بن عبد الله: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر واجبٌ على السلطان

---

(١) كذا في النسخ، ولعله: الزجَّاجي، وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، والكلام في كتابه اشتقاق أسماء الله ص٢٣٧ . وقول الزجاج الذي في معاني القرآن له ١/ ٢٨٠ : معنى «عزيز»: لا يعجزونه، ولا يعجزه شيء.

(٢) ص ٢٠١ و ٢٦٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠١ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤٣١ .

(٤) ذكر قولي قتادة وعكرمة الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٤ .

(٥) ذكر قولي الحسن وابن أبي نجيح النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٩ .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥ عن قتادة بلفظ: هذا شرط الله على هذه الأمة، وعزاه لابن أبي حاتم ولم نقف عليه عن الضحاك.

وعلى العلماء الذين يأتونه. وليس على الناس أن يأمروا السلطان؛ لأنَّ ذلك لازمٌ له واجبٌ عليه، ولا يأمروا العلماء فإنَّ الحجة قد وجبت عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ، أي: كان قبلك أنبياءُ كُذِّبوا فصَبَروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين، فاقتدِ بهم واصْبِرْ. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: كذَّبه فرعونُ وقومُه. فأمَّا بنو إسرائيل فما كذَّبوه، فلهذا لم يَعْطِفه على ما قَبْلَه فيكون: وقوم موسى. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أخَّرتُ عنهم العقوبة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فعاقبتهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهامٌ بمعنى التغيير، أي: فانظُرْ كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النِّعم بالعذاب والهلاك، فكذلك أفعلُ بالمكذبين من قريش. قال الجوهريّ[١]: النكيرُ والإنكار: تغييرُ المنكر، والمُنْكَر واحدُ المناكير.

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: أهلكنا أهلَها. وقد مضى في «آل عمران»[٢] الكلامُ في كأين. ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: بالكفر ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ تقدَّم في «الكهف»[٣].

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال الزجَّاج: «وبئرٍ معطلةٍ» معطوفٌ على «مِن قريةٍ»، أي: ومِن أهلِ قريةٍ ومِن أهلِ بئر. والفرَّاء[٤] يذهب إلى أنَّ «وبئرٍ» معطوفٌ

---

(١) في الصحاح (نكر).

(٢) ٥/ ٣٤٩.

(٣) ١٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٢ وما قبله منه، ولم نقف على قول الزجاج في معانيه.

على «عروشِها».

وقال الأصمعيُّ: سألتُ نافع بنَ أبي نعيم: أيُهمز[1] البئر والذئب؟ فقال: إن كانت العربُ تهمزُهما فاهمِزْهما. وأكثر الرواة[2] عن نافعٍ بهَمْزِهما إلّا وَرْشاً، فإنَّ روايته عنه بغيرِ همزٍ فيهما، والأصلُ الهمز.

ومعنى «معطَّلةٍ»: متروكة؛ قاله الضحاك[3]. وقيل: خالية من أهلها؛ لهلاكهم. وقيل: غائرة الماء. وقيل: معطَّلة من دِلائها وأَرْشِيَتها[4]. والمعنى متقارب.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال قتادة والضحَّاك ومقاتل: رفيع طويل[5]. قال عديّ بن زيد:

شاده مَرْمَراً وجَلَّله كِلْـ ـساً فللطير في ذُراه وُكورُ[6]

أي: رَفَعه. وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمةُ ومجاهد: مجصَّص[7]، من الشِّيد، وهو الجصّ. قال الرَّاجِز[8]:

لا تَحْسَبَنّي وإن كنتُ امرأً غَمِراً كحيَّة الماء بين الطِّينِ والشِّيدِ[9]

---

(١) في (ظ): أتهمز.

(٢) في (ظ): الرواية، وفي إعراب القرآن: الروايات.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٢٨ وقراءة ورش عن نافع في السبعة ص٣٤٦ و ٤٣٨، وينظر ما سلف ١١/ ٢٧٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٣]. وخبر الضحاك أخرجه الطبري ١٦/ ٥٩٢: بلفظ لا أهل لها.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١، والأرشية جمع رِشاء، وهو الحبل. اللسان (رشا).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٩١، وأخرجه عن الضحاك الطبري ١٦/ ٥٩٤.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٧١، والكامل ١/ ١٣٢، والشعر والشعراء ١/ ٢٢٦، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٩٥، والنكت والعيون ٤/ ٣١. وقوله: وُكور، هو جمع وَكْر، وهو عُشُّ الطائر حيث كان في جبل أو شجر.

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٥٩٢ - ٥٩٣، وأخرجه عن عكرمة وعطاء أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٩.

(٨) كذا قال المصنف والطبري ١٦/ ٥٩٤، والصواب أن البيت من البسيط، وقائله الشماخ بن ضرار.

(٩) ديوان الشماخ ص١٢١، والكامل ١/ ٣١، واللسان غمر، وذكر الطبري ١٦/ ٥٩٤ عجزه، ووقع فيه =

وقال امرؤ القيس:

ولا أُطُـمـاً إلَّا مَـشـيـداً بـجَـنْـدَلِ[١]

وقال ابن عباس: «مَشِيدٍ» أي: حَصِين. وقاله الكلبيّ[٢]. وهو مَفْعِلٌ بمعنى مفعول، كمبيع بمعنى مبيوع. وقال الجوهريّ[٣]: والمشِيد: المعمول بالشِّيد. والشِّيد ـ بالكسر ـ: كلُّ شيء طلَيتَ به الحائطَ من جِصٍّ أو بَلاط[٤]، وبالفتح المصدر. تقول: شاده يَشِيدُه شَيْداً: جَصَّصه. والمُشيَّد؛ بالتشديد: المطوَّل. وقال الكسائيُّ: «المَشِيد» للواحد، من قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾. والمُشَيَّد للجمع[٥]، من قوله تعالى: ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وفي الكلام مضمَرٌ محذوفٌ تقديره: وقصرٍ مَشِيدٍ مثلها معطَّل.

ويقال: إنَّ هذه البئرَ والقصرَ بحضرموت معروفان، فالقصرُ مُشْرفٌ على قُلَّةِ جبل[٦] لا يُرتَقى إليه بحال، والبئر في سَفْحه لا تُقِرُّ الريح شيئاً سقط فيه إلَّا أخرجته. وأصحابُ القصورِ ملوكُ الحضر، وأصحابُ الآبار ملوكُ البوادي، أي: فأهلكنا

= وفي الديوان: الطَّيِّ، بدل: الطين، وفي اللسان بدلاً منها: الصخر، وقال صاحبه: رجل غُمر: لا تجربة له بحرب ولا أمر، ولم تحنِّكه التجارب.

(١) وصدره: وتيماء لم يترك بها جذع نخلة، وهو في ديوانه ص٢٥، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٩٤. قال شارح الديوان: تيماء: اسم موضع، والأُطُم: البيت المسطَّح، يقول: لم يدع هذا السَّيل بيتاً إلا هدَّمه، إلا هذا المشيد بجندل.

(٢) ذكره عن الكلبي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) في الصحاح (شيد).

(٤) كذا في النسخ، ومختار الصحاح (شيد)، وتهذيب اللغة ١١/ ٣٩٤، واللسان (شيد) قال الفيروزآبادي في القاموس (شيد): بلاط بالباء غلط، والصواب: ملاط بالميم؛ لأن البلاط حجارة لا يُطلى بها، وإنما يُطلى بالملاط، وهو الطين. اهـ. وقد وقع في مطبوع الصحاح: ملاط بالميم. وينظر مجاز القرآن ٢/ ٥٣.

(٥) قال الفيروزآبادي في القاموس (شيد): المشيَّد للجمع غلط، وإنما المشيَّدة جمع المشيَّد. وينظر اللسان (شيد).

(٦) أي: قمَّته وأعلاه. ووقع في (ظ): تلة جبل.

هؤلاء وهؤلاء[١].

وذكر الضحَّاك وغيره ـ فيما ذكر الثعلبيُّ وأبو بكر محمد بن الحسن المُقْرِئ[٢] وغيرهما ـ أنَّ البئر الرَّسُّ، وكانت بعدن باليمن بحضرَمَوْتَ، في بلدٍ يقال له: حَضُور، نزل بها أربعةُ آلافٍ ممن آمَنَ بصالح، ونَجَوْا من العذاب ومعهم صالح، فمات صالح فسُمِّيَ المكان: حضرموت؛ لأنَّ صالحاً لمَّا حَضَره مات. فبنَوْا حَضُورَ وقعدوا على هذه البئر، وأمَّروا عليهم رجلاً يقال له: العلس بن جلاس بن سويد، فيما ذكر الغزنويُّ. الثعلبيُّ: جلهس بن جلاس. وكان حسنَ السيرة فيهم عاملاً عليهم، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا، وكانت البئر تسقي المدينة كلَّها وباديتَها، وجميعَ ما فيها من الدوابِّ والغنم والبقر وغير ذلك؛ لأنها كانت لها بكراتٌ كثيرةٌ منصوبةٌ عليها، ورجالٌ كثيرون موكَّلون بها، وأبازنُ ـ بالنون ـ من رخامٍ ـ وهي شِبْهُ الحياضِ ـ كثيرةٌ تُملأ للناس، وأُخَرُ للدَّوابِّ، وأُخَر للبقر، وأُخرَ للغنم. والقُوَّام يسقون عليها بالليل والنهار يتداولون، ولم يكن لهم ماءٌ غيرها. وطال عمر الملك الذي أمَّروه، فلمَّا جاءه الموت؛ طُليَ بدهنٍ لتبقى صورتُه لا تتغيَّر، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت، وكان ممن يكرمُ عليهم، فلمَّا مات شقَّ ذلك عليهم ورأوْا أنَّ أمرهم قد فَسَد، وضجُّوا جميعاً بالبكاء، واغتنمها الشيطان منهم، فدخل في جثة الملك بعد موته بأيامٍ كثيرة، فكلَّمهم وقال: إنِّي لم أمُتْ، ولكنْ تغيَّبتُ عنكم حتى أرى صنيعَكم. ففرِحوا أشدَّ الفرح، وأمر خاصَّته أن يضربوا له حجاباً بينه وبينهم ويكلِّمهم من ورائه؛ لئلَّا يُعرف الموت في صورته. فنصبوا صنماً من وراء الحجاب لا يأكل ولا يشرب. وأخبرهم أنه لا يموت أبداً، وأنه إلهٌ لهم، وذلك كلُّه يتكلَّم به الشيطان على لسانه، فصدَّق كثيرٌ منهم

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١ - ٣٢.

(٢) وهو النقاش، والخبر في تفسيره كما ذكر السهيلي في التعريف والإعلام ص١١٨ ونقل هذا الخبر عنه، وذكره مختصراً عن الضحاك البغوي ٣/ ٢٩١.

وارتاب بعضُهم، وكان المؤمن المكذِّب منهم أقلَّ من المصدِّق له، وكلَّما تكلَّم ناصحٌ لهم زُجِر وقُهِر. فأَصْفَقوا[١] على عبادته، فبعث الله إليهم نبيًّا كان الوحيُ ينزل عليه في النوم دون اليقظة ـ كان اسمه حنظلة بنَ صفوان ـ فأَعْلَمهم أنَّ الصورة صنمٌ لا روحَ له، وأنَّ الشيطان قد أضلَّهم، وأنَّ الله لا يتمثَّل بالخَلْق، وأنَّ الملِك لا يجوز أن يكون شريكاً لله، ووعَظَهم ونصحهم وحذَّرهم سطوةَ ربِّهم ونقمتَه، فآذَوْه وعادَوْه، وهو يتعهَّدهم بالموعظة ولا يُغِبُّهم بالنصيحة، حتى قتلوه[٢] في السوق وطرحوه في بئر، فعند ذلك أصابتهم النقمةُ، فباتوا شِباعاً رِوَاءً من الماء؛ وأصبحوا والبئرُ قد غار ماؤها وتعطَّل رِشاؤها، فصاحوا بأجمعهم وضجَّ النساء والولدان، وضجَّت البهائم عطشاً، حتى عمَّهم الموتُ وشَمِلهم الهلاك، وخَلَفتهم في أرضهم السباعُ، وفي منازلهم الثعالبُ والضِّباع، وتبدَّلت جنَّاتُهم وأموالُهم بالسِّدْر وشَوْك العِضَاهِ والقَتاد[٣]، فلا يُسمع فيها إلَّا عزيفُ الجنِّ وزئيرُ الأسد، نعوذ بالله من سَطَواته، ومن الإصرار على ما يوجب نَقِماته.

قال السُّهيليُّ[٤]: وأما القصرُ المَشِيدُ؛ فقصرٌ بناه شدَّاد بن عاد بن إرم، لم يُبْنَ في الأرض مثلُه؛ فيما ذكروا وزعموا، وحالُه أيضاً كحال هذه البئرِ المذكورة في إيحاشه بعد الأُنْس، وإقفارِه بعد العمران، وإنَّ أحداً لا يستطيع أن يدنوَ منه على أميال؛ لِمَا يُسمع فيه من عزيف الجنِّ والأصواتِ المنكَرة، بعد النعيم والعيش الرَّغْد وبَهاءِ المُلْك، وانتظامِ الأهل كالسِّلك، فبادُوا وما عادُوا؛ فذكَرهم الله تعالى في هذه الآية

(١) أي: أطبقوا. اللسان (صفق)، وفي التعريف والإعلام: فأجمعوا.

(٢) قوله: لا يُغِبُّهم بالنصيحة، أي: يقدم لهم: النصيحة كل يوم. قال صاحب القاموس (غبب): فلان لا يُغِبُّناعطاؤه، أي: يأتينا كلَّ يوم. ووقع في (ظ): ويحذرهم سطوة ربه ونقمته فقتلوه، بدل قوله: ولا يُغبهم بالنصيحة حتى قتلوه.

(٣) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر. والعِضَاه: كل شجر له شوك، وقيل: العضاه اسم يقع على ما عظُم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه. والسدر من العضاه. اللسان (قتد) و(عضه) و(سدر).

(٤) في التعريف والإعلام ص١١٨ .

موعظةً وعبرةً وتَذْكِرةً، وذِكْراً وتحذيراً من مَغَبَّة المعصية، وسوءِ عاقبةِ المخالفة، نعوذ بالله من ذلك ونستجيرُ به من سوء المآل.

وقيل: إنَّ الذي أهلكهم بختنصَّر، على ما تقدَّم في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الآية: ١١]، فتعطَّلت بئرُهم وخرِبت قصورهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني كفارَ مكة، فيشاهدوا هذه القرى فيتَّعظوا، ويحذَروا عقابَ الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أضاف العقلَ إلى القلب؛ لأنه مَحَلُّه؛ كما أنَّ السمع محلُّه الأذن. وقد قيل: إنَّ العقلَ محلُّه الدماغ، وروي عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة[1].

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفرَّاء: الهاء عماد، ويجوز أن يقال: فإنه، وهي قراءةُ عبد الله بن مسعود[2]. والمعنى واحدٌ؛ التذكير على الخبر، والتأنيثُ على الأبصار أو القصة[3]، أي: فإنَّ الأبصار لا تَعْمَى، أو: فإنَّ القصة.

﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ أي: أبصارُ العيون ثابتةٌ لهم. ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: عن دَرَك الحقِّ والاعتبار. وقال قتادة: البصرُ الناظِرُ جُعِلَ بُلْغة ومنفعةً، والبصرُ النافعُ في القلب[4].

وقال مجاهد: لكلِّ عينٍ أربعُ أَعْيُن، يعني لكلِّ إنسانٍ أربعُ أعين: عينانِ في رأسه

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١١/ ٢٩ : وفيه خلاف مشهور؛ مذهب أصحابنا وجماهيرِ المتكلمين أنه في القلب، وقال أبو حنيفة: هو في الدماغ. اهـ. وذكره عن أبي حنيفة أيضاً أبو العباس في المفهم ٤/ ٤٩٥ وقال: وما أظنها عنه صحيحة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٨ ، وذكرها عن ابن مسعود أيضاً الطبري ١٦/ ٥٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٢ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٢٢ . وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥ .

لدُنْياه، وعينانِ في قلبه لآخِرته، فإنْ عَمِيتْ عينا رأسِه وأبصرَتْ عينا قلبِه لم يضرَّه عماهُ شيئاً، وإن أَبْصَرتْ عينا رأسِه وعَمِيَتْ عينا قلبِه لم يَنْفَعه نظرهُ شيئاً[١].

وقال قتادة وابن جُبير: نزلت هذه الآية في ابن أُمِّ مَكْتُومِ الأعمى[٢]. قال ابن عباس ومقاتل: لمَّا نزل: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابن أمِّ مكتوم: يا رسول الله، فأنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. أي: مَن كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام، فهو في الآخرة في النار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وهو قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠][٤]. وقيل: نزلت في أبي جهل ابن هشام، وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢][٥].

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: في إنزال العذاب. قال الزجَّاج: استعجَلوا العذابَ فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء، وقد نزل بهم في الدنيا يومَ بَدْر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني من الأيام التي خَلَق الله فيها السماوات والأرض[٦]. عكرمة: يعني

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٢ عن قتادة، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٢٩١، وفيه أن قول النضر هو: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء.

(٥) الصواب أن قول أبي جهل: إن كان هذا هو الحق...، نزل فيه الآيتان (٣٣ و ٣٤) من سورة الأنفال، كما في صحيح البخاري (٤٦٤٨)، وصحيح مسلم (٢٧٩٦) عن أنس ﷺ، وسلف ٩/ ٤٩٥.

(٦) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٩٦ - ٥٩٧.

من أيام الآخرة[١]؛ أَعْلَمهم الله إذ استعجلوه[٢] بالعذاب في أيامٍ قصيرة أنه يأتيهم به في أيامٍ طويلة.

قال الفرَّاء: هذا وعيدٌ لهم بامتداد عذابِهم في الآخرة، أي: يومٌ من أيام عذابهم في الآخرة ألفُ سنة[٣].

وقيل: المعنى: وإنَّ يوماً في الخوف والشدَّة في الآخرة كألفِ سنةٍ من سِنِي الدنيا فيها خوفٌ وشدة، وكذلك يومُ النعيم قياساً.

وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿مِما يَعُدُّون﴾ بالياء المثنَّاة تحت، واختاره أبو عبيد لقوله: «ويستعجِلونك». والباقون بالتاء على الخطاب[٤]، واختاره أبو حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أي: أَمْهلتُها مع عُتُوِّها ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أي: بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني أهلَ مكة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: منذرٌ مُخَوِّف. وقد تقدَّم في «البقرة» الإنذارُ في أوّلها[٥]. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: أُبيِّن لكم ما

(١) أخرجه الطبري ١٦/٥٩٨ .

(٢) في (ظ): أعلمهم الله أنهم إذا استعجلوا.

(٣) في معاني القرآن للفراء ٢/٢٢٨ : يوم من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة مما تعدون في الدنيا.

(٤) السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص١٥٨ .

(٥) ١/٢٨١ .

تحتاجون إليه من أمرِ دينكم .﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطالِ آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مُغالِبين مُشاقِّين؛ قاله ابن عباس[١]. الفَرَّاء[٢]: مُعانِدين. وقال عبد الله بن الزبير: إنما هي: «معجِّزين»، أي: مثبِّطين عن الإسلام[٣]. وقال الأخفش: «معاجزين»[٤]: مسابِقين. الزجَّاج[٥]: أي: ظانِّين أنَّهم يُعْجِزوننا؛ لأنهم ظنُّوا أنْ لا بَعْثَ، وظنُّوا أنَّ الله لا يقدر عليهم. وقاله قتادة[٦]. وكذلك معنى قراءةِ ابنِ كثير وأبي عمرو: ﴿مُعَجِّزِين﴾ بلا ألفٍ مشدَّداً[٧]. ويجوز أن يكون معناه: أنهم يعجِّزون المؤمنين في الإيمان بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام وبالآيات؛ قاله السُّدِّيّ[٨]. وقيل: أي: يَنْسُبون مَن اتَّبع محمداً ﷺ إلى العجز، كقولهم: جهَّلْتُه وفسَّقْتُه[٩]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٠ - ٦٠١ دون قوله: مغالبين.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٩ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٩ . وسقط من (م) قوله: إنما هي معجزين أي.

(٤) في (م): معاندين، وليست في (خ)، والمثبت من باقي النسخ، وذكر هذا القول مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٣ دون نسبة.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٣ .

(٦) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٤٠ و ١٢٦ ، والطبري ١٦/ ٦٠١ .

(٧) السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص١٥٨ .

(٨) ذكره عن السدي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٣ بلفظ: مثبطين لمن أراد اتِّباع النبيِّ ﷺ.

(٩) الحجة للفارسي ٥/ ٢٨٤ .

الأولى: قولُه تعالى: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ وتَلا. و﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: قراءتِه وتلاوته. وقد تقدَّم في البقرة[١].

قال ابن عطيةَ: وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نَبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ» ذكره مَسْلمةُ بن القاسم بن عبد الله[٢]، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس[٣]. قال مسلمةُ: فوجَدْنا المُحَدَّثين معتصِمين بالنبوَّة ـ على قراءةِ ابن عباس ـ لأنَّهم تكلَّموا بأمورٍ عاليةٍ من أنباء الغيب خَطَرات، ونطقوا بالحكمة الباطنة، فأصابوا فيما تكلَّموا وعُصموا فيما نَطَقوا، كعمر بن الخطاب في قصة سارية[٤]، وما تكلَّم به من البراهين العالية.

قلت: وقد ذكر هذا الخبرَ أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردِّ» له: وقد حدَّثني أبي رحمه الله، حدّثنا عليّ بنُ حرب، حدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن عمرو، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: «وما أرسلنا مِن قَبْلك مِن رسولٍ ولا نَبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ»، قال أبو بكر: فهذا حديثٌ لا يؤخذ به على أنَّ ذلك قرآن. والمحدَّث هو الذي يوحَى إليه في نومه؛ لأنَّ رُؤْيا الأنبياءِ وَحْيٌ.

الثانية: قال العلماء: إنَّ هذه الآيةَ مشكلةٌ من جهتين: إحداهما: أنَّ قوماً يَرَوْن أنَّ الأنبياء صلواتُ الله عليهم فيهم مُرْسَلون وفيهم غيرُ مُرْسَلين. وغيرهم يذهب إلى

---

(١) ٢/٢١٧ - ٢١٨.

(٢) أبو القاسم الأندلسي القرطبي، المحدِّث الرحَّال، قال ابن الفَرَضي: سمعت مَن ينسبه إلى الكذب، وقال لي محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج: لم يكن كذاباً، بل كان ضعيف العقل، قال: وحُفظ عليه سوء كلام في التشبيه. توفي سنة (٣٥٣هـ). تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٢/ ١٣٠ ، والسير ١٦/ ١١٠ .

(٣) أخرجه بهذا الإسناد إسحاق بن راهويه (١٠٥٩)، وعلقه البخاري عنه بإثر الحديث (٣٦٨٩).

(٤) أخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة (٥٢٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢٥٣٧)، والبيهقي في الاعتقاد ص٢٠٣ ، وابن عساكر في تاريخه ٢٠/ ٢٤ - ٢٦ . وحسن إسناده ابن كثير وابن حجر رحمهما الله، وينظر تفصيل الكلام فيه في البداية والنهاية ١٠/ ١٧٣ - ١٧٦ ، والإصابة ٤/ ٩٧ - ٩٨ .

أنه لا يجوز أن يقال نبيٌّ حتى يكون مرسَلاً. والدليلُ على صحة هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فأوجب للنبيِّ الرسالةَ. وأنَّ معنى «نَبيّ»: أنبأ عن الله عزَّ وجلَّ، ومعنى أنبأ[1] عن الله عزَّ وجلَّ الإرسالُ بعينه.

وقال الفرَّاء: الرسولُ الذي أُرسل إلى الخلق بإرسال جبريلَ عليه السلام إليه عِيَاناً، والنبيُّ الذي تكون نبوَّته إلهاماً أو مناماً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً[2]. قال المهدوِيُّ: وهذا هو الصحيحُ، أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

وكذا ذكر القاضي عِياض في كتاب «الشِّفا»[3] قال: والصحيحُ والذي عليه الجمَّاءُ الغفيرُ[4] أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، واحتجَّ بحديث أبي ذرٍّ، وأنَّ الرسلَ من الأنبياء ثلاث مئة وثلاثةَ عَشَر، أوَّلُهم آدمُ، وآخِرُهم محمدٌ ﷺ[5].

والجهةُ الأخرى التي فيها الإشكالُ وهي:

الثالثة: الأحاديثُ المروِيَّة في نزول هذه الآية، وليس منها شيءٌ يصحُّ. وكان مما تموَّه[6] به الكفار على عوامِّهم قولُهم: حقُّ الأنبياء ألَّا يَعجِزوا عن شيءٍ، فلِم لا يأتينا محمدٌ بالعذاب وقد بالَغنا في عداوته؟ وكانوا يقولون أيضاً: ينبغي ألَّا يجريَ عليهم سَهْوٌ وغلط، فبيَّن الربُّ سبحانه أنهم بَشَر، والآتي بالعذاب هو الله تعالى على

---

(١) في (ظ): وأن معنى النبي المنبأ عن الله عزَّ وجلَّ ومعنى الإنباء...، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٢ - ١٠٣ ، والكلام منه.

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٩ ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام دقيق في هذه المسألة ملخصه: أن النبي هو الذي ينبئه الله، وهو يُنبئ بما أنبأ اللهُ به، فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسَل هو إلى أحدٍ يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول. ينظر كتاب النبوات ص٢٥٥ .

(٣) ١/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): الجم الغفير. ويقال: جاؤوا جمًّا غفيراً، وجمَّ الغفير، وجمَّاءَ الغفير، والجمَّاءَ الغفير، وجمَّاءَ غفيراً، أي: جميعاً. القاموس (غفر).

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨) مطولاً، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٦) في (ظ): موه.

ما يريد، ويجوز على البشر السَّهوُ والنِّسْيانُ والغلطُ؛ إلى أن يُحكم الله آياته. ويَنْسَخ حِيَل الشيطان.

روى اللَّيث عن يونس، عن الزُّهريِّ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فلمَّا بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ﴾ سها فقال: إنَّ شفاعتهم تُرْتَجَى. فلقيَه المشركون والذين في قلوبهم مرضٌ، فسلَّموا عليه وفرحوا، فقال: «إنَّ ذلك من الشيطان». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية[١]. قال النحاس[٢]: وهذا حديثٌ منقطِعٌ، وفيه هذا الأمرُ العظيم، وكذا حديثُ قتادةَ وزاد فيه: «وإنهنَّ لهنَّ الغَرَانِيق العُلا»[٣]. وأَقْطَعُ من هذا ما ذكره الواقديُّ عن كثير بن زيد، عن المطَّلب بن عبد الله قال: سجد المشركون كلُّهم إلَّا الوليد بنَ المغيرة؛ فإنه أخذ تراباً من الأرض، فرفعه إلى جبهته وسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً، ويقال: إنه أبو أُحَيْحةَ سعيد بن العاص، حتى نزل جبريل عليه السلام، فقرأ عليه النبيُّ ﷺ [هذا]، فقال: «ما جئتك به»! وأنزل الله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. قال النحاس[٤]: وهذا حديثٌ منكَر منقطِعٌ، ولا سيما من حديث الواقديّ. وفي البخاريِّ أنَّ الذي أخذ قبضةً من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بنُ خلف[٥]. وسيأتي تمامُ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦ ، والناسخ والمنسوخ له ١/ ٤٤٨ و ٢/ ٥٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٨ - ٦٠٩ من طريق يونس بهذا الإسناد.

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٢٨ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه الطبري مطولاً ١٦/ ٦١٢ .

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٢٩ ، وخبر الواقدي أخرجه مطولاً ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٠٥ ، والواقدي متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٥) صحيح البخاري (٤٨٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولفظه: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾ قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَن خَلْفَه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وأخرجه بنحوه أحمد (٣٦٨٢)، ومسلم (٥٧٦) بنحوه، وليس فيه اسم الذي لم يسجد.

كلام النحاس على الحديث ـ إن شاء الله ـ آخِرَ الباب.

قال ابن عطية[١]: وهذا الحديثُ ـ الذي فيه: هي الغرانقة[٢] العلا ـ وقع في كتب التفسير ونحوِها، ولم يُدْخِله البخاريُّ ولا مسلمٌ، ولا ذَكَره في علمِي مصنَّفٌ مشهورٌ، بل يقتضي مذهبُ أهلِ الحديث أنَّ الشيطان ألقَى، ولا يعيِّنون هذا السببَ ولا غيره. ولا خلافَ أنَّ إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظٍ مسموعة، بها وقعت الفتنة .

ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء، فالذي في التفاسير ـ وهو مشهورُ القول ـ أنَّ النبيَّ ﷺ تكلَّم بتلك الألفاظ على لسانه. وحدَّثني أبي ﷺ أنه لَقِيَ بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلِّمين مَن قال: هذا لا يجوز على النبيِّ ﷺ وهو المعصومُ في التبليغ، وإنَّما الأمرُ أنَّ الشيطان نَطَقَ بلفظٍ أسمعه الكفارَ عند قول النبيِّ ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، وقرَّب صوته من صوت النبيِّ ﷺ حتى الْتَبَس الأمرُ على المشركين وقالوا: محمدٌ قرأها. وقد روي نحوُ هذا التأويل عن الإمام أبي المَعَالي.

وقيل: الذي ألقى شيطانُ الإنس؛ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]. قتادة: هو ما تلاه ناعساً[٣].

وقال القاضي عِياض في كتاب «الشِّفا»[٤]؛ بعد أن ذكر الدليل على صِدْق النبيِّ ﷺ، وأنَّ الأمة أجمعت فيما طريقُه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيءٍ بخلافِ ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً[٥]: اعلم ـ أَكْرمكَ الله ـ أنَّ لنا في الكلام على مُشْكِلِ هذا الحديث مأخَذين: أحدهما في توهين أصله، والثاني على تسليمه:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩ .

(٢) في (د) و(م): الغرانيق، وهما روايتان كما ذكر ابن عطية بعد ذلك.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥ ، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٨ . قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٩٨ : وهذا لا يصح؛ إذ لا يجوز على النبي ﷺ مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة.

(٤) ٢/ ٢٨٩ .

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): أو غلطاً، وفي (د) و(م): وغلطاً، والمثبت من الشفا ٢/ ٢٨٥ .

أمَّا المأخذُ الأوّل؛ فيكفيك أنَّ هذا حديثٌ لم يخرِّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسندٍ سليمٍ متَّصِلٍ ثقةٌ؛ وإنَّما أُولِع به وبمثله المفسِّرون والمؤرخون المولَعون بكلِّ غريب، المتلقِّفون من الصحف كلَّ صحيحٍ وسقيم. قال أبو بكر البزَّار: وهذا الحديثُ لا نعلمه يُروى عن النبيِّ ﷺ بإسنادٍ متَّصِلٍ يجوزُ ذكره، إلَّا ما رواه شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب ـ الشكُّ في الحديث ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان بمكة... وذكر القصة. ولم يُسنده عن شعبةَ إلَّا أمية بنُ خالد، وغيرُه يُرسلُه عن سعيد بن جبير. وإنَّما يُعرفُ عن الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس[1].

فقد بيَّن لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يُعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبَّه عليه مع وقوع الشكِّ فيه الذي[2] ذكرناه، الذي لا يُوثَق به ولا حقيقةَ معه. وأمَّا حديثُ الكلبيِّ فمما لا تجوز الروايةُ عنه ولا ذِكْره؛ لقوّة ضَعْفِه وكذبه، كما أشار إليه البزَّار رحمه الله. والذي منه في الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «والنجم» بمكةَ، فسجد، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس[3]؛ هذا توهينُه من طريق النقل.

---

(١) كشف الأستار (٢٢٦٣)، دون قوله: ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، فهو من الشفا. والحديث أخرجه أيضاً بالإسناد المذكور الطبراني في الكبير (١٢٤٥٠).

(٢) في الشفا: كما.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سلف نحوه من حديث ابن مسعود ﷺ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح. اهـ. وقال الرازي ٢٣/ ٥٠: أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول... وروي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضعٌ من الزنادقة، وصنف فيه كتاباً. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. اهـ

وأما رد الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٣٩ على القاضي عياض وابن العربي في توهينهما لهذه القصة، وقوله: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً. فقد قال الآلوسي رحمه الله في تفسيره ١٧/ ١٨٢: لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد؛ فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلَّاء عارفون بالغث والسمين من الأخبار، وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحقِّ فيه فلم يرووه إلا مردوداً... ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين، وفات ذلك القائلَ بالقبول.

وأما المأخذُ الثاني فهو مَبْنيٌّ على تسليم الحديث لو صحّ. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كلِّ حالٍ فقد أجاب أئمةُ المسلمين عنه بأجوبة؛ منها الغَثّ والسَّمين. والذي يظهر ويترجَّح في تأويله ـ على تسليمه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان كما أمره ربُّه يرتِّلُ القرآن ترتيلاً، ويفصِّل الآيَ تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصُّد الشيطان لتلك السَّكتات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، مُحاكياً نغمةَ النبيِّ ﷺ بحيث يسمعه مَن دنا إليه من الكفار، فظنُّوها من قول النبيِّ ﷺ وأشاعوها. ولم يَقْدَحْ ذلك عند المسلمين؛ لحِفْظِ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتَحقُّقِهم من حالِ النبيِّ ﷺ في ذمِّ الأوثان وعَيْبِها ما عُرف منه، فيكون ما رُويَ من حزن النبيِّ ﷺ لهذه الإشاعةِ والشُبهة وسببِ هذه الفتنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية[1].

قلت: وهذا التأويلُ أَحْسَنُ ما قيل في هذا، وقد قال سليمان بن حرب: إنَّ «في» بمعنى عند، أي: ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوةِ النبيِّ ﷺ، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ [الشعراء: ١٨] أي: عندنا. وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق، وإليه أشار القاضي أبو بكر بنُ العربي، وقال قبله: إنَّ هذه الآيةَ نصٌّ في غرضنا، دليلٌ على صحة مذهبنا، أصلٌ في براءة النبيِّ ﷺ مما يُنْسَب إليه أنه قاله، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته. فأخبر الله تعالى أنَّ مِن سنَّته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه مِن قِبَلِ نَفْسِه كما يَفْعَل سائرَ المعاصي، تقول: ألقيتُ في الدار كذا، وألقيتُ في الكيس كذا. فهذا نصٌّ في الشَّيطان أنه زاد في الذي قاله النبيُّ ﷺ، لا أنَّ النبيَّ ﷺ تكلَّمَ به. ثم ذَكَر معنى كلامِ عياض إلى أن قال: وما هُدِي لهذا إلَّا الطبريُّ لجلالة قَدْرِه وصفاءِ فِكْرِه، وسَعَةِ باعِه

---

(١) الشفا ٢/٢٩٨ - ٣٠١.

في العلم، وشِدَّة ساعده في النَّظَر، وكأنه أشار إلى هذا الغرض، وصوَّب على هذا المرمى، وقَرْطَسَ بعد ما ذَكَر في ذلك رواياتٍ كثيرةً كلُّها باطلٌ لا أصلَ لها، ولو شاء ربُّك لَمَا رواها أحدٌ ولا سَطرها، ولكنه فعَّالٌ لِمَا يريد[١].

وأمَّا غيرُه من التأويلات مِمَّا[٢] حكاه قومٌ: أنَّ الشيطان أكرهه حتى قال كذا، فهو مُحال؛ إذ ليس للشيطان قدرةٌ على سَلْبِ الإنسان الاختيارَ، قال الله تعالى مُخبِراً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ولو كان للشَّيطان هذه القدرةُ لَمَا بقي لأحدٍ من بني آدم قوّةٌ في طاعة[٣]، ومَن توهَّم أنَّ للشيطان هذه القوّةَ[٤] فهو قولُ الثَّنَوِيَّة والمجوس في أنَّ الخير من الله والشرَّ من الشيطان.

ومَن قال: جرى ذلك على لسانه سهواً؛ قال: لا يَبْعُدُ أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حِفْظِه، فجرى عند قراءة السورةِ ما كان في حِفْظِه سهواً، وعلى هذا يجوز السَّهْوُ عليهم ولا يُقَرُّون عليه، وأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ تمهيداً لعُذْرِه وتسليةً له؛ لئلَّا يقال: إنه رجع عن بعض قراءته. وبَيَّن أنَّ مثلَ هذا جرى على الأنبياء سهواً، والسَّهوُ إنَّما ينتفي عن الله تعالى[٥].

وقد قال ابن عباس: إنَّ شيطاناً يقال له: الأبيض، كان قد أتى رسولَ الله ﷺ في صورة جبريلَ عليه السلام، وألقى في قراءة النبيِّ ﷺ: تلك الغرانيقُ العُلا، وإن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٠ - ١٢٩١، وينظر تفسير الطبري ١٦/ ٦١٠ - ٦١١، وليس في كلامه ما يشير إلى ما نسبه إليه ابن العربي.

(٢) في (د) و(م): فما.

(٣) وينظر أيضاً هذا القول والردود عليه في تفسير الرازي ٢٣/ ٥٣.

(٤) في (ظ): القدرة.

(٥) قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢ ردًّا على هذا القول: وهذا السهو في القراءة إنما يصح فيما ليس طريقه تغييرَ المعاني، وتبديلَ الألفاظ، وزيادةَ ما ليس في القرآن، بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة، ولكنه لا يقرُّ على هذا السهو، بل ينبَّه عليه، ويذكَّر به للحين.

شَفَاعتهنَّ لتُرْتَجى. وهذا التأويلُ وإن كان أَشْبهَ ممَّا قَبْلَه[١]، فالتأويلُ الأوّلُ عليه المعوَّل، فلا يُعدَل عنه إلى غيره لاختيارِ العلماء المحقِّقين إياه.

وضَعْفُ الحديثِ مُغْنٍ عن كلِّ تأويل، والحمد لله. وممَّا يدلُّ على ضَعْفِه أيضاً وتَوْهينِه من الكتاب قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] الآيتين؛ فإنهما تَردَّان الخبر الذي روَوْه؛ لأنَّ الله تعالى ذَكَر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتريَ، وأنه لولا أنْ ثبَّته لكان[٢] يركَنُ إليهم. فمضمونُ هذا ومفهومُه أنَّ الله تعالى عَصَمَه من أن يفتريَ، وثبَّته حتى لم يركنْ إليهم قليلاً، فكيف كثيراً. وهم يروُون في أخبارهم الواهيةِ أنه زاد على الركون والافتراءِ بمدحِ آلهتهم، وأنه قال عليه الصلاة والسلام: افتريتُ على الله وقلتُ ما لم يَقُل. وهذا ضدُّ مفهومِ الآية، وهي تُضعِّفُ الحديثَ لو صحّ، فكيف ولا صحةَ له. وهذا مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ [النساء: ١١٣] قال القُشَيْريُّ: ولقد طالبتْه قريشٌ وثَقِيفٌ إذ مرَّ بآلهتهم أن يُقبِلَ بوجهه إليها، ووعدوه بالإيمان به إن فعل ذلك، فما فَعَلَ، ولا كان لِيَفْعَلَ! قال ابن الأنباريِّ: ما قارَبَ الرسول ولا رَكَن[٣]. وقال الزجاج[٤]: أي: كادوا، ودخلت «إنْ» واللام للتأكيد.

وقد قيل: إنَّ معنى «تمنَّى»: حدَّث، لا «تلا»؛ روي عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال: إلَّا إذا حدَّث ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قال: في حديثه ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال: فيُبْطِلُ الله ما يلقي

---

(١) وقد ردَّ هذا القول الإمامُ الرازي في تفسيره ٢٣/ ٥٣ بعد أن ذكر خبر ابن عباس بقوله: هذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث!!

(٢) في الشفا ٢/ ٢٩٦ (والكلام منه): لكاد.

(٣) الشفا ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٣ .

الشيطان. قال النحاس[١]: وهذا من أَحْسَنِ ما قيل في الآية وأعلاه وأجلِّه. وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل: بمصرَ صحيفةٌ في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً، ما كان كثيراً.

والمعنى عليه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا حدّثَ نفسَه ألقَى الشيطان في حديثه على جهة الحيْطة، فيقول: لو سألتَ الله عزَّ وجلَّ أن يغنِّمك ليتَّسعَ المسلمون. ويَعْلَمُ الله عزَّ وجلَّ أنَّ الصلاح في غير ذلك، فيُبْطِلُ ما يلقي الشيطانُ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. وحَكَى الكسائيُّ والفرَّاء جميعاً: «تمنَّى»: إذا حدَّث نفسه، وهذا هو المعروفُ في اللغة. وحَكَيَا أيضاً: «تمنَّى»: إذا تلا[٢]. وروي عن ابن عباس أيضاً، وقاله مجاهدٌ والضحَّاك وغيرهما[٣].

وقال أبو الحسن بنُ مَهْدي[٤]: ليس هذا التمنِّي من القرآن والوحيِ في شيء، وإنما كان النبيُّ ﷺ إذا صَفِرَتْ يداه من المال، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال، تمنَّى الدنيا بقلبه ووسوسةِ الشيطان.

وذكر المهدويُّ عن ابن عباس أنَّ المعنى: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه؛ وهو اختيارُ الطبريِّ[٥].

قلت: قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ الآية، يردُّ حديثَ النَّفْس، وقد قال ابن عطيةَ: لا خلافَ أنَّ إلقاء الشيطان إنَّما هو لألفاظٍ مسموعة، بها وقعت الفتنة[٦]، فالله أعلم.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ ، وما قبله منه، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٤ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩ .

(٣) أخرجه عن مجاهد والضحاك الطبري ١٦/ ٦١٠ ، وذكره عن ابن عباس الواحدي ٣/ ٢٧٦ .

(٤) هو علي بن محمد بن مهدي، وقد سلفت ترجمته ٩/ ٣٢٦ .

(٥) في تفسيره ١٦/ ٦١٠ ، وسلف قريباً خبر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩ ، وسلف ص٤٢٦ من هذا الجزء .

قال النحاس[١]: ولو صحَّ الحديثُ واتَّصل إسنادُه؛ لكان المعنى فيه صحيحاً، ويكون معنى سها: أَسْقَطَ[٢]. ويكون تقديره: أفرأيتم اللَّاتَ والعُزَّى، وتمَّ الكلام. ثم أَسْقَط: والغرانيقَ العلا؛ يعني الملائكةَ. فإنَّ شفاعتهم، يعود الضمير على الملائكة. وأمَّا مَن رَوَى: فإنَّهن الغرانيقُ العلا، ففي روايته أجوبةٌ؛ منها: أنْ يكون القولُ محذوفاً كما تَستعمل العرب في أشياءَ كثيرة. ويجوز أن يكون بغير حذفٍ، ويكون توبيخاً؛ لأنَّ قبله: «أفرأيتم»، ويكون هذا احتجاجاً عليهم، فإنْ كان في الصلاة فقد كان الكلام مباحاً في الصلاة.

وقد رُويَ في هذه القصةِ أنه كان ممَّا يُقرأ: أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى، ومناةَ الثالثةَ الأُخرى، والغَرانِقَةَ العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرْتَجَى. رُوي معناه عن مجاهد[٣]. وقال الحسن: أراد بالغرانيق العُلا الملائكةَ[٤]، وبهذا فسَّر الكلبيُّ الغرانقةَ أنَّها الملائكة. وذلك أنَّ الكفار كانوا يعتقدون [أنَّ] الأوثان والملائكةَ بناتُ الله، كما حَكى الله تعالى عنهم، وردَّ عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]. فأنكر الله كلَّ هذا من قولهم. ورجاءُ الشفاعة من الملائكة صحيحٌ، فلمَّا تأوَّله المشركون على أنَّ المراد بهذا الذِّكر آلهتُهم، ولبَّس عليهم الشيطان بذلك؛ نَسَخَ الله ما أَلقَى الشيطان، وأَحْكَم الله آياتِه، ورَفَع تلاوة تلك اللفظتين اللَّتين وَجد الشيطان بهما سبيلاً للتلبيس، كما نُسخ كثيرٌ من القرآن؛ ورُفعت تلاوته[٥].

قال القُشَيريُّ: وهذا غيرُ سديد؛ لقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: يُبْطله، وشفاعةُ الملائكةِ غيرُ باطلة.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٣.

(٢) يشير إلى خبر الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن، والذي فيه: سها، وقد سلف ص٤٢٥ من هذا الجزء.

(٣) ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢، وذكره الرازي ٢٣/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) ذكره عن الحسن الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٥.

(٥) الشفا ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عليم» بما أوحى إلى نبيِّه ﷺ. «حكيم» في خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ أي: ضلالةً ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ أي: شرك ونفاق، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تَلِينُ لأمر الله تعالى. قال الثعلبيُّ: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الأنبياء يجوز عليهم السَّهوُ والنسيانُ والغلطُ بوسواسِ الشيطان، أو عند شَغْل القلب حتى يغلَط، ثم يُنبَّه ويرجع إلى الصحيح، وهو معنى قوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾. ولكن إنَّما يكون الغلطُ على حَسَبِ ما يغلَط أحدُنا، فأمَّا ما يضافُ إليه من قولهم: تلك الغرانيق العلا، فكذِبٌ على النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ فيه تعظيمَ الأصنام، ولا يجوز ذلك على الأنبياء، كما لا يجوز أن يَقْرأ بعضَ القرآن ثم يُنشد شعراً، ويقول: غلِطتُ وظننتُه[١] قرآناً.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: الكافرين لفي خلافٍ وعصيانٍ ومُشاقَّةٍ لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ. وقد تقدَّم في «البقرة»[٢] والحمد لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: من المؤمنين. وقيل: أهل الكتاب. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: إنَّ الذي أُحكم من آيات القرآن هو ﴿الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشعَ وتَسكُنَ. وقيل: تخلُص. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ أبو حَيْوَةَ: «وإنَّ اللهَ لَهادٍ الذين آمنوا» بالتنوين[٣]. ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) في (ظ): أو ظننته.

(٢) ٢/٤١٩.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٦.

أي: يثبِّتهم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يعني في شكٍّ من القرآن؛ قاله ابن جُريج. وغيرُه: من الدِّين، وهو الصراط المستقيم[١].

وقيل: ممَّا ألقى الشيطان على لسانِ محمدٍ ﷺ، ويقولون: ما بالُه ذَكَرَ الأصنامَ بخيرٍ ثم ارتدَّ عنها؟

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ: «في مُرْيةٍ» بضمِّ الميم، والكسرُ أعرفُ؛ ذكره النحاس[٢].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال الضحَّاك: عذابُ يومٍ لا ليلةَ له، وهو يومُ القيامة[٣]. النحاس[٤]: سمِّي يومُ القيامة عقيماً لأنه ليس يُعْقِبُ بعدَه يوماً مثلَه؛ وهو معنى قولِ الضحَّاك.

والعقيمُ في اللغة عبارةٌ عمَّن لا يكون له ولد، ولمَّا كان الولد يكون بين الأبوين، وكانت الأيامُ تتوالى قبلُ وبعدُ؛ جُعل الإتْباع فيها بالبَعْدية كهيئة الولادة، ولمَّا لم يكن بعد ذلك اليومِ يومٌ؛ وُصف بالعقيم.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادةُ: المراد عذابُ يومِ بدر[٥]، ومعنى «عقيم»: لا مِثْلَ له في عِظَمِه؛ لأنَّ الملائكة قاتلتْ فيه. ابن جُريج: لأنهم لم يُنظَروا فيه إلى

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٥ ، وقول ابن جريج أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ .

(٥) الوسيط ٣/ ٢٧٧ ، وأخرجه عن مجاهد وقتادة الطبري ١٦/ ٦١٦ - ٦١٧ .

الليل، بل قُتلوا قبل المساء، فصار يوماً لا ليلةَ له[1]. وكذلك يكون معنى قولِ الضحَّاك أنه يومُ القيامة؛ لأنه لا ليلةَ له. وقيل: لأنه لم يكن فيه رأفةٌ ولا رحمةٌ، وكان عقيماً من كلِّ خير، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] أي: التي لا خيرَ فيها، ولا تأتي بمطرٍ ولا رحمة.

قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)﴾

قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة هو لله وحدَه لا مُنازِعَ له فيه ولا مُدافِع. والمُلْكُ هو اتساعُ المقدور لمن له تدبير الأمور. ثم بيَّن حُكْمه فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

قلت: وقد يَحتمِلُ أن تكون الإشارة بـ «يومئذ» ليوم بَدْر، وقد حكَم فيه بإهلاك الكافر وسعادةِ المؤمن، وقد قال عليه الصلاة والسلام لعمرَ: «وما يدريكَ لعلَّ الله اطَّلعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم»[2].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)﴾

أفردَ ذِكْرَ المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموتى.

وسببُ نزولِ هذه الآيةِ أنه لمَّا مات بالمدينة عثمان بنُ مَظْعُون وأبو سلمة بنُ عبد الأسد قال بعض الناس: مَن قُتل في سبيل الله أفضلُ ممن مات حَتْفَ أنفِه، فنزلت

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٦١٦، وذكره البغوي ٣/ ٢٩٥.

(٢) أخرجه أحمد (٦٠٠)، والبخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وسلف ١٠/ ٧٨.

هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم، وأنَّ الله يرزق جميعَهم رزقاً حسناً. وظاهِرُ الشريعةِ يدلُّ على أنَّ المقتول أفضلُ. وقد قال بعضُ أهل العلم: إنَّ المقتول في سبيل الله والميتَ في سبيل الله شهيد؛ ولكنْ للمقتول مَزِيَّةُ ما أصابه في ذات الله[1].

وقال بعضهم: هما سواءٌ، واحتجَّ بالآية، وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وبحديث أمِّ حَرام؛ فإنها صُرعت عن دابَّتها، فماتت ولم تُقتل، وقال لها النبيُّ ﷺ: «أنتِ من الأوَّلين»[2]، وبقول النبيِّ ﷺ في حديث عبد الله بن عَتيك: «مَن خَرَج من بيته مجاهداً[3] في سبيل الله، فخرَّ عن دابَّته فمات، أو لدغته حيةٌ فمات، أو مات حَتْفَ أَنْفِه، فقد وقع أجرُه على الله، ومَن مات قَعْصاً فقد استَوْجَبَ المآب»[4].

وذكر ابن المبارك عن فَضالةَ بن عبيد في حديثٍ ذَكَر فيه رجلين؛ أحدُهما أصيبَ في غَزاةٍ بِمَنْجَنيقٍ فمات، والآخَرُ مات هناك، فجلس فَضالةُ عند الميت، فقيل له: تركتَ الشهيد ولم تجلس عنده؟! فقال: ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثتُ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ الآيةَ كلَّها[5].

وقال سليمان بن عامر: كان فَضالةُ برُودِس أميراً على الأرباع، فخُرِج بجنازتي رجلين، أحدُهما قتيلٌ والآخر متوفًّى؛ فرأى مَيْلَ الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٠ .

(٢) التمهيد ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، والحديث أخرجه أحمد (٢٧٠٣٢)، والبخاري (٢٧٨٨ ، ٢٧٨٩)، ومسلم (١٩١٢) مطولاً من حديث أم حرام رضي الله عنها.

(٣) في (د) و(م): مهاجراً.

(٤) التمهيد ١/ ٢٣٦ ، وأخرجه أحمد (١٦٤١٤) مطولاً . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٦ - ٢٧٧ : فيه محمد بن إسحاق مدلس، وبقية رجاله ثقات. قلنا: وفيه محمد بن عبد الله بن عتيك، وهو مجهول الحال. ينظر الميزان ٣/ ٥٩٥ . قوله: قَعْصاً، القَعْص: أن يُضرب الإنسان فيموت مكانه، وأراد بوجوب المآب: حُسْنَ المَرْجِع بعد الموت. النهاية (قعص).

(٥) الجهاد لابن المبارك (٦٦)، والكلام من التمهيد ١/ ٢٣٦ .

فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل! فوالذي نفسي بيده، ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثت، اقرؤوا قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾[١]. كذا ذكره الثعلبيُّ في تفسيره، وهو معنًى ما ذكره ابن المبارك.

واحتجَّ مَن قال: إنَّ للمقتول زيادةَ فضلٍ بما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَن أُهْرِيق دمُه وعُقر جوادُه». وإذا كان مَن أهريق دمُه وعُقر جوادُه أفضلَ الشهداءِ؛ عُلم أنه مَن لم يكن بتلك الصفة مَفْضُول[٢].

وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿قُتِّلوا﴾ بالتشديد على التكثير. الباقون بالتخفيف[٣].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي: الجِنان. قراءةُ أهل المدينة: ﴿مَدخلًا﴾ بفتح الميم، أي: دخولاً. وضمَّها الباقون[٤]، وقد مضى في «سبحان»[٥]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: عليمٌ بنيَّاتهم، حليمٌ عن عقابهم[٦].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ «ذلك» في موضعِ رَفْعٍ، أي: ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنا عليك. قال مقاتل: نزلت في قوم من مشركي مكةَ؛ لَقُوا قوماً من المسلمين

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٩ . ورُودِس؛ بضم أوله وكسر الدال: جزيرة مقابل الإسكندرية، وقد غزاها معاوية هي وقبرس. معجم البلدان ٣/ ٧٨ .

(٢) التمهيد ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧ ، والحديث أخرجه أحمد (١٥٤٠١)، وأبو داود (١٤٤٩)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٥٨ من حديث عبد الله بن حُبْشي الخثعمي. وأخرجه أحمد (١٤٢١١) من حديث جابر ﷺ.

(٣) السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص٩١ .

(٤) قرأ نافع: «مَدْخلاً» بفتح الميم، والباقون بضمِّها. السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص٩٥ .

(٥) ١٣/ ١٥٢ - ١٥٣ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٨ دون نسبة.

لِلَيْلتين بقيتا من المحرَّم فقالوا: إنَّ أصحاب محمدٍ يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم؛ فناشدهم المسلمون ألَّا يقاتلوهم في الشهر الحرام؛ فأبى المشركون إلَّا القتال، فحملوا عليهم، فثبت المسلمون ونَصَرهم الله على المشركين، وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيءٌ؛ فنزلت هذه الآية(١).

وقيل: نزلت في قومٍ من المشركين، مثَّلوا بقومٍ من المسلمين قتلوهم يومَ أُحُدٍ، فعاقبهم رسول الله ﷺ بمِثْلِه(٢).

فمعنى «مَن عاقب بمثل ما عوقب به» أي: مَن جازَى الظالمَ بمثل ما ظَلَمه، فسمَّى جزاءَ العقوبة عقوبةً لاستواء الفعلين في الصورة، فهو مثلُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، ومثل: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقد تقدَّم(٣).

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالكلام والإزعاج من وطنه؛ وذلك أنَّ المشركين كذَّبوا نبيَّهم وآذَوْا مَن آمَن به، وأخرجوه وأخرجوهم من مكة، وظاهَروا على إخراجهم.

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: لينصرَنَّ الله محمداً ﷺ وأصحابه، فإنَّ الكفار بَغَوْا عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ أي: عفا عن المؤمنين ذنوبَهم وقتالَهم في الشهر الحرام وسَتَر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ذلك الذي

---

(١) ذكره أبو الليث ٢/ ٤٠٢، وابن الجوزي ٥/ ٤٤٦، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٩.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٧.

(٣) ٣/ ٢٥٠ - ٢٥١.

قصصتُ عليك من نَصْرِ المظلوم هو بأنِّي أنا الذي أُولج الليل في النهار، فلا يقدرُ أحدٌ على ما أَقْدِرُ عليه، أي: مَن قَدَرَ على هذا قَدَرَ على أن ينصر عبدَه. وقد مضى في «آل عمران» معنى يولج الليلَ في النهار[1]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يسمع الأقوال ويُبصر الأفعال، فلا يَعْزُب عنه مثقالُ ذرَّةٍ ولا دِبيبُ نملةٍ إلَّا يعلمها ويسمعها ويُبصرها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذو الحق؛ فَدِينُه الحقُّ، وعبادته حقٌّ[2]. والمؤمنون يستحِقُّون منه النصر بحكم وعدِه الحقِّ. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: الأصنام التي لا استحقاقَ لها في العبادات.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر: «وأنَّ ما تدعون» بالتاء على الخطاب[3]، واختاره أبو حاتم. الباقون بالياء على الخبر هنا وفي لقمان[4]، واختاره أبو عبيد.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ أي: العالي على كلِّ شيءٍ بقدرته، والعالي عن الأشباه والأنداد[5]، المُتقدِّس[6] عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الموصوف بالعظمة والجلال وكِبرِ الشأن. وقيل: الكبير: ذو الكبرياء. والكبرياء: عبارةٌ عن كمال الذات، أي: له الوجودُ المُطلَقُ أبداً وأزلاً، فهو الأول القديم[7]، والآخِر الباقي بعد فناء خلقه.

---

(١) ٥/ ٨٦.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٧٨.

(٣) السبعة ص٤٤٠، والتيسير ص١٥٨.

(٤) عند الآية (٣٠).

(٥) سبق التأكيد على أن الله عز وجل يثبت له أنواع العلوِّ الثلاثة: علو المكان، وعلو القدر والمنزلة، وعلو القهر.

(٦) في (م): المقدس.

(٧) لفظ (القديم) من الألفاظ التي أحدثها المتكلمون في أسماء الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ دليلٌ على كمال قدرته، أي: مَنْ قَدَر على هذا قَدَر على إعادة الحياة بعد الموت، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]. ومثلُه كثير.

«فتُصبحُ» ليس بجوابٍ فيكون منصوباً، وإنما هو خبرٌ عند الخليل وسيبويه؛ قال الخليل: المعنى: انْتَبِه! أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا، كما قال:

ألم تسألِ الرَّبْعَ القَوَاء فيَنْطِقُ وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ[١]

معناه: قد سألتَه فنطق. وقيل: استفهام تحقيق، أي: قد رأيتَ، فتأمل كيف تصبح. أو عطف، لأن المعنى: ألم تر أن الله يُنزل[٢]. وقال الفراء[٣]: «ألم تر» خبر، كما تقول في الكلام: اِعلم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينزل من السماء ماءً. «فتصبحُ الأرضُ مَخْضَرَةً» أي: ذاتَ خُضرة؛ كما تقول: مَبْقَلة ومَسْبَعة؛ أي: ذاتَ بقلٍ وسباع[٤]. وهو عبارةٌ عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات، واستمرارِها كذلك عادةً. قال ابن عطية[٥]: ورُوي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بمكة وتِهامة. ومعنى هذا: أنه أخذ قوله: «فتُصبحُ» مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار يتأخَّر في سائر البلاد، وقد شاهدتُ هذا في السوس الأقصى؛ نزل المطر ليلاً بعد قحطٍ أصبحت تلك الأرضُ الرملةُ التي نسفتها الرياح قد اخضرَّت بنباتٍ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ . والبيت لجميل بُثينة، وهو في ديوانه ص١٤٤ . الرَّبع: المنزل والدار. والقَواء، بالمد والقصر: القفر، ومنزل قَواء: لا أنيسَ به. والسملَّق: القاع المستوي الأجرد الذي لا شجر فيه. اللسان (ربع) و(قوا) و(سملق).

(٢) من قوله: وقيل استفهام تحقيق... إلى هذا الموضع، من (م).

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٠ ، وهذه القراءة شاذة، وينظر الدر المصون ٨/ ٣٠٢ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ١٣١ ، وما قبله منه.

ضعيفٍ رقيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس: «خبيرٌ» بما ينطوي عليه العبدُ من القنوط عند تأخير المطر. «لطيفٌ» بأرزاق عباده. وقيل: لطيفٌ باستخراج النبات من الأرض[١]، «خبيرٌ» بحاجتهم وفاقتهم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وكلٌّ محتاجٌ إلى تدبيره وإتقانه. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فلا يحتاج إلى شيء، وهو المحمود في كلِّ حال[٢].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكر نعمةً أخرى، فأخبر أنه سخَّر لعباده ما يحتاجون إليه من الدوابِّ والشجر والأنهار.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ أي: وسخَّر لكم الفلك في حال جَرْيِها[٣]. وقرأ عبد الرحمن الأعرج: «والفُلكُ» رفعاً على الابتداء وما بعده خبره. الباقون: بالنصب نسقاً على قوله: «ما في الأرض»[٤]. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كراهية أن تقع.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧٨ بنحوه.

(٢) في (ظ): زمان.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٣. ونسب ابن خالويه القراءة في القراءات الشاذة ص٩٦، للأعرج والسلمي، وهو أبو عبد الرحمن، ووقع في (م): أبو عبد الرحمن الأعرج، وصواب العبارة عندئذ: أبو عبد الرحمن، والأعرج.

وقال الكوفيون: لئلَّا تقع[١]. وإمساكه لها خلق السكون فيها حالاً بعد حال. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: إلا بإذن الله لها بالوقوع، فتقع بإذنه، أي: بإرادته وتخليته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: في هذه الأشياء التي سخَّرها لهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي: بعد أن كنتم نُطَفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحساب والثواب والعقاب. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحودٌ لما ظهر من الآيات الدالَّة على قدرته ووحدانيته[٣]. قال ابن عباس: يريد الأسودَ بن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعةً من المشركين. وقيل: إنما قال ذلك؛ لأنَّ الغالبَ على الإنسان كفر النعم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٤] [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: شرعاً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون به[٥]. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: لا يُنازعَنَّكَ أحدٌ منهم فيما يُشرَعُ لأمتك؛ فقد كانتِ الشرائعُ في كلِّ عصر.

وروت فرقةٌ أنَّ هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٣ .

(٢) الوسيط ٣/ ٢٧٩ ، وزاد المسير ٥/ ٤٤٨ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٧٩ .

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٣ بمعناه.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٧٩ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٢٦ عن ابن عباس ﷺ.

للمؤمنين: تأكلون ما ذبحتم، ولا تأكلون ما ذبحَ اللهُ من الميتة، فكان ما قتلَ اللهُ أحقَّ أن تأكلوه مما قتلتُم أنتم بسكاكينكم، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة[١]. وقد مضى هذا في «الأنعام»[٢] والحمد لله. وقد تقدم في هذه السورة ما للعلماء في قوله تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾[٣]. وقوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي: أنَّ المَنْسكَ المصدرُ، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه[٤]. وقال الزجَّاج: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: فلا يُجادِلُنَّك. ودلَّ على هذا: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾. ويُقال: قد نازعوه، فكيف قال: «فلا يُنازِعُنَّك؟!» فالجواب أنَّ المعنى: فلا تُنازِعْهم أنتَ. نزلت الآية قبل الأمر بالقتال، تقول: لا يُضارِبَنَّك فلانٌ فلا تُضارِبْه أنتَ؛ فيجري هذا في باب المفاعلة. ولا يُقال: لا يَضْرِبَنَّكَ زيدٌ، وأنت تُريد: لا تضرِبْ زيداً. وقرأ أبو مِجْلَز «فلا يَنْزِعنَّكَ في الأمر» أي: لا يَسْتَخِفَّنَّكَ ولا يغلِبَنَّكَ عن دينك[٥]. وقراءة الجماعة من المنازعة. ولفظ النهي في القراءتين للكفار، والمراد النبيّ ﷺ.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى توحيده ودينه والإيمان به[٦]. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي: دين[٧]. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: قويمٍ لا اعوِجاجَ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ أي: خاصموك يا محمد؛ يريد مشركي مكة. ﴿فَقُلِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢.

(٢) ٩/ ٨.

(٣) عند تفسير الآية (٣٤).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٧ بمعناه. وقراءة أبي مجلز في الشاذة ص٩٦.

(٦) زاد المسير ٥/ ٤٤٩.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٧٩.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يريد مِن تكذيبهم محمداً ﷺ؛ عن ابن عباس. وقال مُقاتل: هذه الآية نزلت على النبيِّ ﷺ ليلةَ الإسراء وهو في السماء السابعة لمَّا رأى من آيات ربِّه الكبرى، فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ بالباطل فادفعهم بقولك: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، فأمره الله تعالى بالإعراض عن مُماراتهم؛ صيانةً له عن الاشتغال بتعنُّتهم، ولا جواب لصاحب العِناد. ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يريد: بين النبيِّ ﷺ وقومِه. ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يريد: في خلافكم آياتي، فتعرفون حينئذٍ الحقَّ من الباطل[1].

مسألة: في هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علَّمه الله عبادَه في الردِّ على مَنْ جادل تعنُّتاً ومِراءً ألَّا يُجابَ ولا يُناظَر ويُدفَعَ بهذا القول الذي علَّمه الله لنبيِّه ﷺ. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخةٌ بالسيف[2]؛ يعني السكوت عن مخالِفه، والاكتفاء بقوله: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وإذ قد علمتَ يا محمدُ هذا وأيقنتَ؛ فاعلم أنه يعلم أيضاً ما أنتم مختلفون فيه، فهو يحكم بينكم. وقد قيل: إنه استفهام تقرير للغير[3].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ أي: كلُّ ما يجري في العالَم فهو مكتوبٌ عند الله في أمِّ الكتاب[4].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إنَّ الفصل بين المختلفين على الله يسير. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٩، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩٧، وتفسير الرازي ٢٣/ ٦٥.

(٢) زاد المسير ٥/ ٤٥٠.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧٩، ووقع في (ظ): استفهام تقريري.

(٤) بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٩.

المعنى: إنَّ كتابَ القلم الذي أمره أن يكتب ما هو كائِنٌ إلى يوم القيامة على الله يسير[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ يريد كفارَ قريش. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّةً وبرهاناً[(٢)]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[(٣)]. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الغضب والعُبُوس. ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي: يبطشون[(٤)]. والسَّطوةُ: شِدَّةُ البطش[(٥)]؛ يقال: سطا به يسطو: إذا بطش به، كان ذلك بضربٍ أو بشتمٍ، وسطا عليه[(٦)]. ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾. وقال ابن عباس: يسطون: يبسطون إليهم أيديهم[(٧)]. محمد بن كعب: أي: يقعون بهم. الضحَّاك: أي:

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٦٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٣.

(٣) ٥/ ٣٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٨، وتفسير «يسطون» بـ «يبطشون» أخرجه الطبري ١٦/ ٦٣٣ عن ابن عباس ومجاهد.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٢٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣١ دون لفظة: «وسطا عليه» وهي في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٨٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٨٠ من غير نسبة.

يأخذونهم أخذاً باليد[١]، والمعنى واحد. وأصل السَّطْو: القهر. والله ذو سَطَوات؛ أي: أخَذاتٍ شديدة. ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ﴾ أي: أكره من هذا القرآن الذي تسمعونه هو النار[٢]. فكأنهم قالوا: ما الذي هو شرٌّ؟ فقيل: هو النار[٣]. وقيل: أي هل أنبئكم بشرّ مما يلحق تالي القرآن منكم؟ هو النار[٤]. فيكون هذا وعيداً لهم على سَطَواتهم بالذين يتلون القرآن.

ويجوز في «النار» الرفع والنصب والخفض؛ فالرفع: على هو النار، أو: هي النار. والنصب بمعنى أعني، أو على إضمارِ فعلٍ مثلِ الثاني، أو يكون محمولاً على المعنى، أي: أُعرِّفكم بشرٍّ من ذلكم النارَ. والخفض على البدل[٥].

﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ﴾ في القيامة. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: الموضع الذي يصيرون إليه، وهو النار.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾. وإنما قال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ لأن حُجَجَ الله تعالى عليهم بضرب الأمثال لهم أقربُ إلى أفهامهم[٦]. فإن قيل: فأين المثَلُ المضروب؟ ففيه وجهان:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢١ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٨ .

(٤) من قوله: وقيل: أي هل أنبئكم... إلى هذا الموضع، من (م).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٩ .

الأوّل: قال الأخفش: ليس ثَمَّ مَثَلٌ، وإنما المعنى: ضربوا لي مثلاً فاستمعوا قولهم، يعني أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره، فكأنَّه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستَمَعوا خبر هذا الشبه[١].

الثاني: قول القُتَبيِّ: وأن المعنى: يا أيها الناس، مَثَلُ مَنْ عبدَ آلهةً لم تستطِعْ أن تخلُقَ ذباباً وإن سلبها الذبابُ شيئاً لم تستطِعْ أن تستنقِذَه منه[٢].

وقال النحاس: المعنى: ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ مما يُعبَدُ من دونه مثلاً. قال: وهذا مِنْ أحسن ما قيل فيه[٣]، أي: بيَّنَ اللهُ لكم شبَهاً ولمعبودكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة: «تدعون» بالتاء. وقرأ السُّلَمِيُّ وأبو العالِية ويعقوب: «يدعون» بالياء على الخبر[٤]. والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله، وكانت حول الكعبة، وهي ثلاث مئة وستون صنماً. وقيل: السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عزَّ وجلَّ. وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى[٥]. والأوّل أصْوَبُ.

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا﴾ الذباب: اسمُ واحدٍ للذكر والأنثى، والجمع القليل: أذِبَّة، والكثير ذِبَّان؛ على مثل: غُراب وأغْرِبة وغِرْبان؛ وسُمِّيَ به لكثرة حركته. الجوهري: والذُّباب معروفٌ، الواحدة ذُبابة، ولا تقل: ذِبَّانة. والمِذَبَّة ما يُذَبُّ به الذُّباب. وذُباب أسنان الإبل: حَدُّها. وذُباب السيف: طَرَفُه الذي يضرب به. وذُبابُ العين: إنسانها. والذُّبَابة: البقية من الدَّين. وذَبَّبَ النهارُ: إذا لم يبق منه إلا بقية. والتَّذبذُبُ: التحرُّكُ.

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٦٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ .

(٤) قراءة يعقوب من العشرة، وهي في النشر ٢/ ٣٢٧ .

(٥) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٤٠ دون قوله: وكانت حول الكعبة، وهي ثلاث مئة وستون صنماً. وهو في الوسيط ٣/ ٢٨٠ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٢٩ .

والذَّبْذَبةُ: نَوْسُ الشيء المُعلَّقِ في الهواء. والذَّبْذَبُ: الذَّكر؛ لتردُّده. وفي الحديث: «مَن وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبِه»[١]. وهذا مما لم يذكُرْه، أعني قوله: وفي الحديث[٢].

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ: التخليص. قال ابن عباس: كانوا يَطْلُون أصنامَهم بالزَّعفران فتجِفُّ، فيأتي فيختلِسُه. وقال السُّدِّي: كانوا يجعلون للأصنام طعاماً، فيقعُ عليه الذبابُ فيأكله[٣].

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب: الآلهةُ، والمطلوب: الذبابُ. وقيل بالعكس[٤]. وقيل: الطالب: عابدُ الصنم، والمطلوبُ: الصنم؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرُّب إليه، والصنم المطلوب إليه[٥]. وقد قيل: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ راجعٌ إلى ألمه في قَرْصِ أبدانهم حتى يسلبهم الصبرَ لها والوقارَ معها.

وخَصَّ الذبابَ لأربعة أمورٍ تخُصُّه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته[٦]، فإذا كان هذا الذي هو أضعفُ الحيوان وأحقرُه لا يقدِرُ مَنْ عبدوه من دون الله عزَّ وجلَّ على خَلْقِ مثلِه ودَفْعِ أذيَّته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهةً معبودين، وأرباباً مطاعين؟! وهذا من أقوى حجةٍ وأوضحِ برهان.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظَّموه حقَّ عظمته؛ حيث

---

(١) الصحاح (ذبب) وقوله: «من وُقيَ شرَّ ذبذبه» ليس بحديث، وقد أخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ١٧٠ من كلام أبي الأشهب العطاردي.

(٢) بل هو في الصحاح، ولعله ليس في نسخة المصنف.

(٣) ذكرهما الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٨٠ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٢٩٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٥٢ .

(٤) الوسيط ٣/ ٢٨٠ ونسب الأول إلى ابن عباس والكلبي، والثاني إلى الكلبي.

(٥) زاد المسير ٥/ ٤٥٢ ، ونسبه إلى الضحاك والسُّدِّيّ.

(٦) زاد المسير ٥/ ٤٥٢ ، وفيه ذكر أمور، لم يذكر: وضعفه.

جعلوا هذه الأصنام شركاء له(١). وقد مضى في «الأنعام»(٢). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تقدَّم(٣).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ختم السورة بأنَّ الله اصطفى محمداً ﷺ لتبليغ الرسالة، أي: ليس بَعْثُه محمداً أمراً بِدْعِيًّا.

وقيل: إن الوليد بن المغيرة قال: أوَ أُنزِلَ عليه الذِّكْرُ من بيننا؟ فنزلت الآية. وأخبر أنَّ الاختيار إليه سبحانه وتعالى(٤). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته(٥). ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد ما قدَّموا. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يريد ما خلَّفوا(٦)، مثل قوله في يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ [الآية: ١٢] يريد ما بين أيديهم، ﴿وآثارَهم﴾: يريد ما خلَّفوا. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا﴾ تقدَّم في أوَّلِ السورة أنها فُضِّلتْ بسجدتين، وهذه السجدة الثانية لم يرَها مالكٌ وأبو حنيفة من العزائم؛ لأنه

---

(١) الوسيط ٣/ ٢٨٠، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٥، وزاد المسير ٥/ ٤٥٣.

(٢) ٨/ ٤٥٤.

(٣) عند تفسير الآية (٤٠) من هذه السورة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٥.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٨١.

قرَنَ الركوعَ بالسجود، وأنَّ المراد بها الصلاةُ المفروضة، وخصَّ الركوع والسجود تشريفاً للصلاة[١]. وقد مضى القول في الركوع والسجود مبيَّناً في «البقرة»[٢] والحمد لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي: امتَثِلوا أمْرَه. ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ نَدْبٌ فيما عدا الواجبات التي صحَّ وجوبُها من غير هذا الموضع[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قيل: عنى به جهادَ الكفار. وقيل: هو إشارةٌ إلى امتثالِ جميعِ ما أمرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كلِّ ما نهى عنه، أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة الله، ورَدِّها[٤] عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في ردِّ وسوسَتِه، والظَّلَمةَ في رَدِّ ظُلمِهم، والكافرينَ في رَدِّ كفرهم.

قال ابنُ عطية: وقال مقاتل: وهذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وكذا قال هبة الله: إنَّ قولَه: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وقولَه في الآية الأخرى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢] منسوخٌ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر[٥].

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٢٥، والاستذكار ٢/ ٥٠٦.

(٢) ٢/ ٢٥ - ٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٤.

(٤) في (د): وردُّوها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥ بمعناه دون ذكر قول مقاتل، وقد ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٠.

ولا حاجةَ إلى تقدير النسخ؛ فإنَّ هذا هو المراد من أوّل الحكم؛ لأنَّ «حقَّ جهاده» ما ارتفع عنه الحرج. وقد روى سعيد بن المسيِّب قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ دينِكُم أيْسَرُه»[(١)]. وقال أبو جعفر النحاس[(٢)]: وهذا ممَّا لا يجوز أن يقع فيه نسخٌ؛ لأنَّه واجبٌ على الإنسان، كما روى حَيْوَةُ بنُ شُريحٍ يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «المجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نفسَه للهِ عزَّ وجلَّ»[(٣)]. وكما روى أبو غالب، عن أبي أُمامةَ، أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ: أيُّ الجهاد أفضل؟ ـ عند الجمرة الأولى ـ فلم يُجِبْه، ثم سأله عند الجمرة الثانية فلم يُجِبْه، ثم سأله عند جمرة العقبة، فقال النبيُّ ﷺ: «أينَ السائِلُ؟» فقال: أنا ذا. فقال عليه الصلاة والسلام: «كلمةُ عَدْلٍ عند سلطانٍ جائر»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم للذَّبِّ عن دينِه والتزامِ أمره؛ وهذا تأكيدٌ للأمر بالمجاهدة، أي: وجَبَ عليكم أن تجاهدوا؛ لأنَّ اللهَ اختاركم له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضِيق[(٥)]. وقد تقدَّم في «الأنعام»[(٦)].

وهذه الآية تدخل في كثيرٍ من الأحكام؛ وهي ممَّا خَصَّ اللهُ بها هذه الأمة؛ روى معمر عن قَتادة قال: أُعطِيَتْ هذه الأمةُ ثلاثاً لم يُعْطَها إلا نبيٌّ: كان يُقال للنبيِّ: اذهَبْ فلا حرَجَ عليك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، والنبيُّ شهيدٌ على أمته، وقيل لهذه الأمة: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ويُقال

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٢ . والحديث أخرجه أحمد (١٥٩٣٦) من حديث أعرابيٍّ سمع النبي ﷺ، و(١٨٩٧٦) من حديث محجن بن الأدرع ﷺ.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩٥١) من طريق حيوة بن شريح، عن أبي هانئ الخولاني، عن عمرو بن مالك الجنبي، عن فضالة بن عبيد ﷺ، مرفوعاً.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٢).

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٦٤١ -٦٤٢ ، والحاكم ٢/ ٣٩١ عن عائشة مرفوعاً. وأخرجه الطبري ١٦/ ٦٤١ - ٦٤٤ عن ابن عباس وأبي العالية والحسن والقاسم بن محمد وقتادة والضحاك.

(٦) ٩/ ٢٣ - ٢٥ .

للنبيِّ: سَلْ تُعْطَه، وقيل لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(١)] [غافر: ٦٠].

الثانية: واختلفَ العلماء في هذا الحَرَج الذي رفَعه الله تعالى، فقال عكرمة: هو ما أُحِلَّ من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع، وما ملكَتْ يَمينك[(٢)].

وقيل: المراد قَصرُ الصلاة، والإفطارُ للمسافِر، وصلاةُ الإيماء لمن لا يقدِرُ على غيره، وحَطُّ الجهادِ عن الأعمى والأعرجِ والمريضِ والعَدِيم الذي لا يجِدُ ما يُنفِقُ في غَزْوه، والغَرِيمُ، ومن له والدان، وحَطَّ الإصْرَ الذي كان على بني إسرائيل. وقد مضى تفصيلُ أكثر هذه الأشياء[(٣)].

ورُويَ عن ابن عباس والحسن البصري أنَّ هذا في تقديم الأهِلَّة وتأخيرها في الفطر والأضحى والصوم[(٤)]؛ فإذا أخطأتِ الجماعةُ هلالَ ذي الحِجَّة، فوقفوا قبل عرفة بيومٍ، أو وقفوا يوم النحر، أجزأهم، على خلافٍ فيه بيَّنَّاه في كتاب «المُقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ﷺ». وما ذكرناه هو الصحيح في الباب. وكذلك الفطر والأضحى؛ لِما رواه حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فِطْرُكم يوم تُفْطِرونَ، وأضحاكُم يومَ تُضَحُّون». خرَّجه أبو داود والدَّارَقُطْنيّ[(٥)]، ولفظه ما ذكرناه. والمعنى: باجتهادكم من غير حرجٍ يلحقكم.

وقد روى الأئمةُ أنَّه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ يومَ النَّحرِ عن أشياء، فما سُئِلَ عن أمرٍ مما ينسى المرءُ أو يجهلُ من تقديم الأمور بعضِها قبلَ بعضٍ وأشباهِها إلَّا قال

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤١ - ٤٢، والطبري ١٦/ ٦٤٧ -٦٤٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٣.

(٣) ٤/ ٥٠٠ و ٩/ ٣٥٦.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٣ عن ابن عباس وحده.

(٥) سنن أبي داود (٢٣٢٤)، وسنن الدارقطني (٢٤٤٥).

فيها: «افعَلْ ولا حَرَج»[١].

الثالثة: قال العلماء: رَفْعُ الحَرَج إنَّما هو لمن استقامَ على منهاج الشرع، وأما السَّلَّابةُ والسُّرَّاقُ وأصحابُ الحدودِ فعليهمُ الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدِّين، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجلٍ لاثنين في سبيل الله تعالى، ومع صِحَّة اليقينِ وجُودَةِ العزمِ ليس بحرج[٢].

قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ قال الزَّجَّاج[٣]: المعنى: اتَّبِعوا مِلَّةَ أبيكم. الفرَّاء[٤]: انتصب على تقديرِ حذفِ الكاف، كأنه قال: كمِلَّةِ. وقيل: المعنى: وافعلوا الخيرَ فِعْلَ أبيكم[٥]، فأقام الفِعْلَ مقامَ المِلَّة. وإبراهيم هو أبو العرب قاطبةً. وقيل: الخطاب لجميع المسلمين، وإنْ لم يكُنِ الكلُّ من ولده؛ لأنَّ حُرْمَةَ إبراهيمَ على المسلمين كَحُرمةِ الوالدِ على الولد[٦].

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قال ابن زيد والحسن: «هو» راجعٌ إلى إبراهيم، والمعنى: هو سمَّاكم المسلمين من قبل النبيِّ ﷺ[٧]. ﴿وَفِى هَٰذَا﴾: أي: وفي حُكمِه أنَّ منِ اتَّبعَ محمداً ﷺ فهو مسلم[٨]. قال ابن زيد: وهو معنى قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٩] [البقرة:١٢٨]. قال النحَّاس[١٠]: وهذا القولُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤)، ومسلم (١٣٠٦)، وأحمد (٦٤٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٤٤٠ ، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣١ ، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٦ .

(٦) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٥١ ، وزاد المسير ٥/ ٤٥٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٠ عن ابن زيد، ومجمع البيان ١٧/ ١٣٢ عن الحسن.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٤٠ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٣٢ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ - ١٠٧ .

مخالفٌ لقول عُلماءِ[١] الأمة؛ روى عليُّ بنَ أبي طلحة عن ابن عباس قال: سمَّاكم اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ من قبلُ، أي: في الكتب المتقدِّمة وفي هذا القرآن. وقاله مجاهد وغيره.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: بتبليغه إياكم. ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ أنَّ رسلَهم قد بلَّغَتْهم[٢]، كما تقدَّم في «البقرة»[٣]. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تقدَّم مستوفًى[٤] والحمد لله.

تم الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الخامس عشر ويبدأ بسورة «المؤمنون»

---

(١) في (م): عظماء.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠١.

(٣) ٢/ ٤٣٥.

(٤) ١/ ٢٥٣ و ٢/ ٢٢ و ٥/ ٢٣٦.

فهرس الجزء الرابع عشر